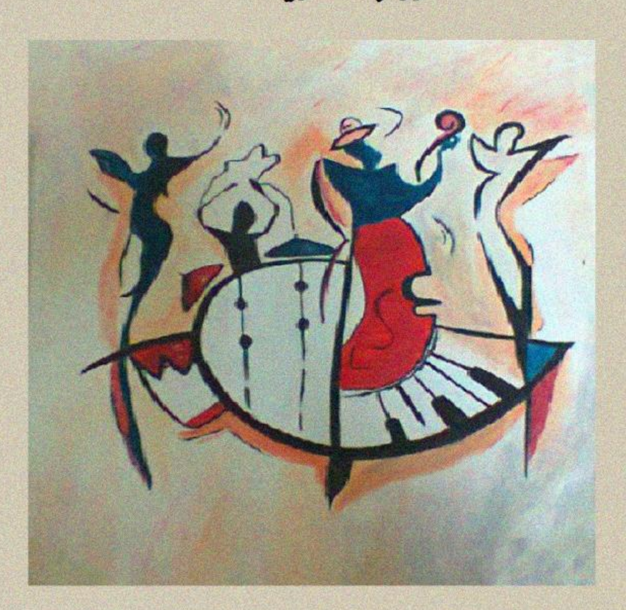
جان بول سارتر

سن الرشد

دروب الحرية - 1 -



ترجمة : د . سهيل ادريس

غلاف : علي مولا

جان بول سارتر

سن الرشد

دروب الحرية - ١ -

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثانية : كانون الثاني ١٩٦٢

١

في وسط شارع « فرسينجيتوري » ، أمسك رجـل طويل بذراع ماتيو ؛ وكان ثمة شرطي يذرع الرصيف الآخر .

ـ اعطني شيئاً يا معلم ؛ انني جائع .

وكانت عيناه متقاربتين وشفتاه غليظتين . وكانت تنبعث منه رائحة الخمر ، فسأله ماتيو :

ـ اليس الأمر انك ـ بالاحرى ـ عطشان ؟

فقال الرجل بجهد :

ـ أقسم لك ، يا صاحبي ، اقسم لك .

وكان ماتيو قد عثر في جيبه على قطعة من ذات الفرنكات الخمسة ، فقال له :

ـ الأمر عندي سواء ؛ فانما سألتك لأتحدّث فقط .

وأعطاه الفرنكات الخمسة . فقال الرجل وهو يستند الى الجدار :

ـ إن ما فعلته الآن حسن ؛ وبالمقابل ، سأتمنى لك شيئاً عظيماً .. ماذا تراني سأتمنى لك ؟

وأخذا يفكران معاً ؛ وقال ماتيو :

ـ ما تشاء .

فقال الرجل :

ـ حسناً ؛ اني اتمنى لك السعادة . هذا ما اتمنّاه لك .

وضحك ضحكة انتصـــار . ورأى ماتيو ان الشرطيّ كان يقترب منهما فخاف على الرجل وقال :

ـ طيّب . مع السلامة .

وأراد ان يبتعد ، ولكن الرجل امسك به وهو يقول بصوت مائع :

ـ ليس هذا كافياً ، ليس كافياً .

ـ إذن ما الذي يلزمك ؟

ـ اودّ ان اعطيك شيئاً ما ...

وقال الشرطيّ :

ـ سوف أقبض عليك بتهمة الاستعطاء .

وكان شاباً ذا خدّين احمرين ، وكان يحاول ان يتظاهر بالقسوة . وقد أضاف من غير تأكيد :

ـ مضى عليك نصف ساعة وأنت تزعج المارّة .

فسارع ماتيو يقول بحيوية :

ـ إنه لا يستعطي . وإنما نحن نتحدث .

فهزّ الشرطي كتفيه وتابع طريقه . وكان الرجل يترنح بطريقـــة مقلقة . بل لقد يبدو عليه انه قد رأى الشرطيّ .

ـ وجدت ما سوف اعطيك إياه . سأعطيك طابعاً من مدريد .

وأخرج من جيبه مستطيلاً من الورق المقوّى الاخضر وبسطه لماتيو . وقرأ ماتيو :

« س . ن . ت . دياريو كونفيديرال . انجامبـــلار ٢ . فرنسا . اللجنة النقابية الفوضوية ، ٤١ شارع بلفيل ، باريس ١٩ . » وكان ثمة طابع قد الصق تحت العنوان . وكان الطابع اخضر هو ايضاً ، وكان يحمل ختم مدريد . ومدّ ماتيو يده :

– شكراً جزيلاً .

فقال الرجل غاضباً :

– ولكن حذار ! انها ... انها مدريد !

فنظر اليه ماتيو : كان الانفعال بادياً على الرجل ، وكان يبذل جهوداً عنيفة ليعبّر عن فكرته ، ولكنه عدل واكتفى بالقول :

– مدريد .

– نعم .

– أقسم لك اني كنت اريد ان اسافر اليها . ولكن ذلك لم يتيسر لي .

وغدا مغموماً كئيباً ، وقال « إنتظر » ثم أمرّ اصبعه على مهل فوق الطابع وأضاف :

– حسناً . تستطيع ان تأخذه .

– شكراً .

وخطا ماتيو بضع خطوات ، ولكن الرجل ناداه :

– ايه !

فقال ماتيو :

– ايه ؟

فاذا الرجل يشير اليه عن بعد بقطعة الفرنكات الخمسة :

– هناك شخص أعطاني خمسة فرنكات اخرى. فأنا ادعوك الى قدح من « الروم » .

– ليس هذا المساء .

وابتعد ماتيو بأسف غامض . لقد قضى عهداً من حياته كان فيه يتسكع في الشوارع والحانات مع الجميع ، وكان اول قادم يستطيع ان يدعوه . اما الآن ، فقد انتهى ذلك : ان تلك الأساليب لم تكن تجدي شيئاً ، وان كانت مدعاة تسلية ومرح. لقد رغب في الذهاب الى اسبانيا للقتال . وحث ماتيو خطاه ، وفكّر في ضيق : « مهما يكن من أمر ،

فلم يكن لأحدنا ما يقوله للآخر » . وأخرج من جيبه البطاقة الخضراء. « ان مصدرها مدريد ، ولكنها ليست مرسلةً اليه . لا بدّ ان احداً قد اعطاه إياها . وقد لمسها مرات قبل ان يعطيني إياها ، لأن مصدرها مدريد .» وكان يتذكّر وجه الرجل والهيئة التي بدا عليها اذ نظر الى الطابع نظرة مشغوفة . ونظر ماتيو الى الطابع بدوره من غير ان يكفّ عن السير ، ثم أعاد قطعة الورق المقوّى الى جيبه . وصفر قطار ، وفكّر ماتيو : « انني عجوز » .

وكانت الساعة العاشرة وخمساً وعشرين ؛ لقد وصل ماتيو قبل الأوان . ومرّ من غير ان يتوقف ، بل هو لم يلفت رأسه الى البيت الصغير الازرق . ولكنه كان يرمقه بجانب عينه : كانت جميع النوافذ سوداء ، الا نافذة السيدة « دوفيه » . انه لم يُتح لـ « مارسيل » بعد ان تفتح باب الدخول : لقد كانت منحنية على امها ، وكانت تحيطها بحركات رجولية وهي في سريرها الكبير ذي المظلة . وظلّ ماتيو مغتماً ، وكان يفكر : « خمسمئة فرنك للذهاب الى ٢٩ ، يعني ثلاثين فرنكاً في اليوم ، او أقلّ من ذلك . فماذا تراني افعل ؟ » واستدار ثم عاد على عقبيه .

وكان الضوء قد انطفأ في غرفة السيدة دوفيه . وبعد لحظة، اضيئت نافذة مارسيل ، وعبر ماتيو المرتفع ، وحاذى حانوت السمّان وهو يتجنّب ان يطقطق نعليه الجديدين . وكان الباب مشقوقاً ، فدفعه على مهل فصرّ : « سآتي يوم الاربعاء بقنينتي وأضع قليلاً من الزيت في الرزّات . » ودخل وأغلق الباب ، ثم خلع نعليه في الظلام. وطقطق الدرج قليلاً وهو يصعده ، وحذاؤه في يده ؛ وكان يلامس بابهامه كل درجة قبل ان يضع عليها قدمه . وفكر : « أية مهزلة ! »

وفتحت مارسيل الباب قبل ان يبلغ سطح الدرج . وانبعث من غرفتها غبار ورديّ فيه رائحة السوسن وانتشر على الدرج . وكانت قد

ارتدت قميصها الاخضر . فاستشف منه ماتيو ثنية خاصرتها الرقيقة الريانة. ودخل ، وكان يخيل اليه دائماً انــه يدخل محارة . وأقفلت مارسيل الباب بالمفتاح : واتجه ماتيو الى الخزانة الكبيرة المحفورة في الجدار ، ففتحها ووضع فيها حذاءه ، ثم نظر الى مارسيل فرأى انها تشكو شيئاً ما ، فسألها بصوت منخفض :

— ما الذي تشكين ؟

فقالت مارسيل بصوت منخفض :

— لا شيء . وانت ، يا عزيزي ؟

— اني بلا درهم واحد . اما ما عدا ذلك ، فلا بأس .

وقبلها في عنقها وفي فمها . وكانت تنبعث من العنق رائحة عنبر ، ومن الفم تبغ مبتذل . وجلست مارسيل على حافة السرير ، وأخذت تنظر الى ساقيها ، بينما كان ماتيو ينزع ثيابه .

وسألها ماتيو : — ماذا هناك !

وكان على المدخنة صورة لم يكن يعرفها . واقترب فرأى فتاة هزيلة ترتدي ثوب الصبيان وتضحك ضحـكة قاسية حيية . وكانت ترتدي سترة رجل وحذاء ذا كعب مسطح . وقالت مارسيل من غير ان ترفع رأسها :

— هذه انا .

والتفت ماتيو : فاذا مارسيل مشمرة قميصها عن فخذيها الممتلئتين ؛ وكانت تنحني الى أمـــام فيستشعر ماتيو تحت القميص هشاشة صدرها الثقيل .

— اين عثرت عليها ؟

— في مجموعة . ان تاريخها هو صيف ٢٨ .

وطوى ماتيو سترته بعناية ودفعها الى الخزانة الى جانب الحذاء . ثم سأل :

ـ أصبحت الآن تتفرجين على مجموعات العائلة ؟

ـ لا ، ولكن لا ادري ، لقد اخذتني الرغبة اليوم في ان استعيد أشياء من حياتي ، كيف كنت قبل ان اعرفك ، حين كنت ممتلئة بالعافية . أعطني إياها .

فأتاها ماتيو بالصورة ، فانتزعتها من بين يديه. وجلس الى قربها، فارتعشت وابتعدت قليلاً . وكانت تنظر الى الصورة ببسمة غامضة ، وقالت :

ـ لقد كنت ظريفة .

كانت الفتاة واقفة متصلّبة ، مستندة الى حاجز حديقة . وكانت تفتح فمها ، فكأنها هي ايضاً تقول « ان هذا ظريف » ، تقوله بالطلاقة المرتبكة نفسها ، والجرأة القلقة ذاتها . بيد انها كانت شابة وهزيلة .

وهزّت مارسيل رأسها :

ـ ظريف ! ظريف ! لقد رافقها الى حديقة اللكسمبورغ طالب في الصيدلة . أترى القميص الذي كنت ألبسه؟ لقد اشتريته في اليوم نفسه، اذا كان المفروض ان نقوم يوم الاحد التالي بنزهة كبيرة في «فونتانبلو». يا إلهي !...

كان ثمة شيء في نفسها بلا ريب : فانه لم يسبق لحركاتها ان كانت على مثل هذه الفجاجة ، ولا لصوتها ان كان خشناً ، رجولياً ، كما هو الآن . كانت جالسة على السرير اسوأ مما لو كانت عارية ، بلا دفاع ، كأنها إناء ضخم من الفخار المنقوش ، في جوف الغرفة الوردية ؛ وكان يشقّ على المرء ان يسمعها تتكلم بصوتها الرجولي ، بينما تنبعث منها رائحة قوية غامضة ، وأخذها ماتيو من كتفيها وجذبها اليه :

ـ انك آسفة على ذلك الزمن ؟

فقالت مارسيل بجفاف :

ـ ذلك الزمن ، كلا : بل انا آسفة على الحياة التي كان يمكن ان احياها .

وكانت قد بدأت دراسة الكيمياء فقطعها المرض . وفكر ماتيو : « لكأنها حاقدة عليّ » . وفتح فمه ليسألها . ولكنه رأى عينيها فصمت، وكانت تنظر الى الصورة نظرة حزينة متوترة .

ـ لقد سمنت ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

فهزّت كتفيها ورمت بالصورة على السرير . وفكر ماتيو : « إن لها حقاً حياة كثيبة » وأراد ان يقبّلها في خدّها ، ولكنها تخلصت بلا عنف ، وبضحكة صغيرة عصبية . وقالت :

ـ كان ذلك منذ عشر سنوات .

وفكر ماتيو : « انني لا امنحها شيئاً » . كان يأتي لرؤيتها اربع ليالٍ في الاسبوع ؛ وكان يروي لها بالتفصيل كل ما قام به ، وكانت تمنحه النصائح بصوت جادّ لا يخلو من تسلّط ؛ وكانت غالباً تقول: « انني اعيش بالوكالة » وسألها :

ـ ماذا فعلت امس ؟ هل خرجت ؟

فصدرت عن مارسيل حركة ضجرة مستديرة :

ـ لا ، فقد كنت متعبة . لقد قرأت قليلاً ، ولكن امي كانت تضايقني طوال الوقت من اجل الحانوت .

ـ واليوم ؟

فقالت بلهجة شرسة :

ـ لقد خرجت اليوم . شعرت بحاجة الى تنشق الهواء ، والى محاذاة الناس . وقد هبطت حتى شارع « دولاغيتيه » وكان هذا يسلّيني . ثم اني كنت اريد ان ارى « اندريه » .

ـ وهل رأيتها ؟

ــ اجل ، خمس دقائق . وحين خرجت من بيتها ، بدأت السماء تمطر . إنه لشهر حزيران عجيب ، ثم ان الناس كانوا ذوي سحن لئيمة . فاستقللت سيارة وعدت .

وسألت برخاوة :

ــ وانت ؟

ولم تكن لماتيو رغبة في السرد فقال :

ــ كنت امس في الليسيه لاعطاء آخر دروسي . وقد تعشيت في مطعم « جاك » ، وكان ذلك مميتاً كالعادة . وفي هذا الصباح ، قصدت المحاسب لأرى ان كانوا يستطيعون ان يسلفوني شيئاً ؛ ويبدو ان هذا امر لا يُفعل . ومع ذلك فقد كنت اتدبّر امري في « بوفيه » مع المحاسب . ثم رأيت « ايفيش » .

ورفعت مارسيل حاجبيها ونظرت اليه : ولم يكن يحب ان يحدثها عن ايفيش . وأضاف :

ــ انها الآن مكشّرة ، يائسة .

ــ وما السبب ؟

وكان صوت مارسيل قد اشتد ، واتخذ وجهها تعبيراً رجولياً رصيناً ؛ كانت تشبه شرقياً سميناً . وقال ماتيو بطرف شفتيه :

ــ ستسقط في الامتحان .

ــ لقد سبق ان قلت لي إنها كانت تدرس .

ــ نعم ... على طريقتها ، اي ان عليها ان تبقى ساعات بطولها تجاه كتاب ، من غير ان تقوم بحركة . ولكن تعرفين طبعها : ان لها بديهيات ، وشأنها في ذلك شأن المجنونات . كانت في دورة تشرين الاول قد درست علم النبات ، وكان الممتحن مسروراً ؛ ثم رأت نفسها فجأة تجاه رجل اصلع يتحدث عن مجوّفات البطن ، فبدا لها ذلك مضحكاً ، وفكّرت « طزّ في مجوّفات البطن ! » ، ولم يستطع الرجل ان ينتزع

منها اية كلمة .

وقالت مارسيل وهي تحلم :

– عجيبة هذه الفتاة الصغيرة الطيبة .

وقال ماتيو :

– أخشى على اي حال ان تقع هذه المرة ايضاً فيما وقعت فيه ، او ان تخترع شيئاً آخر . سترين .

هذه اللهجة ، لهجة التجرّد الحامي ، ألم تكن كذبة ؟ لقد كان يقول كل ما يمكن ان يُعبّر عنه بالكلمات . « ولكن هناك شيء آخر غير الكلمات ! » .

وتردّد لحظة ، ثم خفض رأسه ، ثابط الهمة : ان مارسيل لم تكن تجهل شيئاً من عاطفته لإيفيش ، بل لعلّها كانت تقبل ان يحبّها . وهي على العموم لم تكن تطلب إلا امرأً واحداً : ان يتحدث عن ايفيش بهذه اللهجة بالذات . ولم يكن ماتيو قد كفّ عن ملامسة ظهر مارسيل ، وكانت مارسيل قد بدأت تخفق جفونها ، كانت تحب ان يلامس ظهرها ، ولا سيما عند منبت الصلب وبين الراسليْن . ولكنها تفلّتت فجأة وتلبّس وجهها القسوة . فقال لها ماتيو :

– اسمعي يا مارسيل ، انه سيان عندي ان تنجح ايفيش او تسقط ، فليست هي مصنوعة للطب اكثر مما انا مصنوع له . وأياً ما كان ، وحتى لو اجتازت امتحان « شهادة الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة » ، فستصاب بالاغماء عند اول تشريح في العام القادم ، ولن تضع بعد ذلك قدميها في المعهد . ولكن اذا لم تنجح هذه المرة ، فلا بد ان ترتكب حماقة ما : ذلك ان اسرتها لا تود ان تسمح لها ، في حالة السقوط ، ان تعود الى الدراسة .

فسألته مارسيل بصوت رقيق :

– اي نوع من الحماقات تقصد على الضبط ؟

فقال مضطرباً :

ـ لست ادري .

ـ آه ! اني اعرفك جيداً يا عزيزي المسكين : انت لا تجرؤ على الاعتراف بأنك تخشى ان تطلق على نفسها رصاصة تخترق جلدها . وانت تزعم مع ذلك انك تكره الاحداث الروائية . ولكن قل لي : لكأنك لم ترها قط ، بشرتها ؟ انني سأصاب بالهلع اذا جرحتُ بشرتي ، ولو لم يتجاوز الأمر ان أمرّ فوقها اصبعي . وانت تتصور بعد ذلك ان الدمى التي تملك مثل تلك البشرة سوف تتلف نفسها برصاص المسدس ؟ اني أستطيع بكل سهولة ان أتمثلها مسترخية فوق كرسيّ ، وقد غطّى شعرها وجهها ، بينما هي تتأمل مسحورة في مسدس صغير لطيف موضوع أمامها ، إن هذه صورة روسية جداً . أما ان أتصوّر شيئاً آخر ، فكلا ، ثم كلا ، ثم كلا ! ان المسدس ، يا صاحبي ، انما جُعل لمثل جلودنا التمساحية .

وأسندت ذراعها الى ذراع ماتيو ، وكانت بشرته أشدّ بياضاً من بشرة مارسيل .

ـ انظر الى هذا ، يا عزيزي ، ولا سيما الى جلدي ، فكأنه جلد ماعز مدموغ .

واخذت تضحك :

ـ الا ترى اني املك كل ما يلزم لصنع مِرْغاة ؟ اني اتمثّل ثقباً صغيراً جميلاً تحت ثديي الأيسر ، ذا أطراف نظيفة محمّرة . إن ذلك لن يكون بشعاً ...

وكانت ما تزال تضحك . ووضع ماتيو يده على فمها :

ـ اسكتي . سوف توقظين العجوز .

فصمتت وقال لها :

ـ كم انت عصبية !

فلم تجب . ووضع ماتيو يده على فخذ مارسيل وجعل يلامسها برفق . كان يحب تلك البشرة الزبدية بزغبها الذي يُشعر لمسه بالعذوبة ، كألف رعشة دقيقة . ولم تتحرك مارسيل : كانت تنظر الى يد ماتيو . وانتهى الأمر بماتيو الى ان يرفع يده . وقال :

ـ انظري إليّ .

ورأى لحظةً عينيها المحاطتين بدائرة مزرقّة ، فترةً نظرةٍ متعاليةٍ يائسة .

ـ ما بكِ ؟

فقالت وهي تصرف رأسها : ليس بي شيء .

كان الأمر معها دائماً كذلك : كانت كسيحة . انهــا لن تستطيع بعد لحظة ان تتمالك نفسها : وستنفجر . ولم يكن ثمة ما يُفعل ، إلا قتل الوقت حتّى تلك اللحظة . وكان ماتيو يخشى انفجاراتها الصامتة : فقد كانت العاطفة في هذه الغرفة المحارة امراً لا يحتمــل ، اذ كان ينبغي التعبير عنها بصوت منخفض وبلا حركة خشية ايقاظ السيدة دوفيه . ونهض ماتيو ، فمشى حتّى الخزانة وتناول من جيب سترته البطاقة :

ـ خذي انظري .

ـ ما هذا ؟

ـ لقد اعطاني إياها شخص لقيته الساعة في الطريق . كان ذا هيئة محبّبة ، وقد اعطيته بعض المال .

فاخذت مارسيل البطاقة بلا اكتراث . واحسّ ماتيو انه مرتبط الى الرجل بنوع من الاشتراك في ذنب . واضاف :

ـ إن هذا ، لو تعلمين ، يمثّل لديه شيئاً ما .

ـ وهل هو فوضوي ؟

ـ لا ادري . لقد اراد ان يقدم لي قدحاً .

ـ وهل رفضت ؟

— نعم .

فسألته مارسيل بأهمال : لماذا ؟ لعل ذلك يكون مسليّاً .

فقال ماتيو : — ربما !

وعادت مارسيل ترفع رأسها ، ونظرت الى الساعة نظـــرة حسيرة مرحة . وقالت :

— إن هذا غريب . فانه يضايقني دائماً ان تروي لي مثل هـــذه الامور ، والله اعلم كم هي الآن كثيرة . ان حياتك مليئة بالفرص الفائتة .

— اتدعين هذه فرصة فائتة ؟

— اجل . فقد كنت في الماضي تفعل اي شيء لتخلق هذا النـــوع من اللقاءات .

فقال ماتيو باقتناع واقرار : — ربما اكون قد تغيرت قليلاً . فماذا تظنين ؟ أتظنين اني شخت ؟

فقالت مارسيل ببساطة : — انت في الرابعة والثلاثين .

في الرابعة والثلاثين . وفكر ماتيو بإيفيش،فاعترته انتفاضـــة استياء صغيرة .

— اجل ... اسمعي . لا احسب ان الأمر هكذا ، وانما كان ذلك بدافع من قلق ووسواس . فانت تدركين انه مـــا كان لي ان اشارك في الأمر .

فقالت مارسيل — إنه ينلر جداً الآن ، ان تشارك في الأمر .

فأضاف ماتيو بحيوية :

— وهو كذلك ، ما كان له ان يشارك فيه : فان المرء اذ يكون ثملاً يقوم بما يعطّف النفس . وهذا ما كنت اودّ ان اتحاشاه .

وفكّر : « ليس هذا صحيحاً تماماً ، فأنا لم أفكر كل هذا التفكير . » لقد أراد ان يقوم بجهد صدقٍ وصراحة . وكان قد سبق لماتيو ومارسيل

ان تعاهدا على ان يتكاشفا كل شيء . وقال :
— ذلك انه ...
ولكن مارسيل كانت قد انخرطت في الضحك ، في هديل منخفض عذب ، شأنها اذ تلامس شعره وهي تقول له « يا عزيزي المسكين . » على انها لم تكن تبدو عليها الرقة وقالت :
— اني اعرفك في هذا جيداً . فكم انت تخاف مما يعطّف النفس ! وبعد ذلك ؟ حتى ولو تبادلت قليلاً مما يعطّف النفس مع هذا الفتى المسكين ، فأي بأس في ذلك ؟
فسألها ماتيو : — وماذا كان ذلك يجديني ؟
انما كان حقاً يدافع عن نفسه ضد نفسه .
وابتسمت مارسيل بسمة لا ودّ فيها : ففكّر ماتيو ممتعضاً « انها تبحث عني » . وكان يشعر بأنه مسالم ، وانه مخبـل بعض الشيء ، وانه بالاجمال في مزاج طيّب ، ولم تكن به رغبة في النقاش فقال :
— اسمعي ، انت على خطأ بأن تجعلي من هذه الحكاية وليمة . فأنا اولاً لم تكن لي سعة من الوقت : كنت قادماً اليك .
فقالت مارسيل : انت على حق تماماً . فليس هذا بذي بال ، ليس هناك ما يستدعي ضرب قطٍ بالسوط ... على انـه مع ذلك عارض ينذر بشيء ما ...
فانتفض ماتيو : حبّذا لو انها لا تستعمل مثل هذه الكلمات المنفّرة . وقال :
— حسناً . ما الذي ترينه في ذلك مثيراً للاهتمام الى هذا الحد ؟
فقالت : — انه دائماً صفاء ذهنك المعهود . انك طريف يا عزيزي . فانت لشدة هلعك من ان تخدع نفسك ، تفضل ان ترفض اجمل مغامرة في الدنيا على ان تخاطر بالكذب على نفسك .
فقال ماتيو : — هذا صحيح ، وانت تعرفينه جداً .

وكان يجدها ظالمة . ان « صفاء الذهن » هذا (وكان يكره هذه العبارة ، ولكن مارسيل كانت قد تبنّتها منذ حين . وكانت عبارة السنة الماضية « الاستعجال » . ولم تكن الكلمات تعيش لديها اكثر من فصل واحد) صفاء الذهن هذا قد اعتادا عليه معاً ، وكانا مسؤولين عنه ؛ واحدهما تجاه الآخر ، وما كان شيئاً اقلّ من المعنى العميق لحبهما . فحين اخذ ماتيو عهوده تجاه مارسيل ، كان قد انصرف نهائياً عن افكار الوحدة ، عن الأفكار النضرة المضلّلة الحيية التي كانت تنزلق اليه في الماضي بمثل حيوية السمك الهارب . إنه لم يكن يستطيع ان يحب مارسيل إلا في الصفاء والوضوح ، لقد كانت هي صفاءه ، ورفيقه ، وشاهده ، وناصحه وحَكَمَه . وقال :

– اذا كنت اكذب على نفسي ، فسأشعر اني اكذب عليك في الوقت نفسه . وسيكون ذلك امراً لا استطيع احتماله .

قالت مارسيل : – نعم .

ولم يكن يبدو عليها انها مقتنعة تماماً .

– لا يبدو عليكِ انك مقتنعة تماماً ؟

فقالت برخاوة : – بلى .

– أتظنين اني اكذب على نفسي ؟

– لا ... الحقيقة ان الانسان لا يمكنه ابداً ان يعرف . غير اني لا أظن ذلك . ولكن ، أتدري ما الذي أظنّه ؟ أظنّ انك تعقّم نفسك قليلاً . لقد فكّرت بهذا اليوم . اوه ! ان كل شيء واضح ونظيف لديك ، انه يبعث رائحة الغسيل ، كما لو انّك مررت بآلة التجفيف . على ان ما ينقص ذلك ، انما هو الظلّ . ليس هناك بعدُ ما لا جدوى منه ، وليس هناك ما هو متردّد ولا ملتبس . إن ذلك لشديد الحرارة . ولا تقل الآن انك انما تفعل ذلك من اجلي : فأنت تعرف منحدرك ، إنك تحبّ ان تحلّل نفسك .

وكان ماتيو ممتعضاً . كانت مارسيل تبدو قاسية بما فيه الكفاية غالباً ، وكانت تظلّ دائماً على حذر ، وتتدرّع بالهجوم والاحتراس ، وإذا لم يكن ماتيو من رأيها ، كانت تظنّ غالباً انه يريد السيطرة عليها . بيد انه نادراً ما احسّ لديها هذه الإرادة العازمة بأن لا تروق له . وبعد ذلك ، كانت ثمة تلك الصورة على السرير ... ونظر الى وجه مارسيل في قلق : لم تحن بعد اللحظة التي تعزم فيها على الكلام .

وقال ببساطة : — انه لا يهمني الى هذا الحدّ ان اعرف نفسي .

فقالت مارسيل : — اعرف ، فليس ذلك غاية ، وانما هو وسيلة . إنه من اجل ان تتحرّر من نفسك ، ان تنظر الى نفسك ، ان تحكم على نفسك : ذلك هو موقفك المفضّل . انك تتصور ، اذ تنظر الى نفسك ، انك لست ما تنظر اليه ، وانك لست شيئاً . والحق ان هذا هو مثلك الأعلى : ان لا تكون شيئاً .

فردّد ماتيو على مهل — ؛ ان لا اكون شيئاً ؟ كلا . ليس الأمر كذلك . اسمعي : اني ... اني اريد ألاّ اكون متوقفاً إلا على نفسي .

— نعم . ان تكون حراً . حراً حرية كاملة . هذا هو عيبك .

قال ماتيو : — ليس هذا عيباً .. انه ... ماذا تريدين ان يفعل المرء غير ذلك ؟

وكان في ضيق : لقد شرح هذا كله مئة مرة لمارسيل ، وكانت تعلم ان هذا هو اشدّ ما كان يشقّ عليه .

— اذا ... اذا لم احاول ان استردّ وجودي لحسابي ، فسيبدو لي عبثاً جداً ان اوجد .

وكانت مارسيل قد اتخذت هيئة ضاحكة ، مصرّة :

— نعم ، نعم ... ذلك هو عيبك .

وفكر ماتيو : « انها تثير اعصابي حين تصطنع الكياسة والدهاء . » ولكنه ندم على تفكيره وقال بلطف :

– ليس هو عيباً : وإنما هكذا أنا .

– لماذا لا يكون الآخرون كذلك ، اذا لم يكن هذا عيباً ؟

– انهم لكذلك ، ولكنهم لا يعون هذا .

وكانت مارسيل قد كفّت عن الضحك ، وكانت قد ارتسمت عند زاوية شفتيها ثنية قاسية حزينة . وقالت :

– اما انا فليست حاجتي لأن اكون حرّة شديدة لهذا الحدّ .

ونظر ماتيو الى رقبتها المنحنية ، وأحسّ انه غير مرتاح : كان أبداً ذلك الندم ، ذلك الندم اللامعقول ، الذي كان يستولي عليه كلما كان في صحبتها . وفكّر بأنه لم يكن يضع نفسه قطّ في موضع مارسيل : « ان الحرية التي احدّثها عنها هي حرية انسان مكتمل الصحة . » ووضع يده على عنقها ، وشدّ برقّة بين اصابعه ذلك اللحم الدُهني الذي ادركه بعض الوهن .

– مارسيل ! هل انت منزعجة ؟

فأدارت عينين كدرتين بعض الشيء :

– كلا .

وصمتا . وكان ماتيو يشعر باللذة على اطراف اصابعه . على اطراف اصابعه فقط . وزلق يده على مهل في ظهر مارسيل ، فأسبلت مارسيل جفنيها . ورأى اهدابها الطويلة السوداء . وجذبها اليه : لم تكن له رغبة بها تماماً في تلك اللحظة ، وانما كانت رغبته ان يرى هذا الفكر الحرون المقرّن يذوب كما يذوب عرق من الثلج تحت حرارة الشمس . وتركت مارسيل رأسها يسقط على عنق ماتيو ، فرأى عن كثب بشرتها السمراء ودوائرها المزرقّة والمصبّبة . وفكر : « يا إلهي ! كم هي تشيخ ! » وفكّر ايضاً بأنه كان شيخاً . وانحنى عليها بشعورٍ من الضيق : كان يودّ لو ينسى نفسه وينساها . ولكن مضى عليه وقت طويل وهو لا ينسى نفسه إذ يضاجعها . وقبّلها في فمها ؛ وكان لها فمٌ جميل صارم .

وانقلبت على مهل الى خلف ، واستلقت على السرير ، مغمضة العينين ، متثاقلة ، شاحبة ، ونهض ماتيو ، فنزع بنطلونه وقميصه ووضعهما مطويين عند أسفل السرير ، ثم تمدد تجاهها . ولكنه رأى ان عينيها كانتا مفتوحتين على سعتهما ، حادتين ، تنظران الى السقف ، وكانت يداها مشتبكتين تحت رأسها .

وقال ماتيو : — مارسيل !

فلم تجب . كانت مقطّبة السحنة ؛ ثم اذا هي فجأة تنهض . وعاد هو يجلس على طرف السرير ، وقد ازعجه ان يشعر بعريه . وقال جازماً :

— ستقولين لي الآن ماذا هناك .

فقالت بصوت رخو :

— لا شيء .

فقال بحنان : — بلى ، هناك شيء ينكّدك . ألم نتعاهد يا مارسيل على ان نتصارح بكل شيء ؟

— لا حيلة لك في الامر ، وهو سيزعجك .

فأخذ يداعب شعرها على مهل :

— قولي ، مع ذلك .

— حسناً : لقد وقع الامر .

— ماذا ؟ ما الذي وقع ؟

— لقد وقع الامر .

فتغضّن وجه ماتيو :

— هل انت متأكدة ؟

— كل التأكد . انت تعرف اني لا أجنّ قطّ : فقد تأخر الامر شهرين .

فقال ماتيو — تفه !

وكان يفكّر : « كان عليها ان تقول لي ذلك منذ ثلاثة اسابيع على

الاقل . » وكانت به رغبة لان يفعل شيئاً ما بيديه : كأن يحشو غليونه مثلاً ؛ ولكن غليونه كان في الخزانة مع سترته . وتناول سيكارة من على طاولة الليل ، وما لبث ان اعادها الى مكانها .

قالت مارسيل : — تلك هي القصة ! انت تعلم الآن ما هناك . فماذا نفعل ؟

— سوف ... سوف نجهضه ، اليس كذلك ؟

قالت مارسيل : — حسناً . إن عندي عنواناً .

— من اعطاك إياه ؟

— اندريه . ولقد قصدته هي ذات مرة .

— أتكون تلك المرأة التي وسّختها في العام الماضي ؟ ولكن اسمعي : لقد قضت ستة أشهر قبل ان تشفى . انني لا اريد .

— وإذن ؟ هل تريد ان تكون اباً ؟

وتخلّصت منه ، وعادت تجلس على بعد يسير عنه . وكانت تبدو قاسية المظهر ، ولكنه ليس مظهر رجل . وكانت قد وضعت يديها مبسوطتين على فخذيها ، فكانت ذراعاها تشبهان عروتين من الطين الطبيخ. ولاحظ ماتيو ان وجهها كان قد أصبح رمادياً . وكان الهواء وردياً مسكّراً ، فكانا يستنشقان الورد ، ويأكلان منه : ثم كان هناك هذا الوجه الرمادي ، وتلك النظرة الثابتة ، فكأنما كانت تمتنع عن السعال .

قال ماتيو : — انتظري . انت تقولين لي هذا ، هكذا ، فجأة : سوف نفكّر .

وبدأت يدا مارسيل ترتجفان ، وقالت بحماسة مفاجئة :

— لا حاجة بي الى ان نفكّر ؛ فليس عليك انت ان تفكر .

وكانت قد ادارت رأسها نحوه ، وكانت تنظر اليه . نظرت الى عنق ماتيو ، والى كتفيه والى خاصرتيه ، ثم استمرّ نظرها في هبوطه. وكانت تبدو عليها الدهشة . واحمرّ ماتيو احمراراً عنيفاً وضم ساقيه . ورددت

مارسيل :

ـــ لا حيلة لك في الامر .

ثم أضافت بسخرية شاقّة : « انها الآن قضية نسائية . »

وانقبض فمها لدى نطقت بالكلمات الاخيرة : فمٌ مبرنق ذو انعكاسات بنفسجية ، حشرة قرمزية منهمكة في افتراس هذا الوجه المرمدّ . وفكّر ماتيو « انها مهانة . وهي تكرهني . » وكانت به رغبة لأن يقيء . وكان يبدو ان الغرفة قد أخليت فجأة من دخانها الوردي ؛ وكان بين الاشياء فراغات كثيرة . وفكّر ماتيو : « لقد فعلتُ لها « ذلك ! » وفجأة بدا له المصباح والمرآة بانعكاساتها الرصاصية ، والساعة ، والمقعد الموسّد ، والخزانة الفاغرة الفم ، هذه كلها بدت له آليات مريعة : أديرتْ فدحرجتْ في الفضاء حيواتها الدقيقة بعناد صلب، كظاهر صحفة موسيقية يُصرّ على ان يعزف لازمته المكرّرة . واهتزّ ماتيو، دون ان يتمكن من انتزاع نفسه من هذا العالم الكئيب المزّ . ولم تكن مارسيل قد تحركت ، وكانت ما تزال تنظر الى بطن ماتيو ، والى تلك الزهرة المجرمة التي كانت تستريح بتنعّم فوق فخذيه بهيئة من البراءة ماجنة . وكان يعلم انها كانت راغبة في ان تصرخ وتبكي ، ولكنها لن تفعل ذلك ، خشية ان توقظ السيدة دوفيه . وقبض فجـأة على مارسيل من قامتها وجذبها اليه ، فانهارت على كتفه،ونشقت ثلاث مرات او اربعاً ، بلا دموع . وكان هذا كل ما تستطيع ان تسمح به لنفسها : عاصفة بيضاء .

وحين رفعت رأسها ثانية ، كان روعها قد هدأ . وقالت بصوت ايجابي :

ـــ اعذرني يا عزيزي ، فقد كنت بحاجة الى تفريـج ، اذ اني متماسكة منذ الصباح . وانا بالطبع لا ألومك في شيء .

فقال ماتيو : ـــ ستكونين على حق في ذلك . اني لست فخوراً ،

فهذه المرة الاولى ... واية قذارة يا الّهي ! لقد قمت بحماقة تدفعين انت ثمنها . على اي حال ، لا بأس ، لا بأس . اسمعي ، من تكون هذه المرأة الطيبة ؟ وأين تسكن ؟

— شارع موريير رقم ٢٤ . يبدو انها امرأة طيبة الى حد غريب .

— ارى ذلك . تقولين ان اندريه هي التي ارشدتك اليها ؟

— نعم ، انها لا تأخذ إلاّ اربعمئة فرنك .

وأضافت مارسيل بصوت متعقّل :

— ترى انه سعرٌ مضحك كما يبدو .

— نعم ، ارى ذلك .

قالها ماتيو بمرارة ، ثم أضاف :

— انها على العموم فرصة مناسبة .

وكان يشعر بالارتباك ، كأنه عريس . رجل طويل مرتبك ، عار تماماً ، قد ارتكب سوءاً وكان يبتسم بلطف ليحمل الناس على نسيانه . ولكنها لم تكن تستطيع ان تنساه : كانت ترى فخذيه البيضاوين ، القصيرتين بعض الشيء ، وعريه الراضي الجازم . كان كابوساً غريباً . «لو كنتُ إيّاها لأخذتني الرغبة في ان أصفع هذا اللحم والشحم كلّه .» وقال :

— وهذا هو ما يقلقني حقاً : انها لا تأخذ مبلغاً كافياً .

فقالت مارسيل : — الحمد لله انها تطلب هذا المبلغ القليل : فانا املكها ، هذه الفرنكات الاربعمئة ، وكانت لخيّاطتي ، ولكنها ستنتظر.

وأضافت بقوة : — انا على يقين ، لو تعلم ، بأنها ستُعنى بي كما يعنون بالنساء في احدى العيادات السريّة التي يسلبونك فيها اربعة آلاف فرنك كما لو كانوا يأخذون منك درهماً واحداً . ثم اننا ليس لنا الخيار.

فردّد ماتيو : — ليس لنا الخيار . متى ستذهبين ؟

— غداً ، حوالى منتصف الليل . يبدو انها لا تستقبل إلاّ ليلاً . هذا طريف ، أليس كذلك ؟ اظنّ انها مجنونة بعض الشيء . ولكن ذلك

يناسبني ، بسبب امي . انها تدير في النهار حانوت خرضوات ؛ وهي لا تكاد تنام قط . انك تدخل ساحة ، فترى ضوءاً تحت باب . هناك بيتها .

فقال ماتيو : — حسناً . انني ذاهب اليها .

فنظرت اليه مارسيل مذعورة :

— أتكون مجنوناً ؟ انها ستطردك ، اذ ستعتبرك من رجال الشرطة.

فردّد ماتيو : — انني ذاهب اليها .

— ولكن لماذا ؟ ما عساك ستقول لها ؟

— اريد ان استخبر ، وان ارى ما يكون شأنها . فاذا لم يرقني ذلك ، فلن تذهبي . فانا لا اودّ ان تدّعي لمجنونة عجوز ان تمزّق لحمك . سأقول اني قادمٌ من قِبَل اندريه ، وان لي صديقـة واقعة في مأزق ولكنها الآن مريضة ، او اقول شيئاً من هذا القبيل .

— وبعد ذلك ، اين اذهب اذا لم يرق لك ذلك ؟

— اعتقد ان لدينا يومين نتقلّب فيهما ، أليس كذلك ؟ سوف اقصد « ساره » غداً ، ولا بدّ انها تعرف احداً . فانت تذكرين انها وزوجها لم يكونا راغبين ، اول الامر ، في الاولاد .

فبدا على مارسيل انها قد استراحت بعض الشيء . ولامست رقبته تقول :

— انك لطيف ، يا عزيزي ؛ انني لا اعلم ما الذي تنوي ان تصنعه ، ولكني واثقة من انك تود ان تفعل شيئاً ؛ تودّ او انهم يجرون لك العملية بدلاً مني ...

وأحاطت بذراعيها الجميلتين عنقه ، وأضافت بلهجة استسلام هزلية :

— اذا سألت « ساره » في الامر ، فسترشدك حتماً الى يهودي .

وقبّلها ماتيو ، فتراخت كلياً . وقالت :

— يا حبيبي ، يا حبيبي .

— إخلعي قميصك .

فاستجابت ، وقلبها فوق السرير ، وداعب نهديهـا ، وكان يحب برعميها الجلديّين العريضين ، تحيط بهما تورّمات محمومة. وكانت مارسيل تتنهد ، مغمضة العينين ، جامدة ، نهمة . ولكن جفنيها كانا يتشنّجان. وتلبّث الاضطراب هنيهة ، وقد حطّ على ماتيو كأنه يدٌ دافئة . ثم فكّر ماتيو فجأة : « انها حامل » فعاد الى الجلوس . وكان رأسه ما يزال يطنّ بموسيقى حامزة .

– اسمعي يا مارسيل . إن الامر غير مناسب اليوم . اننا ، كلينا ، ثائر الاعصاب اكثر مما ينبغي . سامحيني .

فندّت عن مارسيل همهمة صغيرة ناعسة ، ثم نهضت فجأة ، واخذت تخلّل اصابعها في شعرها ، وقالت ببرودة :

– كما تريد .

ثم اضافت بلهجة اكثر ودّاً :

– انت على حق ، آخر الامر . فكلانا ثائر الاعصاب. كنت اشتهي مداعباتك ولكن كان بي خوف .

فقال ماتيو : – مع الاسف . لقد وقع الشرّ ، فليس لنا ان نخشى شيئاً بعد .

– ادري ذلك ، ولكن هذا لم يكن امراً عاقلاً . انني لا ادري ما اقول لك : فانت تخيفني بعض الشيء يا عزيزي .

ونهض ماتيو :

– حسناً ، انا ذاهب لأرى تلك العجوز .

– نعم . وستتصل بي غداً بالتلفون لتخبرني حقيقة الأمر .

– ألا استطيع ان أراك غداً مساء ؟ سيكون ذلك أسهل .

– لا . لا مساء الغد . بعد غد اذا شئت .

وكان ماتيو قد ارتدى قميصه وبنطلونه . وقبّل مارسيل في عينيها :

– انك لست عاتبةً عليّ ؟

– ليست هي غلطتك . لقد حدث ذلك مرة طوال سبع سنوات ، فليس لك ما تلوم نفسك عليه . واتمنّى الاّ تنفر مني بدورك ؟

– انك مجنونة .

– اني اشمئز من نفسي قليلاً لو كنت تعلم ، وأشعر كما لو اني ركام من الطعام ...

فقال ماتيو بحنان :

– يا صغيرتي ، يا صغيرتي المسكينة . اني اعدك بان ينتهي كل شيء قبل ثمانية ايام .

وفتح الباب بلا ضجة ، فتسلّل الى الخارج وهو يمسك نعليه بيده. وفي اعلى الدرج ، التفت : كانت مارسيل ما تزال مضطجعة على السرير . وكانت تبتسم له ، ولكن ماتيو شعر بأنها كانت تكنّ له بعض الضغينة .

* * *

انفصل شيءٌ ما في عينيها الثابتتين ، فتدحرجتا بيسر في محجريهما. ولم تكن تنظر اليه بعد ، وما كان عليه بعد ان يؤدّي لها حساباً عن نظراته . لقد كان جسمها المذنب ، اذ كانت مختبئة بثيابها الداكنة وبالليل ، يُحسّ انه في منجى ، وكانت تستردّ شيئاً فشيئاً دفئه وبراءته ، وكانت تعود لتتفتّح تحت القماش . كيف لي ان أتذكّر القنينة ، القنينة التي ينبغي ان آتي بها بعد غد ؟ كان وحيداً .

وتوقّف مصعوقاً : لم يكن ذلك صحيحاً ، فهو ليس وحيداً ، ولم تتركه مارسيل ؛ بل كانت تفكّر فيه ، كانت تفكّر : « القذر ! لقد فعل لي هذا ! لقد نسي نفسه وهو فيّ ، كالطفل الذي يغوّط في لفائفه . » وكان بوسعه ان يخطو خطى واسعة في الطريق الخالية ، السوداء المغفلة ، وهو غارق في ثيابه حتّى العنق ، ولكنه لن يفلت منها . لقد كان وجدان مارسيل باقياً هناك ، مليئاً بالمصائب والصراخ ، ولم يتركه

ماتيو : لقد كان هناك ، في الغرفة الوردية ، عارياً وبلا سلاح ، امام تلك الشفافية الثقيلة التي هي أشدّ ازعاجاً من النظر . « مرة واحدة » قال ذلك لنفسه غاضباً . وردّد بصوت منخفض ليقنع مارسيل « مرة واحدة ، في سبع سنوات ! » ولكن مارسيل لم تكن لتقتنع : لقد كانت باقية في الغرفة ، وكانت تفكر في ماتيو . وكان شيئاً لا يُحتمل ان يُحكم عليه هكذا ، وان يُحقد عليه . هناك ، في الصمت. من غير ان يستطيع الدفاع عن نفسه ، حتى ولا اخفاء عورته بيديه . ليته في تلك اللحظة نفسها قد استطاع ان يُوجَدَ بالنسبة لآخرين ، بمثل هذه القوة .. ولكن جاك واوديت كانا نائمين ؛ اما دانيال ، فكان ثملاً او مخبولاً . واما ايفيش فكانت لا تفكر قطّ بالغائبين.ربما كان بوريس... ولكن وجدان بوريس لم يكن إلاّ لمعة صغيرة مغتلمة ، وما كان بوسعه ان يصمد لهذا الصفاء الوحشي الجامد الذي كان يبهر ماتيو على البعد . كان الليل قد كفّن معظم الوجدانات : وكان ماتيو وحيداً مع مارسيل في الليل .

وكان ثمة ضوء في مقهى كامو . وكان المعلّم يراكم الكراسي ، وكانت الخادمة تثبت مصراعاً خشبياً على احد عارضيّ الباب . ودفع ماتيو المصراع الآخر ودخل . وكانت به رغبةٌ لأن يُرى بكل بساطة. وارتفق المشرب :

— عمتم مساءً جميعاً !

فنظر اليه المعلّم . وكان ثمة ايضاً احد موظفي شركة السكك الحديدية يشرب الخمر وقبعته على عينيه . وجدانات . وجدانات . انيسة شاردة. ورفع موظف السكك قبعته الى خلف ، بطرف سبابته ، ونظر الى ماتيو . وتراخى وجدان مارسيل ثم ذاب في الليل .

— أعطني قدح بيرة .

فقال المعلم — إن مجيئك اصبح نادراً .

– ومع هذا ، فليس السبب انني غير عطشان .

قال الموظف – صحيح ان الحر شديد يدعو الى العطش . فكأننا في ايام الصيف .

وصمتا . كان المعلم يغسل الاقداح ، وكان الموظف يصفر . وكان ماتيو مسروراً لأنهما كانا ينظران اليه بين حين وآخر . ورأى رأسه في المرآة ، وكان ينبعث مصفراً مستديراً من بحر من الفضة : كان روّاد مقهى كامو يخيّل اليهم دائماً انها الساعة الرابعة صباحاً بسبب النور، اذ كان بخار فضّي يوسّع العيون ويبيّض الوجوه والأيدي والأفكار . وشرب . وفكّر : « انها حامل . هذا طريف : ليس لدي شعور بأن هذا صحيح . » كان ذلك يبدو له مزعجاً ومضحكاً، كما لو ان احداً يرى رجلاً عجوزاً وامرأة عجوزاً يتبادلان قبلة على الفم : ان مثل هذه الاعمال ينبغي ألا تحدث بعد سبع سنوات . « انها حامل . » كان في بطنها كتلة زجاجية صغيرة تنتفخ رويداً، وستشبه آخر الأمر عيناً: «انها تتفتح وسط القذارات الثاوية في بطنها . انهـا حيّة . » ورأى دبوساً كان يقترب متردداً في الظل . وحدث صوت مائع وانفجرت العين : ولم يبق بعد الا غطاء كثيف جاف. «سوف تذهب الى تلك العجوز ؛ وسوف تدعها تمزقها . » وكان يحس انه سام . « حسناً. » وانتفض: تلك كانت افكاراً كالحة ، افكار الساعة الرابعة صباحاً .

– تصبحون على خير .

ودفع وخرج .

« ما الذي فعلته ؟ » كان يمشي على مهل ، محاولاً ان يتذكّر . « منذ شهرين ...» ولم يكن يتذكر شيئاً على الاطلاق ، الا ان يكون ذلك قد حدث عقب عطلة الفصح . لقد أخذ مارسيل بين ذراعيه كالعادة ، بدافع من حنان ، من غير شك ، بدافع من حنان لا بدافع من رغبة ؛ اما الآن ... فلقد خُدع . « طفل . كنت أحسب اني

كنت اعطيها اللذة ، وهأنذا قد صنعت لها طفلاً . انني لم افهم شيئاً مما كنت افعله . وعليّ الآن ان اعطي تلك العجوز اربعمئة فرنك ، وهي سوف تُدخل آلتها بين فخذي مارسيل وتضربها ؛ فتمضي الحياة كما جاءت . وإذ اهدم هذه الحياة لا اكون اكثر علماً بما أفعل مما كنت حين خلقتها . » وضحك ضحكة صغيرة جافــة : « والآخرون ؟ اولئك الذين اعتزموا برصانة وجدّ ان يكونوا آباء ويشعرون بأنهم والدون ، أتراهم حين ينظرون الى بطون زوجاتهم يفهمون خيراً مما افهم ؟ لقد خبطوا خبط عشواء ، بثلاث ضربات من فروجهم . اما الباقي ، فهو عمل في الغرفة السوداء وفي العصير الهلامي ، كما هو الشأن في الصورة الفوتوغرافية . انه شيء يتمّ بدونهم . » ودخل باحة بيت ، ورأى نوراً تحت باب : « هذا بيتها » وشعر بالخجل . وطرق ماتيــو الباب ، فقال صوت :

— من هناك ؟

— أودّ ان اكلّمك .

— ليست هذه ساعة يُزار فيها الناس .

— اني آتٍ من قبل اندريه باسنيه .

فشُقّ الباب . ورأى ماتيو خصلة من الشعر الاصفر وأنفاً كبيراً .

— ماذا تريد ؟ انــه لا يجديك ان تقوم بعمل البوليس ، فاني لا أخالف القانون . ان لي الحق بأن يكون عندي ضوء طوال الليل ، اذا شئت ذلك . فاذا كنت مفتشاً فما عليك الا ان تبرز لي اوراقك .

قال ماتيو — لست من البوليس ، وانما لدي مشكلة ، وقد قيل لي ان بوسعي ان اتوجّه اليك .

— ادخل .

فدخل ماتيو . وكانت العجوز ترتدي بنطال رجل وقميصاً ذا سحّاب وكانت شديدة الهزال ، ذات عينين ثابتتين قاسيتين .

— هل تعرف اندريه باسنيه ؟

وكانت تحدجه بنظرة غاضبة ، فقال ماتيو :

— نعم . لقد جاءتك في السنة الماضية حوالي عيد الميلاد لأنها كانت متضايقة ، وشبه مريضة ، وقد ذهبتِ اربع مرات لمعالجتها .

— وبعد ذلك ؟

وكان ماتيو ينظر الى يدي العجوز . كانتا يديْ رجل، يديْ انسان يختنق . . وكانتا مشققتين ، معلقتين ، بأظافرَ محفوفة سوداء وندوب وشقوق . وكان يظهر على السلامي الاولى للابهام الأيسر ارتشاح دموي بنفسجي وقشرة كثيفة سوداء . وارتعش ماتيو وهو يفكر ببشرة مارسيل الرقيقة السمراء . وقال :

— لست قادماً من أجلها ، بل من اجل صديقة لها .

فضحكت المرأة ضحكة جافّة :

— هذه هي المرة الاولى التي يجرؤ فيها رجل على المجيء لاستعراض نفسه امامي . إنني لا اريد ان يكون لي علاقة بالرجال ، هل تفهم ذلك؟

وكانت القاعة قذرة مبعثرة الاثاث . كانت الصناديق منثورة في كل مكان . وكان على الارض المربّعة قش. ورأى ماتيو على طاولة زجاجة من الروم وقدحاً ممتلئاً الى النصف .

— لقد أتيت لأن صديقتي ارسلتني . انها لا تستطيع ان تأتي اليوم ، وقد رجتني ان اتفاهم معك .

وكان قد شُق بابٌ في جوف القاعة . وكان بوسع ماتيو ان يقسم أنه كان ثمة احد خلف هذا الباب . وقالت له العجوز :

— الحق ان هؤلاء الفتيات الصغيرات بلهاوات . انه يكفيهن ان ينظرن اليك ليرين انك من اولئك الذين خُلقوا لخلق المصائب او قلب الاقداح او تحطيم المرايا . وبالرغم من ذلك تراهن يودعنك أثمن ما لديهنّ . انهنّ ، في آخر المطاف ، يستحققن ذلك .

وظل ماتيو مؤدباً :

– وددت لو أرى اين تقومين بالعمليات .

فقذفته العجوز بنظرة كره وتحدّ :

– هكذا اذن ؟ من قال لك اني اقوم بالعمليات ؟ وعن اي شيء تتحدث ؟ ولماذا تتدخل في ذلك ؟ اذا كانت صديقتك تريد ان تقابلني ، فلتأتِ اليّ .. اني اريد ان اتفاهم معها وحدها . لقـــد كنت تريد ان تأخذَ فكرة ، أليس كذلك ! أتراها قد سألتك ان تأخذ فكرة حين جلست بين فخذيك ؟ لقد ارتكبتَ مصيبة . حسناً . كل ما استطيع ان اقوله لك هو ان تتمنى ان اكون ابرع منك . وداعاً .

فقال ماتيو :

– الى اللقاء ، يا سيدتي .

وخرج . وكان يحس انه تحرر. وانفتل على مهل الى جادة «اورليان» . كان بوسعه ان يفكر بمارسيل، للمرة الاولى منذ ان غادرها ، بلا ضيق ولا جزع ، بل بحزن عطوف . وفكر « سأقصد ساره غداً . »

٢

كان بوريس ينظر الى الخوان ذي المربعات الحمراء ويفكر بماتيــو دولارو . كان يفكر : « إن هذا الشخص عظيم . » وكانت الجوقة قد صمتت ، وكان الهواء شديد الزرقة ، وكان الناس يتحدثون فيما بينهم . وكان بوريس يعرف الجميع في القاعة الضيقة الصغيرة : ولم يكونوا اشخاصاً قد قدموا للهزل والمجون ؛ وانما كانوا يجيئون بعــد الفراغ من عملهم ، جادّين جائعين . امــا الزنجي الذي كان يواجه « لولا » ، فهو مغني « الباراديز » ؛ واما الاشخاص الستة الجالسون في الداخل مع نسائهم ، فهم موسيقيّو « نينيت » ، ولا ريب في أنهم قد حدث لهم شيء ، سعادةٌ غير منتظرة ، وربما عقدٌ للصيف (لقد تحدثوا عشية الامس حديثاً مبهماً عن مربع في القسطنطينة) لأنهم كانوا قد طلبوا شمبانيا ، وكانوا في العادة اقرب الى البخل . ورأى بوريس كذلك الشقراء التي كانت ترقص رقصة «جاوى» وهي بثوب البحارة . اما ذلك الطويل الهزيل ذو النظارات الذي كان يدخن سيكاراً ، فقــد كان مدير ملهى في شارع تولوزيه أغلقته دائرة الشرطة منــذ حين . وكان يقول انه سيُعاد فتحه عما قريب ، لأنه كان مدعواً من المراجع العليا. وكان بوريس يأسف بمرارة لأنه لم يقصده ، وسوف يقصده بالتأكيد اذا فتح مرة اخرى . وكان الرجل مع فتى صغير يبدو من بعيد جذاباً ، وهو

أشقر ذو وجه دقيق ، فيه جمال ، وهو لا يأتي بكثير من الحركات المصطنعة . ولم يكن بوريس يطيـــق اللواطيين كثيراً ، لأنهم كـــانوا يلاحقونه طوال الوقت ، ولكن ايفيش كانت تقدرهم وتقول : « ان هؤلاء يجرؤون ، على الاقل ، على ألا يكونوا كسائر الناس . » وكان بوريس ممتلىء التقدير لآراء اخته ، وكان يبذل جهوداً كثيرة ليحترم العمّات. وكان الزنجي يأكل الكرنب . وفكر بوريس : « انني لا احب الكرنب » وكان يود لو يعرف اسم الطعام الذي قُدّم لراقصة «جاوى» : طعام اسمر كان يبدو انه لذيذ . وكان عـــلى الخوان لطخة من الخمر الاحمر . لطخة جميلة ، حتّى لكأن الخوان كان ، في ذلك المـــكان ، من الحرير الاطلس . وكانت لولا قد نثرت بعض الملح على اللطخة ، لأنها كانت تحب الترتيب . وكان الملح وردياً . وليس صحيحـــاً ان الملح يشرب اللطخات . وأوشك ان يقول للولا ان الملح لم يكن ليشرب اللطخات . ولكن ذلك كان يقتضيه ان يتكلم : وكان بوريس يشعر بأنه لم يكن يستطيع ان يتكلم . وكانت لولا بالقرب منـــه ، متعبـــة حارة ، ولم يكن بوريس يستطيع ان ينتزع من نفسه ادنى كلمة ، فقد كان صوته ميتاً . سأكون كذلك لو كنت أبكم . كان لذيذاً ان صوته كان يخفق في داخل حنجرته ، رقيقاً كالقطن ، ولم يكن يستطيع مع ذلك ان يخرج . كان ميتاً . وفكر بوريس : « احب كثيراً دولارو » واغتبط . وقد كان اغتباطه يزداد لو لم يكن يشعر ، بجـــانبه الايسر كله ، من الصدغ حتّى الخاصرة ، أن لو كانت تنظر اليـــه . لا ريب في انها كانت نظرة مشغوفة ، فان لولا لم تكن تستطيع قط ان تنظر اليه على نحو آخر . وكان ذلك مزعجاً بعض الشيء لأن النظرات المشغوفة تستدعي بالمقابل حركات ودية او بسمات ؛ وما كان بوريس ليستطيع القيام بأية حركة . وكان مشلولاً . غير ان ذلك لم يكن عظيم الأهمية : فانه لم يكن مفروضاً فيه ان يرى نظرة لولا : كان يحزرها

ولكن ذلك كان شأنه . كان هناك مديراً ظهره ، وشعره في عينيه ، فلم يكن يرى ادنى طرفٍ من لولا ، وكان بوسعه ان يفترض بأنها كانت تنظر القاعة والناس . ولم يكن بوريس ناعساً ، بل كان مرتاحاً ، لأنه كان يعرف جميع الناس في القاعة ؛ ورأى لسان الزنجي الوردي ؛ وكان بوريس يحترم هذا الزنجي : فحين خلع الزنجي حذاءه اخذ علبة من الثقاب بين اصابع قدميه ، ففتحها وأخرج منها عوداً فأشعله ، كل ذلك بقدميه . وفكر بوريس باعجاب : « هذه عملية عظيمة . ان على الجميع ان يحسنوا استعمال اقدامهم كأيديهم . » وكان جانبه الايسر يؤلمه لفرط ما نظر اليه ، وكان يعلم انها تقترب ، تلك اللحظة التي ستسأله فيها لولا : « بمَ تفكر ؟ » فقد كان من المستحيل اطلاقاً تأخير هذا السؤال . ان ذلك لم يكن يتوقف عليه : فان لولا ستطرحه في اوانه ، بلونٍ من القدرية . وكان بوريس يشعر بأنه ينعم بردح قصير من الزمن ، ثمين جداً . وفي الحقيقة ، كان ذلك لذيذاً : كان بوريس يرى الحوان ، وكان يرى قدح لولا (كانت لولا قد تناولت طعاماً بسيطاً ، لأنها لم تكن تتعشى قط قبل دورها الغنائي) وكانت قد شربت قدحاً من « شاتوغروبو » ، وكانت شديدة العناية بنفسها ، وكانت تستجيب لطائفة من الهوايات الصغيرة ، لأنها كانت شديدة اليأس من الشيخوخة . وكان قد بقي بعض الحمرة في القدح ، فكأنه دم مغبّر . وبدأ الجاز يعزف : « اذا اصبح لون القمر اخضر. » فتساءل بوريس : « اتراني احسن غناء هذا اللحن ؟ » كم كان يكون عظيماً لو تمخطر في شارع بيغال ، تحت ضوء القمر ، وهو يصفر لحناً صغيراً . كان دولارو قد قال له « انك تصفر كالخنزير » وأخذ بوريس يضحك في داخله ، وفكر : « ذلك الحمار ! » وكان يفيض وداً لماتيو . وألقى نظرة سريعة الى جانب ، من غير ان يحرّك رأسه ، فرأى عيني لولا الثقيلتين تحت خصلة رائعة من الشعر الاحمر . والحق

ان بامكان المرء ان يحتمل نظرة مـا . بحسبك ان تعتاد هـذه الحرارة الخاصة التي تلهب وجهك حين تشعر بأن احداً يراقبك بشغف. وكان بوريس يسلم نظرات لولا جسمه ورقبته الهزيلة وهذا الجانب من وجهه الذي كانت تحبه كثيراً . وبهذا الثمن ، كـان بوسعه ان يتغلغل عميقاً في نفسه ، ويشغل ذاته بأفكـار صغيرة مستحبّة كانت تخطر له .

وسألته لولا : — بمَ تفكر ؟

— بلا شيء

— إن الانسان يفكر دائماً بشيء ما .

فقال بوريس : — كنت افكر بلاشيء .

— حتى ولا انك تحب اللحن الذي يعزفونه ، او تود ان تتعلم استعمال « المصفّقات » ؟

— مثل هذا ، بلى .

— اترى اذن ؟ لماذا تقول لي ذلك ؟ اود ان اعرف جميع ما تفكر به .

— إن هذا لا يُقال ولا اهمية له .

— لا اهمية له ! يخيّل اليّ انك لم تعطَ لساناً الا لتتحدث في الفلسفة مع استاذك .

فنظر اليها وابتسم : « احبها كثيراً لأنها صهباء ، ولأنها تبدو مسنة. » وقالت لولا : « اي طفل عجيب ! »

وغمز بوريس بعينيه واتخذ موقف الابتهال . انـه لم يكن يحب ان يحدثوه عن نفسه ، فقد كان ذلك شديد التعقيد بحيث انه كان يضيع فيه . وكان يبدو على لولا انها غاضبة ، ولكن ذلك يعود بكل بساطة الى انها كانت تحبه بشغف ، وانها كانت تتألم بسببه . كانت تمر لحظات كهذه تشعر فيها انه قد أسقط بيدها ، فكانت تعذب نفسها بلا سبب،

وكانت تنظر الى بوريس بشرود . وتكف عن ان تعرف ما عساها تفعل به ، وكانت يداها تضطربان وحدهما . وكان بوريس في أول الأمر يدهش لذلك ، ولكنه قد اعتاده الآن . ووضعت لولا يدها على رأس بوريس وقالت :

– أتساءل عما في داخل رأسك . إن هذا يخيفني .

فقال بوريس ضاحكاً : – لماذا ؟ اقسم لك ان الأمر بريء .

– نعم ، ولكني لا استطيع ان اقول لك .. انه يأتي من تلقاء نفسه ، فكل فكرة من افكارك فرارٌ صغير ..

وأشعثت شعره فقال بوريس :

– لا ترفعي خصلتي ، فانا لا احب ان يرى الناس جبيني .

وتناول يدها ، فلامسها قليلاً . ثم اراحها على الطاولة . وقالت لولا :

– انت هنا ، رقيق لطيف ، واعتقد انك مرتاح معي . وفجأة، لا يبقى ثمة احد ، فاتساءل : اين عساك قد ذهبت ؟

– انني هنا .

وكانت لولا تنظر اليه عن كثب ، وكانت قد شوهت وجهها الباهت سماحةٌ حزينة ، وكانت تلك هي الهيئة نفسها التي تتخذها حين تغني اغنية « المسلوخين » . كانت تمدّ شفتيها ، هاتين الشفتين الغليظتين بزواياهما المرتخية ، اللتين احبهما في البدء . ومنذ احس بهما على فمه ، كان يستشعر عرياً لزجاً محموماً وسط قناع من الجبس . وكان الآن يفضل بشرة لولا التي بلغ من بياضها ان توهم بأنها غير حقيقية .

وسألته لولا بخجل :

– هل ... تشعر بالانزعاج معي ؟

– لا اشعر ابداً بالانزعاج .

وتنهدت لولا ، وفكر بوريس برضى : عجيب ان تبدو مسنّة الى هذا الحد ، انها لا تعلن عن عمرها ، ولكنها بكل تأكيد في حدود

الاربعين . وكان يحب كثيراً ان يبدو الاشخاص الذين يرتبطون به مسنّين . اذ كان يجد ذلك مدعاة للاطمئنان . وبالاضافة الى ذلك ، كان هـذا يكسبهم نوعاً من الهشاشة مريعاً بعض الشيء ، لا يظهر للوهلة الأولى ، لأنهم كانوا يملكون جميعاً إهاباً مدبوغاً كأنه الجلد . واخذته الرغبة في ان يقبّل وجه لولا المضطرب ، وفكر بأنها متلاشيـة القوى ، وانها قد ضيّعت حياتها ، وانها كانت وحيدة ، بل ربما كانت اشد وحدة منذ بدأت تحبه . وفكر باستسلام : « انني لا املك شيئاً لها . » وفي تلك اللحظة ، كان يجدها لطيفة الى حد بعيد .

وقالت لولا : — اشعر بخجل .

وكان صوتها ثقيلاً مظلماً كأنه بساط من القطيفة الحمراء .

— لماذا ؟

— لأنك طفل .

وقال :

— اني اغتبط اذ تقولين : طفل . إنها كلمة جميلة بالنسبة لصوتك . انت تقولين « طفل » مرتين في « المسلوخين » ، وهذا وحده كاف لحملي على الذهاب للاستماع اليك . هل كان الحضور وافرين ، ذلك المساء ؟

— كانوا من الطغمة . لا ادري من اين جاءوا . وكانوا يثرثرون . وكانت رغبتهم في الاستماع إلي مثل رغبتهم في ان يُشنقوا . وقد اضطر سارونيان الى اسكاتهم ، وقد تضايقت جداً ، لو تعلم ، وشعرت بأني مبتذلة . على انهم مع ذلك قد صفّقوا حين دخلت .

— هذا طبيعي .

فقالت لولا : — لقد مللت . انني انفر من الغناء لهؤلاء الحيوانات . أشخاص جاءوا لأنه كان عليهم ان يردّوا الدعوة لزوجين . ليتك رأيتهم قادمين جميعاً وهم يبتسمون ، وينحنون ويمسكون كرسي المرأة إذ تجلس .

وانت بالطبع ستضايقهم حين تأتي ، فينظرون اليك من فوق الى تحت .
(وقالت لولا فجأة) انني يا بوريس اغني لأعيش .
– طبعاً .
– لو كنت فكرت ان الأمر سينتهي بي هكذا ، لما بدأت قط .
– مهما يكن من امر ، فقد كنت تعيشين ايضاً من الغناء ، حين كنت تغنين في الموزيك هول .
– لم يكن الأمر كذلك .
وساد صمت ، ثم اسرعت لولا تضيف :
– إسمع : الشخص القصير الذي يغني بعدي ، الشخص الجديد ، لقد حدثته هذا المساء . انه لطيف ، ولكنه ليس روسياً اكثر مني .
وفكر بوريس : « تظن انها تضجرني » وعزم على ان يقول لها مرة اولى واخيرة انها لا تضجره قط . ولكن ذلك سيكون فيما بعد ، لا اليوم .
– لعله قد تعلّم الروسية ؟
فقالت لولا : – نعم ، وعليك ان تقول لي ان كانت لهجته جيدة .
– لقد ترك اهلي روسيا عام ١٧ ، وكان عمري ثلاثة اشهر .
فانتهت لولا الى القول : – انه مضحك ألاّ تعرف الروسية .
وفكر بوريس بأنها طريفة ، وانها تخجل من ان تحبني لأنها أسنّ مني . اما انا ، فأجد ذلك طبيعياً ، اذ لا بد من ان يكون هناك من هو اكبر من الآخر . خصوصاً وان ذلك اكثر اخلاقية ، فان بوريس ما كان ليعرف ان يحب فتاةً في مثل سنه . فاذا كان الاثنان في عمر الشباب ، فانهما لا يحسنان التصرف ، بحيث ان الأمر يضطرب ، كما لو انهما يلعبان او يعبثان . فليس الأمر كذلك مع الأشخاص الناضجين . انهم اشداء ، وهم يقودونك ، ثم ان لحبهم وزناً . وحين يكون بوريس برفقة لولا ، فانه يشعر برضى الضمير ، ويحس انه مبرّر . لقد كان

بالطبع يؤثر صحبة ماتيو ، لأن ماتيو لم يكن امرأة ، والرجل أطرف . ثم ان ماتيو كان يشرح له بعض الغوامض . غير ان بوريس كان غالباً ما يتساءل عما اذا كان ماتيو يكنّ له الصداقة . فقد كان ماتيو قاسياً ، لامبالياً . صحيح انه ينبغي ألا يكون الاصدقاء فيما بينهم أرقّاء ، ولكن هناك الف طريقة أخرى ليظهر المرء انه حريص على شخص آخر ، وكان بوريس يجد انه كان بوسع ماتيو بين الفينة والفينة ان يقول كلمة او يظهر حركة تنم عن وده . لقد كان ماتيو يسلك مع ايفيش مسلكاً مختلفاً جداً . واستعاد بوريس فجأة صورة وجه ماتيو اذ كان يوماً يساعد ايفيش على ارتداء معطفها ، فأحس في قلبه بانقباض مزعج . بسمة ماتيو : على ذلك الفم المر الذي كان بوريس يحبه كثيراً ، تلك البسمة الرقيقة الخجول . ولكن سرعان ما امتلأ صدر بوريس بالدخان . ولم يعد يفكر بشيء . وقالت لولا :

– هوذا يذهب مرة اخرى .

وكانت تنظر اليه بضيق .

– بمَ كنت تفكر ؟

قال بوريس على مضض :

– كنت افكر بدولارو .

وابتسمت لولا بسمة حزينة .

– ألا تستطيع ايضاً ، في بعض الاحيان ، ان تفكر بي ؟

– لا حاجة بي الى التفكير فيك ، ما دمت هنا .

– ولماذا تفكر دائماً بدولارو ؟ كنت تود ان تكون معه ؟

– انني مسرور بان اكون هنا .

– انت مسرور بان تكون هنا او بأن تكون معي ؟

– الأمر سواء .

– الأمر سواء بالنسبة اليك . لا بالنسبة إليّ . حين اكون معك ، لا يهمني

ان اكون هنا او في مكان آخر . والحق انني لا يسرني قط ان اكون معك .

فسألها بوريس دهشاً : ــ صحيح ؟

ــ ليس هو سروراً . ولست بحاجة الى ان تتغابى ، فانت تعرف ذلك جيداً : لقد رأيتك مع دولارو ، وانت لا تدري بعد اين تكون ، حين يكون هنا .

ــ هذا لا يشبه ذاك .

وادنت لولا منه وجهها المتهدم ، وكان يبدو عليها الابتهال :

ولكن انظر الي ، وقل لي لماذا تتعلق هذا التعلق الشديد به ؟

ــ لا ادري . انني لا اتعلق به الى هذا المقدار . انه عظيم . اسمعي يا لولا : يضايقني ان احدثك عنه ، لأنك قلت لي انك لا تطيقينه .

واغتصبت لولا بسمة :

ــ عجيب كم تدور على نفسك ! ولكن يا عزيزي لم اقل لك انني لا اطيقه . كل ما هناك اني لم افهم قط ما تجده فيه من الأمور العظيمة . ولكن اشرح لي ، فأنا لا اريد الا ان افهم .

وفكر بوريس : « هذا غير صحيح . فلن اقول ثلاث كلمات الا وتأخذ في السعال »

وقال بتحفظ : اجد انه لطيف قريب الى النفس »

ــ انك تقول لي ذلك دائماً . ليست هذه هي الكلمة التي اختارها لو سُئلت . قل لي انه يبدو ذكياً ، وانه مثقف ، فأنا أقر ّك على ذلك . ولكنه ليس لطيفاً قريباً الى النفس . على كل حال ، أتحدث عن شعوري . الشخص اللطيف القريب في رأيي هو من يشبه بوريس ، ومن يكون صريحاً . اما هو ، فانه يجعل الناس في ضيق لأنه متشكاك متردد : يخدع من حوله . انظر مثلاً ً الى يديه .

ــ ما بال يديه ؟ انني احبهما .

– انهما يدان ضخمتان لعامل . وهما ترتجفان دائماً بعض الشيء كما لو انه ينتهي لساعته من عمل مرهق .

– من اجل هذا احبهما !

– ولكن الواقع انه ليس عاملاً . حين اراه يقبض بيده الكبيرة على كأس الويسكي ، يشعرني حقيقة بالقسوة والمتعة ، وانا لا اكره هذا ولكن بعد ذلك ينبغي ألا يراه احد وهو يشرب ، بذلك الفم الغريب الذي يملكه ، فم الاكليريكي . انني لا استطيع ان اشرح لك ، فأنا أجده صارماً ، ثم انك اذا نظرت الى عينيه ، ظهر لك بوضوح انه ذو ثقافة : انه شخص لا يحب شيئاً ببساطة ، لا ان يشرب ، ولا ان يأكل، ولا ان يضاجع النساء ، يحب ان يفكر بكل شيء : وهو في ذلك يشبه الصوت الذي يملكه ، صوت حاسم قاطع لرجل لا يخطىء قط . أنا اعرف ان المهنة تقتضي ذلك ، حين يشرح المعلم الدرس للاطفال : كان لي مدرس يتكلم مثله ، ولكني لست بعد في المدرسة ، وهذا يضايقني . أنا افهم ان يكون احدنا هذا كله او ذاك كله ، ان يكون وحشاً ، او ان يكون من النوع المتميز ، معلماً او راعياً ، ولكنى لا افهم ان يكون الاثنين معاً . ولا ادري ان كانت هناك نساء يروق لهن ذلك ، ويجب الاعتقاد بأن هناك مثل هؤلاء النساء . اما انا فاصارحك بأنني اشمئز من ان يمسّني شخص مثل هذا . وانا لا احب ان اشعر بيديه ، يدي المصارع . تمسّانني ، فيما يريق عليّ حماماً بارداً بنظره المثلج .

واستعادت لولا نَفَسها . وفكر بوريس : « ما الذي لديها ايضاً ؟ » . ولكنه كان هادئاً جداً . ان الاشخاص الذين كانوا يحبونــه لم يكونوا مضطرين الى ان يتبادلوا الحب فيما بينهم ، وكان بوريس يجــد من الطبيعي جداً ان يحاول كل منهم ان ينفّره من الآخرين .

وتابعت لولا بلهجة مصالحة :

– انني افهمك جيداً ، فانت لا تراه بالعينين اللتين اراه بهما ، وانت

متأثر لأنه كان استاذك ، ودليلي على ذلك طائفة من الحركات الصغيرة، فأنت مثلاً شديد القسوة على الطريقة التي يرتدي بها الناس ثيابهم ، اذ لا تجدهم قط انيقين ، بينما هو بالذات قبيح اللباس دائماً ، ويرتدي ربطة عنق يأنف منها صبيّ فندقي .. والأمر لديك سواء .

واحس بوريس بأنه مخدّر مسالم ، فقال موضحاً :

– لا بأس في ان يرتدي الانسان ثياباً قبيحة اذا لم يكن يهتّم بثيابه. اما المزعج فهو ان يريد ان يبهر الناس ، ثم يفشل في ذلك .

قالت لولا : – اما انت ، فانك لا تفشل ، ايها البغي الصغير !

فقال بوريس بتواضع – انني اعرف ما يناسبني .

وفكر في انه كان يرتدي صدارة زرقاء ذات جانبين كثيفين ، فأخذه السرور : كانت صدارة جميلة . وكانت لولا قد تناولت كفّه واخذت تلاعبها بين يديها . ونظر بوريس الى يده التي كانت تقفز وتسقط ، وفكر : انها ليست لي ، فكأنها قرص معجنات . ولم يعد يشعر بها ، فأحس من ذلك بالتسلية ، وحرّك اصبعاً ليردّها الى الحياة . ولامس الإصبع راحة لولا ، فرمت له لولا بنظرة عرفان . وفكر بوريس بانزعاج : ان هذا هو الذي يرعبني . وقال في نفسه انه كان يكون ايسر عليه ان يبدو رقيقاً لو لم تكن لولا تتخذ غالباً مثل هذه المظاهر الخاضعة المائعة . اما ان يسمح امام الناس بأن تداعب امرأة يديه ، فان ذلك لم يكن ليزعجه قط . كان يفكر دائماً بأن ذلك كان يناسبه : فحتى لو كان وحده ، في المترو مثلاً ، كان الناس ينظرون اليه دهشين ، وكانت الساقطات الصغيرات اللواتي يخرجن من المشغل يهزأن به . وقالت لولا فجأة :

– لم تقل لي حتى الآن لماذا تراه عظيماً الى هذا الحد ؟

كانت هكذا ابداً ، لا تستطيع قط ان تقف اذا ما بدأت . وكان بوريس على يقين من انها كانت تعذب نفسها ، ولكنها كانت ولا

شك تحب ذلك ، في آخر الأمر .

ونظر اليها ، وكان الهواء حولها ازرق ، وكان وجهها ذا لون ابيض مزرق . ولكن عينيها ظلتا محمومتين قاسيتين .

ـ قل ، لماذا ؟

فهدر بوريس قائلاً : ـ لأنه عظيم . كفاك ملاحقة لي . انه لا يتعلق بشيء .

ـ وهل من الخير الا يتعلّق احدٌ بشيء ؟ الا تتعلق بشيء انت ؟

ـ آه بلى . إني اتعلّق بكِ .

فبدا على وجه لولا طابع الشقاء ، وادار بوريس رأسه . انه بالرغم من كل شيء لم يكن يحبّ ان يطيل النظر اليها اذ تبدو كذلك . كانت تتآكل نفسها ، وكان يجد هذا شيئاً سخيفاً ، ولكنه لم يكن له في الأمر حيلة . كان يفعل كل ما كان يتوقف عليه . كان أميناً للولا ، وكان غالباً ما يتلفن لها ، وكان يذهب ثلاث مرات في الاسبوع لمرافقتها بعد خروجها من مربع « سومطرا » ، وكان ينام عندها في تلك الليالي . اما ما دون ذلك ، فالأرجح انه كان قضية مزاج . وقضية سنّ ايضاً ، فالمسنّون شرسون ، وهم يعتقدون ان حياتهم هي دائماً في خطر . حين كان بوريس صغيراً ، ترك ملعقته ذات يوم تسقط الى الأرض ، فأمروه ان يلمّها ، فرفض ؛ وركبه العناد . واذ ذاك قال والده بلهجة جلال لا تنسى : « حسناً ، انا الذي سألمها » . ورأى بوريس جسماً كبيراً ينحني بتصلب ، ورأساً اصلع ، وسمع طقطقة . وكان ذلك تجديفاً لا يُحتمل ، واذا هو ينفجر باكياً . ومنذ ذلك الحين ، أخذ بوريس يعتبر البالغين كأنهم آلهة ضخام كساح . فاذا ما انحنوا ، خيّل الى الناس انهم سينكسرون ، واذا ما تعثروا او سقطوا ، كنّا بين ان يأخذنا الضحك او تأخذنا الرهبة الدينية . اما اذا امتلأت عيونهم بالدمع ، كما هو شأن لولا الآن ، أسقط في ايدينا .

إن دموع البالغين هي كارثة صوفية ، شيء يشبه الدموع التي يذرفها الإلـٰه على خباثة الانسان . ومن وجهة نظر اخرى ، كان يحمد لدى لولا ان تكون شغوفاً الى هذا الحد . لقد سبق لماتيـــو ان شرح له أن على المرء ان يكون لديه شغف وحماسة ، وكذلك قال ديكارت .

وقال متابعاً فكرته بصوت عال :

– إن لدى دولارو شغفاً وحماسة ، ولكن ذلك لا يمنعـــه من ألا يتعلق بشيء . إنه حرّ .

– اذا كان الامر كـــذلك ، فأنا ايضـــاً حرة ، لاني لا اتعلق الا بك .

فلم يجب بوريس . وسألت لولا :

– ألست حرّة ؟

– ليس الامران سواء .

وكان ذلك أعسر من ان يُشرح . لقـــد كانت لولا ضحية ، ثم انها لم تكن محظوظة ، ثم انها كانت مقلقة اكثر مما ينبغي . وذلك كله لم يكن في صالحها . ثم انها كانت تنزع الى ان تصبح بطلة ، وقـــد كان ذلك امراً حسناً على نحو ما ، بل كان حسناً جداً ، مبدئياً . وقد سبق لبوريس ان حدّث ايفيش بذلك، فاتفقا على ان ذلك كان حسناً . ولكن كانت هناك الطريقة : فان كان المرء ينزع الى البطولة ليهـــدم نفسه ، او بدافع من اليأس ، او ليؤكد حريته ، فهو لا يستحق الا الثناء . اما لولا ، فكانت تفعل ذلك بتخل نهـــم ، وكانت تلك فترة استرخائها . بل انها لم تكن حتى متسمّمة .

وقالت لولا بلهجة جافة :

– انك تضحكني . انها دائماً طريقتك في ان تضع دولارو مبدئياً فوق الآخرين . ذلك اني أتساءل ، فيما بيننا ، عمن يكون اكثر حرية: هو ام انا ؟ إن له بيته المؤثث.وله راتبه الثابت ، وتقاعده المضمون ،

وهو يعيش كموظف صغير . وبعد هذا كله ، حدثني عن تلك الحياة التي يعيشها مع تلك المرأة التي لا تخرج قط ، فكل شيء كامل ، وليس هناك من يتمتع بالحرية أفضل من ذلك : اما انا ، فليس لي الا أطماري ، وانا وحيدة ، اعيش في الفندق ، بل لست ادري ان كنت سأوفق الى عقدٍ للصيف القادم .

فردد بوريس : — ليس الامران سواء !

وكان منزعجاً . كانت لولا لا تأبه كثيراً للحرية ، وانما كانت تعلّق عليها تلك الاهمية الكبيرة ذلك المساء لانها كانت تريد ان تهزم ماتيو في ميدانه بالذات .

— اوه ! سأقتلك يا عزيزي اذا ظللت هكذا . ماذا ! اي الامرين ليسا سواء ؟

فقال موضحاً :

— انت حرة من غير ان تريدي ذلك . إن هذا يحدث عفواً . اما ماتيو ، فالامر لديه يأتي بالعقل والمحاكمة .

فهزت لولا رأسها وهي تقول : — ما زلت غير فاهمة .

— اسمعي : انه لا يكترث ببيته ، فهو يعيش هناك كما يعيش في اي مكان آخر ، وأعتقد كذلك انه لا يكترث بالمرأة التي يعيش معها . وهو يبقى معها لانه يجب ان يضاجع امرأة ما . إن حريته لا تُرى ، انها في الداخل .

وكانت لولا تبدو وكأنها غائبة ، وكانت له رغبة لان يعذّبها قليلا ليرى ردّ فعلها ، وأضاف :

— انك تتعلقين بي اكثر مما ينبغي ؛ اما هو فلن يسمح لنفسه ابداً ان يؤخذ على هذا النحو .

فصاحت لولا مجروحة : — هكذا إذن ! انني متعلقة بك اكثر مما ينبغي ، ايها الوحش الصغير ! وتعتقد انه لا يتعلق هو اكثر مما ينبغي

بأختك ؟ لم يكن لك الا ان تنظر اليه ، ذلك المساء في « سومطرا » .
فسألها بوريس : – يتعلق بايفيش ؟ انك تحزنينني بهذا الكلام .
فقهقهت لولا ، وملأ الدخان فجأة رأس بوريس . وانقضت لحظة، ثم حدث ان كانت موسيقى الجاز تعزف لحن « مستشفى سان جيمس » فأخذت بوريس الرغبة في الرقص .
– هل ترقص هذا اللحن ؟
ورقصا . وكانت لولا قد اغمضت عينيها، فكان يسمع صوت نفسها القصير . وكان اللوطي الصغير قد نهض واتجه ليدعو راقصة «الجاوى» الى الرقص . وفكر بوريس بأنه سيراه عن كثب فاغتبط لذلك. وكانت لولا ثقيلة بين ذراعيه ؛ وكانت تجيد الرقص ، وكان ينبعث منها عطر لذيذ ، ولكنها كانت اثقل مما ينبغي . وفكر بوريس بأنه يؤثر الرقص مع ايفيش . وكانت ايفيش تجيد الرقص إجادة عظيمة.وفكر : «يجب على ايفيش ان تتعلم استعمال المصفقات » ثم لم يعد يفكر بشيء ، بسبب رائحة اولا . وضم لولا اليه واستنشق بقوة . ففتحت عينيها ونظرت اليه باهتمام :
– هل تحبني ؟
فقال بوريس مقطباً وجهه : – نعم .
– ولماذا تقطّب وجهك ؟
– هكذا . انك تضايقينني .
– ولماذا ؟ اليس صحيحاً انك تحبني ؟
– بلى .
– لماذا لا تقول لي ذلك قط من تلقاء نفسك ؟ هل يجب عليّ دائما ان اسألك عنه ؟
– لانه لا يخطر لي . ان هذه امور متكلفة ، وأجد الا يقولها الانسان.
– أيزعجك ان اقول لك اني احبك ؟

ـ لا ، تستطيعين انت ان تقولي ذلك ما دام يخطر لك ، ولكن يجب الا تسأليني اذا كنت احبك .

ـ يا عزيزي ، من النـــادر ان اسألك عن شيء . يكفيني معظم الوقت ان انظر اليك واشعر اني احبك . ولكن هناك لحظات ارغب فيها ان المس حبك انت .

فقال بوريس برصانة :

ـ فهمت ، ولكن عليك ان تنتظري ان يخطر لي ذلك ، فان لم يأت من تلقاء نفسه ، فلا معنى له بعد .

ـ ولكنك انت نفسك تقول ، ايها الساذج الصغير ، بانه لا يخطر لك حين لا تُسأل عن شيء .

فاخذ بوريس يضحك وقال :

ـ هذا صحيح ، انك تريدين احراجي . ولكن تعلمين ان بوسع الانسان ان يكنّ لأحد عواطف طيبة ، غير انه لا يرغب في التحدث عنها .

فلم تجب لولا . وتوقفا ، وصفقا ، ثم استؤنفت الموسيقى . ورأى بوريس بسرور ان اللوطي يتجه نحوهما وهو يرقص . ولكن حين تمكن من رؤيته ، اصيب بخيبة شديدة : لقد كان في حوالى الاربعين . كان وجهه يحتفظ بطلاء الشباب ، ولكنه كان قد شاخ من تحته ، وكانت له عينا دمية كبيرتان زرقاوان وفمٌ طفولي ، ولكن كانت تحت عينيه الخزفيتين جيوب ، وتجاعيد حول فمه ، وكان منخراه مقروضين كما لو انه موشك على الموت ، ثم ان شعره الذي كان يشبـــه من بعيد بخاراً مذهّباً ، كان من القلة بحيث لا يكاد يغطي صلعته . ونظر بوريس بذعر الى هذا الصبي المسنّ الأمرد وفكر «لقد كان شاباً» كان هناك اشخاص جُعلوا ليكون عمرهم خمسة وثلاثين عاماً ـ ماتيو مثلا ـ لأنهم لم يكن لهم قط شباب . اما الشخص الذي كان حقاً شاباً ، فقد كان يبقى كذلك

طوال عمره . وكان ذلك يمكن ان يمتد حتى خمسة وعشرين عاماً . اما بعد ذلك ... فكان شيئاً مريعاً ، واخذ ينظر الى لولا ، وقال لها بسرعة :

— لولا ، انظري إليّ . انني احبك .

وأصبحت عينا لولا ورديتين ، ومشت على قدم بوريس . واكتفت بالقول :

— حبيبي .

وودّ ان يصرخ : « ولكن ضمّيني اليك ضمّاً أقوى ، أشعريني بأني احبك » . بيد ان لولا لم تكن تقول شيئاً ، كانت بدورها وحيدة ، وكان قد آن لذلك الاوان ! كانت تبتسم بغموض ، وكانت قد اسبلت جفنيها ، وكان وجهها قد انغلق على سعادتها . وجه هادىء فارغ . وأحسّ بوريس بأنه قد تُرك ، وغمرته فجأة الفكرة الخائفة : لا اريد ، لا اريد ان أشيخ . في العام الماضي ، كان هادئاً لا يفكر قط بهذه الامور ، اما الآن ، فهو متشائم يحس طوال الوقت بأن شبابه يسيل من بين اصابعه . حتى الخامسة والعشرين . وفكر بوريس : لديّ بعد خمسة اعوام سعيدة ، وبعد ذلك انسف عربتي . ولم يعد يحتمل سماع هذه الموسيقى والشعور بهؤلاء الناس حوله . وقال :

— هل تخرج ؟

— بعد قليل ، يا اعجوبتي الصغيرة .

وعادا الى طاولتها . ونادت لولا الخادم ووقفت ، ثم ألقت معطفها المخملي على كتفيها وقالت : « هيا بنا » .

وخرجا . ولم يعد بوريس يفكر باشياء كثيرة ، ولكنه كان يحسّ بالكآبة . وكان شارع «بلانش» غاصاً بالأشخاص ، أشخاص قساة ومسنّين . والتقيا المايسترو «بيرانيز» من ملهى «الشابوتيه» فحيّياه ، وكانت ساقاه القصيرتان تدرمان تحت كرشه . ربما ترهلت أنا ايضاً . فلا أستطيع

بعد ان انظر الى نفسي في مرآة ، وأشعر بأن حركاتي جافة وكاسرة كما لو كنت من الخشب الميت ... وكانت كل لحظة تمرّ ، كانت كل لحظة تنهك شبابه. ليتني أستطيع ان اوفّر نفسي ، ان أعيش على مهل ، في بطء ، إذن لربما كسبت بعض السنوات . ولكن من أجل ذلك ، ينبغي الا انام كل ليلة في الثانية صباحاً ونظر الى لولا بحقد : « انها تقتلني » وسألته لولا :

— ما بالك ؟

— ليس بـي شيء .

وكانت لولا تسكن في فندق بشارع نافارين . وتناولت مفتاحها من على اللوحة وصعدا في صمت . وكانت الغرفة عارية ، وكان في احدى الزوايا محفظة تغطيها البطاقات ، وعلى الجدار الداخلي صـــورة لبوريس مثبتة بالمسامير . كانت صورة هوية كبّرتهـــا لولا . وفكر بوريس : « هذه ، هذه ستبقى ، حـــين اكون قد اصبحت جسماً مهدمـــاً ، وستظل هيئتي هنا هيئة الشباب . » وكانت به رغبة لتمزيق الصورة .

قالت لولا : — انك كئيب ؛ فماذا هناك ؟

فقال بوريس : — انني منهوك ، واحسّ بألم في رأسي .

وبدت لولا قلقة :

— هل انت مريض يا حبيبي ؟ الا تريد قرصاً ؟

— لا ، لا بأس ، ان الألم يتقلص .

وأخذت لولا ذقنه ورفعت له رأسه :

— يبدو عليك انك ناقم عليّ . الست ناقماً عليّ ؟ بـــلى ! انت ناقم ! ماذا فعلت ؟

وبدا عليها انها مذعورة . فاحتجّ بوريس برخاوة :

— لست ناقماً عليك . انت مجنونة .

— بلى انت ناقم . ولكن ماذا فعلت لك ؟ الأفضل ان تقـــول لي

ذلك ، لأني استطيع اذ ذاك ان اشرح لك . انه بكل تأكيد سوء تفاهم . وليس إصلاحه بالأمر المستحيل . بوريس ، ابتهل اليك ، قل لي ماذا هناك .

– لا شيء .

وأحاط بذراعيه عنق لولا وقبّلها في فمها . وارتعشت لولا . وتنشق بوريس نفساً معطراً ، وكان يشعر وهو بازاء فمها بعري لزج . وكان مهتاجاً . وغطّت لولا وجهه بالقبل ، وكانت تلهث بعض الشيء .

وشعر بوريس بأنه كان راغباً في لولا ، فسرّه ذلك : لقد كانت الرغبة تُتعب الأفكار السوداء ، بل جميع الأفكار الاخرى . وخلق لنفسه حركة كبيرة في رأسه ، وأفرغ رأسه نفسه من فوق بسرعة . وكان قد وضع يده على كشح لولا ، وكان يلامس بشرتها عبر الثوب الحريري : فلم يكن بعد الا يداً ممددة على بشرة من حرير . وشنّج قليلاً يده فانزلق القماش تحت أصابعه كجلد ناعم ميت . اما البشرة الحقيقية ، فقد كانت تصمد من تحت ، مطاطة ، مثلجة كقفاز من جلد جدي مدبوغ . وقذفت لولا ، بحركة طائرة ، معطفها على السرير ، فانبثقت ذراعاها عاريتين ، وانعقدتا حول عنق بوريس : وكانت تنبعث منها رائحة عطر . وكان بوريس يرى إبطيها المحلوقين المنقطين بنقط صغيرة قاسية ذات لون اسود مزرقّ : فكأنها رؤوس شظايا صغيرة مغروزة بعمق . وبقي بوريس ولولا واقفين حيث داهمتهما الرغبة لأنهما لم يكونا يملكان بعد قوة الذهاب . وأخذت ساقا لولا ترتجفان ، وتساءل بوريس عما اذا كانا سيسقطان على مهل فوق السجادة . وضم اليه لولا ، وأحس بعذوبة نهديها الثقيلة . وتنهدت لولا :

– آه !

وكانت قد انقلبت الى خلف ، فاذا هو مسحور بهذا الرأس الأصفر ذي الشفتين المنتفختين ، هذا الرأس الميدوزي . وفكر : «ان هذه هي آخر

ايامها الجميلة ، وشدها اليه شداً أقوى . « سيأتي صباحٌ تنهار فيه فجأة » ولم يكن يكرهها ؛ وكان يحس وهو مشدود اليها بأنه قاس هزيل ممتلىء عضلات ، وكان يغمرها بذراعيه ويحميها من الشيخوخة . ثم اخذته لحظة شرود ونعاس : ونظر الى ذراعي لولا البيضاوين كشعر امرأة عجوز ، فحسب انه يمسك بالشيخوخة بين يديه ، وان عليه ان يشدّها بكل قواه حتى ليخنقها . وهمهمت لولا سعيدة :

– ما أشد ما تضمني . انك توجعني . انني اشتهيك .

وتخلص بوريس : لقد كان مصدوماً بعض الشيء .

– اعطيني منامتي ، فسوف اخلع ثيابي في غرفة التواليت .

ودخل غرفة التواليت واغلق الباب بالمفتاح : كان يكره ان تدخل لولا فيما هو يخلع ثيابه . وغسل وجهه وقدميه وتسلّى بذرّ المسحوق على ساقيه . وكان قد استعاد هدوءه تماماً ، وفكر : « ان هذا لطريف » وكان رأسه شارداً ثقيلاً ، ولم يعد يعرف جيداً ما يفكر به . وانتهى الى القول « يجب ان احدّث دولارو بهذا » . وخلف الباب ، كانت تنتظره ، ولا شك في انها كانت عارية . ولكن لم تكن به رغبة في الاستعجال . جسم عارٍ ، مليء بالروائح العارية ، شيء يبعث على الاضطراب ، وذلك ما لم تكن لولا تريد ان تفهمه . كان عليه الآن ان يدع نفسه يسيل في صميم شهوة باهظة ، ذات مذاقٍ قوي . ان من الممكن احتمالها اذ ينغمر فيها الانسان : اما قبل ذلك ، فلم يكن يسعه الا يخاف منها . وفكر في غيظ : « مهما يكن من امر ، فاني لا اريد ان أقع في الإغماء كالمرة السابقة . » ومشّط شعره بعناية فوق المغسلة ليرى اذا كان يفقد شعره . ولكن لم تسقط منه شعرة على الخزف الابيض . وحين ارتدى منامته ، فتح الباب ودخل الغرفة .

وكانت لولا متمددة على السرير عارية . كانت لولا اخرى ، مسترخية ونحيفة ، وكانت ترصّده عبر جفونها . وكان جسدها فوق الغطاء الازرق

ذا لون ابيض مفضّض ، كبطن سمكة ، مع طاقة شعر احمر في شكل مثلث . كانت جميلة . واقترب بوريس من السرير وتأملها في مزيج من الاغتلام والاشمئزاز ، وبسطت له ذراعيها ، وقال بوريس :

— انتظري .

وضغط على الزر ، فانطفأ النور . وامست الغرفة حمراء كلهـــا : فقد كان معلقاً منذ حين على البناية المقابلة ، في الطابق الثالث ، إعلان مضيء . وتمدد بوريس الى جانب لولا وأخذ يلامس كتفيها ونهديها . وكانت بشرتها من العذوبة حتى ليخال انها كانت محتفظة بثوبها الحريري.

وكان نهداها رخوين بعض الشيء، ولكن بوريس كان يحب ذلك: لقد كانا نهدي امرأة عاشت . وكان اطفاء النور بلا جدوى ، فقد كان بوريس يرى ، بسبب ذلك الاعلان اللعين ، وجه لولا مصفراً في اللون الاحمر ، ذا شفتين سوداوين : كان يبدو عليها انها تتألم، وكانت عيناها قاسيتين. وأحس بوريس بأنه ثقيل فاجع ، كما حدث له في « نيم » حين قفز الثور الاول الى الحلبة : ان شيئاً ما سيقع ؛ شيئاً لا مفر منه ، شيئاً مريعاً تافهاً ، كموت الثور الدامي . وقالت لولا مبتهلة :

— اخلع منامتك .

فقال بوريس : — لا .

وكان هذا امراً طقسياً . كانت لولا في كل مرة تطلب منه ان يخلع منامته وكان بوريس مضطراً للرفض . وانزلقت يدا لـــولا تحت سترته وأخذتا تلامسانه على مهل . وجعل بوريس يبكي .

— انك تدغدغينني .

وتعانقا . وبعد لحظة ، أخذت لولا يد بوريس وضغطتها على بطنها، لدى طاقة الشعر الاحمر : كان لها دائماً متطلبات غريبة ، وكان بوريس يضطر احياناً لمقاومتها . وترك ، لبضع لحظات ، يده ممدودة بلا حركة عند فخذي لولا ، ثم صعد بها على مهل حتى كتفيها . وقالت لولا

وهي تجذبه اليها :

ـ تعال ، انني اعبدك ، تعال ! تعال !

وما لبثت ان همهمت ، وقال بوريس في نفسه : « حسناً ، سوف أقع في الاغماء ! » وكانت موجة لزجة تصعد من جنبيه الى رقبته. وقال بوريس وهو يكزّ على اسنانه « لا اريد » ؛ ولكن خيّل اليه فجأة انه كان يُرفع من عنقه ، كأنه ارنب ، فترك جسده ينبطح على جسد لولا ، ولم يعد الا دوراناً شهوانياً احمر . وقالت لولا :

ـ حبيبي .

وأزاحته جانباً على مهل وخرجت من السرير . وظل بوريس متلاشياً ، ورأسه في الوسادة . وسمع لولا تفتح باب غرفة التواليت وفكر: « حين ينتهي الامر معها ، فسأكون طاهراً . انني لا اريد قصصاً بعد . انني اشمئز من المضاجعة . ولكي اكون منصفاً ، اعترف بأنني لا اشمئز من ذلك الى هذا الحد ، ولكني استفظع السقوط في الاغماء . ان المرء لا يدري عند ذلك ما يفعله بعد، ويشعر بأنه قد سيطر عليه ، فماذا يجدي بعد هذا ان يكون قد اختار امرأة ما ؟ سيكون الامر سواء مع جميع النساء ، اذ يصبح فيزيولوجياً . » وردد بنفور : فيزيولوجي! وكانت لولا تغتسل لليل . وكان صوت الماء عذباً بريئاً ، فاستمع اليه بوريس بسرور . لقد كان مهلوسو العطش في الصحراء يسمعون مثل هـذه الاصوات ، اصوات ينبوع . وحاول بوريس ان يتصور انه كان مهلوساً. لقد كانت الغرفة ، والضوء الاحمر ، وقرقرة المياه ، كل ذلك كـان هلوسات ، وانه يوشك ان يجد نفسه في الصحراء ، مضطجعاً على الرمل . وعلى عينيه خوذته الفلّينية . وبرز له فجأة وجه ماتيو، ففكر : « ان هذا لظريف . انني احب الرجال اكثر من النساء . انني اذ اكون مع امرأة ، لا ابلغ من السعادة ربع ما ابلغه اذ اكون مع رجل . على انني لا اود بأي ثمن ان انام مع رجل. » وابتهج وهو يفكر: « راهباً

سأصبح حين اترك لولا!» وأحس بأنه خشنٌ نقيٌ . وقفزت لولا الى السرير وأخذته بين ذراعيها وهي تقول :

– يا صغيري ! يا صغيري !

وداعبت شعره ، وسادت لحظة صمت طويلة . وكان بوريس قد بدأ يرى نجوماً تدور حين اخذت لولا تتكلم . وكان صوتها غريباً جداً في الليل الاحمر .

– ليس لي غيرك يا بوريس ، انني وحيدة في العالم ، فيجب ان تحبني كثيراً ، وانا لا استطيع ان افكر بسواك . اذا فكرت في حياتي، تأخذني الرغبة في ان ألقي بنفسي في الماء ، فيجب ان افكر فيك طوال النهار . فلا تكن قاسياً ياحبيبي ولا تؤذني ، انت كل ما يبقى لي . انني بين يديك يا حبيبي ، فلا تؤذني . لا تؤذني ابداً ، انني وحيدة جداً!

واستفاق بوريس منتفضاً وواجه الموقف بوضوح ، فقال بصوت جلي:

– اذا كنت وحيدة ، فلأنك تحبين ذلك ، ولأنك ذات كبرياء . والا لأحببت رجلاً اكبر منك سناً . اما انا ، فانني شاب اكثر مما ينبغي ، ولا استطيع ان امنعك من ان تكوني وحيدة . وعندي فكرة انك قد اخترتني من اجل هذا .

قالت لولا :

– لا ادري ، انني مشغوفة بحبك . هذا كل ما ادريه .

وكانت تضمه بوحشية بين ذراعيها . وسمعها بوريس تقول كذلك : « انني اعبدك » ثم استغرق في نوم عميق .

٣

الصيف . كان الهواء فاتراً كثيفاً ؛ وكان ماتيو يسير وسط المرتفع ، تحت سماء صافية ، وكانت ذراعاه تجدّفان ، وهما تُبعدان بُسُطاً ذهبية ثقيلة . الصيف . صيف الآخرين . اما في نظره ، فقد كان نهار اسود يبتدىء ، وهو سيزحف متلوّياً حتّى المساء ، عملية دفن تحت الشمس . عنوان . المال . لا بـد من الركض في اربع زوايا باريس . ساره ستعطي العنوان . ودنيال يدينه المال . او جاك . لقـد حلم بأنه كان قاتلاً ، وكان باقياً له شيء من الحلم في جوف عينيه ، سحقه ضغط النور الباهر . ١٦ شارع دولامبر . كانت سارة تسكن هنـاك ، في الطابق السادس ، وكان المصعد لا يعمل طبعاً . ورقي ماتيو الدرج على قدميه . كانت خلف الابواب المغلقة نساء يرتبن البيوت وقد ربطن على صدورهن وزرة ، وعقدن على رؤوسهن منشفة ؛ كان النهار بالنسبة اليهن ايضاً يبتدىء . ايّ نهار ؟ كان ماتيو يلهث لهـاثاً خفيفاً حين دق الجرس ، وفكر : « يجب عليّ ان اتريّض » وفكر بضجر : « اقول ذلك كلما رقيت درجاً . » وسمع كردحة دقيقة ؛ وفتح لـه الباب رجل قصير اصلع ذو عينين صافيتين ، وكان يبتسم . وعرفـه ماتيو : كان المانياً مهاجراً سبق له ان رآه مراراً في مقهى « الدوم »

وهو يرشف مفتوناً فنجان قهوة بالكريم ، او وهو منحنٍ فوق شطرنج يتأمل احجاره ويلحس شفتيه الغليظتين . وقال ماتيو :

— اودّ ان ارى سارة .

فاكتسى وجه الرجل القصير بالجدّ ، وانحنى وهو يصفق عقبيه ؛ وكانت اذناه بنفسجيتين . وقال بتصلب :

— اسمي ويمولر .

فقال ماتيو من غير ان يتأثر : — واسمي دولارو .

واستعاد الرجل القصير ابتسامته البشوش وقال :

— ادخل ، ادخل . انها تحت ، في الاستديو . وستكون سعيدة جداً . وأدخله في الممر ثم اختفى وهو ينطنط . ودفع ماتيو الباب الزجاجي وولج ستوديو غوميز . وتوقف على سطيحة الدرج الداخلي وقد بهره النور الذي كان يتدفق من الشبابيك الزجاجية الكبيرة المغبرة . وطرف ماتيو بعينيه ، وكان رأسه يؤلمه .

وقال صوت ساره : — من هناك

فانحنى ماتيو فوق الدرابزين . وكانت ساره جالسة على الديوان ، وهي تلبس « كيمونو » اصفر ، وكان يرى رأسها تحت شعر متصلب قليل. وكان يضيء قبالتها مصباح: هذا الرأس الاحمر ، رأس الاصعل[1] .. وفكر ماتيو منزعجاً : « انه برونه » ولم يكن قد رآه منذ ستة اشهر، ولكن لم يكن يسرّه قط ان يلقاه ثانية لدى ساره : ان ذلك مربكٌ حقاً ، وإن لديهما اشياء كثيرة يقولانها، وان صداقتهما المختصرة كانت منتصبة بينهما . ثم ان برونه كان يجلب معه جوّ الخارج ، عالماً سليماً برمّته ، عالماً قصيراً عنيداً بثوراته وعنفه ، وعمله اليدوي وجهوده الصابرة ونظامه ؛ إنه لم يكن بحاجة للاستماع الى السرّ الصغير المعيب ،

---

(١) القصير الرأس.

سر المخدع ، الذي قدم ماتيو ليبوح بـــه الى ساره . ورفعت ساره رأسها وابتسمت قائلة :

– مرحباً ، مرحباً .

فبادلها ماتيو بسمتها : وكان يرى ، من فوق ، هذا الوجه المسطّح الذي زال رونقه وتأكلته الطيبة ، ويرى تحته الثديين الكبيرين الرخوين اللذين كانا يبدوان الى نصفهما خــارج الكيمونو . واسرع بالهبوط ، وسألته ساره :

– ما الذي جاء بك ؟

فقال ماتيو : – يجب ان اسألك شيئاً .

فتورد وجه ساره شراهة وقالت :

– كل ما تريد .

واضافت وقد ابهجها السرور الذي كانت تقدّر انها ستمنحه إياه :

– اتدري مَنْ عندي ؟

والتفت ماتيو الى برونيه وصافحه . وكانت ساره ترنو اليهما بعين حنان . وقال برونيه :

– مرحباً ، ايها الاشتراكي الخائن العتيق !

وكان ماتيو مسروراً بأن يسمع هـــذا الصوت ، رغم كل شيء . وكان برونيه هائلاً وشديداً ، ذا وجه فلاحي بطيء التعبير . ولم يكن يبدو عليه انه قريب الى القلب بصورة خاصة . وقال ماتيو :

– مرحباً ، حسبتك قد متّ .

فضحك برونيه من غير ان يجيب . وقالت ساره بنهم :

اجلس بالقرب مني .

وكانت تعلم انها ستؤدي له خدمة ، فهو الآن ملكهـــا . وجلس ماتيو . وكان بابلو الصغير يلعب تحت الطاولة بأجسام مكعبة . وسأل ماتيو :

– ما اخبار غوميز ؟

قالت ساره : – انها الاخبار عينها . انه في برشلونه .

– وهل بلغك شيء من انبائه ؟

فأجابت ساره ساخرة : – في الاسبوع الماضي كتب لي يروي انتصاراته !

والتمعت عينا برونيه :

– اتعلم انه اصبح كولونيلاً ؟

كولونيل . وفكر ماتيو برجل الامس فانقبض قلبه . اما غوميز ، فقد ذهب ، هو . كان ذات يوم قد علم من جريدة « باري سوار » سقوط « ايرون » . فظل وقتاً طويلاً يذرع مرسمه جيئة وذهاباً ، وهو يمرّر اصابعه عبر شعره الاسود . ثم هبط وهو عاري الرأس ، مرتدياً سترته . وظل المرسم في الحالة التي تركه عليها : لوحة غير ناجزة على المسند ، ولوح من النحاس محفور نصف حفر على الطاولة ، وسط زجاجات الحامض وكانت اللوحة والنقش يمثلان الآنسة ستيمسون . وكانت عارية في اللوحة . وتمثّلها ماتيو ثملةً رائعة تغني بصوت ابحّ وذراعها في ذراع غوميز . وفكر : « مهما يكن من امر ، فقد كان اقسى مما ينبغي مع ساره .» وسألته ساره بصوت جذل :

– ايكون الوزير هو الذي فتح لك ؟

لم تكن تريد ان تتحدث عن غوميز . وكان قد سبق لها ان غفرت له كل شيء ، خياناته وفراره وقسوته . ولكنها لم تغفر له هذا ، رحيله الى اسبانيا : فقد ذهب ليقتل بشراً . وقد قتل بعض البشر . وقد كانت الحياة البشرية ، في رأي ساره شيئاً مقدساً .

وسألها ماتيو دهشاً : – اي وزير ؟

فقالت ساره باعتزاز ساذج :

– الفأر الصغير ذو الاذنين الحمراوين ، هو وزير . لقد كان عضواً

في حكومة مونيخ الاشتراكية عام ٢٢ . اما الآن ، فهو يموت جوعاً.
— وطبعاً ، التقطته انتِ ؟
فأخذت ساره تضحك .
— لقد جاءني يحمل محفظته . والحقيقة انه لم يبق له مكان يذهب اليه . وقد طردوه من فندقه لأنه لم يكن يملك بعد ما يدفعه .
فعدّ ماتيو على اصابعه وقال :
— مع « انيا » و « لوبيز » و « سانتي » يصبح نزلاؤك اربعة
فقالت ساره بلهجة اعتذار :
— اما « انيا » فذاهبة . لقد وجدت عملاً .
قال برونيه :
— يا للحماقة !
— ماذا ؟ ما هي الحماقة ؟
قالت ساره وهي تضع يدها على ذراع ماتيو :
— آه ، تعال لنجدتي ، يا عزيزي ماتيو .
— ولكن ما هي القصة ؟
قال برونيه لساره بلهجة استياء :
— ان الامر لا يهم ماتيو :
ولم تكن تصغي اليه بعد ؛ فقالت بلهجة اشفاق :
— انه يريدني ان اطرد وزيري .
— تطردينه ؟
— ويقول اني مجرمة لاحتفاظي به .
فقال برونيه بهدوء : — ان ساره تبالغ .
والتفتت الى ماتيو ، واخذ يشرح له ، على مضض :
— الواقع ان لدينا معلومات سيئة عن هذا الرجل . ويبدو انه كان منذ ستة اشهر يجوس ممرات السفارة الالمانية . وليس المرء بحاجة لأن

يكون داهية ليفهم ما يمكن لمهاجر يهودي ان يفعل هناك .

قالت سارة : — ليست لديك ادلة .

— أجل . ليس لنا ادلة . ولو كان هناك ادلة ، ما كان هنا قط . ولكن حتى ولو لم يكن هناك الا تخمينات ، فان سارة عديمة الحذر بايوائه .

وقالت سارة بحماسة : — ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

قال برونيه برقة : — اسمعي يا ساره ! انك على استعداد لنسف باريس كلها من اجل ان تجنّبي الذين تحمينهم ايّ ازعاج !

فابتسمت سارة ابتسامة خفيفة وقالت :

— ليس باريس كلها . ولكن المؤكد انني لن أضحّي بـ «ويمولر» من اجل قضاياك الحزبية . إن ... إن الحزب امر مجرد تماماً .

قال برونيه : — هذا ما كنت اقوله بالذات .

فهزت ساره رأسها بعنف ، وكان وجهها قد احمرّ وعيناها الكبيرتان الخضراوان قد دمعتا ، فقالت بغيظ :

— الوزير الصغير ، لقد رأيته يا ماتيو ، فهل يمكن ان يؤذي حتى ذبابة !

وكان هدوء برونيه عظيماً . كان هدوء البحر . وكان ذلك مهدّئاً ومغيظاً في الوقت نفسه . لم يكن يبدو عليه قط انه رجل واحد ، بل كان يعيش حياة جمهور كامل بكل هدوئها وصمتها وصخبها . واوضح قائلاً :

— إن غوميز يرسل لنا احياناً بعض الرسل ، وهم يأتون الى هنـا فنلتقيهم في منزل ساره ، وانت تدرك ان الرسائل التي يحملونها سرية ؛ أفيكون هذا هو المكان الذي تختاره من جميع الأمكنة لتستضيف فيه رجلاً اشتهر بأنه جاسوس ؟

فلم يجب ماتيو . كان برونيه قد استعمل الصيغة الاستفهامية ، ولكن

ذلك كان امراً خطابياً : انه لم يكن يسأله رأيه . ولقـد انقضى وقت طويل على انقطاع برونيه عن اخذ رأي ماتيو في اي أمر من الامور .

— انني اجعلك حكماً يا ماتيو : اذا طردت « ويمولر » قذف نفسه في نهر السين . (ثم اضافت بلهجة يائسة) فهل يحق لنا حقاً ان ندفع انساناً الى الانتحار لمجرد شبهة ؟

وكانت قد انتصبت ، قبيحة ومشرقة ، لتولّد في نفس ماتيو شعور المشاركة الملطخة الذي يحس به المرء تجاه المسحوقين والمصابين والمرضى بالالتهابات والقروح . وسأل :

— هل الأمر جدّ ؟ هل سيقذف نفسه في السين ؟

فقال برونيه : — طبعاً لا ، بل سيعود الى السفارة الالمانية وسيحاول ان يبيع نفسه كلياً ...

قال ماتيو : — الامر سواء . انه في جميع الاحوال هالك .

فهز برونيه كتفه بلامبالاة وقال :

— نعم ، صحيح .

قالت ساره وهي تنظر اليه بقلق :

— اتسمعه يا ماتيو ؟ اذن ، من هو على صواب ؟ قلْ شيئاً .

ولم يكن لدى ماتيو ما يقوله . لم يكن برونيه يسأله رأيه ، وما عساه يجديه رأي رجل بورجوازي ، مثقف قذر ، كلب حراسـة ؟ « سوف يستمع بتأدّب مثلّج ، ولكنه لن يكون اشد تأثـراً من صخرة ، وسيدينني بمـا اقوله ، وهذا كل ما في الأمر . » ولم يكن ماتيو يريد ان يدينه برونيه . وقد كان ثمة فترة لم يكن احـدهما يدين فيها الآخر ، بصورة مبدئية . وكان برونيـه يقول آنذاك : ان الصداقة ليست مجعولة للانتقاد ، وانما هي مجعولة لتمنح الثقـة . » ولعله ما زال يقول ذلك ، ولكنه اذا قاله الآن ، فانما يعني رفاقه في الحزب .

وقالت ساره : ماتيو !

فانحنى برونيه نحوها ولامس ركبتها وهو يقول بهدوء :

– اسمعي يا ساره . انني احب كثيراً ماتيو ، واقدر ذكاءه . وحين يكون الأمر ان يُوضّح مقطع من سبينوزا او من كانط ، فهو الذي استشيره بكل تأكيد . اما هذه القضية ، فهي بليدة جداً ، واقسم لك انني لست بحاجة الى َحكم ، حتى ولو كان استاذ فلسفة . لقد حددت موقفي .

وفكر ماتيو : طبعاً . طبعاً . وكان قلبه قد انقبض ، ولكنه لم يكن ناقماً على برونيه . من اكون حتى اعطي النصائح ؟ وما الذي فعلته في حياتي ؟ وكان برونيه قد نهض فقال :

– يجب ان امضي . وطبعاً ، ستعملين ما تشائين ، يا ساره . انت لست من الحزب ؛ ومع ذلك فان ما تؤدينه لنـــا عظيم . ولكن اذا احتفظت به ، فاني اطلب اليك ببساطة ان تمرّي عليّ حين يرسل لك غوميز اخباره .

فقالت ساره : – حسناً .

وكانت عيناها تلتمعان ، وكان يبدو انها قد تحرّرت . وقـــال برونيه :

– ولا تدعي شيئاً يظهر . احرقي كل شيء .

– اعدك بذلك .

والتفت برونيه الى ماتيو :

– هيّا ، الى اللقاء ، ايها الأخ القديم .

ولم يمدّ يده ، وكان يتأمله بتنبّه ، وبشيء من القسوة ، نظـــرة مارسيل ، مساء امس ، ودهشتها الحاقدة . وكان عارياً تحت نظراته ، شخصاً طويلاً عارياً ، من لبّ الخبز . شخصاً مرتبكاً عديم الحذق . من اكون حتى اعطي نصائح ؟ وطرف بعينه : كان برونيه يبدو قاسياً

ذا عقد . اما انا ، فاني أحمل الإجهاض على وجهي . وتكلم برونيه فلم يكن صــوته ذاك الصوت الذي كان ماتيو ينتظره ، إذ قــال بهدوء :

— إن سحنتك رديئة . فما الذي تشكوه ؟

وكان ماتيو قد نهض ايضاً :

— انني واقع في ... ارتباك . ولكن لا أهمية لذلك .

فوضع برونيه يده على كتفه . وكان ينظر اليه متردداً :

— إنها لحماقة . يضيع المرء كل وقته وهو يعدو ذات اليمين وذات الشمال ، ولا يجد وقتاً للاهتمام بالاصدقاء القــدامى . فلو انك متّ ، فسأعلم نبأ موتك بعد شهر ، وبالصدفة .

قال ماتيو ضاحكاً : — لن اموت في مثل هذا التاريخ المبكّر .

وأحس بقبضة برونيه على كتفه ، وكان يفكر : « إنــه لا يدينني » فأحسّ بعرفانٍ متواضع يستولي عليــه . وظل برونيه جـاداً فقــال :

— لا ، ليس في مثل هذا التاريخ المبكر . ولكن ...

وبدا عليه اخيراً انه يعزم :

— هل انت حرّ حوالى الساعة الثانية ؟ ان عنـدي بعض فراغ ، وبوسعي ان اقفز الى بيتك ؛ ويمكننا ان نتحدث قليلاً ، كالسابق .

فقال ماتيو :

— كالسابق ، انني حرّ تماماً . وسأنتظرك .

وابتسم له برونيه بصداقة . وكان قد احتفظ ببسمته الساذجة المرحة . واستدار حول نفسه ، وتوجه نحو السلّم . وقالت ساره :

— سأرافقك .

وتبعها ماتيو بعينيه . وكان برونيه يرقى الدرج بمرونة اخاذة . وقال في نفسه : « لم يضع كلّ شيء . » واختلج شيء ما في صدره ،

شيء فاتر ومتواضع كان يشبه الأمل . وخطا خطوات . واصطفق الباب فوق رأسه . وكان بابلو الصغير ينظر اليه بوقار . واقترب ماتيو من الطاولة واخذ مقصاً . وطارت ذبابة كانت قد حطت على صفحة النحاس . وكان بابلو ما يزال ينظر اليها . واحس ماتيو بالانزعاج ، من غير ان يعرف السبب . وكان لديه شعور بأن عيني الصبيّ تبتلعانه . وفكر : « ان الصبيان هم شرهون صغار ، وجميع حواسّهم أفواه » . لم يكن نظر بابلو نظراً انسانياً بعد ، ومع ذلك فقد كان شيئاً اكثر من الحياة : فلم يمض وقت طويل على خروج الطفل من بطن ، وكان هذا يُرى واضحاً ، كان هناك ، صغيراً ، متردداً ، وكان لا يزال يحتفظ بأثر مخملي وخم من شيء مُقاء ، ولكن كان يكمن وراء الاخلاط المضطربة التي كانت تملأ محجريه وجدان صغير نهم . وكان ماتيو يلعب بالمقص . وفكر « ان الطقس حار » . وكانت الذبابة تطن حوله ، كان هناك ، في حجرة وردية ، داخل بطن آخر ، جسم صغـــير متجعّد ينتفـخ . وسألة بابلو :

— أتعلم بمَ حلمت ؟

— كلا .

— حلمت بأني كنت ريشة .

فقال ماتيو في نفسه : « انه يفكر ! » وسأله :

وماذا كنت تفعل حين كنت ريشة ؟

— لا شيء . كنت نائماً .

ورمى ماتيو فجأة بالمقص على الطاولة ، فاخذت الذبابة ترفرف مذعورة ، ثم حطّت على صفحة النحاس بين فُرضتين رقيقتين تمثلان ذراع امرأة . كان لا بد من الاسراع ، لأن الجسم الصغير كان ينتفخ في هذه الأثناء ، وكان يبذل جهوداً غامضة لكي ينزع عنه الغطاء اللزج ، ولكي ينتزع نفسه من الظلمات ، ويصبح شبيهاً بهــذا ، بهذا المحجم الشاحب الرخو

الذي كان يلتهم العالم .

وخطا ماتيو بضع خطوات على الدرج . وكان يسمع صوت ساره . لقد فتحت الباب ووقفت على العتبة تبتسم لبرونيه . ما الذي تنتظر لتهبط ؟ وانفتل الى الصبي والى الذبــابة . صبي . لحم مفكر يصرخ وينزف حين يُقتل . إن الذبابة أسهل قتلاً من صبيّ . وهز كتفيه : « انني لن اقتل احداً . انما سوف امنع طفلاً من ان يولد . » وكان بابلو قد عاد يلعب بمكعباته ، كان قد نسي ماتيو . ومد ماتيو يده ولمس الطاولة باصبعه . وكان يردد لنفسه بدهشة « امنع ولادة ... » فكأنما كان ثمة في مكان ما طفل جاهز ينتظر ساعة القفز من هذه الناحية من الديكور ، في هذه الغرفة تحت هذه الشمس ، وكان ماتيو يسد عليه الطريق . والواقع ان ذلك كان كذلك تقريباً : كان ثمة رجل قصير متنكر وماكر ، كاذب وأليم ، ذو بشرة بيضاء ، واذنان عريضتان وشامات ، مع قبضة من العلامات الفارقة تشبه تلك التي توضع على الجوازات ، رجل قصير لن يعدو قط في الطرقات ، لأن له قدمــاً على الرصيف واخرى في الساقية ، وكان ثمة عينان ، عينان خضراوان كعيني ماتيو او سودوان كعيني مارسيل اللتين لن تريا ابداً سماوات الشتاء المخضرّة ، ولا البحر ، ولا أي وجه ، وكان ثمة ايدٍ لن تمس الثلج ابداً ، ولا بشرة النساء ، ولا لحاء الشجر : كان ثمة صورة للعالم دامية ، مضيئة ، عابسة مهووسة ، كئيبة ، تفيض بالآمال ، صورة تغمرها الحدائق والبيوت وفتيات فارعات رقيقات ، وحشرات مريعة ، صورة توشك ان تُفجّر برأسِ دبوس ككرة من كرات اللوفر . قالت ساره :

ـ ها أنذا ، هل جعلتك تنتظر !

فرفع ماتيو رأسه واستشعر التفريج : كانت منحنية على الدربزين ، ثقيلة قبيحة ، كانت امرأة بالغة ، لحماً قديماً يبدو وكأنه خــارج من المملوحة وكأنه لم يولد قط ، وابتسمت له ساره وهبطت الدرج مسرعة .

وكان الكومينو يتطاير حول ساقيها القصيرتين . وقالت بشراهة :
– نعم ؟ ماذا هناك ؟
وكانت عيناها الكبيرتان المضطربتان تتفحصانه بالحاح . وانفتل وقال بجفـــاء :
– ان مارسيل حامل .
– اوه !
وكان يبدو على سارة انها اقرب لأن تكون مغتبطة . وسألت بخجل :
– إذن .. سوف ؟..
قال ماتيو بحماسة : – لا ، لا . اننا لا نريد اطفالاً .
قالت : – حسناً ، فهمت .
وخفضت رأسها ولزمت الصمت . ولم يستطع ماتيو ان يحتمل هذا الحزن الذي لم يكن حتى عتاباً ، فاستطرد يقول بوحشية :
– أظن ان ذلك قد حصل مرة معك ، كما اخبرني غوميز .
– نعم . في الماضي .
ورفعت عينيها فجأة واضافت باندفاع :
– ان هذا ليس ذا اهمية على الاطلاق اذا أُدرك في حينه .
وكانت تمتنع عن ادانته ، وكانت تتخلى عن تحفظاتها وعن مآخذها ، ولم يكن لها بعد الا رغبة واحدة ، هي ان تطمئنه .
– ليس الأمر بذي بال على الاطلاق ...
وكان يوشك ان يبتسم وان يواجه المستقبل بثقة ؛ ستكون وحدها التي تحمل الحـــداد بسبب هذه الميتة الصغيرة الخفية . وقال ماتيـــو مغتاظاً :
– اسمعي يا ساره ، وحاولي ان تفهميني : انني لا اريد ان اتزوج . وليس ذلك بدافع من انانية : ولكني اجد الزواج ...
وصمت : كانت ساره متزوجــة ، كانت قد تزوجت غوميز منـذ

خمس سنوات . واضاف بعد لحظة :

– ثم ان مارسيل لا تريد اولاداً .

– الا تحب الاولاد ؟

– إن هذا لا يهمّها .

فبدا على سارة الامتعاض وقالت :

– نعم ، نعم .. اذن ، في الحقيقة ...

وأخذت يديه :

– ماتيو ، يا صديقي المسكين ، لا بدّ انك كثير الانزعاج ! وبودي لو استطيع ان اساعدك .

قال ماتيو : – هذا بالذات ما اريده . انك تستطيعين ان تساعدينا . حين حدث لك ذلك ... الانزعاج ، ذهبت ترين احداً ما ؛ رجلاً روسياً ، على ما اظن .

قالت ساره : – نعم (وتغيرت سحنتها) كان ذلك مريعاً !

فقال ماتيو بصوت عكر : – آه .. انه .. انه مؤلم جداً .

– ليس آلم مما ينبغي ، ولكن ... (وقالت بلهجة اشفاق) كنت افكر بالطفل . انت تعلم ان غوميز كان يريده . وحين كان يريد شيئاً ما ، في ذلك العهد ... ولكن ذلك كان مريعاً .. وابداً لن .. إن بوسعه ان يبتهل إليّ وهو جاثٍ على ركبتيه ، الآن ، ولكنني لن اعيدها ابداً .

ونظرت الى ماتيو بعينين شاردتين :

– لقد اعطوني حزمة صغيرة ، بعد العملية ، وقالوا لي « إقذفي ذلك في بالوعة » . في بالوعة . كجرذ ميت !

وأضافت وهي تضمّ يديه بقوة : – اسمع يا ماتيو ! انك لا تعلم ما انت قادم عليه !

فسألها ماتيو غاضباً :

– واذا وضعت ولداً ، اتراك تكونين اكثر علماً مني ؟

طفل : وجدان جديد ، نور صغير جديد يطير مستديراً ، فيصطدم بالجدران ويعجز عن الفرار بعد .

ـ لا ، وانما اقصد : انت لا تعلم ما الذي تطلبه من مارسيل ؛ انني اخشى ان تكرهك فيما بعد .

وتمثل ماتيو عيني مارسيل ، عينيها الكبيرتين القاسيتين المحاطتين بدائرة مزرّقة . وسأل بجفاء :

ـ هل تكرهين غوميز ؟

فأتت ساره حركة اشفاق وعجز : انها لم تكن تستطيع ان تكره احداً ، ولا سيما غوميز . ثم قالت بلهجة غامضة :

ـ مهما يكن من امر ، فليس بوسعي ان ارسلك الى هذا الروسي الذي ما زال يعمل ، ولكنه يشرب الآن ، فليست لي به ثقة بعد ، وقد حدثت له قصة قذرة منذ عامين .

ـ الا تعرفين شخصاً آخر ؟

فقالت ساره بهدوء : ـ لا اعرف احداً .

ولكن طيبتها كلها ما لبثت ان انبثقت على وجهها فجأة فصاحت :

ـ بلى ، بوسعي ان ارشدك ، فكيف لم افكر بذلك ؟ سوف اتدبر الامر ، والدمان . ألم تره عندي ؟ يهودي متخصص بالأمراض النسائية . انه اخصائيّ الاجهاض ، على نحو ما وستكون معه مطمئناً. لقد كان له في برلين زبائن كثيرون . وحين استولى النازيون على السلطة ، ذهب يقيم في فيينا . وبعد ذلك ، حدث الانشلونس فأبحر الى باريس يحمل بيده محفظة صغيرة . ولكن كان قد حوّل كل ماله الى زوريخ قبل ذلك بوقت طويل .

ـ اتظنين انه سيقبل ؟

ـ طبعاً . انني ذاهبة لأراه اليوم بالذات .

فقال ماتيو : ـ انني مسرور . مسرور جداً . هل يأخذ اجراً

غالياً جداً ؟

ـ كان يتقاضى هناك حتّى ألفي مارك .

فامتقع ماتيو :

ـ عشرة آلاف فرنك ؟

فأضافت بحيوية :

ـ ولكن ذلك سرقة. كان يحمل الناس على ان يدفعوا ثمن شهرته . اما هنا ، فلا يعرفه احد ، ولّا بد ان يكون معقولاً . وسوف اعرض عليه ثلاثة آلاف فرنك .

فقال ماتيو وهو يكز على اسنانه : ـ حسناً .

وكان يتساءل : « من اين آتي بهذا المال ؟ »

وقالت ساره : ـ اسمع ، لماذا لا اقصده منذ هذا الصباح ؟ انه يسكن شارع « بليز ديغوف » وهو قريب جداً . سوف ارتدي ثيابي وأهبط . فهل تنتظرني ؟

فقال ماتيو : ـ لا ... ان عندي موعداً في العاشرة والنصف . انك جوهرة يا ساره .

وأخذها من كتفيها وهزّها وهو يبتسم . لقد أزالت عنه اعمق مخاوفه وجعلت من نفسها ، بدافع السماحة ، شريكة عمل كان يوحي بالذعر : كانت تشعّ سروراً . وسألته :

ـ اين ستكون حوالي الحادية عشرة ؟ ان بوسعي ان اخـابرك بالتلفون .

ـ سأكون في مقهى « ديبون » بشارع سان ميشال . وبوسعي ان ابقى فيه حتّى تتصلي بي .

ـ في « ديبون » ؟ اتفقنا .

وكان مئزر ساره قد انفتح عن ثدييها الهائلين . فضمها ماتيو اليه بدافع حنان ، وحتّى لا يرى جسدها بعد . قالت ساره :

ـ الى اللقاء ، الى اللقاء ، يا عزيزي ماتيو .

ورفعت اليه وجهها الرقيق الذي زال رونقه . وكان في هذا الوجه تواضع يثير الاضطراب والشهوة ويرغّب في إيذائها وارهاقها بالخجل . كان دانيال يقول : « حين اراها ، افهم معنى السادية . » وقبّلها ماتيو على خدّيها .

* * *

« الصيف ! » كانت السماء تتسلط على الشارع ، وكانت شبحاً معدنياً ؛ كان الناس يعومون في السماء ، وكانت وجوههم تتوهج . وتنشّق ماتيو رائحة خضراء حيّة ، غباراً فتياً ، وطرف بعينيه وابتسم. « الصيف ! » وخطا بضع خطوات ، فعلق بنعله القطران الاسود الذائب المنقّط بحبات بيضاء : لقد كانت مارسيل حاملاً ، وليس هو بعد الصيف ذاته .

كانت نائمة ، وكان جسدها سابحاً في ظلّ كثيف ، وكان يرشح وهي نائمة . وكان نهداها الجميلان البنفسجيان قد ارتخيا ، وكانت قُطيرات تنبجس حول حلمتيها ، بيضاء مالحة كالزهور . انها تنام . انها تنام دائماً حتى الظهر . اما الجسم المتجعد الصغير ، في جوف بطنها . فلم يكن لينام ، وهو لا يملك وقتاً للنوم: انه يتغذّى وينتفخ . وكان الزمن يسيل دفعات صلبة لا تنقطع . كان الجسم المجعد ينتفخ ، وكان الوقت يسيل . « يجب ان اجد المال في الثماني والاربعين ساعة . »

حديقة اللكسمبورغ ، حارّة بيضاء ، تماثيل وحمام : وأطفال . الاطفال يركضون ، والحمام يطير . ركض ، بروق بيضاء ، فرق صغيرة تتبدّد . وجلس على كرسي من حديد : « اين اجد المال ؟ ان دانيال لن يعيرني اياه . ومع ذلك فسوف اطلبه منه .. ثم ، كآخر سهم ، ستكون لي امكانية التوجه الى جاك . » وكان العشب يزبد

حتى قدميه ، وكان تمثال يمدّ له مؤخرته الحجرية الفتية ، وكان الحمام يسجع ، طيور من حجر : « ليست القضية ، بعد كل حساب ، الا قضية خمسة عشر يوماً ، وسوف ينتظر هذا اليهودي حتى آخر الشهر ، ويوم ٢٩ سأقبض راتبي . »

وتوقف ماتيو فجأة : كان يرى نفسه وهو يفكر ، وكان يشمئز من نفسه : « في هذه الساعة ، يضرب برونيه في الشوارع ، على هواه في النور ، وهو خفيف لأنه ينتظر ، هو يمشي عبر مدينة من زجاج مفضض لن يلبث ان يكسره ؛ انه يستشعر القوة ، وهو يمشي متمايلاً مترنحاً ، بكل حذر ، لأن الوقت لم يحن بعد لتحطيم كل شيء ، انه ينتظر ، انه يأمل . اما انا ، اما انا ! ان مارسيل حامل . هل ستقنع ساره ذلك اليهودي ؟ اين اجد المال ؟ هذا ما افكر به ! »
واستعاد فجأة صورة عينين متقاربتين تحت حاجبين كثيفين اسودين : « مدريد ، كان بودي ان اذهب اليها . اقسم لك . ولكن ذلك لم يتمّ . وفكر فجأة : « لقد شخت . »

انني شيخ . هأنذا مسترخ على كرسي ، منخرطٌ حتى العنق في حياتي ، وغير مؤمن في شيء . ومع ذلك ، فقد وددت انا ايضاً ان اذهب الى « اسبانية » ما . ثم لم يتم ذلك . هل هناك « اسبانيات » ؟ انني هنا ، أتلمظ ، واحس مذاق الدم القديم والمياه المعدنية ، مذاقي انني مذاقي بالذات ، انني موجود . ذلك هو الوجود : ان يشرب الانسان نفسه على غير عطش . اربعة وثلاثون عاماً . منذ اربعة وثلاثين عاماً وانا اتذوق نفسي ، وانا شيخ . لقد عملت ، وانتظرت ، وكان لي ما اريد : مارسيل ، باريس ، الاستقلال ، وانتهى الامر ، فأنا لا انتظر بعد شيئاً . وكان ينظر الى هذه الحديقة النمطية ، الجديدة دائماً ، التي هي نفسها دائماً ، كالبحر ، تجتازها منذ مئة عام موجات الالوان والاصوات نفسها . كان هناك ما يلي : هؤلاء الاطفال الذين

كانوا يركضون بلا انتظام ، الاطفال انفسهم منذ مائة عـــام ، وهذه الشمس نفسها تنصب ّ على ملكات الجبس ذوات الاصابع المكسورة وجميع هذه الاشجار . وكانت هناك ساره وكيمونوها الاصفر ، ومارسيل حبلى ، والمال . ان ذلك كله كان من الطبيعة والعادية والرتابة بحيث كان يكفي لأن يملأ حياة ، تلك هي الحياة . اما الباقي ، الاسبانيات ، والقصور في اسبانيا ، فقد كان ... ماذا ؟ دين ٌ لا ديني ّ صغير حـــار ٌ يصلح لي ؟ المصاحبة الخفية السارفيمية لحياتي الحقيقية ؟ لا دليل؟ كذلك كانوا يروني ، هم ، دانيال ، ومارسيل وبرونيه وجاك : الانسان الذي يريد ان يكون حراً . انه يأكل ويشرب كسائر الناس ، وهو موظف في الحكومة ، وهو لا يتعاطى السياسة ، وهو يقرأ جريدتي « الاوفر » و « البوبولير » . وهو يعاني ضيقاً مالياً. ولكنه يريد فحسب ان يكون حراً ، كما يريد آخرون مجموعة من الطوابع . ان الحرية هي حديقته المقدسة ، ضلوعه اليسير مع نفسه . شخص كسول بارد ، خيالي بعض الشيء: ولكنه في الحقيقة عظيم الرشاد ، صنع لنفسه سعادة جمود عادية وصلبة ، وهو يبرر نفسه بين الفينة والفينة باعتبارات رفيعـــة . ايكون هذا هو ما انا ؟

كان في السابعة من عمره ، وكان في « بيتيفيبيه » عند عمه جول ، طبيب الاسنان « وحيداً في قاعة الانتظار ، وكان يتكلف منع نفسه من ان يوجد : كان عليه ان يحاول الا يلتهم نفسه ، كشأن من يحتفظ على لسانه بمائع مثلج فيما هو يمسك حركة الابتلاع الصغيرة التي تجعله يسيل الى الحنجرة . وكان قد نجح بأن يُفرغ رأسه تماماً . ولكن هذا الفراغ كان ما يزال يحتفظ بمذاق . كان يوم حماقات . وكان يقبع في حرارة ريفية تنبعث منها رائحة الذباب ؛ والواقع انه كان قد قبض على ذبابة ونزع جناحيها . ولاحظ ان رأسها كان يشبه طرف عود ثقاب ، فذهب الى المطبخ وأتى بالمبرد وراح يحكه به ليرى اذا كان سيشتعل . ولكن

كان يفعل ذلك كله باهمال : كانت مهزلة حقيرة فارغــة ، وكان لا ينجح في الاهتمام بنفسه ، وكان يعلم جيداً ان الذبابة لن تشتعل . وكان على الطاولة مجلات ممزقة وآنية صينية جميلة ، خضراء ورمادية ، ذات عُرى تشبه براثن الببغاء ؛ وكان عمه جول قد قال له ان عمر هذه الآنية ثلاثة آلاف عام . وكان ماتيو قد اقترب من الآنية، ويداه خلف ظهره، ونظر اليها وهو يتراقص في قلق : انه لمخيف ان يكون الانسان كرّية من العجين ، في هذا العالم الهرم المشويّ ، تجاه آنية عديمة الاحساس ذات ثلاثة آلاف عام . وكان قد اولاها ظهره وأخذ يقلب عينيه وينخر امام المرآة ، من غير ان ينجح في تسلية نفسه ، ثم عاد فجأة الى الطاولة، ورفع الآنية التي كانت ثقيلة جداً ، وقذف بها ارضاً : هكذا خطر له ذلك ، وما لبث ان شعر بأنه خفيف ، كخيط من خيوط « العذراء » . وقد نظر الى شظايا البورسلين مسحوراً . لقد حدث شيء ما لهذه الآنية ذات الثلاثة الآلاف عام بين هذه الجدران الخمسينية ، تحت نور الصيف القديم ، شيء وقح يشبه الصباح . وكان قد فكر : « انا الذى فعلت ذلك ! » واستشعر الفخر ، وأحس بأنه متحرر من العالم وبلا جذور ، بلا اسرة ، بلا اصول ، وانه انبثاق صغير عنيد فجّر قشرة الارض.

وكان في السادسة عشرة ، وكان وحشاً صغيراً ، وكان مستلقياً على الرمل ، في « اركاشون » وكــان ينظر الى امواج المحيط المسطحة . وكان قد ضرب شاباً من بوردو قذفه بالحجارة، فأجبره على اكل التراب. وفيما كان جالساً في ظل الصنوبر ، متقطــع الانفاس ، مملوء المنخرين برائحة الصمغ الصنوبري ، كان لديه احساسٌ بأنه انفجار صغير معلق في الهواء ، انفجار صريـح ، شرس ، غير قابل للتفسير . وكان قد قال لنفسه : « سأصبح حراً » او انه بالاحرى لم يقل لنفسه شيئاً على الاطلاق . وانما كأن هذا ما يود ان يقوله ، وكان ذلك رهاناً . كان قد راهن بأن حياته كلها ستشبه هذه اللحظة الفريدة . وكان في الحادية

والعشرين ، وكان يقرأ سبينوزا في غرفتـــه وكان يوم ثلاثاء المرفع ، وكانت شاحنات كبيرة ملونة تعبر الشارع وهي محملة بدمىً من الورق المقوّى ؛ وكان قـــد رفع عينيه وراهن مرة اخرى ، بذلك التفخيم الفلسفي الذي اعتادا عليه منذ حين، هو وبرونيه ؛ كان قد قال لنفسه: « سوف اصنع سلامي » ! وعشر مرات ، ومئة مرة ، اعاد مراهنته. وكانت الكلمات تتغير مع السن ، ومع الطُرُز الفكرية ، واكن الرهان ظل هو هو ؛ ولم يكن ماتيو ، في نظر نفسه بالذات ، شخصاً طويلاً ثقيلاً بعض الشيء ، كان يدرس الفلسفة ، في معهد للذكور، ولم يكن كذلك شقيق جاك دولارو ، النائب في المحاكم ، ولم يكن عشيق مارسيل ولا صديق دانيال وبرونيه : انه لم يكن شيئاً آخر غير هذا الرهان .

اي رهان ؟ وأمرّ يده على عينيه اللتين اتعبهما النور : انه لا يعرفه بعد معرفة جيدة ؛ كان له الآن ، اكثر فأكثر غالباً ، فترات نفي طويلة . ولا بد له لكي يفهم رهانه ان يكون في افضل حالات نفسه .

ـ الكرة ، من فضلك .

وتدحرجت كرة التنس حتى قدميه ، وكان صبي صغير يعدو نحوه . وفي يده مضرب . والتقط ماتيو الكرة وقذفها اليه . ولم يكن بالتأكيد في افضل حالاته : فقـــد كان يأسن في تلك الحرارة الكئيبة ، وكان ضحية الاحساس الرتيب القديم بالشيء اليومي المألوف : لقد جهد في ترديد العبارات التي كانت تثير حماسه في الماضي : « ان اكون حراً، ان اكون قضيتي ، ان استطيع القول : انني موجود لأنني أريد ذلك ؛ ان اكون بداءتي بالذات . » ولكن هذه كانت كلمات فارغة جوفاء ، كلمات مثقف مزعجة .

ونهض . نهض موظف ، موظف كان يشكو قلـــة المال ، وهو قادم على لقاء اخت احد تلامذته الاقدمين. وفكر : «هل فات الأوان؟ ألست بعد الا موظفاً ؟ » لقـــد سبق له ان انتظر طويلاً ؛ ولم تكن

سنواته الاخيرة الا حراسة سلاح . كان ينتظر عبر الالف همّ صغير؛ وبالطبع كان يجري وراء النساء ، في ذلك العهد ، وكان يسافر ، ثم كان عليه ان يكسب عيشه . ولكن عَبْرَ ذلك كله ، كان اهتمامه الوحيد هو ان يظل على استعداد . لعمل ما . عملٍ حر وواعٍ يُلزم حياته كلها ويكون بدء وجود جديد . انه لم يستطع قط ان ينخرط كلياً في حب ما ، في لذة ما ، ولم يكن قط شقياً حقاً : كان يخيّل اليه دائماً انه كان في مكان آخر ، وانه لم يولد بعد تماماً . كان ينتظر. وفي هذه الاثناء ، كانت السنوات قد جاءت على مهل ، وبصورة خفية، وقبضت عليه من الخلف ؛ اربع وثلاثون سنة . « كان عليّ، وانا في الخامسة والعشرين ، ان ألتزم . مثل برونيه . هذا صحيح، ولكن المرء، في تلك السن ، لا يلتزم وهو مدرك القضية تمام الادراك . » وكان قد فكر بالذهاب الى روسيا ، وبالانصراف عن دراسته ، وبتعلّم مهنة يدوية . ولكن ما كان يُمسكه كل مرة على حافة هذه الالوان من النقض العنيف ، هو انه كان يفتقر الى الاسباب الكافية لتنفيذها . انها، بلا اسباب ، ما كانت لتكون الا ضروباً من العناد . وهكذا استمر في الانتظار ...

وكانت قوارب شراعية تدور في حوض اللوكسمبورغ ، تصفعها فوارة الماء بين الفينة والفينة . وتوقف لينظر الى حفلتها الاستعراضية المائية الصغيرة . وفكر : « لن انتظر بعد . انها على حق : لقد افرغت نفسي واعمقتها حتى لم اعد الا انتظاراً . صحيح اني الآن مُفرغ . ولكني لا انتظر بعد شيئاً . »

وهنالك ، بالقرب من فوارة الماء ، كان قارب صغير في طريق الضياع ، تائهاً على حدة . وكان جميع الناس يضحكون وهم ينظرون اليه ؛ وكان صبيّ شقي يحاول ان يقبض عليه بواسطة عُقّافة ؛

٤

نظر ماتيو الى ساعته : « العاشرة واربعون دقيقة . لقد تأخرت . » ولم يكن يحب ان تتأخر ، وكان يخشى دائماً ان تكون قد تركت نفسها تموت . كانت تنسى كل شيء ، وكانت تهرب من نفسها . وكانت تنسى نفسها بين دقيقة واخرى ، وكانت تنسى ان تأكل ، وكـــانت تنسى ان تنام . وسوف تنسى يوميـــاً ان تتنفس وينتهي كل شيء . وكان شابان قد توقفا بالقرب منه : وكانا يتأملان طاولة بعبوس .

وقال أحدهما : — « سيت داون » .

فأجاب الآخر : — انني أسيت داون .

وضحكا وجلسا . وكان لهما ايد معتنى بها ، الهيئة قاسية والبشرة رقيقة . وفكر ماتيو في حنق « ليس هنا إلا الماجنين » ! تلامذة او طلاب ليسيه ؛ الشباب الذكور المحاطون باناث رماديات كانوا يشبهون حشرات لامعة عنيدة . وفكر ماتيـــو : « إن الشباب شيء ظريف : بريق في الخارج ، وفي الداخل لا تحس شيئاً . » صحيح ان ايفيش كانت تحس بشبابها ، وكذلك بوريس ، ولكنهما يدخلان في الاستثناء. انهما من شهـــداء الشباب . « لم اكن ادري اني انا كنت شاباً ، ولا برونيه ولا دانيال . وانما شعرنا بذلك فيما بعد . »

وحلم ، في غير سرور بالغ ، بأنـه سيصطحب ايفيش الى معرض غوغان . وكان يحب ان يُريها لوحات جميلة ، وافلامـاً جميلة ، واشياء جميلة ، لأنه لم يكن جميلاً ، وكان ذلك بمثابـة الاعتذار . ولكن ايفيش لم تكن لتعذره : انها ستنظر الى اللوحات هذا الصباح ، كما كانت تنظر في المرات السابقة ، نظرتها الهوساء المتوحشة ، وسيقف ماتيو الى جانبها ، قبيحاً ، ثقيل الظلّ ، منسيّـاً . ومع ذلك ، فانه لم يكن بودّه ان يكون جميلاً : ذلك انها ليست اكثر وحـدة إلاّ تجاه الجمال . وقال لنفسه : « لا ادري ما الذي اريده منها . » وفي هذه اللحظة بالذات ، لمحها ؛ كانت تهبط الجادّة الى جـانب فتى طويل مجعّد كان يضع النظارات ، وكانت ترفع نحوه وجهها وتمنحـه بسمتها المشرقة ؛ كانا يتحدثان بحيوية . وحين رأت ماتيو ، انطفأت عيناها ، وحيّت رفيقها تحية سريعة ، ثم عبرت شارع « ديزيكول » بهيئة مستنيمة . ونهض ماتيو :

– تحية يا ايفيش .

فقالت – صباح الخير .

وكان وجهها في افضل زينته : كانت قد ردّت خصلاتها الشقراء حتى انفها ، وكان هدبها يهبط حتى عينيها . اما في الشتاء ، فقد كان الهواء يناثر شعرها ويعرّي وجنتيها البارزتين المنتقعتين وذلك الجبـين المنخفض الذي كانت تدعوه « جبيني الكلموكي » . وكانت تبـدو سحنة عريضة صفراء طفولية وشهوانية كالقمر بين غمامتين . اما اليوم فان ماتيو لم يكن يرى الا وجهاً مزيفاً ضيقاً نقيـاً كانت تغطي بـه وجهها الحقيقي كقناع مثلث . والتفت الشبان المجاورون لماتيو اليها : وكانوا يفكرون : الفتاة الجميلة . ونظر اليها ماتيو بحنان ؛ لقد كان بين هؤلاء جميعاً ، الوحيد الذي يعرف ان ايفيش كانت بشعة وجلست هادئة مستوحشة . ولم تكن قد طلت وجهها بالمسحوق ، لأن المسحوق

كان يتلف البشرة . وسأل الخادم :

ـ وماذا تطلب السيدة ؟

فابتسمت له ايفيش ، وكانت تحبّ ان تُدعى «سيدة» ؛ ثم التفتت الى ماتيو متّرددة ، فقال ماتيو :

ـ خذي قدح « بيبرمنت » ، فانت تحبين ذلك .

فقالت وقد راقها هذا : ـ احب ذلك ؟ اذن اريده : (وسألتـه حين مضى الخادم) وما هذا المشروب ؟

ـ انه نعنع أخضر .

ـ ذلك الشيء الاخضر اللزج الذي شربته في المرة السابقة ؟ اوه ! انني لا اريده . فهو يدبق الفم . انني انساق دائماً ، فيجب عليّ ألاّ أصغي اليك . إن ذوقينا مختلفان .

فقال ماتيو منزعجاً : ـ ولكنك قلت إنك تحبين هذا ؟

ـ صحيح . غير اني فكرت بعد ذلك ، وتــذكرت الطعم . (وارتعشت) لن اشرب منه بعد ابداً .

فصاح ماتيو ينادي الخادم .

ـ لا ، لا . دعه يأتي به ، إن منظره جميل . كل ما هنالك انني لن أمسّه . فلست عطشى .

وصمتت . ولم يدر ماتيو ما ينبغي ان يقول لها : نادرة هي الاشياء التي كانت تثير اهتمام ايفيش ؛ ثم انها لم تكن راغبة في الكلام . كانت مارسيل هناك ؛ إنه لم يكن يراها ، ولم يكن يسمّيها ، ولكنها كانت هناك . اما ايفيش ، فكان يراها ، وكان يستطيع ان يدعوها باسمها او ان يلمس كتفها : ولكنها كانت بمعزل عن الإدراك ، بقامتها الدقيقة وعنقها الجميل القاسي ؛ كان يبدو انها مطليّة مبرنقة ، كأنها امرأة من تاهيتي مرسومة على لوحة لغوغان ، غير قابلة للاستعمال . ستتلفن ساره الساعة ، فينادي الخادم : « السيد دولارو » ؛ وسيسمع ماتيو

في آخر لحظة صوتاً اسود : « انه يطلب عشرة آلاف فرنك ، لا تنقص فلساً واحداً » . مستشفى ، عملية جراحية ، رائحة اثير ، قضايا مالية . وجهد ماتيو ليلتفت الى ايفيش التي كانت قد اغمضت عينيهـا وكانت تُمرّ اصبعاً خفيفاً على جفنيها . وفتحت عينيها :

– لديّ شعور بأنهما تبقيان مفتوحتين من تلقاء نفسهما . وبين فترة وفترة اغمضهما لأريحهما . هل هما حمراوان ؟

– كلا .

– انها الشمس ؛ ان عينيّ تؤلمانني دائماً في الصيف . وايام كهذه ، ينبغي الا يخرج فيها المرء الا حين يهبط الليل ؛ والا فهو لا يدري اين يلتجيء لأن الشمس تلاحقه في كل مكان . ثم ان ايدي الناس لزجة .

ولمس ماتيو باصبعه ، تحت الطاولة ، باطن كفّه بالذات : فكان جافاً . ان الآخر ، الفتى الطويل المجعّد ، هو الذي كانت يداه دبقتين . وكان ينظر الى ايفيش من غير اضطراب ؛ وكان يحس انـه مذنب ومتحرر ، لأنه كان اقل تعلقاً بها .

– أيزعجك اني اضطررتك الى الخروج هذا الصباح ؟

– على اي حال ، كان من المستحيل ان ألازم غرفتي .

فسألها ماتيو دهشاً : – ولماذا ؟

فنظرت اليه ايفيش بنفاد صبر :

– انت لا تدري ما عساه ان يكون بيتٌ للطلاب . ان الفتاة تُحمى فيه حماية حقيقية ،ولا سيما في فترة الامتحانات . ثم ان المرأة قد أحبتني ، فهي تدخل كل لحظة الى غرفتي بحجج مختلفة ، فتلامس شعري ، وانا اكره ان ألمس .

وكان ماتيو لا يكاد يصغي اليها : فقد كان يعلم انها لم تكن تفكر بما تقوله . وهزت ايفيش رأسها مغتاظة :

– ان سمينة « البيت » هذه تحبني لأني شقراء . ويحدث دائماً الشيء

نفسه فهي ستحتقرني بعد ثلاثة اشهر : ستقول اني مرائية .
فقال ماتيو : — انت مرائية .
قالت بلهجة طويلة تذكّر بوجنتيها الممتقعتين : — طبعاً ...
— ثم إن الناس ينتهي بهم الأمر الى ملاحظة انك تخفين عنهم خدّيك وانك تسبلين عينيك امامهم كقديسة منافقة .
— حسناً ! هل يروق لك انت ان يُعرف من تكون ؟ (وأضافت بشيء من الاحتقار) : صحيح انك لا تتأثر بهذه الامـور . اما فيما يخصّ نظري الى الناس مواجهة ، فاني لا استطيـع ذلك : إن عينيّ تزعجاني على الفور .
قال ماتيو : — غالباً ما أزعجتني في البدء . كنت تنظرين اليّ فوق الجبين ، في مستوى الشعر ، انا الذي أخشى كثيراً ان أصبح أصلع... كنت احسب انك قد لاحظت فجوة مضيئة وانك لا تستطيعين بعـد ان تنزعي عنها نظرك .
— اني انظر الى الجميع على هذا النحو .
— نعم ، او من جانب : هكذا ...
ورماها بنظرة خفية سريعة.فضحكت ، وقد راقها ذلك وأغضبها .
— حسبك ! لا اريد ان يقلّدني أحد .
— ولكني لم أقصد الخبث .
— طبعاً ، غير اني أخاف حين تأخذ مني تعابيري .
قال ماتيو وهو يبتسم : — اني افهم ذلك .
— ليس هذا ما يبدو عليك انك تعتقده : فلو كنت اجمل انسان في الدنيا ، لما اختلف الأمر عندي .
قال ماتيو :
— اسمعي ، سأقصد صيدلية لآتيك بقرص . ولكني انتظر مخـابرة تلفونية . فاذا طلبني أحد ، فستكونين لطيفـة اذا قلت للخادم بأني

سأعود على الفور ، فليطلبني مرة اخرى .

قالت ببرودة : — لا ، لا تذهب ، فاني اشكرك كثيراً ، ولا فائدة من ذلك . انها هذه الشمس .

وصمتا : ففكر ماتيو في لون من السرور المعذّب « انني أبغض نفسي » . وكانت ايفيش تملّس تنورتها بباطن كفّيها وهي ترفع اصابعها قليلاً كما لو انها ستضرب اصابع البيانو . وكانت يداها ابداً محمرّتين ، لأن جريان دمها كان رديئاً ، وكانت تدعها على العموم في الهواء وتحركهما لتجعلها تصفرّان . ولم تكونا تفيدانها قط للأخذ ، وانما كانتا صنمين صغيرين خشنين في طرف ذراعيها ، وكانتا تلامسان الأشياء بحركات دقيقة غير ناجزة وتبدوان اقرب الى تسويتها منهما الى التقاطها . ونظر ماتيو الى أظافر ايفيش الطويلة المقرّنة ، المطليّة بصورة عنيفة ، التي تكاد تكون صينية : كان يكفي المرء ان يتأمل هذه الزينة المربكة الطريّة حتى يدرك ان ايفيش لم تكن تستطيع ان تصنع شيئاً بأصابعها . وقد سقط احد هذه الأظافر ، ذات يوم ، من تلقاء نفسه ، فكانت تحتفظ به في تابوت صغير ، وبين فترة واخرى ، كانت تتفحصه بمزيج من النفور واللذة . وقد سبق لماتيو ان رآه : كان محتفظاً بطلائه ، وكان يشبه جُعْلاً ميتاً . « انني اتساءل : ما الذي يشغلها ، انها لم تكن اكثر ازعاجاً مما هي الآن . لا بدّ ان السبب امتحاناتها ، الا ان تكون منزعجة معي : انني ، في آخر المطاف ، رجل كبير . »

وقالت ايفيش فجأة بلهجة محايدة :

— ان الامر ، بكل تأكيد ، لا يبدأ هكذا حين يصبح الانسان أعمى .

فقال ماتيو وهو يبتسم :

— لا ، بالتأكيد . انت تذكرين ما قاله لك الطبيب في « لاون » :

انت مصابة بطرف من التهاب الملتحمة .

وكان يتكلم بعذوبة ، وكان يبتسم بعذوبة ، وكان يشعر انه معلق بالعذوبة : كان ينبغي له وهو مع ايفيش ان يبتسم دائماً ، وان يأتي حركات عذبة وبطيئة . . كدانيال مع قططه .

وقالت ايفيش : — إن عينيّ تؤلمانني .. يكفي شيء تافه لذلك ... (وترددت) اني ... اني اشعر بالالم في اعماق عينيّ . في صميم اعماقها . الا يوجد هذا ايضاً في بدء ذلك الجنون الذي كنت تحدثني عنه ؟

فسألها ماتيو : — آه ! قصة ذلك اليوم ؟ اسمعي يا ايفيش : في المرة الاخيرة كانت القضية تتعلق بقلبك ، كنت تخافين من نوبة قلبية . فيا لك من شخص عجيب ! لكأنك بحاجة الى تعذيب نفسك ؛ ثم تصرحين فجأة ، في مرات اخرى ، انك رخصة العود ، فيجب ان تختاري .

وكان صوته يخلّف لديه ، في اعماق فمه ، مذاق سكّر .

وكانت ايفيش تنظر عند قدميها نظرة غامضة .

— لا بد ان يحدث لي شيء .

فقال ماتيو : — اعرف ذلك . ان خط حياتك قد انكسر . ولكنك قلت لي انك لا تعتقدين ذلك حقاً .

— أجل لا اعتقد ذلك حقاً .. وهناك ايضاً اني لا استطيع ان اتصور مستقبلي . انه مسدود .

وصمتت فنظر اليها ماتيو في صمت . بلا مستقبل ... وفجأة احس في فمه بمذاق مرّ ، وشعر بانه كان متعلقاً بايفيش بكل قواه . كان صحيحاً انه لم يكن لها مستقبل : ايفيش في الثلاثين من عمرها ، ايفيش في الاربعين ، ان ذلك لم يكن ذا معنى . وفكر : انها غير قابلة للحياة . حين يكون ماتيو وحده ، او حين كان يتكلم مع دانيال ، مع مارسيل ، كانت حياته تنبسط امامه واضحة رتيبة : بضع نساء ، بضع رحلات ،

بضعة كتب . منحدر طويل كان ماتيو يهبطه على مهل ، بل كان يجد غالباً ان ذلك لم يكن يمضي بسرعة كافية . وفجأة ، حين يرى ايفيش ، كان يخيل اليه انه يعيش كارثة . كانت ايفيش عذاباً صغيراً شهوانيـاً وفاجعاً ليس له من غد : انها ستذهب ، ستصبح مجنونـة . ستموت بنوبة قلبية ، او ان اهلها سيحجزونها في « لاون » . ولكن ماتيو لم يكن يطيق ان يعيش من دونها . وتحركت يده حركة حييّة : لقد ودّ لو يأخذ ذراع ايفيش فوق المرفق ويضمها بكل قواه . « اني اكره ان يمسني احد » وسقطت يد ماتيو . وقال بسرعة :

— ان « بلوزتك » جميلة جداً يا ايفيش .

وكانت هذه غلطة : حنت ايفيش رأسها بتصلب وربتت على بلوزتها بهيئة ضيق . كانت تتلقى التهاني كأنها اهانات : وكان الامر كما لو ان صورة عنها كانت تُقدّ بضربات فأس ، صورة مشوهة وباهرة . كانت تخشى ان تؤخذ بها . كانت وحدها تستطيع ان تفكر بشخصها كما ينبغي . وكانت تفكر فيه بلا كلام ، وكان ذلك يقينـاً صغيراً رقيقاً ، ملاطفة . ونظر ماتيو بذل الى كتفي ايفيش المزيلتين ، والى عنقها المستقيم المستـدير . كانت غالباً مـا تقول : « انني اشمئز من الاشخاص الذين لا يحسون اجسامهم . » وكان ماتيو يحس جسمه ، ولكنه يحسه على انه اقرب الى ان يكون حزمة كبيرة مُربكة .

— اما زلت راغبة في رؤية صورة غوغان ؟

— اية صور ؟ آه ! المعرض الذي حدثتني عنه ؟ حسناً ، بوسعنا ان نذهب اليه .

— لا يبدو عليك انك راغبة في ذلك .

— بلى .

— ولكن يجب ان تقولي ، يا ايفيش ، اذا لم تكوني راغبة في ذلك.

— ولكن انت راغب في ذلك .

– انت تعلمين اني سبق ان ذهبت اليه . وانا راغب في ان اريك اياه اذا كان ذلك يسرك . ولكن اذا لم تكوني حريصة على ذلك ، فانه لا يهمني .

– في هذه الحالة ، افضل ان اذهب اليه في يوم آخر .

قال ماتيو خائب الظن : – ولكن المعرض ينتهي غداً .

فقالت ايفيش بلهجة رخوة :

– فليكن ، لا بد ان يعاد هذا المعرض .. هذه المعارض تعاد ، اليس كذلك ؟

قال ماتيو بعذوبة حانقة :

– ها أنت ذي يا ايفيش . قولي انك لست راغبة بعد في رؤية المعرض ، انك تعرفين انه لن يعاد قبل مضي وقت طويل .

فقالت بلطف : طيب ، لا اريد ان اذهب اليه ، لان ذلك الامتحان قد خلّف عندي الاشمئزاز . انه امرٌ جهنمي ان يحملونا على انتظار النتائج هذه الفترة الطويلة .

– أليس موعد اعلانها غداً ؟

– تماماً .

واضافت وهي تلامس بطرف اصبعها كمّ ماتيو :

– يجب الا تهتم بي اليوم ، فلست بعدُ انا . انني متوقفة على الآخرين ، وهذا مذلّ . ان في ذهني طوال الوقت صورة ورقة صغيرة بيضاء ملصقة على جدار رمادي . انهم يفرضون عليك ان تفكر بذلك . حين نهضت هذا الصباح ، احسست بأني اصبحت في الغد ؛ اما اليوم فهو يوم لا جدوى منه ، يوم محذوف . لقد سرقوه مني ، ولم يبق لي شيء يذكر .

واضافت بصوت منخفض سريع :

– لقد فوّتُ اعداد درس علم النبات .

فقال ماتيو : — فهمت .

وود لو يجد في ذكرياته ضيقاً يتيح له ان يفهم ضيق ايفيش ، ربما كان ذلك عشية امتحان « الاغريغاسيون » ... كلا ، ان الامر لم يكن مشابهاً في اي حال . لقد عاش تلك الحالة هادئاً آمناً بلا اخطار . اما الآن ، فقد كان يحس انه رخص العود ، وسط عالم مهدد ، ولكن ذلك كان "عبر" ايفيش .

قالت ايفيش :

— اذا نجحت في الامتحان التحريري ، فسأشرب قليلاً قبل ان اذهب الى الشفهي .

فلم يجب ماتيو : ورددت ايفيش :

— قليلاً جداً .

— لقد قلت ذلك في شباط ، قبل ان تذهبي لتأدية الامتحان الشفهي ، وكان الأمر في آخر المطاف انك شربت اربعة اقداح من الروم ، وكنت ثملة تماماً .

قالت بلهجة مزيفة : — الحق انني لن انجح في التحريري .

— هذا مفهوم ، ولكن لنفرض انك نجحت ؟

— لن اشرب عند ذاك .

ولم يلح ماتيو : كان على يقين من انها ستتقدم الى الامتحان الشفهي وهي ثملة : « ما كنت انا الذي افعل ذلك ، فقد كنت شديد الحذر . » وكان حانقاً على ايفيش ومشمئزاً من نفسه . واتى الخادم بقدح فملأه الى النصف بالنعنع الأخضر .

— سأعطيك في الحال دلو الثلج .

فقالت ايفيش : — شكراً .

وكانت تنظر الى القدح ، وكان ماتيو ينظر اليها . وكانت رغبة عنيفة غامضة قد غمرته : ان يكون ، لمدة لحظة ، هذا الوعي المهووس الممتلىء

براحته بالذات ، ان يشعر من الداخل بهاتين الذراعين الطويلتين الدقيقتين ، ان يحس ، لدى الثنية ، بشرة الساعد تلتصق كالشفة ببشرة الذراع ، ان يحس هذا الجسم وجميع القبلات الصغيرة المتحفظة التي يمنحها لنفسه بلا انقطـاع . ان اكون ايفيش دون ان اكفّ عن ان اكون انـــا . واخـــذت ايفيش الدلو من يدي الخادم ، ووضعت مكعب ثلج في قدحها . وقالت :

ــ لم آخذه لأشرب ، وانما هو جميل المنظر .

وطرفت بعينيها قليلاً ثم ابتسمت بسمة طفولية .

ــ انه جميل .

ونظر ماتيو الى القدح بغيظ ، وجهد في مراقبة تحرك المائع تحركاً كثيفاً مرتبكاً ، وبياض قطعة الثلج المعكر . وعبثـاً كان ذلك . كان القدح في نظر ايفيش شهوة صغيرة لزجة خضراء تدبقها حتى اطراف اصابعها ؛ واما في نظره ، فلم يكن شيئاً . بل كان اقل من لا شيء : قدحاً فيه نعنع . وكان بوسعه ان يفكر بما كانت تحسه ايفيش ، ولكنه لم يكن يشعر بشيء قط ؛ كانت الاشياء في نظرها ألواناً من الحضور الخانق الضالع في الذنب ، دوّامات واسعة تخترقها حتى اللحم ، ولكن ماتيو كان ينظر اليها دائماً عن بعد . ورمى اليها بنظرة وتنهد : لقد كان متأخراً ، عـلى مألوف عادته ؛ ان ايفيش قد كفت عن النظر الى القدح ؛ وكانت تبدو حزينة ، وكانت تضغط بعصبية على احـدى خصلات شعرها .

ــ اريد سيكارة .

وتناول ماتيو علبة « الغولد فلاك » من جيبه ؛ ومدها لها :

ــ سأشعلها لك .

ــ شكراً ، افضل ان اشعلها بنفسي .

وأشعلت السيكارة وسحبت منها بعض المجّات . وكانت قد أدنت

يدها من فمها واخذت تتسلى – بهوس – بأن تُركض الدخان في باطن كفّها . وأوضحت كأنما توضح لنفسها :

– اودّ لو كان الدخان كأنما يخرج من يدي . سيكون شيئاً ظريفاً : يد تنفث الضباب .

– إن هذا لا يمكن . فالدخان يسرع اكثر مما ينبغي .

– اعرف ذلك ، وهو ما يزعجني ، ولكني لا استطيع ان اكفّ ، اني احس نَفَسي يدغدغ يدي ، وهو يمرّ في الوسط تماماً ، فكأنها مفصولة بجدار الى قسمين .

فضحك ضحكة قصيرة وصمت ، وكانت ما برحت تنفخ على يدها مستاءة ، عنيدة . ثم ألقت بسيكارتها وهزّت رأسها ؛ وبلغت رائحة شعرها منخري ماتيو . وكانت رائحة حلوى وسكّر معطّر بالونيلة ، لأنها كانت تغسل شعرها بصفار البيض ؛ ولكن عطر هذه الحلوى كان يخلّف مذاقاً شهوانياً .

وأخذ ماتيو يفكر في سارة . وسألها :

– بمَ تفكرين يا ايفيش ؟

فلبثت لحظة فاغرة الفم ، مضطربة ، ثم استعادت هيأتها التأمليّة ، فانغلق وجهها من جديد واحس ماتيو بأنه متعبٌ من فرط النظر اليها ، وكان يشعر بالألم في زاوية عينيه . وكرّر سؤاله :

– بمَ تفكرين ؟

فانتفضت ايفيش – : إني ... إنك تسألني هذا السؤال طوال الوقت ، انا لا افكر بشيء محدّد . تلك هي امورٌ لا يمكن قولها ، فهي لا تتخذ شكلاً .

– ولكن مع ذلك ؟

– نعم ، كنت إنظر مثلاً الى هذا الرجل القادم . ماذا يريدني أن اقول ؟ يجب ان اقول له إنه سمين ، وهو يمسح جبينه بمنديل ،

ويرتدي ربطة عنق جاهزة ... انه طريف ان تقسرني علـى ان اسرد ذلك (قالتها فجأة بخجل وغيظ) انه لا يستحق ان يُقال .

ـ بلى ، بالنسبة لي ، لو كان بوسعي ان اتمنّى شيئاً ، لتمنيت ان تكوني مضطرة الى التفكير بصوت عال .

وابتسمت ايفيش بالرغم منها وقالت :

ـ هذا اعتراف . إن الكلمة لم تُصنع لمثل هذا .

ـ هذا طريف ، فانت تكنّين للكلمة احتراماً يشبه احترام المتوحشين . فيبدو عليك الايمان بأنها لم تصنع إلا لاعلان الموتى والزيجات او للنطق بالقدّاس . والحق انك لم تكوني تنظرين الى الاشخاص ، يا ايفيش ؛ لقد رأيتك : كنت تنظرين الى يدك ، ثم نظرت الى قدمك . ثم اني اعرف بمَ تفكرين .

ـ ولماذا إذن تسألني عنه ؟ لا ينبغي للانسان ان يكون داهيــة ليحرره ، كنت افكر بذلك الامتحان .

ـ انت تخافين ان تسقطي ، أليس كذلك ؟

ـ طبعاً ، أخاف ان اسقط . او بالاحرى لا . لست خائفة . فأنا اعلم اني ساقطة .

واستشعر ماتيو في فمه من جديد مذاق كارثة . اذا سقطت فلن أرلها بعد . وستكون ساقطة بالتأكيد : إن هذا امر بديهيّ .

وقالت ايفيش يائسة :

ـ انني لا اريد العودة الى « لاون » . فاذا عدت اليها وأنا ساقطة فلن اخرج منها ابداً . لقد قالوا لي إن هذه هي فرصتي الأخيرة .

وعادت تضغط خصلات شعرها . وقالت متردّدة :

ـ لو كانت لديّ شجاعة ...

فقال ماتيو قلقاً : ماذا كنت تفعلين ؟

ـ اي شيء . كل شيء ولا العودة الى هناك . إنني لا اريــد ان

اقضي حياتي هناك ، لا اريد .

— ولكن سبق ان قلت لي إن اباك ربما باع المنشر قبل عــام او عامين ، وان الجميع سيأتون للاقامة في باريس .

قالت ايفيش وهي تدير اليه عينين تقدحان شرر الغضب :

— تطلبون مني مزيداً من الصبر ! هكذا انتم جميعاً . ووددت لو رأيتكم هناك ! عامان في ذلك الكهف ، أصبر عامين ؟! الا يمكنك ان تضع في رأسك انهم انما يسرقون مني عامين ؟

واضافت بغضب :

— ليست لي الا حياة واحدة . ان من يسمعك تتكلم على هذا النحو يظن انك تعتقد نفسك خالداً . ان عاماً ، في نظرك ، يمكن ان يعوّض ! (وطفرت الى عينيها الدموع) ليس صحيحاً ان هذا يعوّض .. إن شبابي هو الذي يفرّ هناك قطرة قطرة . اني اريد ان اعيش عــلى التو ، فأنا لم ابدأ وليس لي وقت للانتظار ، لقد بدأت اشيخ ، فانا في الحادية والعشرين .

قال ماتيو : — ارجوك يا ايفيش ، انك تخيفينني . حــاولي مرة واحدة على الاقل ان توضحي لي كيف نجحت في اعمالك التطبيقيـــة . انت تارة مسرورة وتارة يائسة .

فقالت ايفيش بلهجة كئيبة : — لقد سقطت في كل شيء .

— كنت اظنّ انك نجحت في الفيزياء .

فقالت ايفيش بسخرية :

— ماذا تقول ! ثم ان الكيمياء كانت تدعو الى الرثــاء . انني لا استطيع ان أحشو رأسي بمقادير الجرعات ... فما أقسى ذلك !

— ولكن لماذا اخترت ذلك ؟

— ماذا ؟

— الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة .

فقالت بلهجة متوحشة :
— كان لا بد من الخروج من « لاون » .
فأتى ماتيو بحركة عجز ؛ وصمتـــا . وخرجت امرأه من المقهى ومرّت مستمهلة أمامهما . وكانت جميلة ، ذات انف صغير جداً في وجه املس ، وكان يبدو عليها انها تبحث عن انسان . وبلغ عطرها أنف ايفيش : فرفعت رأسهـــا الكئيب على هينة ثم رأتها فتغيرت سحنتها .
وقالت بصوت منخفض عميق : — يا للمخلوقة الرائعة !
فنفر ماتيو من هذا الصوت .
وجمدت المرأة وهي تطرف بعينيها للشمس ؛ وكان عمرهـــا يقدّر بالخامسة والثلاثين ، وكانت ساقاها الطويلتان يشف عنهما نسيج ثوبهـــا الخفيف ؛ ولكن ماتيو لم يكن راغباً في رؤيتها ، وانما كان ينظر الى ايفيش . وكانت ايفيش قد اصبحت قبيحة تقريباً ، وكانت تضغط بقوة يديها فيما بينهما . لقد قالت لماتيو ذات يوم : « ان الأنوف الصغيرة ترغّبني في عضّها . » وانحنى ماتيو قليلاً فرأى ثلاثة ارباع وجهها ؛ وكانت تبدو مستنيمة قاسية ، ففكر بأنها كانت راغبة في ان تعضّ .
وقال ماتيو بعذوبة : — ايفيش .
فلم تجب ، وكان ماتيو يعلم انهـــا لا تستطيع ان تجيب : فهو لم يكن موجوداً بعد في نظرها ، وكانت وحيدة .
— ايفيش !
في مثل هذه اللحظات كان يشعر بأنه اشد تعلقاً بها ، حين تسكن جسمها الصغير اللذيذ الذي يكاد يتصنّع اللطافة قوةٌ أليمـــة ، حبٌ للجمال ملتهب معتكر ، فاقد الرونق . وفكر : لست جميلاً ؛ وأحس بدوره انه وحيد .
وذهبت المرأة . وتبعتهـــا ايفيش بعينيهـــا وتمتمت بسورة من الغضب :

ــ هناك لحظات اودّ فيها لو كنت رجلاً .

وندّت عنها ضحكة صغيرة جافة ، ونظر اليها ماتيو بحزن . وصاح الخادم :

ــ السيد دولارو مطلوب على التلفون .

فقال ماتيو : ــ هأنذا .

ونهض :

ــ اعذريني . انها ساره غوميز .

فابتسمت له ايفيش ببرودة ؛ ودخل المقهى وهبط الدرج .

ــ السيد دولارو ؟ الحجرة الاولى .

وتناول ماتيو السمّاعة ، ولم يكن باب الحجرة ينغلق .

ــ آلو ، ساره ؟

فقال صوت ساره المغنّ :

ــ مرحباً مرة اخرى . لقد سُوّي الأمر .

ــ آه ، انني مسرور .

ــ ولكن يجب ان تعجّل : انه مسافر يوم الأحد الى الولايات المتحدة . وهو يريد ان يُجري ذلك بعد غدٍ على الأبعد ، ليكون لديه الوقت لمراقبتها قليلاً في الأيام الاولى .

ــ حسناً ... إذن سأخبر مارسيل هذا اليوم بالذات . غير انه يفاجئني بعض الشيء ، فيجب ان اجد المال . كم هو يريد ؟

فقال صوت ساره :

ــ آه ! انني متأسفة . هو يريد أربعة آلاف نقداً . واقسم لك انني ألححت ، وقلت انك كنت متضايقاً ، ولكنه لم يرد ان يعرف شيئاً .

وأضافت وهي تضحك : ــ انه يهودي قذر !

وكانت ساره تفيض شفقة مكتومة ، ولكنها حين تبادر الى تأدية

خدمة ما ، تصبح متوحشة ومنشغلة كأخت من اخوات الإحسان . وكان ماتيو قد أبعد السمّاعة قليلاً ، وكان يفكر : اربعة آلاف فرنك ، ثم يسمع ضحكة ساره تفرقع على القطعة الصغيرة السوداء ؛ لقد كان ذلك كابوساً .

– من هنا الى يومين ؟ حسنـــاً ... سوف .. سوف اتدبّر الأمر ، شكراً يا ساره ، إنك جوهرة . هل ستكونين في البيت هذا المساء ، قبل العشاء ؟

– طوال النهار .

– حسناً . سأمرّ . هنالك شؤون اخرى يجب تسويتها .

– الى هذا المساء .

وخرج ماتيو من الحجرة .

– اريد قسيمة للتلفون يا آنسة . اوه ! ولكن لا ، لا حاجة بي الى ذلك .

ورمى عشرين فلساً في صحن ، ورقي الدرج على مهل . لم تكن به حاجة الى الاتصــــال بمارسيل قبل ان يسوّي قضية المال هــــذه . « سأذهب ظهراً للقاء دانيال » وعاد يجلس بالقرب من ايفيش ، ونظر اليها بلا حنان . وقالت بلطف :

– لقد ذهب عني الصداع .

فقال ماتيو : – انني مسرور بذلك .

وكان قلبه مليئاً بالسخام .

ونظرت اليه ايفيش من جانب ، عبر اهدابهـا الطويلة . وابتسمت بسمة مختلطة ملاطفة .

– بوسعنا .. بوسعنا مع ذلك ان نذهب لرؤية معرض غوغان .

فقال ماتيو بلا اندهاش : – كما تشائين .

ونهضا ، ولاحظ ماتيو ان قدح ايفيش كان فارغاً . وصاح :

— تاكسي .

قالت ايفيش : — ليس هذا التاكسي .. انه مكشوف وسيكون الهواء في وجهينا .

فقال ماتيو للسائق : — لا ، لا ، تابع سيرك ، فاني لم اكن اناديك انت .

وقالت ايفيش : — اوقف هذا التاكسي ، انظر ما اجمله ! لكأنه عربة القربان المقدس ! ثم انه مغلق .

وتوقف التاكسي فصعدت ايفيش . وفكر ماتيو : « سوف اطلب الف فرنك زيادة من دانيال ما دمت سأستدين منه ، ان ذلك يتيح لي الانفاق حتى آخر الشهر . »

— غاليري ديبوزار ، شارع سانت اونوريه .

وجلس صامتاً بالقرب من ايفيش . وكانا منزعجين ، كلاهما . ورأى ماتيو ، بين قدميه ، ثلاث سكاير محترقة الى النصف ، ذات اطراف مذّهبة .

— كان في هذا التاكسي من كان ثائر الاعصاب .

— ولماذا ؟

فأراها ماتيو السكاير . وقالت ايفيش :

— انها امرأة . فهناك آثار حُمرة .

فابتسما وصمتا ، وقال ماتيو :

— ذات مرة ، وجدت في تاكسي مئة فرنك .

— ولا بد انك سررت بذلك .

— اوه ! ارجعتها الى السائق .

قالت ايفيش : — عجباً ! لو كنت انا ، لاحتفظت بها . فلماذا فعلت ذلك ؟

فقال ماتيو : — لا ادري .

وعبر التاكسي ساحة سان ميشال ، وكان ماتيو يقول : « انظري ما اشد اخضرار السين » ولكنه لم يقل شيئاً . وقالت ايفيش فجأة :

ـ كان بوريس يفكر باننا سنذهب ثلاثتنا هذا المساء الى « سومطرا » ؛ اود لو ...

وكانت قد لفتت رأسها ، وكانت تنظر الى شعر ماتيو وهي تمد فمها بصبورة رقيقة . ولم تكن ايفيش متدللة بالذات ، ولكنها كانت تتخذ بين الفينة والفينة هيئة حنان رغبة منها بان تحس وجهها ثقيلاً عذباً كالثمرة . وحكم ماتيو عليها بأنها مزعجة وغير لائقة . وقال :

ـ يسرني ان ارى بوريس وان اكون معك ، غير ان ما يزعجني قليلاً هو وجود لولا كما تعلمين . انها لا تستطيع ان تهضمني .

ـ وماذا في ذلك ؟

وساد صمت ، كأنهما قد تمثلا في وقت واحد انهما كانا رجلاً وامرأة ، مسجونين معاً في تاكسي . وقال لنفسه بانزعاج « ينبغي الا يكون ذلك . » واستطردت ايفيش :

ـ لا ارى ان لولا تستحق ان يُهتم بها . انها جميلة وهي تغني جيداً ، وهذا كل ما في الامر .

ـ انني اجدها قريبة للنفس .

ـ طبعاً . ان هذه هي اخلاقيتك . انت تريد دائماً ان تكون كاملاً ، فما ان يزدريك الناس حتى تجهد لاكتشاف مزايا لديهم . (واضافت) انني لا اجدها قريبة للنفس .

ـ ولكنها لطيفة معك .

ـ لا يسعها ان تكون غير ذلك ، ولكني لا احبها ، فهي تمثل .

فرفع ماتيو حاجبيه وقال : ـ تمثل ؟ ان هذا هو آخر شيء آخذه عليها .

ـ من الغريب انك لم تلاحظ ذلك : انها تطلق تنهدات اكبر منها

ليظن الناس انها يائسة . ثم تطلب لنفسها الطعام الدسم .
واضافت بخبث خفي :
– لقد كنت اظن ان اليائسين لا يبالون كثيراً بان يموتوا : ويدهشني دائماً ان اراها تحسب نفقاتها فلساً فلساً وتوفر المال .
– ان هذا لا يمنع ان تكون يائسة . فكذلك يفعل البشر الذين يشيخون : حين يشمئزون من انفسهم ومن حياتهم ، يفكرون بالمال ويعنون بانفسهم .
فقالت ايفيش بجفاف :
– اذن ، ينبغي الا يشيخ المرء ابداً .
فنظر اليها نظرة ضيق وسارع يضيف :
– انت على حق ، فليس جميلاً ان يشيخ المرء .
قالت ايفيش : – اما انت ، فليست لك سن ، ويخيل الي انك كنت دائماً كما كنت ؛ انك تتمتع بشباب الجماد . واحاول احياناً ان اتصور كيف كنت في طفولتك ، ولكن يعجزني ذلك .
فقال ماتيو : – كانت لي خصلات شعر .
– اما انا ، فأتصور انك كنت كما انت اليوم ، اقصر قليلاً .
ولا بد ان ايفيش لم تعرف هذه المرة أنها كانت تبدو رقيقة . وشاء ماتيو ان يتكلم ولكن كان في حنجرته لون غريب من الدغدغة ، وكان خارج نفسه . كان قد خلّف وراءه مارسيل وساره وممرات مستشفى لا تنتهي كان يعبرها منذ الصباح ، لقد كفّ عن ان يكون في اي مكان ، وكان يشعر بانه حر ؛ وكان هذا النهار الصيفي يلامسه بكتلته الكثيفة الحارة ، وكانت به رغبة لان يستسلم له بكل ثقله . وخيل اليه لحظة اخرى انه كان معلقاً في الفراغ ، مع احساس بالحرية لا يحتمل ، ثم مد ذراعه فجأة ، فأخذ ايفيش من كتفيها وجذبها اليه . وتركته ايفيش يفعل وهي متصلبة ، كتلة واحدة ، كما لو انها كانت تفقد

توازنها . ولم تقل شيئاً ، وكان يبدو عليها مظهر الحياد .

وكان التاكسي قد سلك شارع ريفولي ، وكانت قناطر اللوفر تتطاير ثقيلةً عبر الزجاج ، كأنها حمامات كبيرة . وكان الطقس حاراً ، وكان ماتيو يحس جسماً حاراً في جنبه؛وعبر المرآة الأمامية كان يرى أشجاراً وعلماً مثلث الألوان في رأس صار . وتذكر حركة رجل رآه مرة في شارع « موفتار » . رجل انيق المظهر ، ذي وجه رمادي ، وكان قد اقترب من مقلاة في الطريق ، فنظر طويلاً الى قطعــة من لحم بارد موضوعة في صحن ، حيث تعرض المآكل ، ثم مد يده وتناول قطعة اللحم ؛ وكان يبدو عليه انه يجد ذلك في غاية البساطة ، فلا بـد انه كان يشعر بأنه هو أيضاً حر . وقد صاح البائع ، فاستاق شرطيٌ ذلك الرجل الذي كان يبدو مندهشاً . وظلت ايفيش على صمتها .

وفكر ماتيو بغيظ « انها تدينني » .

وانحنى ؛ ولكي يعاقبها ، لامس بطرف شفتيه فماً بارداً ومغلقاً ؛ وكان مصدوماً . وظلت ايفيش صامتة . وحين رفع رأسه رأى عينيها فتلاشت فرحته الطاغية . وفكر : « رجل متزوج يداعب فتاة في تاكسي » وسقطت ذراعه ، ميتةً ، متزغبرة . وانتصب جسم ايفيش في نوسان آلي كرقّاص أُبعد عن موضع توازنه . وقال ماتيو في نفسه : « انتهى الامر . ولا مجال بعد لإصلاحه » . وكان يكوِّر ظهره ، وكان يود لو يذوب . ورفع شرطيٌ عصاه ، فتوقف التاكسي . وكان ماتيو ينظر امامه باستقامة ، ولكنه لم يكن يرى الشجر ؛ كان ينظر الى حبه .

كان ذلك حباً . انه الآن حب . وفكر ماتيو : « ماذا فعلت ؟ » لخمس دقائق خلت ، لم يكن ذلك الحب موجوداً ؛ كان بينهما عاطفة نادرة وثمينة ، لم يكن لها اسم ، ولم تكن تستطيع ان تعبّر عن نفسها بالحركات . وهو قد قام بحركة ، الحركة الوحيدة التي ما كان ينبغي له ان يقوم بها ــ والحق انه لم يتقصّدها،وانما جاءت من تلقاء نفسها ؛

حركة ظهر هذا الحب بعدها امام ماتيو، كشيء ضخم مزعج ومبتذل . ستفكر ايفيش بعد الآن بأنه كان يحبها ، وستفكر : انه كالآخرين ؛ بعد الآن سيحب ماتيو ايفيش، كسائر النساء اللواتي احبهن . « ما الذي تفكر به ؟ » كانت جالسة الى جانبه متصلبة صامتة ، وكانت هذه الحركة بينهما ، انني اكره ان يمسني احد، هذه الحركة الخرقاء الرقيقة ، التي كانت قد اكتسبت عناد الاشياء الماضية ، ذلك العناد الذي لا يلمس . « انها تغلي غضباً، انها تحتقرني ، انها تفكر بأني كالآخرين . » وفكر بيأس : ليس هذا ما كنت ابغيه منها . ولكنه لم ينجح في ان يتذكر ما الذي كان يريده قبلاً . كان الحب هناك ، صادقاً مخاصاً ، برغباته البسيطة ومسالكه المبتذلة ، وكان ماتيو هو الذي ولّده حراً كل الحرية . وفكر بقوة : « ليس هذا صحيحاً ، فأنا لا اشتهيها ، ولم اشتهها قط . » ولكنه كان مدركاً انه سيشتهيها ، فأن الامور كلها تنتهي هناك . سوف انظر الى ساقيها والى صدرها، ثم .. ذات يوم ... ورأى فجأة مارسيل متمددة على السرير ، عارية كلها، مغمضة العينين : كان يكره مارسيل .

وكان التاكسي قد توقف ، وفتحت ايفيش الباب وهبطت الى الأرض . ولم يتبعها ماتيو على التو : كان يتأمل بعين صريحة هذا الحب الجديد كل الجدة ، والقديم مع ذلك ، هذا الحب لدى رجل متزوج، خجول ومداور ، هذا الحب المذل لها ، الذليل مسبقاً ، وكان يتقبّله كأنه قدر . وهبط اخيراً ، فدفع ولحق بايفيش التي كانت تنتظره تحت الباب الكبير . « ليتها تستطيع ان تنسى . » ورمى اليها بنظرة عجلى فألفى القسوة على وجهها . وفكر : « اذا وضعنا الأمور في افضل مواضعها نرى ان شيئاً ما قد انتهى بيننا . » ولكن لم تكن لديه رغبة بالامتناع عن حبها . ودخلا المعرض من غير ان يتبادلا كلمة .

٥

« الملاك الأعظم ! » تثاءبت مارسيل ، واستوت قليلاً ، ونفضت رأسها ، وكانت اول فكرة لها : « إن الملاك الأعظم يأتي هــذا المساء . » وكانت تحب زياراته العجيبة ، ولكنها كانت ذلك اليوم ، تفكر بها من غير سرور . كان في الجوّ حولها هولٌ ثابت ، هــولٌ ظُهريّ : وكانت حرارة متدرّجة تملأ الغرفة ، وكانت قد قــامت بمهمتها في الخارج ، وخلّفت إشراقها في ثنايا الستار وأسِنَت هناك ، جامدة كئيبة كأنها قدر . « لو كان يدري ، ما أشدّ نقاوته ، انني سوف أنفّره . » وكانت قد جلست على حافة السرير، كالليلة البارحة، حين كان ماتيو عارياً ازاءها ، وكانت تنظر الى أصابع رجليه باشمئزاز ضجر ، وكانت عشية الامس ما تزال هنا ، دقيقة جداً ، بنورهــا الوردي الميت ، كأنها رائحة قد بردت « لم استطـع ... لم استطع ان اقول له . » وكان يمكن ان يقول : « حسناً ! سنتدبّر الأمر ! » بلهجة حيّة مرحة ، وكأنه يلتهم عقاراً . وكانت تعلم انها ما كان لها ان تحتمل هــذا الوجه ؛ وقد بقي ذلك في حنجرتهــا . وفكرت : « الظهر ! » وكان السقف رمادياً كالفجر الكاذب ، ولكن الحرارة كانت حرارة ظهرية . وكانت مارسيل تنام متأخرة ولا تعرف بعــدُ

الأصباح ، وكان يخيّل اليها احياناً أن حياتها قد توقفت ذات يوم ظهراً، وانها كانت ظهراً ابدياً مسترخياً على الأشياء ، ممطراً ، وبلا أمل ، وغير مجد الى حد بعيد . وفي الخارج ، كان النهار المشرق ،والتبرج المنبسط . كان ماتيو يسير في الخارج ، في النثار الحيّ المرح لذلك النهار المبتديء بدونها ، والذي كان قد أصبح له ماض . وفكّرت بغير شعور صداقة : « إنه يفكّر بي . انه ينشغل » وكانت منزعجة لأنها كانت تتخيل تلك الشفقة القوية تحت الشمس المشرقة ، شفقة الانسان السليم المنهمكة المرتبكة . كانت تحسّ انها بطيئة لزجة ، ما تزال ملطّخة بآثار النوم ، كانت على رأسها تلك القبعة النحاسية ، وفي فمها مذاق نشّافة ، وفي جانبها ذلك الدفء ، وتحت ذراعيها ، في رأس الشعيرات السود ، تلك الجواهر من البرد . وكانت بها رغبة للتقيّؤ ، ولكنها كانت تتماسك : إن نهارها لم يبدأ بعد ، إنه هناك ، رابضٌ تجاه مارسيل ، في توان غير مستقرّ ، وإن اية حركة ستجعله ينهار كما يتهافت الثلج . وأخذتها ضحكة قاسية : « حريته !» حين يستيقظ المرء في الصباح ، معتكر القلب ، وامامه خمس عشرة ساعة يقتلها قبل ان يتمكن من العودة الى النوم ، فماذا يجديه ان يكون حراً ؟ « إن الحرية لا تعين المرء على الحياة » وكانت ريشات صغيرة دقيقة مطليةٌ بالمقر تداعب أعماق حنجرتها ، ثم إن نفوراً من كل شيء تجمّع كتلة على لسانها ، كان يشدّ شفتيها الى خلف. « انني محظوظة، فيبدو ان هناك نساء يتقيأن طوال النهار ، في الشهر الثاني ؛ اما انا ، فأقيء قليلاً في الصباح ، وأجدني بعد الظهر متعبة ، ولكني أظل صامدة ؛ وقد عرفت امي نساء لم يكن يطقن رائحة التبغ ، وليس ينقصني بعد غير هذا . » ونهضت فجأة وهرعت الى المغسلة ، فقاءت ماء مزبداً عكراً يشبه بياض بيضة مخفوقة قليلاً . وتشبثت مارسيل بطرف المغسلة الخزفية ونظرت الى المائع المنتفخ بالهواء : انه في نهاية المطاف

يشبه المني . وراودتها بسمة صفراء وتمتمت « ذكرى حب » . ثم ساد صمت معدني كبير في رأسها وابتدأ نهارها . ولم تكن تفكر بعد في شيء ، فأمرّت يدها في شعرها ، وانتظرت : « انني في الصباح اقيء دائماً مرتين » ثم تمثّلت فجأة وجه ماتيو ، وهيئته الساذجة المقتنعة حين قال : هل نجهضه ؟ واخترقها برقٌ من الحقد .

واقترب القيء . وفكرت اولاً بالزبدة فأخذها الاشمئزاز ، وكان يخيّل اليها انها تمضغ قطعة من الزبدة صفراء ونامسة ، ثم أحسّت بما يشبه ضحكة كبيرة داخل حنجرتها . فانحنت فوق المغسلة . وكان خيط طويل يتدلى من شفتيها ، وكان لا بدّ لها من ان تسعل لتتخلص منه. ولم يكن ذلك ينفّرها . ومع هذا ، فقد كانت سريعة في النفور من نفسها : فحين اصيبت في الشتاء الماضي بالإسهال ، لم تكن تريد ان يمسّها ماتيو بعد ، وكان يخيّل اليها طوال الوقت انها كانت ذات رائحة . ونظرت الى البلغم الذي كان يتسرب على مهل الى ثقب التفريغ ، تاركاً آثاراً ملتمعة لزجة كأنها البزّاق . وقالت بصوت منخفض : « طريف ! طريف ! » ولم يكن ذلك ينفّرها : لقد كان هذا من الحياة ، كتبرعمات الربيع اللزجة ؛ لم يكن ذلك ابعث على النفور من النسغ الأحمر الزكيّ الذي يطلي البراعم . « ليس هذا ما ينفر » وأجرت قليلاً من الماء لتنظيف الطست ، ونزعت قميصها بحركات رخوة . وفكرت : « لو كنت حيواناً لتركوني وشأني » وكان بوسعها ان تستسلم لهذا الاسترخاء الحيّ ، وأن تستحمّ فيه كما لو انها وسط تعب كبير سعيد . انها لم تكن حيواناً . « هل نجهضه ؟ » انها تشعر ، منذ عشية الأمس ، بأنها كانت مطاردة .

وكانت المرآة تعكس صورتها محاطةً باشعاعات رصاصية . واقتربت منها ، ولم تنظر الى كتفيها ولا الى نهديها . انها لم تكن تحب جسمها . ونظرت الى بطنها ، والى حوضها الواسع الخصيب . لسبع سنوات

خلت ، ذات صباح – وكان ماتيو قد قضى الليل معها ، وكانت هي المرة الاولى – كانت قد اقتربت من المرآة بهذا الاندهاش المتردد نفسه، وكانت آنذاك تفكر : « صحيح اذن ان بوسع المـرء ان يحب ! » وكانت تتأمل بشرتها الملساء الحريرية ، كأنما هي قطعة نسيج، ولم يكن جسمها الا سطحـاً مجعولاً ليعكس العاب النور العميقة وليتغضّن تحت الملامسات، كالماء تحت الريح. انها لم تكن اليوم تلك البشرة نفسها : كانت تنظر الى بطنها فتجد إزاء غزارة هذه البراري الغذائية الهادئـة إحساساً سبق ان راودها اذ كانت صغيرة وهي ترى اثداء النساء اللواتي كنّ يرضعن اولادهن في حديقـة اللكسمبورغ : فقد كان وراء الخوف والاشمئزاز ، نوع من الأمل . وفكرت : « انه هنا » في هذا البطن كانت حبة فريز دموية صغيرة تعجّل لتحيا ، في سرعة بريئة ، حبـة فريز دموية بليدة كل البلادة لم تبلغ بعد ان تكون حيواناً، وسيسقطونها بطرف سكين . « هناك اخريات ، في هذه الساعة ، ينظرن الى بطونهن ويفكرن ايضاً : انه هنا . ولكن هؤلاء فخورات . » وهزت كتفيها : اجل ، انه مجعول للامومة ، هذا الجسم الذي كان يتفتح بكيفية غـير معقولة . ولكن الرجال قد قرروا في ذلك شأنـاً آخر . سوف تقصـد تلك العجوز : لم يكن لها الا ان تتخيل انه ورمٌ ليفي . « والحق انه في هذه الساعة ليس الا ورماً ليفياً » ستقصد العجوز ، وسترفع ساقيها في الهواء وسوف تحك العجوز بآلتها ما بين فخذيها . ثم يكف الحديث عن ذلك الى الابد . ولا يكون بعد الا ذكرى مقيتة يملك جميع الناس أمثالها في الحياة . وستعود الى غرفتها الوردية ، وستستـأنف القراءة ، والتألم في الاحشاء ، ويستمر ماتيو في رؤيتها اربع ليال في الاسبوع، وسيعاملها فترة اخرى بلطف ورقة ، كأم صغيرة ، وحين يضاجعها يضاعف احتياطاته ، وسوف يأتي ايضاً دانيال ، دانيال الملاك الاعظم، بين فترة واخرى... ماذا ! انها فرصة قد فاتت ... وفاجأت عينيهـا

في المرآة ، وانفتلت بحيوية : انها لم تكن تريد ان تكـره ماتيو . وفكرت : « لقد آن لي ان أبدأ زينتي » .

ولكنها لم تكن تملك الصبر على ذلك . فعادت تجلس على السرير ، ووضعت يدها بعذوبة على بطنها ،فوق الشعيرات السود تماماً ، وضغطت قليلاً ، لا اكثر مما ينبغي ، وفكرت بشيء من الحنان : « انه هنا » ولكن الكره لم يكن لينهزم . وقالت لنفسها في حرص : « لا اريد ان اكرهه . انه على حق . فلقد تعاهدنا انه في حال حدوث ... ولم يكن يستطيع هو ان يعرف . انها غلطتي ،فأنا لم اقل له شيئاً قط » وحسبت ذات لحظة ان نفسها ستنفرج ، فهي لم تكن تخشى شيئاً كأن تحتقره . ولكنها ما لبثت ان انتفضت : « وكيف كان لي ان اخبره ؟ انه لا يسألني عن شيء ابداً . » طبعاً:لقد تعاهدا مرةً والى الأبد ان يتكاشفا كل شيء . ولكن هذا كان مناسباً له خصوصاً . كان يحب خاصةً ان يتحدث عن نفسه ، ان يعرض حالاته الضميرية الصغيرة ، ودقائقه الاخلاقية . اما مارسيل فقد كانت تثق به : بدافع الكسل . ولم يكن يتبرم من اجلها ، وكان يفكر : لو كانت تشكو شيئاً لأنبأتني . » ولكنها لم تكن تستطيع ان تتكلم : ان ذلك لم يكن يخـرج من فمها . « يجب ان يعرف مع ذلك ، انني لا استطيع ان اتحدث عن نفسي ، فأنا لا احب نفسي بما فيه الكفاية لأتحدث عن نفسي . » الا مع دانيال ، فقد كان دانيال يعـرف كيف يحملها على الاهتمام بنفسها : فما كان الطف طريقته في سؤالها ، وفي النظر اليها بعينيها الجميلتين المداعبتين ، ثم انه كان بينهما سر . فما كان اعجب دانيال : كان يراها بالخفية ، وكان ماتيو يجهل كل شيء عن علاقتهما؛ولم يكونا يفعلان شيئاً ضاراً ، بل كان ما بينهما شبه لعبة ، ولكن هذا الضلوع كان يخلق بينهما صلة لذيذة وخفية؛ثم ان مارسيل لم يكن ليؤذيها ان يكون لها شيء من الحياة الشخصية ، شيء يكون حقاً ملكها ، ولا تكون مضطرة الى مشاركة

احد فيه . وفكرت : « ليس له الا ان يفعل كدانيال . لماذا لا يكون هناك احد غير دانيال يستطيع ان يحملني على الكلام ؟ ليته ساعدني قليلاً ... » لقد احست طوال نهار امس بانقباض في حلقها ، وكانت تود لو تقول له : « وماذا لو احتفظنا به ؟ » آه ! ليته تردد ، ولو لحظة ، اذن لقلت له ذلك . ولكنه جاء ، واتخذ مظهره الساذج : « ألا نجهضه ؟ » ولم يستطع ذلك ان يخرج من فمها . « كان قلقاً حين خرج : انه لم يكن يريد ان تهدمني تلك المرأة . هذا صحيح : سوف يبحث عن عناوين ، وسيشغله ذلك ، الآن وقد انتهت اعماله التدريسية ، وهذا خير له من ان يتسكع مع تلك الصغيرة . ثم انه قد ارتبك كمن كسر اناء من فخار . ولكن ضميره ، في صميمه ، مرتاح كل الراحة ... ولا بد انه عاهد نفسه على ان يملأني حباً . » وضحكت ضحكة قصيرة: « لا بأس . غير ان عليه ان يعجّل : فعما قليل سأتجاوز سن الحب . »

وشنّجت يديها على القماش ، وكانت مذعورة : « اذا بدأت احتقره ، فماذا يبقى لي ؟ » ولكن ، هل كانت تعلم ان كانت تريد طفلاً ؟ كانت ترى من بعيد ، عبر المرآة ، كتلة مظلمة متراخية بعض الشيء : وكان ذلك جسمها ، جسم السلطانة العقيم . « ولكن أتراه كان حقاً سيعيش ؟ انني متهرئة . » سوف تقصد هذه العجوز ، متخفية في الليل . وستمر العجوز يدها في شعرها ، كما أمرتها في شعر «اندريه» ، وتناديها بلهجة ضلوع قذرة : يا قطتي الصغيرة : « حين لا تكون المرأة متزوجة ، فأن حبلها مربك كالسيلان . انني مصابة بمرض جنسي . هذا ما ينبغي ان اقوله لنفسي . »

ولكنها لم تستطع الامتناع عن ان تمر يدها متمهلة على بطنها . وفكرت : انه هنا . هنا . شيء حي قليل الحظ مثلها . حياة نافلة ، ولا معقولة ، كحياتها ... وفكرت فجأة في هوس : « مهما يكن ، فأنه كان سيكون

لي ، حتى ولو كان ابله ، ولو كان مشوهاً ، كــان سيكون لي »
ولكن هذه الرغبة الخفية ، وهذا القسم الغامض ، كانا من التوحـّـد
وطاقــة الكتمان ، وكان ينبغي اخفاؤهما على كثير من النساء ، بحيث
أحسّت فجأة بأنها مذنبة ، وشعرت بالاشمئزاز من نفسها .

٦

كانت تُرى اولاً فوق الباب لافتة « ج . ف » والاعـلام المثلثة الألوان : وكان هذا ينبيء فوراً بالموضوع . ثم كان المرء يلج الصالونات الكبيرة الخالية ، ويغرق في نور اكاديمي كان يسقط من شبّاك قد زال صقله : وكان ذلك يدخل عينيك مذهّبـاً ، ثم يأخذ في الذوبان ، ويصبح رمادياً . جدران مشرقة ، وبُسُط من المخمل البيـج . وفكر ماتيو : « الروح الفرنسية . » حمّام من الروح الفرنسية . وكان هناك مثله في كل مكـان ، على شعر ايفيش ، وعلى يدي ماتيو : كانت تلك الشمس المنقّاة وصمت هـذه الصالونات الرسمي ؛ وأحس مـاتيو بأنه مرهق بغمامة من التبعات المدنية : كان ينبغي ان يتحدث المرء بصوت منخفض ، وألاّ يمس الأشياء المعروضة ، وان يمارس باعتدال ، ولكن بحزم ، حسّه النقدي ، وألا ينسى في اي حال اوفر الفضائل «فرنسية» : الانسجام . وبعد هذا ، طبيعي ان يكون على الجدران لطخات ، هي اللوحات ، ولكن ماتيو كان قد فقد كل رغبة في النظر اليها . ومع ذلك ، فقد اقتاد ايفيش ، وأراها ، من غير أن يتكلم ، منظراً من مناظر « بريتاني » مع تل نصب عليه صليب ، ومسيحاً على صليب ، وباقة ، وامرأتين من تاهيتي راكعتين على الرمل ، وجماعة من الفرسان

الماوريس . ولم تكن ايفيش تقول شيئاً، وكان ماتيو يتساءل عما عساها تفكر به . وكان يحاول احياناً ان ينظر الى اللوحات ، ولكن ذلك لم يكن ينتج شيئاً . وفكر بانزعاج : « اللوحات امرٌ لا يأخذك ، انها تعرض نفسها ؛ ووجودها او عدم وجودها متوقف عليّ ، فأنا حرٌّ ازاءها . » حرٌّ اكثر مما ينبغي : لقـد كان ذلك يخلق له حريةً اضافية ، وكان يحس نفسه في الزيف . وقال :

ــ هذا هو غوغان .

وكانت لوحةٌ صغيرة مربعة وعليها عنوان « صورة الفنان،بريشته » غوغان ممتقع مسرّح ، ذو ذقن ضخم ، وهيئة ذكاء مبتذل وعبوس صبيّ . ولم تجب ايفيش فرمى ماتيو اليها نظرة خفية : فـلم ير إلا شعرها الذي كان بريق النهار الكاذب قد اذهب لمعانه الذهبي . وكان ماتيو ، حين نظر الى هذه الصورة للمرة الاولى في الاسبوع السابق ، قد وجدها جميلة . اما الآن ، فهو يستشعر الجفاف . والحق انه لم يكن يرى اللوحة : فقد كان ماتيو ممتلئاً حتّى درجة الإشباع بالواقع والحقيقة ، مرتعد الفرائص بروح الجمهورية الثالثـة ؛ وكل ما كان واقعياً ، كان يراه ، وكان يرى كل ما يمكن ان يوضح هذا النور الكلاسيكي ، والجدران ، والأقمشة في اطرها ، والألوان المتصلبة على اللوحات . ولكن ليس اللوحات : كانت اللوحات قد انطفأت ، وكان يبدو بشعاً ومريعاً ، في اعماق هذا الحمام الصغـير من الانسجام ، ان يكون قد وُجد إشخاص ليرسموا ويمثّلوا على الأقمشة اشياء غـير موجودة .

ودخل رجل وسيدة . وكان الرجل طويلاً مورّداً ذا عينين تشبهان ازرار الحذاء العالي وشعر ناعم ابيض ؛ اما المرأة فكانت اقرب الى نوع الغزال . وكان عمرها يقدّر بالأربعين . وما كادا يدخلان حتى بدا عليهما وكأنهما في منزلهما : ولا بد ان ذلك كان عادة ، فقد كان

ثمة صلة لا تنكر بين مظهرهما الفنّي وميزة النور ؛ ولا بد ان نور المعارض الوطنية هو الذي كان يحفظها خير حفظ . واشار ماتيو يُري ايفيش عفونةً كبيرة مظلمة على جانب الجدار الداخلي :
ـ انه هو ايضاً .

كان غوغان ، وهو عارٍ حتى النطاق تحت سماء عاصفة ، يحـدد فيها نظرةً قاسية مزيفة هي نظرة المهلوسين . وكانت الوحدة والتكبر قد التهمتا وجهه ؛ وكان جسمه قد اصبح ثمرة سمينة طرية من ثمرات المناطق الاستوائية مع جيوب مليئة بالماء . وكان قد فقد « الجدارة » ـ تلك الجدارة الانسانية التي كان ماتيو لا يزال يحتفظ بها ولا يدري ماذا يفعل بها ـ ولكنه كان يحتفظ بالعزة . وكان خلفه موجودات غامضة، جماعة من الأشكال السوداء . وحين رأى ماتيو للمرة الأولى هذا اللحم الداعر الرهيب ، اخذه انفعال شديد ؛ ولكنه كان وحده . اما اليوم فقد كان إلى جانبه جسم صغير حاقد ، وكان ماتيو خجلاً من نفسه . لقد كان زائداً عن الضرورة : نفاية ضخمة عند اسفل جدار .

واقترب الرجل والسيدة ، واقبلا ينزرعان بلا تكلف امام القماشة . واضطرت ايفيش الى التنحّي خطوة جانبية ، لأنهما كانا يمنعان عنها الرؤيا . وانقلب الرجل الى خلف ونظر إلى اللوحة بقسوة آسفة . لقد كان رجل اختصاص ، وكان يضع عقدة على هيئة وردة . وقال وهو يهز رأسه :

ـ تس ، تس ! ما اقل ما احب هــذا ! اقسم انه يظن نفسه المسيح . وذلك الملاك الاسود خلفه ، هناك ، هناك ... إن هذا ليس بالأمر الجدي .

واخذت السيدة تضحك ، وقالت بصوت زهري :
ـ يا إلـهي ! صحيح .. ذلك الملاك .. إن هذا شيء ادبيّ ...
وقال الرجل بعمق : ـ لا احب غوغان حين يفكر . ان غوغان

الأصيل هو غوغان الذي يرسم الديكور .

وكان ينظر الى غوغان بعينيه ، عيني اللعبة ، ويبدو جافاً وهزيلاً في ثوبه الفلانيل الرمادي الجميل تجاه هذا الجسم الكبير العاري . وسمع ماتيو نقنقة غريبة فالتفت : كانت ايفيش مأخـوذة بضحكة مجنونة ، وقد رمت له نظرة يائسة وهي تعض على شفتيها : وفكر ماتيـو في اشراقة من فرح : « انها غير عاتبة عليّ » وأخذها من ذراعهـا واقتادها وهي منحنية الى اريكة من الجلد ، في وسط القاعة . وتهالكت ايفيش فوق الاريكة وهي تضحك ؛ وكان جميع شعرها قد تناثر على وجهها . وقالت بصوت مرتفع :

هذا فظيع ! كيف كان يقول : « لا احب غوغان حين يفكر ! » والسيدة الفاضلة ؟ انه يلائمه تماماً ان يكون مع سيدة مثلها .

وكان والرجل السيدة منتصبين : وكان يبدو انهما يتشاوران فيما ينبغي عمله . وقال ماتيو بحياء :

– هناك لوحات اخرى ، في القاعة المجاورة .

فكفّت ايفيش عن الضحك ، وقالت بصوت شرس :

– لا ، إن الوضع مختلف الآن . فهناك أشخاص .

– اتريدين ان نخرج ؟

– افضّل ذلك ، فان جميع هذه اللوحات اعـادت لي الصداع . اودّ ان اتنزّه قليلاً في الهواء الطلق .

ونهضت . فتبعها ماتيو وهو يلقي نظرة اسف على اللوحة الكبيـرة المعلقة على الجدار الايسر : فقد كان يود ان يُريها اياهـا . كانت صورة امرأتين تطآن ، بأقدامها العارية ، عشباً وردياً . وكانت احداهما ترتدي قبعة ، وكانت ساحرة . اما الاخرى ، فكانت تمد ذراعها بهدوء نبويّ . ولم تكونا حيّتين تماماً . وكان يبدو انهما فوجئتا وهما تتحوّلان الى شيئين .

وفي الخارج ، كان الشارع يشتعل . وأحس ماتيو بأنه انما كان يعبر أتوناً . وقال بالرغم عنه :

ـ ايفيش .

فقطّبت ايفيش ورفعت يديها الى عينيها ، وقالت بغضب :

ـ كأنهما تُفقآن بالدبابيس . اوه اني أكره الصيف .

ومشيا بضع خطوات . وكانت ايفيش تترنح قليلاً ، وهي ما تزال تضغط بيديها على عينيها .

وقال ماتيو : ـ حذار ، إن الرصيف يقف .

وخفضت ايفيش يديها فجأة ، فرأى ماتيو عينيها الصفراوين متباعدتين . وعبرا الرصيف صامتين . وقالت ايفيش فجأة :

ـ ينبغي ألا تكون عامّة .

فسألها ماتيو مندهشاً : ـ تعنين المعارض ؟

ـ نعم .

ـ لو لم تكن عامّة (كان يحاول ان يستعيد لهجة الألفة التي كانا معتادين عليها) فأني أتساءل كيف كان لنا ان نذهب اليها .

فقالت ايفيش بجفاء : ـ كنّا لا نذهب اليها !

وصمتا . وفكر ماتيو : « لم تكفّ عن الحقد عليّ » ثم اخترقه فجأةً يقين غير محتمل : « انها تريد ان تفرنقع . وهي لا تفكــر بغير هذا . لا بد انها تفتش في رأسها عن عبارة للاستئذان المهذب ، فأذا وجدتها تركتني . ولست اريد ان تذهب . » فكر في ذلك بقلق . وسألها :

ـ أليس لديك شيء خاص تعملينه ؟

ـ متى ؟

ـ الآن .

ـ كلا . لا شيء .

ـ ما دمت تريدين ان تتنزهي ، فأني افكر ... هل يزعجك ان

ترافقني حتى منزل دانيال ، شارع مونمارتر ؟ نستطيع ان نفترق عند بابه وستسمحين لي ان امنحك تاكسي لتدخلي الى المعهد .

كما تريد ، غير اني لن اعود الى المعهد ، بل سأذهب لرؤية بوريس .

« انها باقية » ولم يكن ذلك يثبت له انها سامحته . كانت ايفيش تجزع من ترك الامكنة والناس ، حتى ولو كانت تكرههم ، لأن المستقبل كان يخيفها . وكانت تستسلم بتثاقل متجهم الى اشد المواقف إغاظة ، ثم ينتهي بها الأمر الى ان تجد فيها نوعاً من الراحة . ومع ذلك ، فقد كان ماتيو مسروراً : فما دامت معه : فسيمنعها من التفكير. اذا تكلم بلا انقطاع ، واذا فرض نفسه ، استطاع ان يؤخر قليلاً تفتح الافكار الغاضبة والمزدرية التي ستولد لديها . كان ينبغي ان يتكلم على التو ، في اي موضوع . ولكن ماتيو لم يكن يجد ما يقوله . وانتهى الى ان يسألها بارتباك :

ـ لقد راقت لك هذه اللوحات ، بالرغم من كل شيء ؟

فهزت ايفيش كتفيها :

ـ طبعاً .

وكان ماتيو راغباً في ان يمسح جبينه ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك . « ستكون بعد ساعة حرة،وستحكم علي حكماً مبرماً ولن يتسعني بعد ان ادافع عن نفسي . ليس ممكناً ان ادعها تذهب هكذا (هذا ما قرره) يجب ان اشرح لها . »

وانفتل اليها ، ولكنه رأى عينيها الشاردتين قليلاً ، فلم يتأت له الكلام .

وسألت ايفيش فجأة : ـ اتظن انه كان مجنوناً ؟

ـ غوغان ؟ لا ادري . أبسبب صورته تسأليني هذا السؤال ؟

ـ بسبب عينيه . ثم ان هناك هذه الاشكال السوداء خلفه ، فكأنها همسات .

واضافت في شيء من الاسف :

– لقد كان جميلاً .

فقال ماتيو وقد بوغت : – عجباً ! هذه فكرة ما كانت لترد على بالي .

وكانت لإيفيش طريقة في التحدث عن المشاهـير من الموتى تثير استغرابه بعض الشيء : فهي لم تكن تقيم بين الرسامين الكبار وبين لوحاتهم اي صلة ؛ لقد كانت اللوحات اشياء ، اشياء جميلة شهوانية ينبغي امتلاكها ؛ وكان يخيّل اليها انها كانت موجودة منذ الأبد ؛ اما الرسامون فقد كانوا بشراً كسائر البشر : انها لم تكن تحمد لهم اعمالهم، ولم تكن تحترمهم . وكانت تسأل عما اذا كانوا لذيذين ظرفاء ، وعما اذا كانت لهم خليلات؛وقد سألها ماتيو يوماً عما اذا كانت تحب لوحات تولوز – لوتريك فأجابت : « اية فظاعة ! ما كان اقبحه ! » فاحس ماتيو بانه شخصياً قد جُرح .

– أجل ، لقد كان جميلاً .

فهز ماتيو كتفيه . لقد كانت ايفيش تستطيع – ما شاءت – ان تأكل بعينيها طلبة السوربون التافهين النضرين كالبنات . بل ان ماتيو قد وجدها جذابة ، ذلك اليوم الذي كانت تتأمل فيه فتى قاصراً من فتيان الميتم ترافقه راهبتان،فقالت برصانة حائرة بعض الشيء : « اعتقد اني سأصبح لوطيّة !» وكان يمكن لها ان تجد النساء جميلات . اما غوغان، فلا . ليس هذا الرجل الناضج الذي صنع لها لوحات كانت تحبهـا . وقال :

– كل ما هنالك ، اني لا اجده قريباً الى القلب .

فقلبت ايفيش شفتيها استياء وصمتت .

وقال ماتيو بحيوية : – ماذا هناك يا ايفيش ؟ انك تلومينني لأني قلت انه لم يكن قريباً الى القلب ؟

ـلا ، ولكني أتساءل لماذا قلت ذلك .

ـ هكذا . لأن هذا هو شعوري : ان هيئة التكبّر التي يبدو عليها تجعل عينيه شبيهتين بعيني سمكة مسلوقة .

واخذت ايفيش تشد على خصلة من شعرها ، وكانت قد اتخذت هيئة عناد تافه .

وقالت بلهجة محايدة : ـ ان له هيئة من النبل .

فقال ماتيو باللهجة نفسها : ـ صحيح .. ان كنت تقصدين هيئة التعجرف .

فقالت ايفيش بضحكة قصيرة : ـ طبعاً .

ـ لماذا تقولين طبعاً ؟

ـ لأني كنت واثقة من انك ستصف ذلك بالتعجرف .

فقال ماتيو بعذوبة :

ـ لم اكن اريد ان اقول عنه اي سوء . فانت تعلمين اني احب ان يكون الانسان متكبراً .

وسادت فترة صمت طويلة . ثم قالت ايفيش بفظاظة ، وبلهجة بليدة مغلقة :

ـ ان الفرنسيين لا يحبون ما هو نبيل .

وكانت ايفيش تتحدث بكل رضى عن المزاج الفرنسي اذ تكون غاضبة،وهي تتحدث دائماً بهذه اللهجة البليدة . واضافت بصوت مفرط اللطافة :

ـ والواقع اني ادرك سبب ذلك . فلا بد ان ذلك يبدو ، من الخارج ، مبالغاً فيه جداً .

ولم يجب ماتيو : لقد كان ابو ايفيش نبيلاً . ولولا ثورة ١٩١٧ لربّيت ايفيش في موسكو،في المدرسة الداخلية لآنسات النبالة، ولقدّمت الى القصر ، ولتزوجت ضابطاً من الحرس ، طويلاً وجميلاً ، ذا جبين

ضيق ونظرة ناعسة . اما الآن ، فان السيد سرغين هو صاحب منشرة آلية في لاون . وكانت ايفيش في باريس ، كانت تتنزه في باريس ، مع مـــاتيو ، وهو بورجوازي فرنسي لم يكن يحب النبالة ، وسألته ايفيش فجأة :

ـ أهو الذي ... رحل ؟

فقال ماتيو على عجل : ـ أجل ، هل تريدين ان اروي لك قصته ؟

ـ احسب اني اعرفها : كان متزوجاً ، وكان له اولاد ، اليس كذلك ؟

ـ أجل ، كان يعمل في مصرف . ثم كان ينطلق يوم الاحد الى الضاحية وهو يحمل مرسماً وعلبة الوان . كان ما يسمى برسام ايام الاحد .

ـ رسّام ايام الاحد ؟

ـ نعم : في البدء ، كان كذلك ، يعني انه كـان هـاوياً يخربش اللوحات يوم الاحد كما يصطاد صياد الشبكة ، بدافع من المحافظة على الصحة ، لأن من يرسم المناظر في الريف يستنشق الهواء النقي .

واخذت ايفيش تضحك ، ولكن ليست الضحكة التي كان يتوقعها ماتيو ، فسألها بقلق :

ـ هل يسلّيك انه بدأ بأن يكون رسام ايام الاحد ؟

ـ لم اكن افكر به .

ـ وبمَ كنت تفكرين ؟

ـ كنت اتساءل عما اذا كانوا يتحدثون ايضاً ، في بعض الاحيان ، عن كتّاب يوم الاحد .

كتّاب الاحد : بورجوازيون صغار يكتبون كل عام قصة قصيرة او خمس قصائد او ستاً ليطعّموا حياتهم بشيء من المثالية . بدافع من المحافظة على الصحة . وارتعش ماتيو وسألها بجذل :

ـ اتقصدين اني احدهم ؟ حسناً ، ترين ان ذلك يفضي الى كل

شيء فلعلني أرحل يوماً ما الى تاهيتي .

فالتفتت اليه ايفيش ونظرت اليه وجهاً لوجه . وكان يبدو عليها الاستياء والخوف : فلا بد انها كانت خائفة من جرأتها هي بالذات . وقالت بصوت لا طابع له :

– سأستغرب ذلك .

فقال ماتيو : – ولِمَ لا ؟ قد لا أرحل الى تاهيتي ، وانما الى نيويورك . ان بودي لو أذهب الى أميركا .

وكانت ايفيش تشد على خصلاتها بعنف ، وقالت :

– نعم ، اذا كان ذلك في بعثة ، مع أساتذة آخرين .

فنظر ماتيو اليها صامتاً ، واستطردت :

– ربما كنت على خطأ ... انني أستطيع ان أتمثلك وأنت تلقي محاضرة في جامعة أمام طلاب أميركيين ، ولكن لا على ظهر سفينة ، مع مهاجرين . وربما كان ذلك لأنك فرنسي .

فسألها وهو يحمرّ خجلاً : – أتعتقدين انه يلزمني غرفٌ من الدرجة الممتازة ؟

فقالت ايفيش بايجاز : – لا ، بل من الدرجة الثانية .

فشق عليه قليلاً ان يبتلع ريقه . « أود كثيراً لو أراها ، هي ، على ظهر سفينة ، مع مهاجرين ، اذن لماتت قهراً » .

وانتهى يقول : – أخيراً ، مهما يكن من أمر ، فاني أجد غريباً منك ان تقرري هكذا انني لن أستطيع الذهاب . والواقع انك على خطأ ، فقد راودتني الرغبة كثيراً في الماضي . غير ان ذلك قد زال لأني أجده أمراً بليداً . ثم ان هذه الحكاية كلها مضحكة خاصة وانها جاءت بصدد غوغان الذي ظل بيروقراطياً حتى الأربعين من عمره .

فانفجرت ايفيش بضحكة ساخرة ، وسألها ماتيو :

– أليس ذلك صحيحاً ؟

– بلى .. ما دمت تقوله . مهما يكن من أمر ، فيكفي ان ننظر اليه على قماشته ...

– ماذا ترين ؟

– أتصوّر انه لا ينبغي ان يكون هناك كثير من البيروقراطيين على شاكلته . لقد كان يبدو ... ضائعاً .

وتمثّل ماتيو وجهاً ثقيلاً ذا ذقن هائلة . لقد فقد غوغان الجدارة الانسانية ، وقد قبل أن يفقدها . وقال :

– فهمت . تقصدين اللوحة الكبيرة في الداخل ؟ لقد كان مريضاً جداً في تلك الاثناء .

فابتسمت ايفيش بازدراء :

– انما أتكلم عن اللوحة الصغيرة التي كان ما يزال فيها شاباً : انه يبدو جديراً بأي شيء .

ونظرت الى الفراغ ، بشيء من الشرود ، فأحس ماتيو للمرة الثانية بعضّة الحسد .

– طبعاً ، اذا كان هذا ما تقصدينه ، فلست رجلاً ضائعاً .

قالت ايفيش : – اوه ! كلا .

فقال : – ثم اني لا أفهم لِمَ تكون هذه مزيّة ، وإلا فأني لا أفهم ما تقصدين .

– حسناً ! لا نتكلم بعد في ذلك .

– طبعاً . أنت كذلك دائماً : توجهين انتقادات مغلّفة، ثم ترفضين أن تشرحيها . إن ذلك أسهل مما ينبغي .

فقالت بلا اكتراث : – انا لا أوجه انتقادات الى أحد .

فكفّ ماتيو عن السير ونظر اليها . وتوقفت ايفيش على مضض وقفزت خطوة وهي تتفادى نظر ماتيو :

– اسمعي يا ايفيش ! ستقولين لي ما تقصدين بذلك ؟

فقالت بدهشة : – بأي شيء ؟

– بقصة هذا الرجل « الضائع » .

– أما زلنا نتحدث في هذا الموضوع ؟

قال ماتيو : – ان ذلك يبدو بليداً ، ولكني أود أن أعرف ماذا تقصدين بذلك .

فعادت ايفيش تشد على خصلات شعرها . وكانت بين وقت وآخر تفتح فمها فيحسب ماتيو انها ستتكلم : ولكنها لم تقل شيئاً . ثم قالت :

– سيّان عندي أن يكون المرء كذلك ، أو يكون شيئاً آخر .

وكانت قد لفّت خصلة حول إصبعها وأخذت تشد عليها كما لو انها تريد أن تنتزعها . وأضافت فجأة بصوت سريع ، وهي تحدد نظرها في رأس حذائها :

– أنت مستقر ، ولن تتغير ولو وهبوك ذهب الدنيا .

قال ماتيو : – هكذا تظنين اذن ؟ وما هو دليلك ؟

– انه شعور : ان المرء يُحس أن لك حياة مصنوعة ناجزة ، ولا سيما أفكارك . واذن فانك تمد يدك الى الأشياء حين تظن انها في متناولك ولكنك لا تزعج نفسك لتذهب فتأخذها .

فردد ماتيو : – وما هو دليلك ؟ (ولم يكن يجد شيئاً آخر يقوله: كان يفكر بأنها على حق) .

فقالت ايفيش في ضجر : – كنت أظن . كنت أظن انك لا تريد ان تجازف بشيء ، وانك أذكى من أن تفعل ذلك . (ثم أضافت بلهجة مصطنعة) ولكن ما دمت تقول انك لست كذلك ...

وفكر ماتيو فجأة بمارسيل فأخذه الخجل ، وقال بصوت منخفض :

– كلا ، اني كذلك ، اني كما تظنين .
فقالت ايفيش بلهجة انتصار : – آه ! أترى ؟
– وانت ... هل تجدين ذلك يستحق الاحتقار ؟
فقالت ايفيش في رفق :
– بل على العكس . اني أجد هذا أفضل بكثير . لا بد ان الحياة مع غوغان مستحيلة (وأضافت دون ان يبدو في لهجتها اي سخرية) أما معك ، فان المرء يحس بالطمأنينة ، ولا مجال لأن يخشى أبداً ما هو غير متوقع .
فقال ماتيو بجفاف : – صحيح . اذا كنت تعنين انني لا أنساق للاهواء ... انت تعلمين ان بوسعي ان انساق لها كأي انسان آخر ، ولكني أجد ذلك قبيحاً .
قالت ايفيش : – أعرف ذلك . إن كل ما تفعله منهجي ... جداً.
فشعر ماتيو بأنه يصفرّ :
– بأي صدد ، تقولين هذا يا ايفيش ؟
فقالت ايفيش بلهجة غامضة : – بصدد كل شيء .
– اوه ! لا بد ان لديك فكرة صغيرة معينة .
فهمهمت من غير ان تنظر اليه :
– لقد كنت كل اسبوع تأتي ومعك « الاسبوع في باريس » ثم تنظم برنامجاً ...
فقال ماتيو مغتاظاً : – ولكن ذلك كان من أجلك يا ايفيش ...
فقالت ايفيش بتأدب : – أعرف هذا ، واني أكنّ لك العرفان .
وكان ماتيو مباغتاً أكثر منه مجروحاً :
– اني لا أفهم يا ايفيش . ألم تكوني تحبين سماع الموسيقى او مشاهدة اللوحات ؟
– بلى .

ـ كم تقولين ذلك برخاوة !

ـ كنت احب ذلك كثيراً في الحق . (واضافت بعنف مفاجيء) ولكني استفظع ان تُخلق لي واجبات تجاه الاشياء التي أحبها .

فردد ماتيو : ـ آه .. انك .. انك لم تكوني تحبين ذلك .

وكانت قد رفعت رأسها وقذفت شعرها الى الخلف ، فانكشف وجهها الأصفر العريض ، وكانت عيناها تطلقان الشرارات . وكان ماتيو جزعاً مرهقاً: ينظر الى شفتي ايفيش الدقيقتين الرخوتين ،ويتساءل كيف استطاع ان يقبلها . واستطرد يقول بأشفاق :

ـ كان ينبغي ان تخبرني ، ولو فعلت لما قسرتك قط .

لقد جرّها الى الحفلات الموسيقية والى المعارض ، وكان يشرح لها اللوحات ، وفي هذه الاثناء كانت تكرهه . وقالت ايفيش وكانها لم تسمعه :

ـ ما عسى ان تهمني انا ، اللوحات ، اذا لم اكن استطيع ان امتلكها ؟ كنت كل مرة انفجر غضباً ورغبة في ان أحملها ، ولكن لم يكن ممكناً حتى لمسها . وكنت اشعر بك الى جانبي هادئاً ولائقاً: فقد كنت تذهب الى هناك ، كما لو انك تذهب الى القداس .

وصمتا . وكانت ايفيش قد احتفظت بهيئتها القاسية . وأحس ماتيو فجأة بانقباض في حنجرته :

ـ ايفيش ، ارجوك ان تعذريني بسبب ما حدث في هذا الصباح .

قالت ايفيش : ـ هذا الصباح ؟ اني لا افكر به بعد ، بل كنت افكر بغوغان .

قال ماتيو : ـ إن ذلك لن يحدث مرة اخرى ، بل انني لم افهم كيف امكن ان يحدث ذلك .

وكان يتكلم تبرئة لضميره : فقد كان مدركاً ان قضيته كانت خاسرة . ولم تجب ايفيش فاستطرد ماتيو جاهداً :

– وكانت هناك المتاحف وحفلات الموسيقى ايضاً ... ليتك تعلمين كم انا آسف ! إن المرء يظن احياناً انه على وفاق مع انسان آخر ... ولكنك لم تكوني تقولين شيئاً قط .

وكان يحسب ، لدى كل كلمة ، انه سيتوقّف . ثم كانت تأتيه كلمة اخرى من جوف حنجرته وهي ترفع له لسانه .. وكان يتكلم باشمئزاز وبتشنجات صغيرة . وأضاف :

– سأحاول ان اتغير .

وفكر « انني كريه » وكان غضب يائس يعانق وجنتيه . وهزت ايفيش رأسها وقالت :

– لا يستطيع الانسان ان يتغير .

وكانت تتكلم بلهجة متعقّلة ، فاحتقرها ماتيو بكل صراحة . ومشيا صامتين ، جنباً الى جنب ؛ وكان النور يغمرهما ، وكان احدهما يكره الآخر . ولكن في الوقت نفسه كان ماتيو يرى نفسه بعيني ايفيش ، فيأخذه الاشمئزاز من نفسه . ورفعت كفها الى جبينها وضغطت صدغيها بين أصابعها :

– الا نزال بعيدين ؟

– ربع ساعة . هل انت متعبة ؟

– اوه ! نعم . اعذرني ، ان السبب هو هذه اللوحات . (وضربت برجلها الارض ونظرت الى ماتيو نظرة تائهة) هـا هي تفلت مني ، وتختلط جميعاً في رأسي . وهذا يحدث كل مرة .

وأحس ماتيو ببعض الارتياح : – هل تريدين ان تعودي ؟

– أعتقد ان ذلك أفضل .

فنادى ماتيو سيارة تاكسي . وكان على عجلٍ ليكون وحده الآن .

وقالت ايفيش من غير ان تنظر اليه : – الى اللقاء .

وفكر ماتيو : وملهى « سومطرا » ؟ هل ينبغي لي ، بالرغم من

ذلك ، ان اقصده وحدي ؟

ولكن لم تكن به رغبةٌ حتى لأن يراها مرة اخرى : وأعادت :

– الى اللقاء .

وابتعــد التاكسي ، وتبعه ماتيو بعينيه بضع لحظات في ضيق . ثم انصفق بابٌ فيه ، وأغلق زجاجه ، فأخذ يفكر في مارسيل .

٧

كان دانيال يحلق ذقنه أمام مرآة خزانته ، وهو عارٍ حتى نطاقه : « ان هذا هو لهذا الصباح ، وعند الظهر سينتهي كل شيء . » ولم يكن ذلك مجرد مشروع : فقد كان الأمر هنا ، في النور الكهربائي ، وفي صرير آلة الحلاقة . ولم يكن ممكناً محاولة ابعاده حتى ولا تقريبه لتنتهي القضية بسرعة : كل ما هناك انه كان ينبغي ان يُعاش . وكانت الساعة لم تتجاوز العاشرة،ولكن الظهر كان حاضراً في الغرفة، محدداً ، صريحاً ، يشبه العين . وفيما بعد ذلك ، لم يكن ثمة الا اصيلٌ مبهم كان يتلوى كالدودة . وكان داخل عينيه يؤلمه لأنه كان قد نام قليلاً، ولأن بثراً كان قد نبت تحت شفته ، احمرارٌ صغير ذو رأس ابيض : ان الأمر قد أصبح الآن كذلك ، كلما شرب الخمر . وأرهف دانيال اذنه : كلا ، كانت هذه ضجة في الشارع . ونظر الى البثر المحمرّ المحموم . وكانت هناك ايضاً الدوائر الكبيرة المزرقّة تحت عينيه — وفكر : « انني اهدم نفسي » وكان يُعنى بعناية كبيرة بأن يُمرّ الموسى حول البثر لئلا يجلفه ؛ سوف تبقى هناك باقة صغيرة من الهُلب الاسود ، ولكن فليكن : كان دانيال يستفظع جلف البثور . وفي الوقت نفسه كان يرهف اذنه : لقد كان باب غرفته مشقوقاً ليستطيع ان يسمع بوضوح:

وكان يقول لنفسه : « لن اخطئها هذه المرة » .

وكان ثمة حفيف خفيف يكاد لا يسمع ؛ ولكن دانيال كان قد قفز ، والموسى في يده ، وفتح باب الدخول فوراً . غير انه كان قد فات الاوان : فقد فرت الصبية ، ولا بد انها قابعة الآن في زاوية سُلّم ، وانها تنتظر خافقة القلب ، ممسكة انفاسها .

واكتشف دانيال فوق القش ، عند قدميه ، باقة من القرنفل: وقال بصوت مرتفع : « انثى صغيرة قذرة ! » كان على يقين بأنها ابنة البوابة . وكان حسبه ان ينظر الى عينيها ، عيني السمكة المقلية ، حين كانت تسلّم عليه . وهذا مستمر منذ خمسة عشر يوماً : كل يوم، لدى عودتها من المدرسة، كانت تضع زهوراً امام باب دانيال . ورفس باقة القرنفل الى اسفل السلم . « يجب ان ارهف السمع وانا في الغرفة الصغيرة طوال الصباح ، فبهذا وحده استطيع ان اقبض عليها . » سوف يظهر عارياً حتى النطاق ، ويحدد فيها نظراً قاسياً . وفكر : « انها انما تحب رأسي . رأسي وكتفيّ لأن لها مثلاً اعلى . وسيؤثر فيها ان ترى ان لي شعراً في صدري . » وعاد الى غرفته واستأنف حلاقة ذقنه . وكان يرى في المرآة وجهه الغامض المتكبر ذا الوجنتين الزرقاوين ؛ وفكر في شيء من الاستياء : « ان هذا هو ما يهيجهن » وجه ملاك ؛ كانت مارسيل تدعوه بملاكها العزيز ، وينبغي له الآن ان يتحمل نظرات هذه العفريتة المنتفخة بالمراهقة . وفكر دانيال بغيظ : « القذارات ! » وانحنى قليلاً ، وبضربة ماهرة من موساه، قطع بثره . ليست دُعابة رديئة ان يشوه هذا الوجه الذي كن يحببنه الى ذلك الحد . « من يدري ؟! ان وجهاً مجروحاً يظل وجهاً، وهو يعني دائماً شيئاً ما : ولسوف اضجر من ذلك بأسرع من السابق ! » واقترب من المرآة ونظر الى نفسه من غير رضى ؛ وقال لنفسه: « الواقع اني احب ان اكون جميلاً » وكان يبدو عليه التعب، وقرص نفسه لدى جنبيه : « يجب ان انقص كيلو غراماً » سبعة اقداح ويسكي،

ليلة امس ، وحده ، في خانة « جوني » وحتى الساعة الثالثة لم يكن قد استطاع ان يقرر العودة الى البيت ، لأنه كان كئيباً ان يضع رأسه على الوسادة ، وان يحس انه ينسرب في الظلام ، وهو يفكر بان ثمة غداً . وفكر دانيال في كلاب القسطنطينية : لقد طوردت في الشوارع ووضعت في اكيـــاس او في سلال ، ثم اطلقت في جزيرة جرداء ؛ فأخذت تلتهم بعضها ؛ وكانت ريح البحر تحمل عواءها احياناً الى مسامع البحارة : « ليست الكلاب هي ما كان ينبغي ان توضع في تلك الجزيرة.» ولم يكن دانيال يحب الكلاب . وارتدى قميصاً من الحرير الاصفر وبنطلوناً من الفلانيل الرمادي ؛ واختار بعناية ربطة عنق : ستكون اليوم الربطة الخضراء ذات الخطوط ، لأن سحنته كانت سيئة . ثم فتح الباب فدخل الصباح الى غرفته ، صباح ثقيل ، خانق ، مُعدٌ سلفاً لهذا الظرف . واستسلم دانيال لحظة للحرارة الآسنة ، ثم نظر فيما حوله : كان يحب غرفته لأنها كانت لا شخصية، ولم تكن تسلّمه ، فكأنها غرفة فندق . اربعة جدران عارية ، اريكتان ، كرسي ، طاولة ، خزانـة ، سرير ولم تكن لدانيال ذكريات . ورأى سلة الخيزران الكبيرة ، مفتوحة في وسط القاعة ، فصرف بصره : كان ذلك لليوم .

وكانت ساعة دانيال تسجل العاشرة والخامسة والعشرين ، وفتح باب المطبخ ثم صفّر وظهر « سيبيون » اول ما ظهر . وكان ابيض واحمر ذا لحية صغيرة . ونظر الى دانيال بقسوة وتثاءب بوحشية ، وهو يقيم من ظهره جسراً . وركع دانيال في لطافة واخذ يربت على فقمه . وكان القط يرسل له ، وهو مغمض عينيه نصف اغماض ، ضربات من رجله على كمّه . وبعد لحظه ، أخذه دانيال من جلد رقبته ووضعه في السلة ، فظل فيها سيبيون بلا حركة ، مسحوقاً خاضعاً . وجاءت « ملفينا » بعد ذلك ، وكان دانيال يحبها اقل من الاخريين لأنها كـانت ممثلة ولئيمة . وحين اطمأنت الى انه كان يراها ، اخذت تدندن من بعيد وتتظاهر بالدلال ، وكانت تفرك رأسها بمصراع الباب . ولامس دانيال

باصبعه رقبتها الكثيفة ، فانقلبت على ظهرها ، متصلبة القدمين، فدغدغ حلمتيها تحت فروها الأسود ، وهو يقول بصوت مُغنٍ محسوب « ها ها ! ها ها ! » وكانت هي تتدحرج من جنب الى آخر مع حركات من رأسها لطيفة . وفكر : « انتظري قليـــلاً لنرى ، انتظري حتى الظهر . » وأمسكها من رجليها ووضعها بالقرب من سيبيون . وكان يبدو عليها بعض الدهشة ، ولكنها تدحرجت وهي متجمعة ، وعادت الى الدندنة .

ونادى دانيال : « بوبيه ، بوبيه ، بوبيه ! » ولم تكن بوبيه لتأتي قط حين كانت تنادى ؛ فاضطر دانيال للذهاب الى المطبخ بحثاً عنها . وحين رأته ، قفزت الى فرن الغاز وهـــي تخور بعض خوار مغتاظ . وكانت قطة مزاريب ، وكان لها جرح كبير يعترض جانبها الأيمن . وكان دانيال قد وجدها في اللكسمبورغ ، ذات مساء شتوي ، قبيل اغلاق الحديقة ، فحملها الى بيته . وكانت متغطرسة ورديئة ، وكانت غالباً ما تعض ملفينا : وكان دانيال يحبها . وأخذها بين ذراعيه فارتدت برأسها الى خلف وهي ترخي اذنيها وتمد عنقها : كان يبدو عليهـــا الاستغراب . وأمر أصابعه على فقمها فعضت طرف هذا الاصبع، وهي هائجة ملتذة ؛ واذ ذاك قرصها في رقبتها فرفعت رأسها الصغير العنيد . ولم تكن تهمهم – كانت بوبيه لا تهمهم قط – ولكنها نظـــرت اليه مواجهة ففكر دانيال ، بدافع العادة : « من النادر ان تنظر اليك قطة في عينيك . » وفي الوقت نفسه كان يشعر بأن ضيقاً لا يُحتمل كان يغمره ، فكان عليه ان يصرف نظـــره وقال : « هنا ، هنا ، يا ملكتي ، هنا ، هنا ! » وابتسم لها من غير ان ينظر اليها . وكانت الاخريان قد بقيتا جنباً الى جنب ، بليدتين مهمهمتـــين ، فكأنه غناء زيزان . وتأملها دانيال في عزاء غير مقتنع : « لحم محمّر ! » وكان يفكر بحلمتي ملفينا الورديتين . ولكنه اضطر الى بذل جهود كثـــيرة

لادخال بوبيه في السلة : كان عليه ان يدفعها من مؤخرتها ، فانقلبت وهي تبصق ، وأرسلت له ضربة مخلب ، فقال دانيال : « آه ! هكذا اذن ؟ » واخذها من رقبتها ومن جنبيها ، وطواهـا بالقوة ، فصرّ الخيزران تحت مخالب بوبيه . وأخذت القطة لحظة ذهول ، فاغتنم دانيال الفرصة ليرد الغطاء بالقوة ويغلق القفلين وهو يقول : «اف» . وكانت يده تؤلمه قليلاً ، ألماً يسيراً جافاً ، كأنه الدغدغة . ونهض وهو يتأمل السلة برضىً ساخر : « لقد حُبست ! » وكانت على ظاهر كفه ثلاثة خدوش ، وفي اعماق نفسه دغدغة اخرى ؛ دغدغة غريبة توشك ان تسوء . وتناول لفيفة الخيوط من على الطاولة ووضعهـا في جيب بنطلونه .

وتردد : « امـامي طريق طويلة . وسوف يصيبني الحر » وكان بوده لو يأخذ سترته من الفلانيل ، ولكنه لم يكن قد اعتاد ان يخضع بسهولة لرغباته ، ثم انه سيكون مضحكاً ان يسير تحت الشمس، محمراً سائل العرق ، وبين ذراعيه هذا العبء ، مضحكاً وغريباً بعض الشيء : وقد ابتسم لهذا ، فاختار سترته من التويد البنفسجي التي لم يكن يحتملها بعد منذ نهاية ايار . ورفع السلة من عروقها وفكر : « ما اثقلها، هذه الحيوانات القذرة ! » وكان يتصور وضعها الذليل المربك وذعرهـا الشديد . « هذا اذن ما كنت احبه ! » كان حسبه ان يحبس المعابيد الثلاثه في سجن من الخيزران لتعود قططاً ، مجرد قطط ، ضرعيات صغيرة مغرورة ومحدودة تموت من الرعب – فاقدة القدسية الى ابعد حد ممكن . « قطط : لم تكن إلا قططاً » واخذ يضحك : وكان يشعر كما لو انه يمثل على احد . وحين اجتاز باب الدخول ، اخذه غثيان، ولكن ذلك لم يدم : كان يشعر وهو على الدرج بأنه قاسٍ وجاف ، وتحت ذلك نتانةٌ غريبة ، فتانة لحم نيء . وكانت البوابة على عتبة الباب ، فابتسمت له . وكانت تحب دانيال كثيراً لأنه كان شديد اللياقة

والاناقة .

– انت مبكر جداً يا سيد سورينو .

فأجاب دانيال بلهجة اهتمام : – كنت أخشى ان تكوني مريضة يا سيدتي العزيزة . لقد عدت متأخراً مساء أمس فرأيت النور تحت باب غرفتك .

فقالت البوابة وهي تضحك : – لقد كنت من فرط التعب بحيث نمت من غير ان اطفيء النور . وفجأة سمعتك تدق الجرس ، فقلت : آه ، هذا السيد سورينو . ولم يكن خارج البناية سواك . وبعد ذلك مباشرة أطفأت النور ، وكانت الساعة زهاء الثالثة ، أليس كذلك ؟

– تقريباً ...

قالت : – حسناً ! أظن ان معك سلة كبيرة ؟

– انها قطتي .

– أتكون مريضة ، الحيوانات المسكينة الصغيرة ؟

– لا ، ولكني آخذها الى بيت اختي في « مودون » . إن الطبيب البيطري يقول انها بحاجة الى الهواء .

وأضاف بجد : أتعرفين ان القطط يمكن ان تصبح مسلولة ؟

فقالت البوابة مأخوذة : – مسلولة ؟ اذن ، إعتنِ بها جيـــداً . (واضافت) على أي حال ، ان ذهابها سيحدث فراغاً لديك ؛ وقد اعتدت على رؤيتها ، هذه الحيوانات اللطيفة،حين كنت ارتِّب بيتك . ولا بد ان ذلك يُحزنك .

فقال دانيال : – يحزنني كثيراً ، ايتها السيدة ديبوي .

وابتسم لها بسمة رصينة وتركها . « المرائية العجوز ، لقد قُطعت، فلا بد انها كانت تدللها حين لا اكون في البيت : على اني كنت قد منعتها من ان تلمسها ؛ وهي تحسن صنعاً بان تراقب ابنتها . » وعبر المدخل المكشوف فبهره النور ، النور القذر المحرق النافذ . وكان يؤلمه

في عينيه ، وكان هذا متوقعاً : فليس افضل من الأصباح الغائمة لمن يكون قد شرب في العشية . ولم يكن يرى شيئاً بعد ، وكان يسبح في النور وحول رأسه دائرة من حديد . وفجأة رأى ظله ضخماً كثيفاً، مع ظل سلة الخيزران التي كان يؤرجحها في ذراعه . وابتسم دانيال : لقد كان طويلاً جداً . وانتصب على طول قامته ، ولكن الظل بقي قصيراً مشوهاً ، فكأنما هو ظل قرد من فصيلة الشامبنزي . وقال في نفسه « الدكتور جيكل ومستر هايد . كلا » لا حاجة بي الى تاكسي. سوف انزه مستر هايد حتى موقف ٧٢ . وسيوصله الاوتوبيس ٧٢ الى شارنتون . وكان دانيال يعرف ، على بعد كيلومتر من هناك ، ركناً منعزلاً على شاطيء السين . وقال في نفسه : « انني بالرغم من كل شيء لن يُغمى عليّ ، فانه لا ينقص بعد غير هذا ! » وكان ماء السين شديد السواد كثيف الاقذار في ذلك الموضع ، مع بقع مخضرة من الزيت ، بسبب مصانع « فيتري » . وتأمل دانيال نفسه في نفور: وكان يحس نفسه من شدة العذوبة ، في الداخل ، من شدة العذوبة بحيث ان ذلك لم يكن طبيعياً . وفكر : « هوذا الانسان » في شيء من الرضى . لقد كان قاسياً كله ومسدوداً ، وكان تحت ذلك ضحيةٌ صغيرة تطلب الرحمة . وفكر : « غريب ان يستطيع المرء ان يكره نفسه كأنما هو انسان آخر . » والواقع ان ذلك لم يكن صحيحاً : فمهما فعل ، فانه لم يكن ثمة الا دانيال واحد. حين كان يحتقر نفسه، كان يحس بأنه ينفصل عن نفسه ، وانه يسبح ، كأنه قاضٍ مجرد ، فوق خرير غير نقي ، ثم كان فجأة يؤخذ ، ويُشرَق من تحت ويتدبق في نفسه . وفكر « طز اساشرب قطرة . » وكان عليه ان يقوم بدورة صغيرة ، وسوف يتوقف عند « شامبيونيه » شارع تايدوس . وحين دفع الباب ، كانت الحانة خالية ، وكان الخادم يمسح الغبار عن طاولات الخشب الاحمر التي كانت على شكل براميل . وكان الظلام

لذيذاً في عيني دانيال ، وفكر : « ان بي صداعاً كبيراً . » ووضع السلة وجلس على كرسي عـالٍ من كراسي المشرب . وقال الساقي مؤكداً :

– طبعاً ، قدح ويسكي صغير كثيف .

فقال دانيال بجفاف : – كلا .

فلينفلقوا بعادتهم تلك في تصنيف الناس ، كأنما هم مظـلات او ماكنات خياطة . انا لست ... ان المرء ليس شيئاً قـط . ولكنهم يعرّفونك بحركة يد . فهذا يمنح هبات سخية ، وذلك خفيف الظل ، وانا احب اقداح الويسكي الصغيرة الكثيفة .

وقال دانيال : – قدح جن – فز .

فأتاه الساقي بما طلب من غير ان يبدي اية ملاحظة : لا بد انـه كان منزعجاً . هذا افضل . لن اضع قدمي بعد الآن في هذه الحانة ؛ انهم اكثر الفة مما ينبغي . ثم ان مذاق الجن – فز ، كان مذاق ليموناضة تطهيرية . وكانت تتناثر غباراً محمضاً على اللسان وتنتهي بمذاق فولاذي . وفكر دانيال : انها لا تؤثر فيّ بعد .

– اعطني قدح فودكا مفلفلة في كأس مستديرة .

وشرب الفودكا وظل لحظة وهو يحلم ، وفي فمه "شهُب" ناريـة . وكان يفكر : « ألن ينتهي ذلك ابداً ؟ » ولكنها كانت افكاراً سطحية ، كما هو المألوف ، شكاتٍ بلا رصيد . « ما الذي لن ينتهي ابداً ؟ ما الذي لن ينتهي ابداً ؟ » وسُمع مواءٌ قصير وخربشة ، فقفز الساقي ، وقال دانيال بايجاز :

– انها قطط .

ونزل عن الكرسي العالي ، ورمى عشرين فرنكاً على الطاولة ثم اخذ السلة . وحين رفعها ، اكتشف انها خلّفت على الأرض نقطة صغيرة حمراء : وكان ذلك دماً . وفكر دانيال في ضيق : « ما عساها تصنع

في الداخل ؟ » ولكنه لم يكن راغباً في رفع الغطاء . لم يكن في السلة ، هذه اللحظة ، الا خوف كثيف غير متميّز : فاذا فتح السلة ، عاد هذا الخوف فأصبح قططه ؛ وهذا ما لم يكن دانيال ليحتمله . « آه ! لن نستطيع احتماله ؟ وإذا رفعته ، ذلك الغطاء ؟ » ولكن دانيال كان قد خرج ، وعاد النور يعشي عينيه ، وكان عشاءً شفافاً لزجاً : ان عينيك تتأكلانك ، فتحسب انك لا ترى الا ناراً ، ثم تلاحظ فجأة انك انما كنت ترى بيوتاً لفترة طويلة ، بيوتاً تبعد عنك مئة خطوة ، مشرقة وخفيفة ، كأنها الدخان : وفي جوف الطريق ، كان ثمة جدار كبير ازرق . وفكر دانيال : « ان من المحزن ان يرى المرء بوضوح . » وكان يتخيل الجحيم على هذا الشكل : نظراً يخترق كل شيء ، وبه يستطيع المرء ان يرى آخر الدنيا . حتى اعماق نفسه . وتحركت السلة من تلقاء نفسها في ذراعه ؛ انها تخربش في الداخل . هذا الذعر الذي يحسه قريباً من يده ، لم يكن ليدرك تماماً اذا كان يحدث لديه اشمئزازاً أم يحدث لذة : والحق ان ذلك سواء . وفكر دانيال : « مهما يكن ، فان هناك ما يطمئنها ، انها تشعر برائحتي . هذا صحيح . فأنا بالنسبة اليها رائحة . » ولكن صبراً : ان دانيال لن يلبث طويلاً حتى يفقد هذه الرائحة المألوفة ، وسوف يتنزه بلا رائحة ، وحيداً بين الناس الذين لا يملكون حواس مرهفة تمكّنهم من ان يعرفوك بالرائحة . انه يود ان يكون بلا رائحة ولا ظل ، ولا ماض ، الا يكون شيئاً آخر غير انتزاع من نفسه ، لا يلحظ ، نحو المستقبل . ولاحظ دانيال انه كان يسبق جسمه ببضع خطوات ، عند مستوى المصباح ، وانه كان يرى نفسه قادماً ، وهو يعرج قليلاً بسبب حمله ، غارقاً في العرق . كان يرى نفسه قادماً ، ولم يكن بعد الا مجرد نظر . ولكن مرآة مصبغة عكست له صورته ، فتبدد الوهم . وامتلأ دانيال بماء موحل وتافه : هو نفسه . سيملأ ماء السين التافه الموحل السلة ، وستتمزق القطط فيها

بينها بمخالبها . وغمره اشمئزاز كبير ففكر : « انه عمل مجاني » وكان قد توقف ووضع السلة ايضاً : « ان المرء يعــذّب نفسه عبر الاذى الذي يُلحقه بالآخرين . وليس بوسعه قط ان يبلغ نفسه مباشرة . » وفكر من جديد بالقسطنطينية : لقد كانوا يحبسون الزوجات الخائنات في كيس مملوء بالقطط الكلبة ثم يرمون الكيس في البوسفور . براميل ، اكياس من جلد ، سلال من خيزران : سجون . « هنــاك ما هو اسوأ من ذلك . » وهز دانيال كتفيه : فكرة اخرى ليس لها من رصيد . انه لم يكن يريد ان يمثل دوراً فاجعاً ، فهو قد فعل ذلك ما فيه الكفاية في الماضي . وان من يمثل الأدوار الفاجعة يأخذ نفسه أخذاً جاداً . وأبداً ، ابداً ، لن يأخذ دانيال نفسه اخذاً جاداً . وظهر الأوتوبيس فجأة ، فأشار دانيال للسائق وصعد في الدرجة الأولى .

ـ كم الى نهاية الخط ؟

فقال قاطع التذاكر : ـ ست قسائم .

سيثير ماء السين جنونها . المــاء البني ذو الانعكاسات البنفسجية . واقبلت امرأة تجلس قبالته ، برصانة واكفهرار ، ومعها طفلة . ونظرت الطفلة الى السلة باهتمام ، ففكر دانيال « ذبابة صغيرة قذرة » وماءت السلة فانتفض دانيال كما لو انه أُخذ بجرم قتل . وسألت الطفلة بصوت واضح :

ـ ما هذا ؟

فقالت امها : ـ شت ، اتريدين ان تتركي السيد وشأنه ؟

قال دانيال : ـ انها قطط .

وسألت الطفلة : ـ وهل هي لك ؟

ـ نعم .

ـ ولماذا تحملها في سلة ؟

فأجاب دانيال بعذوبة : ـ لأنها مريضة .

— هل استطيع ان اراها ؟

قالت امها : — انك تبالغين يا جانين .

— لا استطيع ان اريك اياها ، فان المرض قد جعلها شريرة .

فقالت الطفلة بلهجة تعقّل ساحرة :

— اوه ... انها لن تكون معي شريرة .

فقال دانيال بصوت منخفض سريع :

— اتظنين ذلك ؟ اسمعي يا صغيرتي العزيزة .. إنني اريد ان اغرقها، قططي ... هذا ما سأفعل ، وهــل تعرفين لماذا ؟ لأنها ، في هــذا الصباح بالذات ، مزّقت وجه فتاة صغيرة جميلة مثلك اتت تحمل إليّ الزهور . وسوف يضطرون الى ان يضعوا لها عيناً من زجاج .

فقالت الطفلة مذعورة : — ها !

ونظرت لحظة الى السلّة بجزع ثم ارتمت في أحضان امها . وقالت الأم وهي تدير نحو دانيال عينين مغتاظتين :

— لا لا ! اترين ؟ يجب ان يكون الاطفال هادئين وألا يثرثروا في كل لحظة . ولكن لا بأس يا قطّتي الصغيرة ، لا شيء هناك ، وانما اراد السيد ان يمزح .

وبادلها دانيال نظرتها بهدوء : « انها تحتقرني » هذا ما فكر بــه وهو راض . وكان يرى خلف الزجاج بيوتاً رمادية تنخطف ، وكان يعلم ان المرأة تنظر اليه : « امّ مغتاظة . انها تبحث عمــا يمكنها ان تحتقره فيّ . وليس ذلك وجهي . » فلم يكن ثمة من يحتقر وجــه دانيال . « ولا ثوبي ، فهو جديد ورقيق . آه ! ربمــا يديّ . » وكانت يداه قصيرتين وقويتين ، وسمينتين بعض الشيء ، وعلى اصابعها شعرٌ اسود . وبسطها على ركبتيه : « انظـري اليهما ، هيــا انظري اليهما ! » ولكن المرأة كانت قد تخلّت عن متابعة المبــاراة : كانت تحدّد نظرها امامها تحديداً غليظاً ، وكانت تلتمس الراحة . وتــأملها

دانيال في شيء من الشراهة : هؤلاء الناس الذين كانوا يرتاحون ، كيف كانوا يعملون ؟ كانت قد تركت نفسها تسقط بكل قوتها في نفسها بالذات وتذوب فيها . ولم يكن شيء في هذا الرأس يشبه فراراً مجنوناً من الذات ، او فضولاً او حقداً او اية حركة ، حتى ولا تموجاً خفيفاً : لا شيء الا عجينة النوم الكثيفة . واستيقظت فجأة ، واقبلت هيئة انتعاش ترتسم على وجهها وقالت :

– هنا ، هنا . تعالي إذن ! ما أشدّ ما يزعجني ان اجرجرك دائماً !

واخذت ابنتها من يدها وسحبتها . وقبل ان تنزل الطفلة التفتت وألقت نظرة ذعر على السلة وانطلق الاوتوبيس ثم توقف ؛ ومرّ امام دانيال أشخاص يضحكون ، وصاح به قاطع التذاكر :

– آخر الخطّ .

وانتفض دانيال : كانت السيارة فارغة . ونهض ثم هبط . وكانت ساحة تغص بالنساء وكانت الحانات منتشرة فيها ؛ وكانت جماعة من العمال والنساء متجمعة حول عربة . ونظرت بعض النساء اليه بدهشة . وحثّ دانيال خطاه وانعطف الى زقاق قذر كان يهبط نحو السين . وكان على جانبي الطريق براميل ومستودعات . وكانت السلّة قد أخذت تموء بلا انقطاع ، وكان دانيال يكاد يعدو : كان يحمل دلواً مثقوباً يسقط منه الماء نقطة نقطة . وكانت كل موأة نقطة ماء . وكان الدلو ثقيلاً ، فأخذه دانيال بيده اليسرى ، ومسح جبينه باليمنى . كان لا ينبغي التفكير بالقطط . آه ! انك لا تريد التفكير بالقطط ؟ طيّب ! ينبغي اذن ان تفكر فيها بالذات ، وهذا أمرٌ شديد اليسر ! وتمثّل دانيال عيني بوبيه الذهبيتين وفكّر بسرعة في اي شيء ، في البورصة حيث ربح عشرة آلاف فرنك في الليلة الماضية ، وفي مارسيل ، التي كان ينبغي ان يراها في المساء نفسه ، فان هذا كان يومه : « الملاك

الاكبر ! » وقهقه دانيال : كان يحتقر مارسيل احتقاراً عميقاً : « انهما لا يملكان الجرأة للاعتراف بأن احدهما لا يحب الآخر بعد . لئن كان ماتيو يرى الأمور على حقيقتها ، فعليه ان يتخـــذ قراراً . ولكنه لا يريد . انه لا يريد ان يضيع نفسه . إنه هو ، طبيعي سليم . » هكذا فكر دانيال بسخرية وماءت القطط كما لو انها قد غطست في مــاء غالٍ واحسّ دانيال بانه يضيع رشده . ووضع السلّة ارضاً ثم رفسها رفستين عنيفتين ، فقامت فيها فوضى واضطراب ، ثم صمتت القطط . وظل دانيال جامداً لحظة وهو يشعر برعشة خلف اذنيه . وخرج عمالٌ من احد المستودعات فتابع دانيال سيره . ووصل . وهبط درجاً حجرياً الى شاطىء السين وجلس ارضاً بالقرب من حلقة حديدية ، بين برميل من القطران وركام من البلاط . وكان السين اصفر تحت السماء الزرقاء . وكانت قوارب سوداء مملوءة بالبراميل مربوطة الى الرصيف المقابـل . وكان دانيال جالساً في اشعة الشمس ، وكان صدغاه يؤلمانه . ونظر الى الماء المتموج المنتفخ الذي كانت تنبعث منه اشعاعات لبنية ثم اخرج من جيبه مكبّه وقطع بسكّينه طرفاً طويلاً من خيط . ومن غير ان ينهض ، تناول بيده اليسرى بلاطة ، ، فأطبق احد طرفي الخيط على عروة السلّة ولفّ بقيته حول البلاطة ، ثم عقد عدة عقد ووضع البلاطة على الأرض . فاذا هو امام آلة غريبة . وفكر دانيـال بأن عليـــه ان يحمل السلة باليد اليمنى والبلاطة باليد اليسرى فيسقطهما في الماء في وقت واحد . وربما عامت السلة عُشر ثانية ثم تجذبها قوة وحشية الى اعماق الماء فتغرق فَوراً . وفكر دانيال بأن الحر يزعجه ، فاحتقر سترتـــه السميكة ولكنه لم يرد ان ينزعها . وكان ذلك يخفق فيـه ، ويطلب الرحمة ، وكان دانيال ينظر الى نفسه وهو يئن ، قاسياً جافاً : « إن من لا يملك الجرأة على ان يقتل نفسه بالجملة ، يجب ان يفعل ذلك بالتفصيل » لسوف يقترب من الماء ، وسوف يقول : وداعاً لما احبّه

اكبر الحب في هذا العالم ... » ونهض قليلاً على يديه ، ونظر حوله: الى اليمين كان الشاطىء خالياً ، والى اليسار ، في البعيد ، رأى صياداً أسود في الشمس . إن التموجات ستنتشر تحت الماء ، حتى تبلغ فلينة شبكته : « وسوف يظن ان سمكة ما تعض . » وضحك واخرج منديله ليمسح العرق الذي كان يتلألأ على جبينه . وكان عقربا ساعته اليدوية يشيران الى الحادية عشرة وخمس وعشرين . « عند الحادية عشرة والنصف ! » وكان ينبغي ان يطيل هذه اللحظة العجيبة : لقد كان دانيال مزدوجاً ، وقد أحس نفسه ضائعاً في غيمة عقيقية ، تحت سماء من رصاص ، وفكر بماتيو بشيء من الكبرياء ؛ وقال لنفسه « انا الحر » . ولكنها كانت كبرياء لا شخصية ، لأن دانيال لم يكن بعد احداً . ونهض في الحادية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرين وكان يحس انه من الضعف بحيث اضطر الى الاعتماد على البرميل . وعلقت بسترته التويد لطخة من القطران فنظر اليها .

ورأى اللطخة السوداء على القماشة البنفسجية وشعر فجأة انه لم يكن يعدُ الا واحداً . واحداً . جباناً . شخص كان يحبّ قططه ولا يريد ان يقذف بها في الماء . وأخذ سكينه وانحنى فقطع الخيط . في صمت : فحتى في داخله كان يسود الصمت ، وكان من الخجل بحيث لم يطق ان يتحدث امام نفسه . وأخذ السلّة وعاد يصعد الدرج : فكان كما لو انه يمرّ وهو يلفت رأسه امام انسان كان ينظر اليه بازدراء . وكان الخلاء والصمت ما يزالان في نفسه . وحين بلغ اعلى الدرجات ، جرؤ على ان يوجه لنفسه الكلمات الاولى : « ماذا كانت تلك القطرة من الدم ؟ » ولكنه لم يجرؤ على فتح السلة : فأخذ يمشي وهو يعرج . هذا أنا . هذا أنا . هذا أنا . القذر . ولكن كان في اعماقه نوع غريب من الابتسام لأنه انقذ بوبيه . وصاح :

— تاكسي !

فتوقف التاكسي . وقال دانيال ،

ـ ٢٢ ، شارع مونمارتر . هل تريد ان تضع هذه السلّة بالقرب منك ؟

واستسلم لهدهدة التاكسي . ولم يعد يحتقر نفسه . ثم تغلب الخجل مرة اخرى وعاد يرى نفسه : وكان هذا غير محتمل . وفكر بمرارة : « لا بالجملة ولا بالتفصيل » وحين تناول محفظته ليدفع للسائق ، لاحظ بلا فرح انها كانت محشوة بالأوراق المالية . « أن اربح المال ، نعم ، أستطيع ان افعل ذلك . »

وقالت البوابة :

ـ هأنت ذا قد عدت ، يا سيد سورينو ؟ إن احداً قد صعد اللحظة الى بيتك . احد اصدقائك ، رجل طويل ذو كتفين هكذا . وقلت له إنك غير موجود . فقال : ليس موجوداً ؟ إذن سأدع ورقة تحت بابه .

ونظرت الى السلة وقالت :

ـ ولكنك اعدتها ، الحيوانات اللطيفة ؟

فقال دانيال :

ـ ماذا تريدين ايتها السيدة ديبوي ؟ قد يكون ذلك عملاً إجرامياً ولكنني لم استطع ان انفصل عنها .

وفكر وهو يرقى السلم : « انه ماتيو . إن هذا يجيء في اوانه تماماً . » وكان مسروراً ان يستطيع كره احد . والتقى بماتيو عند الشقة الثالثة ، فقال ماتيو :

ـ مرحباً ، كان املي قد انقطع في رؤيتك .

فقال دانيال : ـ لقد ذهبت أنزّه قططي .

وأدهشه ان يستشعر في داخله لوناً من الحرارة . وسأله بسرعة :

ـ انك تصعد معي ثانية ؟

ـ نعم . ان لديّ خدمة اودّ ان اطلبها منك .
فرماه دانيال بنظرة سريعة ولاحظ ان وجهه كان معفّراً . وفكر : « يبدو عليه انه منزعج . » وكان راغبـاً في مساعدته . وصعدا . ووضع دانيال المفتاح في القفل ثم دفع الباب . وقال: « تفضل ادخل » ولمس كتفه لمساً خفيفاً ثم سحب يده على الفور . ودخل ماتيو غرفة دانيال واقتعد اريكة وقال :

ـ لم افهم شيئاً مما قالته لي البوابـة . كانت تزعم انك حملت قططك الى بيت اختك . فهل تصالحت مع اختك ؟

فتثلّج شيء ما فجأة في نفس دانيال : « ما عساها تكون هيئته لو عرف من اين انا آت ؟ » ونظر من غير ود الى عيـني صديقه النافذتين الجادّتين : « هذا صحيح . انه هو طبيعي وسليم . » وأحس ان هوة تفصله عنه . وضحك وقال :

ـ آه ! نعم ! بيت اختي ... لقد كانت كذبة صغيرة بريئة . وكان يعلم ان ماتيو لا يلح : فقد كان ماتيو معتاداً عادة مزعجة وهي ان يعامل دانيال كانسان مولع بالكذب ، ويتصنّع انه لا يهـتم قط لمعرفة الدوافع التي كانت تدفعه الى الكذب . والواقع ان ماتيو حدج السلّة بنظر حائر وصمت .

وسأله دانيال : ـ أتسمح لي بلحظة ؟

وكان قد اصبح جافاً كله . ولم تكن لـه الا رغبة واحدة : ان يفتح السلة بأسرع وقت ممكن : « ماذا كانت تلك النقطة من الدم ؟ » وركع وهو يفكر : « سوف تثب على وجهي . » وقرّب وجهه فوق الغطاء بحيث يكون في متناولها تماماً . وفكر وهو يفتح الغطاء : « انه محتاج الى بعض الازعاج . وهذا ما يفقده لفترة من الزمن تفاؤله وهيئته المستقرة » وافلتت بوبيه من السلة وهي تزمجر وفرت الى المطبخ . وخرج سيبيون بدوره : وكان قد حافظ على كرامته ، ولكن لم يكن يبـدو

قط مطمئناً . ومشى على مهل حتى الخزانة ، ونظر فيما حوله نظرة عجلى ، ثم تمطّى وتسرب تحت السرير . ولم تكن ملفينا لتتحرك. ففكر دانيال : « انها مجروحة » وكانت قابعة في قعر السلة ، متلاشية . ووضع دانيال اصبعاً تحت ذقنها وقسرها على ان ترفع رأسها : لقد تلقت ضربة مخلب قوية على انفها ، وكانت عينها اليسرى مغمضة ، ولكن الدم كان قد انقطع . وكان على فقمها قشرة مسوّدة ، وكان شعرها حول القشرة متصلباً ولزجاً .

وسأل ماتيو : « ماذا هناك ؟ » وكان قد نهض وجعل ينظر الى القطة بتأدب . « انه يجدني مضحكاً لأنني منشغل بقطة . وكان يبدو له ذلك طبيعياً جداً لو كنت منشغلاً بطفل . » وأوضح دانيال :

ـ لقد اصيبت ملفينا بضربة سيئة . ولا شك ان بوبيه هي التي خمشتها . انها لا تطاق . اعذرني يا عزيزي ، فأنا اطلب منك دقيقة صغيرة لأعالجها .

ونهض يأتي بزجاجة ارنيكة وعلبة قطن من الخزانة . وتبعه ماتيو بعينيه من غير ان يقول كلمة ، ثم امرّ يده على جبينه بحركة عاجزة. وأخذ دانيال يغسل انف ملفينا ، وكانت القطة تتخبط تخبطاً ضعيفاً . وقال دانيال :

ـ كوني جميلة ، كوني عاقلة . هيا ، هيا .

وكان يفكر بأنه كان يزعج ماتيو الى ابعد حد ، وكان هذا يزيده رغبة في العمل . ولكنه حين رفع رأسه ، رأى ان ماتيو كان ينظر في الفراغ نظرة قاسية .

وقال دانيال بأعمق صوت يملكه : ـ اعذرني يا عزيزي ، انني احتاج بعد الى دقيقة صغيرة فقط . كان لا بد من ان اغسل هذه الدابة ، فأنت تعرف ان الجرح يلتهب بسرعة . الا ازعجك اكثر مما ينبغي ؟ أضاف هذه العبارة الاخيرة وهو يوجه له بسمة صريحة ، فارتعش

ماتيو ثم اخذ يضحك . وقال :

– تابع ، تابع ، ولا تنظر بعينيك المخمليتين .

عيناك المخمليتان! لقد كان شعور ماتيو بالتفوّق شيئاً كريهاً: «هو يحسب انه يعرفني ، وهو يتحدث عن اكاذيبي . وعن عيني المخمليتين . انه لا يعرفني على الاطلاق ، ولكن يسليه ان يلصق علي طابعاً ، كما لو كنت شيئاً . »

وضحك دانيال في ود . ومسح بعناية رأس ملفينا . وكانت ملفينا تغمض عينيها ، وكانت عليها مظاهر النشوة ، ولكن دانيال كان يعلم جيداً انها تتألم . وربت على جنبيها تربيتة صغيرة . وقال وهو ينهض :

– هكذا ! غداً لن يظهر الجرح بعد . ولكن الاخرى بعثت لها بضربة مخلب شديدة لو تعلم .

فقال ماتيو بلهجة غياب : – بوبيه ؟ انها خبيثة .

ثم قال فجأة :

– ان مارسيل حامل .

– حامل !

وكانت دهشة دانيال قصيرة المدى ، ولكن كان عليه ان يقاوم رغبة شديدة في الضحك . هكذا اذن ! هكذا اذن ! « صحيح .. انهنّ يبَلن دماً كل شهر قمري ، وهن فوق ذلك قادرات على التناسل كالوَرَنك[1] » وفكر باشمئزاز في انه سيراها في المساء ذاته . « انني أتساءل عما اذا كانت لديّ الشجاعة للمس يدها . »

وقال ماتيو بلهجة موضوعية :

– انني مرتبك ارتباكاً قذراً .

فنظر اليه دانيال وقال بايجاز :

---

(١) سمك بحري .

ـ انا افهم موقفك .

ثم سارع يوليه ظهره بحجة انه ذاهب يضع زجاجة الارنيكة في الخزانة . وكان يخشى ان ينفجر فيه ضاحكاً . وأخذ يفكر في موت امه ، وكان هذا يخطر دائماً على باله في مثل هذه المناسبات . وانتفض انتفاضتين متشنجتين او ثلاثاً . وكان ماتيو ماضياً في التكلم خلف ظهر دانيال . فقال :

ـ القضية ان هذا يُذلها . انت لم ترها كثيراً، فلم تستطع ان تدرك الامر . انها نوع من « الوالكيري » (واضاف بلا خباثة) والكيري في الغرفة . والامر في نظرها سقوط مريع .

فقال دانيال في دافع من المشاركة :

ـ اجل ، ثم ان القضية بالنسبة اليك لا تستحق هذا . فبالرغم مما احسنت اليها ، لا تتورع عن ان تجلب لك الذعر الآن . انا اعلم ان مثل هذا يقتل الحب عندي لو حدث .

فقال ماتيو : ـ لا اكنُ لها بعد حباً :

ـ صحيح ؟

وكان دانيال عميق الدهشة والتسلية : « ستشهد هذا المساء فصلاً رياضياً . » وسأله :

ـ بالطبع لا .

ـ ولماذا « بالطبع » ؟ ينبغي لك ان تصارحها بذلك . هل ...

ـ لا ، لا اريد ان اتركها ، اذا كان هذا ما تقصد اليه .

ـ واذن ؟

وكان دانيال يجد متعة كبيرة ، وكان يستعجل الزمن ليجتمع بمارسيل . قال ماتيو :

ـ اذن لا شيء . فليكن . فليست هي غلطتها اذا كنت لا احبها بعد.

ـ وهل هي غلطتك ؟

فقال ماتيو باختصار : — نعم .
— ستستمر في رؤيتها وفي ...
— وبعد ذلك ؟
فقال دانيال : — اذا مثّلت طويلاً هذا الدور، فسينتهي بك الامر الى ان تكرهها .
فبدت على ماتيو القسوة وكأنه صُدم :
— لا اريد ان يلحق بها الضيق والانزعاج .
قال دانيال بلامبالاة : — هذا اذا كنت تؤثر ان تضحي بنفسك .
وحين كان ماتيو يقلد شيعة « الكواكر »[1] ، فان دانيـــال كان يكرهه .
— ما عساني اضحّي به ؟ سأذهب الى المعهد ، وسأرى مارسيل . وسأكتب قصة كل عامين . وهذ هو بالذات ما فعلته حتى الآن .
ثم اضاف بمرارة لم يكن دانيال يعهدها عنده :
— انا كاتب من كتّاب الاحد . ومن جهة اخرى ، اراني متعلقاً بها ، وانه يزعجني كثيراً الا اراها . غير ان ذلك يشبه الآن الصلات العائلية .
وساد صمت . واقبل دانيال يجلس في الاريكة ، تجاه ماتيو . وقال ماتيو :
يجب ان تساعدني . ان عندي عنواناً ، ولكن ليس معي مال . أعرني خمسة آلاف فرنك
فردد دانيال بلهجة غير واثقة : — خمسة آلاف فرنك ؟
محفظته المتورمة ، المحشوة في جيبه الداخلي ، محفظة بائع الخنازير ، كان حسبه ان يفتحها ، وان يتناول منها خمس اوراق . لقد سبق لماتيو

---

(١) شيعة المرتعشين البروتستانتية .

ان ادى له الخدمات مراراً . وقال ماتيو :

– سأرد لك نصف المبلغ في آخر الشهر . والنصف الآخر يوم ١٤ تموز لأنني في ذلك اليوم سأقبض راتبي آب وايلول معاً .

ونظر دانيال سحنة ماتيو المقعّرة وفكر : « ان هذا الشخص منزعج تماماً . » ثم فكر بالقطط واحس انه غير قابل للرحمة والشفقة . وقال بصوت آسف :

– خمسة آلاف فرنك ! ولكني لا املكها يا عزيزي ، واني شديد الاسف ...

– لقد قلت لي ذات يوم انك ستعقد صفقة طيبة .

فقال دانيال : – اسمع ياعزيزي المسكين : ان صفقتك الطيبة كانت خيبة عظيمة، وانت تعرف ما هي البورصة . ثم ان الامر بسيط جداً ، فليس لدي بعد الا ديون .

ولم يسبغ على صوته كثيراً من الاخلاص لأنه لم يكن راغباً في الاقناع . ولكن حين رأى ان ماتيو لم يكن يصدقه ، اخذه الغضب : « ليجلّ عن ظهري ! انه يحسب نفسه عميقاً ، ويتخيل انه يقرأ في أعماقي . وأنا أتساءل : لماذا يريدني ان اساعده : فليس عليه الا ان يلجأ لأمثاله . » والذي كان امراً لا يطاق هو هذه الهيئة الطبيعية المركبة التي لم يكن ماتيو ينجح في فقدها ، حتى في الاوضاع الفاجعة . قال ماتيو باندفاع :

– حسناً ! اذن لا تستطيع حقاً ؟

وفكر دانيال : « لا بد انه محتاج اليها حاجة ماسة حتى يلح هذا الالحاح . »

– لا استطيع حقاً . انني متأسف يا عزيزي .

وكان منزعجاً بانزعاج ماتيو ، ولكن ذلك كان امراً لا يخلو من اللذة : فقد كان لديه شعور بأنه يرد لنفسه ظفراً . وكان دانيال

يحب المواقف الزائفة حباً كبيراً .

وسأله بروح المشاركة : – هل انت محتاج اليها حاجة عاجلة ؟ الا يمكنك ان تستعين بآخرين ؟

– اوه ! انت تعلم ، كان هذا خصوصاً لتفادي اللجوء الى جاك .

فقال دانيال خائباً بعض الشيء : – صحيح . ان هنـاك اخاك . انت في هذه الحالة واثق من الحصول على حاجتك .

فبدا على ماتيو اليأس :

– ليس الامر كذلك . لقد قرر في رأسه انه ينبغي الا يعيرني بعد فلساً ، وان ذلك بمثابة خدمة سيئة لي . وقد قال لي : « إن عليك ، وانت في هذه السن ، ان تكون مستقلاً » .

فقال دانيال في وضوح :

– اوه ! ولكن في مثل هذه الحالة ، اكيد انه يعيرك مالاً .

ومدّ على مهل طرف لسانه واخذ يلحس به الشفة العليا برضى : لقد عرف ان يجد على التو تلك الههجة التفاؤلية السطحية المتحمسة التي كانت تثير غضب الناس . وكان ماتيو قد احمرّ :

– لا استطيع ان اقول له ان ذلك من اجل هذا بالذات .

قال دانيال : – هذا صحيح . (وفـكر لحظة) مهما يكن من امر ، فأمامك بعد كما تعلم تلك الشركات التي تُقرض الموظفين . وعليّ ان اقول ان الناس يقعون في معظم الاحوال على مرابين . ولكن الفائدة لا تؤثر عليك ، بمجرد ان يكون معك المال .

فبدا على ماتيو الاهتمام ، وفكر دانيال في ضجر بأنـه قد طمأنه بعض الشيء :

– من هم هؤلاء الناس ؟ هل يعيرون المال على التو ؟

فقال دانيال بحيوية : – آه ، كلا فذلك يقتضـي عشرة ايام : يجب عليهم ان يحققوا في الامر .

وصمت ماتيو ، وكان يبدو انه يفكر ؛ واستشعر دانيال فجأة صدمة صغيرة لينة : لقد قفزت ملفينا الى ركبتيه فاستقرت عليهما وهي تهمهم: « هذه واحدة ليس عندها حقد . » هذا ما فكر به في اشمئزاز. وأخذ يربت عليها بيد خفيفة مهملة . لم يكن الحيوانات والناس يبلغون ان يكرهوه : بسبب نوع من الجمود المفرط البساطة ربما بسبب وجهه . وكان ماتيو قد استغرق في حساباته البائسة الصغيرة : هو ايضاً لم يكن لديه حقد . وانحنى دانيال فوق ملفينا وأخذ يحكّ رأسها : وكانت يده ترتجف .

وقال من دون ان ينظر الى ماتيو :

ـ سأكون في الحقيقة مسروراً بأن لا يكون معي مال . وقد فكرت في ذلك : انت الذي تريد دائماً ان تكون حراً ، ان ذلك يمنحك فرصة رائعة لتقوم بعمل من اعمال الحرية .

ولم يبدُ على وجه ماتيو انه فهم فقال :

ـ عملٍ من اعمال الحرية ؟

ورفع دانيال رأسه وقال :

ـ نعم ، ليس لك الا ان تتزوج مارسيل .

فنظر اليه ماتيو وهو يقطب حاجبيه : ولا بد انــه كان يتساءل عما اذا لم يكن دانيال يسخر منه . وحدّد دانيال بصره بجد متواضع . فسأله ماتيو :

ـ هل انت مجنون ؟

ـ ولماذا ؟ ليس امامك الا كلمة تقولها فتتغير حياتك كلها ، وهذا ما لا يحدث كل يوم .

فأخذ ماتيو يضحك ، وفكر دانيال منزعجاً : « انه يفضل من الموضوع جانبه المضحك » وقال ماتيو :

ـ انك لن تنجح في اغرائي ، ولا سيما في هذه اللحظة .

فقال دانيال باللهجة الخفيفة نفسها :

ــ ولكن الحقيقة أنه لا بد ان يكون مسلياً جداً ان يفعل الانسان عكس ما يريده . فهو اذ ذاك يشعر بانه اصبح شخصاً آخر .

فقال ماتيو : ــ واي شخص آخر ؟ اتريدني ايضاً ان اصنع ثلاثة اطفال ، لمجرد اللذة في أن أُحسَّني شخصاً آخر حين آخذهم الى النزهة في اللكسمبورغ ؟ إنني اتصور في الحقيقة انني سأتغير اذا اصبحت شخصاً هالكاً تماماً .

فقال دانيال : « ليس الى هذا الحد ، ليس الى هــذا الحد الذي تظن » . ثم قال :

ــ يبدو انه ليس مزعجاً الى حد كبير ان يكون المرء شخصاً هالكاً ، ولكنه في هذه الحالة هالك برمته ، مدفون . شخص متزوج وله ثلاثة اطفال كما تقول . ولا بد ان هذا يهدِّئك !

قال ماتيو : ــ صحيح . انني التقي اشخاصاً كهؤلاء كل يوم . مثلاً : آباء طلاب يأتون لرؤيتي . اربعة صبيان ، ازواج مخدوعون ، اعضاء جمعية اهل الطلاب . انهم يبدون اقرب الى الهدوء ، بل انهم ذوو وداعة.

قال دانيال : ــ ولديهم ايضاً نوع من المرح . انهــم يصيبونني بالدوار . وانت ، ألا يغريك ذلك حقاً ؟ انني أتمثلك زوجاً ناجحاً ، وستكون مثلهم ، سميناً مرتباً قريب النكتة ، ذا عينين من السلولوئيد . واحسبني انا لا احتقر ذلك .

قال ماتيو من غير ان ينفعل : ــ ان هذا يناسبك . اما انا فما زلت افضل ان اطلب خمسة آلاف فرنك من اخي .

ونهض . فوضع دانيال ملفينا ارضاً ونهض هو ايضاً . « هو يعلم انني املك المال ومع ذلك لا يكرهني : فماذا ينبغي اذاً ان نفعل لهم ؟ » .

وكانت المحفظة هناك ، وكان حسب دانيال ان يضع يده في جيبه ويقول : « خذ يا عزيزي ، لقد اردت ، على سبيل المزاح ، ان اتفرج

عليك قليلاً . » ولكنه خشي ان يحتقر نفسه . وقال متردداً :
– آسف . سوف اكتب لك ان وجدت وسيلة ما .
وكان قد رافق ماتيو حتى باب الدخول . فقال ماتيو بمرح :
– لا ترهق نفسك ، سوف اتدبر امري .
واغلق الباب . وحين سمع دانيال قدمه الخفيفة على الدرج فكر : « ان هذا غير قابل للاصلاح . » واحس بانقطاع نفسه . ولكن ذلك لم يطل ، وقال في نفسه : « انه لم يكف لحظة واحدة عن ان يكون معتدلاً ، نشيطاً ، في غاية الاتفاق مع نفسه . صحيح انه منزعج ، ولكن ذلك يبقى امراً خارجياً . اما في الداخل ، فهو في بيته . » وذهب ينظر الى وجهه الجميل القاتم في المرآة وفكر : « مهما يكن ، فانه يساوي الفاً لو كان مجبراً على ان يتزوج مارسيل . »

٨

كان قد مضى على يقظتها وقت طويل ، ولا بد انها كانت تتأكل. وكان ينبغي طمأنتها والتأكيد لها بانها لن تذهب الى هناك في اي حال . وتمثل ماتيو بحنان وجهها المسكين الحرب الذي رآه ليلة امس فتبدّى له فجأة انه رخص بصورة مؤلمة . « يجب ان اتلفن لها . » ولكنه عزم ان يمر اولاً ببيت جاك : « لربما كان عندي خبر جميل ابلغها اياه » وكان يفكر بغيظ في الهيئة التي سيبدو عليها جاك . هيئة تسلية وتعقل تتجاوز التأنيب كما تتجاوز الرفق ، مع رأس منحنٍ جانباً وعينين نصف مغمضتين . « ماذا ؟ بحاجة ايضاً الى مال ؟ » وقفّ شعر ماتيو لذلك. واجتاز الرصيف وفكر في دانيال : انه لم يكن عاتباً عليه . هكذا . لم يكن مستطاعاً ان يعتب المرء على دانيال . بل كان عاتباً على جاك . وتوقف امام مبنى مربــع في شارع ريومور وقرأ بانزعاج ، شأنه كلّ مرة : « جاك دولارو ، كاتب في محكمة ، الطــابق الثاني » : كاتب في محكمة ! ودخل واخذ المصعد ، وهو يفكر : « ارجو الا تكون اوديت موجودة » .

وكانت موجودة ؛ ولقد لمحها ماتيو عبر الباب الزجاجي للصالون الصغير . وكانت جالسة على ديوان ، انيقة طويلة نظيفة الى حد التفاهة ؛ وكانت تقرأ . وكان جاك يقول برضى : ان اوديت احــدى نساء

باريس النادرات اللواتي يجدن وقتاً للقراءة » .
وسألت روز :
– هل يريد السيد ماتيو ان يرى السيدة ؟
– نعم . سوف اسلم عليها ؛ ولكن هل لك ان تخبري السيد أنني سألقاه بعد لحظة في مكتبه ؟
ودفع الباب فرفعت اوديت نحوه وجهها الجميل العاق المزيّن ، وقالت بلهجة مسرورة :
– مرحباً ، ماتيو . هل جئت تزورني ؟
فقال ماتيو : « أزورك ؟ » . وكان ينظر بود ممتعض هذا الجبين الهادىء العالي وهاتين العينين الخضراوين . كانت جميلة من غير شك ولكن جمالاً يبدو انه كان يفرّ من تحت الانظار . وكان ماتيو قد حاول مئة مرة ، وهو الذى اعتاد وجوهاً كوجه لولا الذي كان حسه يفرض نفسه منذ الوهلة الاولى بقسوة – حاول ان يمسك هذه الملامح الهاربة . ولكنها كانت تفر ، وكان مجموعها ينحلّ في كل لحظة فيحتفظ وجه اوديت بسره البرجوازي المخيّب . وقال ماتيو :
– وددت لو كانت هذه الزيارة لك ، ولكن يجب ان ارى جاك، فان عندي خدمة اطلبها منه .
قالت اوديت : – ولكنك لست مستعجلاً الى هذا الحد ، ان جاك لن يهرب . اجلس هنا .
وافسحت له مكاناً الى جانبها . وقالت وهي تبتسم :
– حذار ، فقد اغضب منك ذات يوم . انك تهملني . وان لي الحق بان تزورني شخصياً ؛ فلقد وعدتني بذلك .
– يعني انك انت التي وعدتني بان تستقبليني ذات يوم .
فقالت ضاحكة :
– كم انت مؤدّب ! انك لست مرتاح الضمير .

وجلس ماتيو . وكان يحب اوديت كثيراً . ولكنه لم يكن يـدري قط ما ينبغي ان يقوله لها .

ـ كيف حالك يا اوديت ؟

وسكب حرارة في صوته ليخفي بلادة سؤاله . فقالت :

ـ جيد جداً . اتدري اين كنت هـذا الصباح ؟ كنت في سان جرمان بسيارتي لأرى فرنسواز ، وقد سحرني ذلك .

ـ وجاك ؟

ـ انه مشغول جداً في هذه الايام . فانـا لا اكاد اراه . ولكن صحته فظيعة كالعادة .

وأحس ماتيو فجأة باستياء عميق . وفكر : « انها لجاك . » ونظر بضيق الى الذراع الطويلة السمراء التي كانت تخرج من ثوب بسيـط جداً يشده عند الخصر زنار احمر ، ثوب يكاد يكون لفتاة . كانت الذراع والثوب والجسد الذي تحت الثوب ملك جاك،كهذه الاريكة ذات الوسادة ، وهذه الخزانة البلاذرية ، وهذا الديوان . لقد كانت هذه المرأة المتحفظة المحتشمة تفوح منها رائحة الامتلاك . وساد صمت . ثم اتخـذ ماتيو الصوت الحار الأنفي الذي كان يحتفظ به لاوديت فقال :

ـ ان ثوبك جميل جداً .

قالت اوديت بضحكة مغتاظة :

ـ اوه ، اسمع ، دع هذا الثوب وشأنه ! انك كلما رأيتني حدّثتني عن اثوابي . قل لي بالاحرى ماذا فعلت هذا الاسبوع ؟

وضحك ماتيو ايضاً وكان يحس نفسه منفرجاً .

ـ الحق ان عندي شيئاً اقوله عن هذا الثوب بالذات .

قالت اوديت : ـ يا الـهي ، وما عساه يكون ؟

ـ انني اتساءل عما اذا لم يكن واجبـاً عليك ان تضعي في اذنيك اقراطاً حين ترتدينه .

ـ اقراط ؟
ونظرت اليه اوديت نظرة فريدة . فقال ماتيو :
ـ هل تجدين ان ذلك سيكون مبتذلاً ؟
ـ على الاطلاق . ولكن هذا يجعل الوجه غير متحفظ .
ثم اضافت فجأة وهي تضحك :
ـ لا شك في انك ستكون اكثر ارتياحاً معي اذا لبست اقراطاً .
فقال ماتيو بابهام : ـ كلا ، ولماذا ؟
وكان مدهوشاً ، وكان يفكر : «انها ليست غبية بالتأكيد» . وكان رأيه في ذكاء اوديت مثل رأيه في جمالها : كان لديها شيء لا يمكن لمسه .
وساد صمت ؛ ولم يدر ماتيو ما يقوله بعد . ومع ذلك فلم يكن راغباً في الذهاب ، كان يتذوق لوناً من الطمأنينة . وقالت له اوديت بلطف :
ـ انني مخطئة في امساكك . إذهب سريعاً الى جاك ، فيبدو عليك انك مهموم .
ونهض ماتيو . وفكر في انه سيطلب مالاً من جاك، فشعر بتنملات في اطراف اصابعه . وقال بشغف :
ـ الى اللقاء يا اوديت . لا لا . لا تزعجي نفسك . سأمر ثانية لاودعك .
وكان يسائل نفسه وهو يطرق باب جاك الى اي حدٍّ كانت هي ضحية .؟ ان المرء لا يعرف الحقيقة مع هذا النوع من النساء .
وقال جاك :
ـ ادخل .
ونهض نشيطاً مستقيماً ، وتقدم من ماتيو . وقال بحرارة :
ـ مرحباً ، ايها العزيز . كيف الحال ؟

وكان يبدو افتى كثيراً من ماتيو بالرغم من انـه كان الابن الاكبر. وكان ماتيو يجده يسمن لدى الجنبين بالرغم من انه كان لا بد لابساً مشداً .

وقال ماتيو ببسمة ودية :

— مرحباً .

وكان يستشعر الزيف ، انه منذ عشرين عامـاً يستشعر الزيف كلما كان يفكر بأخيه او يراه . وقال جاك :

— نعم . ما الذي اتى بك ؟

فأشار ماتيو بحركة مقطبة . فسأله جاك :

— ليس الامر على ما يرام ؟ ولكن اجلس على هذه الاريكة . هل تريد قدح ويسكي ؟

قال ماتيو :

— لا بأس بالويسكي .

وجلس منقبض الحنجرة . وكان يفكر : سأشرب الويسكي وامضي من غير ان اقول كلمـة . ولكن الاوان قد فات ، فقد كان جاك يعرف تماماً ما ينبغي عمله : « سيفكر ببساطة انني لم اجرؤ على طلب المعونة منه » . وكان جاك ما يزال واقفاً . وتناول زجاجة ويسكي وملأ قدحين وهو يقول :

— هذه آخر زجاجاتي ، ولكنني لن اجدد مؤونتي قبل الخريف . اننا لا ننفك نطلب كأساً من الجن — فز ، في اثناء الايام الحارة ، غير ان هذا افضل ، فما رأيك ؟

فلم يجب ماتيو ، وكان ينظر بلا وداعة الى هـذا الوجه الوردي النضر ، وهذا الشعر الاشقر المقصوص قصيراً . وكان جاك يبتسم ببراءة . وكان شخصه كله يتنفس البراءة ، بيد ان عينيه كانتا قاسيتين . وفكر ماتيو بغضب : « انه يتصنع البراءة ، وهو يعلم جيداً لماذا جئت وهو

الآن يبحث عن شخصه . » وقال بقسوة :
– انت تحزر جيداً اني جئت اطلب منك معونة .
هكذا ، لقد أُلقيتْ الكلمة . ولم يكن بوسعه الآن ان يتراجع بعد؛ فقد بدأ اخوه يرفع حاجبيه كمن اصيب بدهشة عميقة . وفكــر ماتيو بامتعاض : « انه لن يوفر عليّ شيئاً . » وقال جاك :
– ولكن لا ، لم احزر ذلك . ولماذا تريدني ان احزره ؟ هل تشير بذلك الى ان هذا هو الغاية الوحيدة لزيارتك ؟ .
وجلس ، وهو ما يزال مستقيم القامة ، متصلباً بعض الشيء ،وشبك ساقيه بمرونة ، كأنما ليعوض عن صلابــة صدره . وكان يرتدي بذلة رياضية رائعة من القماش الانكليزي . وقال ماتيو :
– لا اريد ان اشير الى شيء على الاطلاق .
وطرف بعينيه واضاف وهو يضغط قدحه بقوة :
– ولكني بحاجة الى اربعة آلاف فرنك بين اليوم والغد .
« سيقول لا . المهم ان يرفض بسرعة فأستطيع ان افرنقع . »
ولكن جاك لم يكن مستعجلاً قط : كان كاتبــاً في محكمة ، وكان لديه الوقت الكافي . وقال وهو يهز رأسه هزة عارف :
– اربع اوراق ؟ . ولكن قل لي ! من تظنني ؟
ومد ساقيه وتأمل حذاءه في سرور وقال ؟
– انك تسلّيني يا ماتيو ، تسلّيني وتعلّمني . اوه . لا تحمل مـا اقوله على محمل السوء (قال ذلك حين رأى حركة من ماتيو) فانا لا افكر في انتقاد مسلكك ، ولكني مع ذلك افكر ، واسائل نفسي وارى ذلك من فوق ، وكدت أقول « كالفيلسوف » لو لم اكن اتحدث حقاً الى فيلسوف . اسمع ! انني حين افكر فيك ازداد اقتناعاً بان المرء ينبغي الا يكون رجل مبادىء . اما انت فمحشوٌ بالمبادىء . وانت تخترع المزيــد منها ولا تنسجم معها . نظرياً ليس هناك من هو اكثر استقلالاً منك.

وهذا جميل ، انك تعيش فوق الطبقات . غير اني اتساءل ما عساك تصبح لو لم اكن موجوداً . لاحظ انني اسعد مما ينبغي ، انا الذي ليس لي مبادىء ، في ان استطيع معاونتك بين وقت وآخر . ولكن يخيّل الي انني لو كنت املك افكارك لحرصت على الا اطلب شيئاً من بورجوازي كريه (واضاف وهو يضحك من كل قلبه) ذلك انني بورجوازي كريه .

واستطرد وهو لا يكفُّ عن الضحك :

وهناك ما هو اسوأ من ذلك . وهو انك – انت الذي تبصق على العائلة – تستغل علاقاتنا العائلية لتطلب مني المعونة . فالحق انك ما كنت تتوجه الي لو لم اكن اخاك .

ثم بدت عليه امائر الاهتمام الصريح فتساءل :

– الا يزعجك هذا كله في آخر المطاف ؟

قال ماتيو وهو يضحك ايضاً :

– انني مضطر الى ذلك .

لن ينخرط في مناقشة فكرية . فان المناقشات الفكرية مع جاك كانت تنتهي دائماً نهاية سيئة . وكان ماتيو يفقد فوراً رباطته . وقال جاك ببرودة :

– نعم . بالطبع . الا تظن ان قليلاً من التنظيم ؟ ... ولكن هذا هو بلا شك مناقض لأفكارك . لاحظ جيداً اني لا اقول ان هذه غلطتك : انها في نظري غلطة المبادىء .

قال ماتيو ليجيب بشيء ما :

– انت تعلم ان رفض المبادىء هو ايضاً مبدأ .

قال جاك : – اوه . ليس هذا بالضرورة .

وقال ماتيو في نفسه : انه الآن سيدفع . ولكنه نظر الى خدي اخيه الممتلئين وسحنته المزهرة وهيئته المكشوفة ، والمصدومة مع ذلك ، وفكر

والانقباض في صدره : « يبدو ان الانفراج ممتنع عليه . » ولحسن الحظ استطرد جاك يقول مردداً :

– اربع اوراق . ان هذه حاجة مفاجئة . فحين جئتني في الاسبوع الماضي تطلب خدمة صغيرة ، لم يكن هذا الموضوع وارداً .

قال ماتيو : – صحيح . ان هذا ... ان تاريخ هذا هو الأمس فقط .

وفكر فجأة في مارسيل ، وتمثلها كئيبة عارية في الغرفة الوردية فأضاف بلهجة ملحة ادهشته هو نفسه :

– جاك ، انني بحاجة الى هذا المال .

فرمقه جاك بفضول وعضّ ماتيو على شفتيه : ان الاخوين لم يعتادا، اذا كانا معاً ، ان يظهرا عواطفهما بمثل هذه الطريقة الحيّة .

– الى هذا الحد ؟ هذا غريب . انك مع ذلك آخر من ... انك ... عادة تستدين مني قليلاً من المال لانك لا تعرف او لا تريد ان تنظم نفسك . ولكني ما كنت لاظن قط ... (واضاف بلهجة مستفهمة بعض الشيء) طبعاً لن اسألك شيئاً .

وكان ماتيو متردداً : هل اقول له انها ضرائبي ؟ لا . هو يعرف اني قد دفعتها في ايار . وقال فجأة :

– ان مارسيل حامل .

واحس بأنه يحمر فهز كتفيه ، ولمَ لا ، بعد كل حساب ؟ لماذا هذا الخجل المحرق المفاجىء ؟ ونظر الى اخيه مواجهة بعينين عدوانيتين . وبدا على جاك الاهتمام .

– أكنت تريد ولداً ؟

كان يتقصد الا يفهم . فقال ماتيو بلهجة كاسرة :

– كلا ، وانما كان ذلك عرضاً .

قال جاك : – ان هذا ليدهشني ايضاً . لقد كان بوسعك ان تريد دفع تجاربك حتى النهاية خارج النظام القائم ...

– نعم . ولكن ليس الأمر هكذا على الاطلاق .

وساد صمت ، ثم استأنف جاك وقد استعاد انطلاقه :

– واذاً ؟ متى يكون الزواج ؟

فاحمر ماتيو من الغضب : ان جاك يرفض كعادته ان يواجه الموقف بطريقة شريفة ، فهو يدور حوله بعناد ، وفي هذه الاثناء يجهد فكره في ايجاد عشّ نسر يستطيع منه ان يأخذ نظرات سابحة على مسلك الآخرين . فمهما قيل له ومهما عُمل ، فان حركته الاولى انما يفعلها ليرتفع فوق المناقشة . وما كان يستطيع ان يرى منها شيئاً الا من علُ ، كان مشغوفاً بأعشاش النسور . وقال ماتيو بوحشية :

– لقد قررنا ان تجهض .

فلم يتحرك جاك وقال بلهجة محايدة : – وهل اجتمعت بطبيبك ؟

– نعم .

– هل هو رجل مأمون ؟ ان صحة هذه المرأة الشابة ، هي على ما قلت لي ، رقيقة .

– لدي اصدقاء يضمنونه .

قال جاك : – نعم ، نعم ، طبعاً .

واغمض عينيه لحظة ثم فتحهما . وضمّ يديه باطراف اصابعه وقال :

– ان قضيتك بالاجمال ، اذا فهمتك جيداً ، هي التالية : لقد علمت ان صديقتك حامل ، وانت لا تريد ان تتزوج لأسباب مبدئية ، ولكنك تعتبر نفسك ملتزماً تجاهها بواجبات لا تقل حساً عن واجبات الزواج . ولما كنت لا تريد ان تتزوجها ولا ان تلحق الاذى بسمعتها ، فقد قررت ان تجهضها في افضل الظروف الممكنة . وقد اوصاك بعض اصدقائك بطبيب موثوق يطلب منك اربعة آلاف فرنك . فلم يبق لك الا ان تحصل على المبلغ . ان الأمر كذلك .

قال ماتيو : – تماماً !

– ولماذا انت محتاج الى المال بين اليوم والغد ؟
– ان الطبيب المشار اليه مسافر الى اميركا بعد ثمانية ايام .
قال جاك : – حسناً ، فهمت !
ورفع يديه المضمومتين حتى مستوى عينيه وتأملها بدقة كمن ليس له بعد الا ان يستخرج النتائج مما قال . ولكن ماتيو لم ينخدع بذلك : ان كاتب محكمة لا ينتهي الى النتائج بسرعة . وكان جاك قد خفض يديه ووضعها على ركبتيه ، بعد ان فكها واستغرق في اريكته وكفت عيناه عن البريق . وقال بصوت ناعم :
– انهم ينظرون في هذه اللحظة الى عمليات الإجهاض نظرة قاسية جداً .
فقال ماتيو : – اعرف هذا . فانه يتفق لهم ذلك بين وقت وآخر فيضعون في السجن بعض الأفراد المساكين الذين ليس لهم من يحميهم ، ولكن الاخصائيين الكبار لا يشعرون بأي قلق .
قال جاك – : تريد ان تقول : ان في هذا ظلماً . وانا من رأيك تماماً ولكني لا استنكر النتائج كلياً . فان افرادك هؤلاء المساكين ، هم بطبيعة الاشياء ، من العقاقيريين او من صانعات الملائكة الذين يتلفون امرأة تخصك بآلات قذرة .
قال ماتيو متضايقاً :
– مهما يكن فاني جئت اطلب منك اربعة آلاف فرنك .
قال جاك : – و ... هل انت متأكد تماماً بأن الاجهاض منسجم ومبادئك ؟
– ولِمَ لا ؟
– لا ادري . فعليك انت ان تدري ذلك . انت من دعاة السلام بدافع من احترامك للحياة البشرية ، وها انت ستهدم حياة .
فقال ماتيو : – انني مصمم تماماً . وقد اكون مسالماً ، ولكني لا

احترم الحياة البشرية . فلا بد انك تخلط بينهما .
قال جاك : – آه .. كنت اظن ..
وكان يتأمل ماتيو بهدوء منبسط .
– ها انت ذا الآن تلبس جلد قاتل الاطفال . وكم يتعارض ذلك ونفسيتك يا عزيزي ماتيو !
وفكر ماتيو : انه يخشى ان يأخذوني : فهو لن يعطي فلساً واحداً . وكان يود لو يستطيع ان يقول له : « اذا دفعت ، فلن تتعرض لأية مخاطرة . لأني سوف اتوجه الى رجل بارع ليس اسمه مسجلاً على لوائح الشرطة . اما اذا رفضت فسأضطر لارسال مارسيل الى عقاقيري ، وفي هذه الحالة لن اضمن شيئاً ، لأن الشرطة تعرفهم كلهم وتستطيع ان تقبض عليهم بين ليلة وضحاها » . ولكن هذه الحجج كانت مباشرة اكثر مما ينبغي بحيث لن تؤثر على جاك ؛ واكتفى ماتيو بالقول :
– ان الاجهاض ليس جريمة قتل ولد .
وتناول جاك سيكارة واشعلها وقال بلا حماس :
– نعم . اقرّ ذلك . ليس الاجهاض قتل ولد . ولكنه قتل « ميتافيزيقي » (واضاف بجد) ليس لي يا عزيزي ماتيو اعتراض على القتل الميتافيزيقي كما انه ليس لي اعتراض على الجرائم الكاملة . اما ان ترتكب انت قتلاً ميتافيزيقياً ، انت ، على ما انت عليه ...
وصفق لسانه بلهجة تأنيب واضاف :
– كلا . ان هذه بكل تأكيد نغمة ناشزة .
انتهى الأمر ، ان جاك يرفض ، وسيكون بوسع ماتيو ان يذهب ، وقد اوضح صوته وسأل تبرئة لذمته :
– اذاً فلا تستطيع ان تساعدني ؟
فقال جاك : – افهمني جيداً . فأنا لا ارفض ان تؤدي لك خدمة . ولكن اتكون هذه حقاً خدمة ؟ ثم انني مقتنع بأنك ستجد بسهولة المال

الذي تحتاج اليه ...

ونهض فجأة كما لو انه اتخذ قراراً ما واقبل يضع يده بود على كتف اخيه ويقول بحرارة :

— اسمع يا تيو . لنقل اني رفضت : فانا لا اريد ان اساعدك على ان تكذب على نفسك . ولكني سأقترح عليك شيئاً آخر ...

وكان ماتيو علي وشك النهوض ، فوقع على مقعده واخـــذه مرة اخرى غضبه الأخوي . ان ذلك الضغط الصلب والعذب على كتفه كان امراً غير محتمل ؛ وارتد برأسه الى خلف ورأى وجه جاك مختصراً .

— اكذب على نفسي ؟ اسمع يا جاك . قل بالأحرى انك لا تريد ان تلطّخ نفسك في عملية اجهاض او انك لا توافق على ذلك ، او انك لا تملك المال الضروري ، فهذا من حقك ولست املك ان اؤاخذك عليه ، ولكن لماذا تحدثني عن الكذب ؟ فليس هنا اي كذب . انني لا اريد اولاداً : ولكن يأتيني ولد ، فأحذفه ، هذا كل ما في الأمر .

وسحب جاك يده وخطا بضع خطوات وهو يفكر ، وفكر ماتيو :

« سيلقي عليّ خطاباً ، وقد كان عليّ الا اقبل اية مناقشة » .

وقال جاك بصوت رصين :

— انني يا ماتيو اعرفك اكثر مما تظن وانك لترعبني . لقد مضى وقت طويل وانا اخشى شيئاً من هذا القبيل : ان هـــذا الطفل الذي سيولد هو النتيجة المنطقية لوضع ارتضيته لنفسك ، وتريد ان تحذفه لأنك لا تريد ان تقبل جميع نتائج تصرفاتك . اسمع ، هل تريـــد ان اقول لك الحقيقة ؟ ربما كنت لا تكذب على نفسك في هذه اللحظة بالذات ولكن حياتك برمتها قائمة على كذبة .

قال ماتيو ، وكان يبتسم :

— ارجوك ، لا تزعج نفسك : علّمني ما اخفيه عن نفسي .

فقال جاك : — ان ما تخفيه عن نفسك هو انك بورجوازي مخجل .

ولكني عدت الى البورجوازية بعد الوان كثيرة من الضياع والشرود ، فعقدت معها زواجاً عـاقلاً ؛ امـا انت ، فانك بورجوازي بالذوق ، بالمزاج ، ومزاجك هو الذي يدفعك الى الزواج (واضاف بقوة) ذلك انك متزوج يا ماتيو .

فقال ماتيو : — يا للنبأ الجديد !

— اجل . انك متزوج ولكنك تزعم العكس لان لديك نظريات . لقد اخذت عاداتك عند هذه المرأة الشابة : فانت تلتقي بها اربع مرات في الاسبوع وتقضي الليل معها . وهذا مستمر منذ سبعة اعوام ، فليس فيه بعد اي اثر من مغامرة ، انك تحترمها وتشعر بواجبات نحوهــا ، ولا تريد ان تتركها . وانا على يقين بانك لا تلتمس اللذة وحدها ، بل انا اتصور ان اللذة مهما كانت قوية ، فلا بد انها مع الزمن قد ضعفت ؛ والواقع انك لا بد ان تجلس اليها في المساء لتسرد عليها مطولاً حوادث اليوم وتطلب نصيحتها بصدد بعض الحالات الصعبة .

قال ماتيو وهو يهز كتفيه : « طبعاً » . وكان غاضباً على نفسه ؛ فقال جاك :

— حسناً ! هل تريد ان تقول لي بمَ يختلف ذلك عن الزواج الا بالسكنى الدائمة ؟

فقال ماتيو ساخراً :

— السكنى الدائمة ؟

— اتصور انه لن يكلفك كثيراً ان تستنكف عنها .

وفكر ماتيو : « لم يسبق له ان صارحني من قبل بهذا كله . انه ينتقد » . وكان لم يبق له الا ان يصفق الباب . ولكن ماتيو كان يعرف انه باق حتى النهاية : كانت لديه رغبة مقاتلة ومستعدية في ان يعرف رأي اخيه . فقال :

— ولماذا تقول : ان ذلك لن يكلفني كثيراً ؟

– لانك تكسب هناك الراحة وتكسب مظهراً من الحرية : ان لك جميع حسنات الزواج ، ولكنك تستخدم مبادئك لترفض مساوئه . انك ترفض ان تجعل الوضع شرعياً ، وهذا امر يسير عليك . فاذا كان هناك من يتألم من ذلك ، فلست اياه .

قال ماتيو بصوت متجبر :

– ان مارسيل تشاطرني آرائي في الزواج .

وكان يستمع الى نفسه وهو يلفظ كل كلمة فيجد انه كريه جداً . وقال جاك :

– اوه ! لو لم تكن تشاطرك اياها فسوف تكون بلا شك اوفر كبرياء من ان تصارحك بها . اتدري انني لست افهمك ... انت السريع الغضب اذا سمعت من يتحدث عن الظلم ، ومع ذلك تجعل هذه المرأة في وضع ذليل منذ اعوام لمجرد اللذة في ان تقول لنفسك انك منسجم ومبادئك . وليت هذا كان صحيحاً . ليتك تطابق حقاً حياتك على افكارك . ولكني اكرر لك انك متزوج وان لك شقة لطيفة ، وانك تقبض في مواعيد محددة راتباً طيباً ، وليس عندك اي قلق بشأن المستقبل ما دامت الدولة تضمن لك تقاعداً ... وانك تحب هذه الحياة الهادئة المنظمة ، حياة موظف حقيقية .

قال ماتيو : – اسمع ، ان بيننا سوء تفاهم . انه لا يهمني الا قليلاً ان اكون بورجوازياً او لا اكون . بل كل ما اريده هو ... (وانهى عبارته بين اسنان مشدودة في شيء من الخجل) هو ان احتفظ بحريتي .

فقال جاك : – كنت احسب انا ان الحرية هي في مواجهة الاوضاع التي يختارها الانسان بملء ارادته وفي قبول جميع تبعاتها . ولكن هذا ليس هو رأيك : انك تشجب المجتمع الرأسمالي ، ومع ذلك فانت موظف في هذا المجتمع ، وانك تكنّ وداً مبدئياً للشيوعيين : ولكنك تحاذر جداً ان تلتزم ، وانت لم تقترع قط . وانك تحتقر الطبقة

البرجوازية وانت مع ذلك برجوازي ابن برجوازي واخو برجوازي وتعيش كأنك برجوازي .

واشار ماتيو بحركة من يده ولكن جاك لم يدع له ان يقاطعه فقال بشفقة مؤنبة :

– لقد بلغت مع ذلك سن الرشد يا عزيزي ماتيو . ولكنك تخفي عن نفسك هذا ايضاً ، وتريد أن تجعل نفسك اصغر مما انت . والحق اني ربما كنت ظالماً ، فلعلك لم تبلغ بعد سن الرشد . لأنها سن معنوية ، ولعلني بلغتها قبلك .

وفكر ماتيو : « حسناً ، سيحدثني الآن عن شبابه . » وكان جاك شديد الاعتزاز بشبابه ، وكان ذلك ضمانته . كان يتيح له ان يدافع عن قضية النظام بضمير مرتاح . فطوال خمسة اعوام قلّد باجتهـــاد جميع الوان الشرود التي كانت شائعة ، فاعتنق السريالية وكانت له علاقات مثيرة للغرور ، وتشمم احياناً ، قبل ان يضاجع ، منـــديلاً مبللاً بكلورور الخدر الاثيري . وذات يوم نظّم حياته حين حملت له اوديت ستمئة الف فرنك كمهر . وكان قد كتب لماتيو يقول : « ينبغي ان تكون لنا شجاعة ان نعمل كجميع الناس حتى لا نكون كأحد . » وكان قد اشترى دراسة كاتب محكمة . وقال :

– اني لا الومك على شبابك ، على العكس فقد كنت محظوظاً في تجنب بعض الانحرافات . غير اني مع ذلك لست آسفاً على شبابي . والحق انه كان امامنا نحن الاثنين ، كما تعلم ، ان نستهلك غرائز جدنا القرصان ، غير اني استنفدتها انا كلها دفعة واحدة . أما أنت فتستهلكها بالتقسيط . وينقصك ان تمس قعرها . واعتقد انك في الاصل كنت اقل قرصنةً مني وهذا الذي يضيعك : ان حياتك هي تسوية ابدية بين حسّ تمرد وفوضى متواضع جداً في حقيقته وبين نزعاتك العميقة التي تدفع بك الى النظام والصحة المعنوية ، واكاد اقول الروتين . والنتيجة هي انك ظللت طالباً قديماً غير مسؤول . ولكن انظر الى نفسك جيداً يا

عزيزي . إنك في الرابعة والثلاثين وان شعرك يبيضّ قليلاً . ليس بقدر شعري طبعاً . – وليس فيك بعد شيء من الفتوة . وان حياة البوهيمي لا تناسبك . وما هي البوهيمية حقاً ؟ لقد كان ذلك شيئاً جميلاً منذ مئة عام . اما اليوم فهي قبضة من التائهين لا يشكلون خطراً على احد وقد فاتهم القطار . انك في سن الرشد يا ماتيو ، انك في سن الرشد ، او ينبغي ان تكون فيه .

قال ماتيو : – اسمع ! ان سن رشدك انت انما هي سن الخضوع ، وانا لست حريصاً عليها على الاطلاق .

ولكن جاك لم يكن ، لشروده ، يصغي اليه . وقد اصبح نظره فجأة صافياً ومرحاً فاستطرد يقول بحيوية :

– اسمع ، قلت لك اني سأقدم لك اقتراحاً ، فاذا رفضت فلن يصعب عليك ان تجد أربعة آلاف فرنك . ولن اندم . انني اضع عشرة آلاف فرنك تحت تصرفك اذا تزوجت صديقتك .

وكان ماتيو قد تنبأ بذلك . وكان هذا على اي حال ييسّر له مخرجاً صالحاً ينقذ المظهر ، فقال وهو ينهض :

– اشكرك يا جاك ، انك لطيف جداً ، ولكني لا أوافق على اقتراحك . انا لا اقول انك مخطىء على طول الخط ، ولكن اذا كان لا بد لي من ان اتزوج يوماً ، فيجب أن تأتيني الرغبة لذلك . أما الآن ، فلن يكون الزواج الا ضربة عناد بليدة لأخرج من المغطس .

ونهض جاك ايضاً وهو يقول :

– فكّر جيداً ، وخذ وقتك . ان امرأتك ستُستقبل هنا استقبالاً جيداً . ولست بحاجة الى ان أقول لك ذلك ، فاني واثق باختيارك ، وستكون اوديت سعيدة في ان تعاملها كصديقة . والحق ان زوجتي تجهل كل شيء عن حياتك الخاصة .

فقال ماتيو : – لقد فكرت في الأمر ملياً .

قال جاك بلهجة ودية (اتراه كان مستاءً الى هذا الحد ؟) ...
— كما تشاء . (وأضاف) متى نراك ؟ .
فقال ماتيو : — سآتي يوم الاحد لتناول الغداء . الى اللقاء .
قال جاك : — الى اللقاء ، و ... اذا خطر لك ان تغير رأيك ، فان اقتراحي يظل قائماً .

وابتسم ماتيو وخرج من غير ان يجيب . وفكر : « انتهى الامر ! انتهى الامر ! » وهبط السلم وهو يعدو ، ولم يكن جذلاً ، ولكنه كان راغباً في الغناء . والآن لا بد ان جاك قد عاد يجلس الى مكتبه ، شارد العين ، ذا ابتسامة حزينة ورصينة : « ان هذا الفتى يقلقني ، بالرغم من انه بلغ سن الرشد . » او ربما ذهب يقوم بدورة لدى اوديت : « ان ماتيو يسبب لي القلق . اني لا استطيع ان اقول لك لماذا ، ولكنه ليس عاقلاً . » وما عساها تقول ؟ اتراها ستلعب دور المرأة الناضجة المفكرة ، ام انها ستقتصر على بعض حركات الموافقة السريعة من غير ان ترفع انفها عن كتابها ؟

وقال ماتيو لنفسه : « عجباً ، لقد نسيت ان اودع اوديت ! » وندم على ذلك : وكان مستعداً لأن يستشعر الندم . « لعل هذا صحيح ! أتراني اجعل مارسيل حقاً في وضع ذليل؟ » وتذكر هجمات مارسيل العنيفة ضد الزواج : « والحق انني عرضت عليها الزواج . مرة . منذ خمس سنوات . » والواقع ان ذلك كان في الهواء . ومهما يكن فقد سخرت منه مارسيل . وفكر : « آه ! الحقيقة ان عندي عقدة نقص إزاء اخي ! » ولكن لا ؛ لم يكن الامر كذلك ، مهما كان شعوره بالذنب ، فان ماتيو لم يكف قط عن ان يعطي نفسه الحق ضد جاك. « غير ان الامر هو ما يلي : انه قذر يملك علي نفسي . فاذا لم اخجل امامه ، فاني اخجل من اجله . آه ! (وفكر :) « ان المرء لا ينتهي مع اهله . وهذا يشبه الجدري . فهي تصيبك اذ تكون طفلاً

وتطبعك مدى الحياة » وكانت هناك حانة عند زاوية شارع مونتورغوي . فدخل .وأخذ قطعة بديلة من الصندوق . وكانت غرفـــة التلفون في زاوية مظلمة . وكان منقبض القلب حين فتح الآلة .

ـ الو ! الو ! مارسيل ؟

وكان تلفون مارسيل في غرفتها . فقالت :

ـ هذا انت ؟

ـ نعم .

ـ ماذا هناك ؟

ـ كان الامر مستحيلاً مع العجوز .

فقالت مارسيل بلهجة ارتياب : ـ هِمْ !

ـ اؤكد لك . كانت سكرى تقريباً ، وكان الوضع منتناً عندها ، ومقرفاً ، وليتك رأيت يديها . ثم انها متوحشة .

ـ طيب . وبعد ؟

ـ ان هناك شخصاً آخر . بواسطة ساره . شخص جيد جداً .

وقالت مارسيل بلا اكتراث :

ـ آه ! وكم ؟

ـ اربعة آلاف .

فردّدت مارسيل غير مصدقة :

ـ كم ؟

ـ اربعة آلاف .

ـ اترى اذاً ! ان هذا غير ممكن ، يجب ان اذهب ...

قال ماتيو : ـ لن تذهبي . بل سأستدين .

ـ ممن ؟ من جاك ؟

ـ انني خارج من لدنه .

ـ ودانيال . ؟

ـ انه يرفض ايضاً ، الحيوان !. لقد رأيته هذا الصباح وانا متأكد انه محشو حشواً .

فسألته مارسيل بحماسة :

ـ انك لم تقل له ان ذلك كان من اجل ... هذا .

فقال ماتيو : ـ لا .

ـ وما الذي ستفعله ؟

ـ لا ادري . (وشعر بأن صوته يعوزه التأكيد فأضاف بحزم :)

« لا تنزعجي . ان امامنا ثماني واربعين ساعة : وسوف اجد المال . حين يتدخل الشيطان في الموضوع فان اربعــة آلاف فرنك لا بد ان توجد . »

وقالت مارسيل بلهجة غريبة :

ـ حسناً جِدْها ، جِدْها .

ـ سأخبركَ . هل نحن على موعدنا مساء الغد ؟

ـ نعم .

ـ وهل انت بخير ؟

ـ لا بأس .

ـ انت لست ...

فقالت مارسيل بصوت جاف :

ـ بلى . انني اشعر بالضيق . (واضافت بلهجة اعتذار) . مهما يكن ، فاعمل جهدك انت يا عزيزي المسكين .

قال ماتيو : ـ سآتيك بالآلاف الاربعة مساء الغد .

وتردد وأضاف بجهد :

ـ احبك .

فأعادت مارسيل السماعة من غير ان تجيب . وخرج من الغرفة . وحين كان يعبر المقهى كان ما يزال يسمع صوت مارسيل الجاف :

« اشعر بالضيق » انها حاقدة علي . بالرغم من انني افعل ما استطيع . « في وضع ذليل » اصحيح اني اضعها في وضع ذليل ؟ واذا ... وتوقف عند حافة الرصيف . واذا كانت تريد الطفل ؟ في هذه الحالة، كل شيء ينقلب ، كان يكفي التفكير بذلك لحظة ليأخذ كل شيء اتجاهاً آخر . فتلك هي قصة اخرى ، وان ماتيو ، ماتيو نفسه ، سيتغير من الرأس حتى القدم ، وهو لم يكفّ عن ان يكذب على نفسه ، اذ كان رجلاً قذراً ، رائع القذارة . ومن حسن الحظ ان هذا لم يكن صحيحاً . ولا يمكن ان يكون صحيحاً . فلقد سمعتها غالباً تسخر من صديقاتها المتزوجات اذ يكن حاملات . وكانت تدعوهن « اوعية مقدسة » وكانت تقول : « انهن ينفجرن فخراً لأنهن سيبضن . » وان من يقول هذا ، لا يحق له ان يغير رأيه برأي لطيف، لأن ذلك سيكون استغلالاً للثقة . وان مارسيل غير جديرة باستغلال الثقة ؛ والا لقالت لي ، ولماذا تراها لا تقول لي ، ما دمنا نتكاشف كل شيء . اوه ! ثم... كفى ! لقد اتعبه ان يدور في هذا الدغل المعقد. مارسيل، ايفيش ، المال ، ايفيش ، مارسيل ، سأفعل كل ما ينبغي . ولكني اود ان لا افكر بعد ذلك ، بحياة الرب ، اريد ان افكر بشيء آخر . وفكر ببرونيه ، ولكن ذلك كان ابعث على الحزن : صداقة ميتة ؟ وكان يحس انه ثائر الاعصاب وحزين لأنه كان سيراه مرة ثانية . ورأى كشكاً للصحف فاقترب منه : « باري — ميدي ، من فضلك . »

وكان قد نفد ، فأخذ صحيفه بلا تمييز : وكانت « اكسلسيور » . ودفع ماتيو ثمنها ومضي . « اكسلسيور » لم تكن صحيفة مؤذية . وكانت من ورق سميك حزين ومخملي كأنه التبيوكه . ولم يكن من شأنها ان تثير غضبك ، وكل ما هناك انها كانت تنزع منك مذاق الحياة فيما انت تقرأها . وقرأ ماتيو : « قصف فالنسيا من الجو » . ورفع رأسه

مغتاظاً غيظاً مبهماً : كان شارع ريومور من نحاس مسود . الساعة الثانية ، لحظة النهار التي يبلغ فيها الحر أكأب صوره ، اذ كان يتلوى ويفرقع في وسط الرصيف كأنه شرارة كهربائية طويلة. « اربعون طائرة تدور طوال ساعة فوق وسط المدينة وتقذف مئة وخمسين قنبلة . العدد الدقيق للموتى والجرحى لا يزال مجهولاً . » ورأى من طرف عينه ، تحت العنوان ، نصاً صغيراً ضيقاً مربعاً كان يبدو فيه ثرثرة ووثائق : « من موفدنا الخاص » ، وكان يحوي ارقاماً . وقلب ماتيو الصفحة ، ولم تكن به رغبة لأن يعرف اكثر مما عرف . خطاب للسيد فلندان في « بار لودوك » . فرنسا جاثمة فوق خط مجينو... ستوكوفسكي يصرح لنا : « لن اتزوج غريتا غاربو . » جديد حول قضية ويدمن . زيارة ملك انكلترا : حين تنتظر باريس اميرها الساحر . جميع الفرنسيين ... وانتفض ماتيو وفكر : « جميع الفرنسيين قذرون . » لقد كتبها له غوميز مرة من مدريد . وأغلق الصفحة ، وأخذ يقرأ في الصفحة الاولى برقية الموفد الخاص . كان تعداد القتلى خمسين والجرحى ثلاثمئة ، ولم يكن هذا كل شيء ، بل كان هناك بالتأكيد جثث تحت الانقاض . لا طائرات ولا مدافع مضادة . وكان ماتيو يحس بغموض انه مذنب . خمسون قتيلاً وثلاثمئة جريح ، ما كان هذا يعني بالضبط ؟ مستشفى مليء ؟ شيء يشبه اصطدام قاطرة حديدية ؟ خمسون قتيلاً . لقد كان في فرنسا الوف من البشر لم يستطيعوا ان يقرأوا صحيفتهم ذلك الصباح ، من غير ان تصعد الى حنجرتهم كتلة من الغضب ، الوف من البشر حرقوا الارم وهم يتمتمون : «قذرون» وحرق ماتيو الارم وتمتم « قذرون ! » . واستشعر مزيداً من الذنب . ليته على الاقل استطاع ان يجد في نفسه انفعالاً صغيراً حياً ومتواضعاً ، واعياً لحدوده . ولكن لا: لقد كان فارغاً ، وكان امامه غضب كبير ؛ غضب يائس ، وكان يراه ، وكان بوسعه ان يلمسه . غير انه كان

غضباً جامداً ، كان ينظر ليحيا ، لينفجر ، ليتألم ، ليعبره جسمه ،
لقد كان غضب الآخرين « قذرون » كان يحرّق الارّم ، وكان
يمشي بخطى كبيرة ، ولكن الغضب لم يكن ليجيء ، كان ما يزال
خارجاً . لقد كنت انا في فالنسيا . ورأيت فيها حلبة مصارعة الثيران
في عام ٣٤ ، وسباقاً كبيراً للثيران مع اورتيغا والاستودينت . وكانت
فكرته تصنع دوائر حول المدينة ، باحثة عن كنيسة ، عن شارع ، عن
واجهة بيت يستطيع ان يقول عنه : « لقد رأيت هذا ، وقد هدموه ،
فهو غير موجود بعد . » وانقضّت الفكرة على شارع مظلم تسحقه
بنايات ضخمة . لقد رأيت هذا ، وكان يتنزه فيه صباحاً ، وكان
يختنق في ظل محترق ، وكانت السماء تشتعل عالية ، فوق الرؤوس .
حسناً : لقد سقطت القنابل في هذا الشارع ، على البنايات الرمادية
الضخمة ، فاتسع الشارع اتساعاً ، وقد سالت السماء الذائبة على الرصيف
والشمس تصفع الانقاض . وكان ثمة شيء ما يستعدّ للولادة ، فجر
غضب خجول . حسناً ! ولكن ذلك تلاشى ، وتسطّح . وكان خلاء ،
وكان يمشي بخطى معدودة في وقار شخص يسير وراء جنازة ، في
باريس ، لا في فالنسيا ، في باريس ، يسكنه شبح من الغضب .
وكانت الواجهات تشتعل ، وكانت السيارات تجري في الشارع ، وكان
هو يسير وسط رجال قصار يلبسون اقمشة فاتحة ، وسط فرنسيين لم
يكونوا ينظرون الى السماء ، لم يكونوا يخافون السماء ، ومع ذلك ، فهناك ،
في مكان ما تحت السماء نفسها ، امر واقعي : فقد توقفت السيارات ،
وتحطم الزجاج ، وقرفصت نساء بليدات خرساوات تبدو عليهن هيئة
الدجاج الميت ، بالقرب من جثث حقيقية ، وهن يرفعن الرأس بين
الفينة والاخرى ، فينظرن السماء ، السماء السامّة ، جميع الفرنسيين
قذرون . وكان ماتيو يشعر بالحر ؛ وكان حراً حقيقياً . وأمرّ منديله
على جبينه ، وفكر : « ليس بوسع الانسان ان يتألم من اجل ما يريد » .

لقد كان هناك قصة فظيعة وفاجعة كانت تطلب ان يتألم من اجلها...
« انني لا استطيع ، فلست في الميدان . انني في باريس ، وسط موجوداتي انا ، جاك خلف مكتبه يقول : « لا » ودانيال يقهقه ، ومارسيل في الغرفة الوردية ، وايفيش التي قبلتها هذا الصباح . وجودي الحقيقي ، المنفر ، لفرط ما هو حقيقي . ان لكل عالمه ، وعالمي هو مستشفى في داخله مارسيل حبلى وهذا اليهودي الذي يطلب مني اربعة آلاف فرنك . وهناك عوالم اخرى . غوميز . لقد كان في الميدان ، لقد ذهب ، وكان هذا نصيبه . وشخص الامس . انه لم يذهب ، ولا بد انه يتيه في الشوارع ، مثلي . ولو انه يلتقط صحيفة فيقرأ : « قصف فالنسيا » فلن يكون بحاجة الى ان يبتسر نفسه ، لأنه سيتألم هناك ، في المدينة ذات الانقاض . لماذا تراني في هذا العالم المنتن بالضوضاء وبالآلات الطبية وبالتسليات الخفية في سيارات التاكسي ، في هذا العالم الذي لا اسبانيا فيه ! لماذا لا اكون في الميدان مع غوميز ومع برونيه ؟ لماذا لم تأخذني الرغبة في الذهاب للقتال ؟ أكان بوسعي ان اختار عالماً آخر ؟ أتراني ما زلت حراً ؟ ان بوسعي ان اذهب حيث اشاء فلا اجد اية مقاومة ولكن ذلك اسوأ : انني في قفص لا حواجز له . وانه يفصلني عن اسبانيا لا شيء ... ومع ذلك فان هذا الفاصل غير قابل للعبور : ونظر الى الصفحة الاخيرة من اكسلسيور : صور من الموفد الخاص . اجسام ممددة على الرصيف عند اسفل جدار . وفي منتصف الشارع امرأة ضخمة ، ملقاة على ظهرها ، وقد ارتفع ثوبها عن فخذيها ولم يكن لها رأس بعد . وطوى ماتيو الصحيفة ورماها في الساقية .

وكان بوريس يترقبه امام باب البناية . واذ لاحظ ماتيو بدت عليه هيئة برودة وتكلف رصانة : تلك كانت هيئته المجنونة . وقال :
— لقد طرقت بابك . ولكني اعتقد انك لم تكن في البيت .

فسأله ماتيو في اللهجة نفسها :

ـ هل انت متأكد من ذلك ؟

فقال بوريس :

ـ لست متأكداً تماماً ، وكل ما استطيع ان اقوله لك هو انك لم تفتح لي الباب .

فنظر اليه ماتيو وهو متردد . مهما يكن من امر ، فان الساعة لم تكد تتجاوز الثانية ، ولن يصل برونيه قبل نصف ساعة . وقال :

ـ اصعد معي ، فسوف نُفرغ ما في قلبينا .

وصعدا . وعلى الدرج قال بوريس بصوته الطبيعي .

ـ الا يزال موعدنا قائماً في « سومطرا » هذا المساء ؟

فانفتل ماتيو وتصنع انه يبحث عن مفاتيحه في جيبه ، وقال :

ـ لا ادري ان كنت سأذهب . لقد فكرت بـ .. لعل لولا تفضل ان تكون لها وحدها .

قال بوريس : ـ طبعاً . ولكن ماذا في ذلك ؟ انها ستكون مؤدبة. ومهما يكن فاننا لن نكون وحدنا ! ستكون هناك ايفيش .

فسأله ماتيو وهو يفتح الباب :

ـ هل رأيت ايفيش ؟

فأجاب بوريس : ـ لقد تركتها الساعة .

قال متنحياً : ـ تفضل .

ودخل بوريس قبل ماتيو وتوجه بألفة مليئة باليسر نحو المكتب . وكان ماتيو ينظر بارتباك الى ظهره الهزيل وفكر : « لقد رآها . » وقال بوريس :

ـ هل ستأتي ؟

وكان قد التفت وتأمل ماتيو بهيئة ضاحكة رقيقة . فسأله ماتيو :

ـ ألم تقل لك ايفيش ... شيئاً عن هذا المساء ؟

— هذا المساء ؟

— نعم . كنت اتساءل عما اذا كانت ستجيء : فهي تبدو شديدة الانهماك بامتحانها .

قال بوريس : — انها تريد ان تأتي بلا شك . وقد قالت انه سيكون طريفاً ان نلتقي نحن الاربعة معاً .

فردد ماتيو : — نحن الاربعة ؟ هل قالت نحن الاربعة ؟

فقال بوريس ببراءة : — حتماً : فان هناك لولا .

— انها تنتظر اذاً ان آتي ؟

فقال بوريس دهشاً : — طبعاً .

وساد صمت . وكان بوريس قد انحنى فوق الشرفة ينظر الى الطريق. فتبعه ماتيو وارسل له ضربة كبيرة من قبضته في ظهره . وقال بوريس:

— انني احب شارعك كثيراً ، ولكنه يوحي بالملل مع مرور الزمن. ويدهشني دائماً انك تعيش في شقة .

— ولماذا ؟

— لا ادري . ان عليك انت الحر ان تبيع اثاثك وتعيش في الفندق . هل تتصور ذلك ؟ ان تقيم شهراً في غرفة في مونمارتر وشهراً آخر في ساحة « التنبل » وشهراً ثالثاً في شارع « موفتار » ...

فقال ماتيو متضايقاً : — ليس لهذا اية اهمية .

قال بوريس بعد ان حلم طويلاً : — نعم . ليس لهذا اية اهمية . (وأضاف بلهجة منزعجة) ان الجرس يرن .

فذهب ماتيو يفتح الباب : وكان برونيه . وقال ماتيو :

— مرحباً ، لقد جئت قبل الموعد .

فقال برونيه مبتسماً : — صحيح ، وهل هذا يزعجك ؟

— على الاطلاق .

وسأل برونيه : — من هذا؟

فقال ماتيو : ـ بوريس سرغين .

قال برونيه : ـ آه ! التلميذ العظيم ؟ انا لا اعرفه .

وانحنى بوريس ببرودة وتراجع حتى جوف الغرفة . وكان ماتيو واقفاً امام برونيه مرتخي الذراعين .

ـ انه يحتقر ان يُعتبر التلميذ .

فقال برونيه من غير ان ينفعل : ـ مفهوم .

وكان يلف سيكارة بين اصابعه ، صلباً ولامبالياً تحت انظار بوريس الحاقده . وقال ماتيو :

ـ اجلس ، خذ الاريكة .

وجلس برونيه على كرسي وهو يقول مبتسماً :

ـ لا. ان ارائكك مفسدة ... (وأضاف) هكذا اذاً ايها الاشتراكي الخائن القديم ؟ يجب على من يريد لقاءك ان يأتي حتى عرينك .

فقال ماتيو : ـ ليست هي غلطتي : فقد سعيت غالباً لرؤيتك ولكنك تكاد لا توجد .

قال برونيه : ـ صحيح . فقد اصبحت نوعاً من وكلاء السفر . انهم يجعلونني اضرب في كل مكان حتى انني في بعض الايام يشق علي ان اجد نفسي بالذات .

واستطرد بلهجة ودية :

ـ وانما اجد نفسي على احسن صورها حين اراك ، ويخيل الي انني استودعت نفسي عندك .

فابتسم له ماتيو ابتسامة عرفان وقال :

ـ لقد فكرت مراراً ان علينا ان نلتقي اكثر مما نفعل. ويخيل الي اننا نشيخ شيخوخة ابطأ ، اذا كان بامكاننا ان نلتقي نحن الثلاثة بين فترة واخرى.

فنظر اليه برونيه بدهشة :

ـ نحن الثلاثة ؟

— طبعاً : نعم ، دانيال وانت وانا .

قال برونيه في ذعر :

— صحيح ، دانيال ! ان هذا الصديق ما يزال موجوداً ! وانت ما تزال تراه بين فترة واخرى . أليس كذلك ؟

فسقطت فرحة ماتيو : حين كان برونيه يلتقي بورتال او بوروليبه فلا بد انه كان يقول لهما ، باللهجة الضجرة نفسها : « ماتيو ؟ انه استاذ في معهد بوفون. وما زلت اراه بين فترة واخرى. » . وقال بمرارة:

— اجل . ما زلت اراه ، فتصوّر !

وساد صمت . وكان برونيه قد وضع يديه على ركبتيه . كان هناك ثقيلاً وكثيفاً ، كان جالساً على كرسي لماتيو ، وكان يحني وجهه بصورة عنيدة نحو شعلة عود ثقاب ، وكانت الغرفة ملأى بحضوره ، وبدخان سيكارته ، وبحركاته البطيئة . وكان ماتيو ينظر الى يديه الكبيرتين ، يدي الفلاح ، ويفكر : « لقد جاء » . وشعر بأن الثقة والفرح كانا يحاولان بحياء ان يولدا في قلبه من جديد . وسأله برونيه :

— وما عدا ذلك ؟ ما هي احوالك ؟

— وأحس ماتيو بالضيق : ليس هناك من شيء . وقال :

— لا شيء .

— اني اتمثلك : اربع عشرة ساعة من الدروس اسبوعياً ، ورحلة الى الخارج في العطلة الكبرى .

فقال ماتيو ضاحكاً وهو يتجنب النظر الى بوريس : — نعم . واخوك ؟ ألا يزال صليب نار ؟

قال ماتيو : — كلا . انه ينوّع . وهو يقول ان صلبان النار ليست ديناميكية بما فيه الكفاية .

قال برونيه : — هذا طريدة لدوريو .

— يتحدثون عن ذلك ... (وأضاف ماتيو من غير تفكير) . لقد

تنازعت معه اليوم .

فألقى برونيه عليه نظراً سريعاً حاداً :

– ولماذا ؟

– ان الامر دائماً هكذا : اطلب منه خدمة فيجيبني بموعظة .

فقال برونيه ساخراً : – ولهذا توسعه انت شتماً . اتراك ما تزال تأمل ان تغيره ؟

فقال ماتيو متضايقاً : – كلا . ليس الامر كذلك .

وصمتا لحظة اخرى . وفكر ماتيو بحزن : « ان الوضع يتبلد . » ليت بوريس يفكر في الذهاب . ولكن يبدو انه لا يفكر بذلك. فهو قائم في ركنه مقشعراً ، شبيهاً بكلب مريض . وكان برونيه قد جلس على كرسيه منفرج الساقين ، وكان هو ايضـاً يلقي على بوريس نظراً ثقيلاً . وفكر ماتيو برضى : « انه يود لو يرحل . » واخذ يرمق بوريس بين عينيه : فربما انتهى به الامر الى ان يفهم تحت نيران هذه الانظار المشتركة . ولكن بوريس لم يكن ليتحرك . وقال برونيه بصوت واضح :

– الا زلت تدرس الفلسفة ، ايها الشاب ؟

فأومأ بوريس برأسه ان نعم .

– واين وصلت فيها ؟

فقال بوريس بجفاء : – اني انهي شهادة الليسانس .

قال برونيه بلهجة استغراق : – شهادة الليسانس ؟ الحمد لله .

ثم قال بصراحة :

– أتراك ستكرهني اذا خطفت منك ماتيو مدة لحظـة ؟ ان لك حظاً في ان تراه كل يوم ، اما انا ... (وسأل ماتيو) هـل تأتي لنقوم بجولة في الخارج .

واقترب بوريس من برونيه بصلابة وقال :

– لقد فهمت . إبق هنا ، إبق : فانا الذي سأخرج .

وانحنى قليلاً : لقد كان مجروحاً ، وتبعه ماتيو حتى الباب وقال له بحرارة :

– الى هذا المساء . اليس كذلك ؟ سأكون هنـــاك حوالى الحادية عشرة .

فابتسم له بوريس ابتسامـــة آسفة : – الى هذا المساء . واغلـــق ماتيو الباب وعاد الى برونيه ، يقول له وهو يفرك يديه :

– واذاً ؟ لقد افرغته ؟

وضحكا . وسأل برونيه :

– ربما سلكت في ذلك مسلكاً شديداً . انك غير عاتب علي .

قال ماتيو ضاحكاً : – على العكس . إنه معتاد . ثم اني مسرور جداً في ان اراك وحدك .

قال برونيه بصوت حازم : – كنت حريصاً على ان اذهب بسرعة لاني لا املك الا ربع ساعة .

فتحطمت ضحكة ماتيو وقال :

– ربع ساعة ؟ انا اعرف انك لا تملك وقتك : ولقد كنت لطيفاً بأن تجيء .

– الحقيقة اني كنت مأخوذاً طوال النهار ، ولكني حـــين رأيت سحنتك هذا الصباح فكرت : يجب قطعاً ان احدثك .

– وهل كانت سحنتي قذرة ؟

– نعم يا عزيزي المسكين . كانت ممتقعة اكثر مما ينبغي ومتورمة اكثر مما ينبغي مع رجفة في الاجفان وفي زاوية الفم .

واضاف بشغف : – وقلت في نفسي : انني لا اريد ان يتلفوه لي.

فسعل ماتيو وقال :

– لم اكن اعتقد انه كان لي وجه معبر الى هذا الحد ... كنت قد

رقت ، وكانت لدي هموم ... اوه انت تعلم ، كهموم جميع الناس ، مجرد هموم مالية .

ولم يبد على برونيه انه اقتنع فقال :

– ان لم يكن الامر الا كذلك فلا بأس ، لان بوسعك ان تتدبر امرك دائماً . ولكن كان يبدو عليك بالاحرى مظهر شخص ادرك انه قد عاش افكاراً مزعجة .

قال ماتيو بحركة غامضة : – « اوه ! الافكار ... » وكان ينظر الى برونيه نظرة عرفان متواضع . وكان يفكر : « لقد اتى من اجل هذا . كان نهاره مشغولاً بعدد من المواعيد الهامة فازعج نفسه ليأتي الى نجدتي » . ومهما يكن فقد كان افضل لو ان برونيه استجاب لمجرد الرغبة في رؤيته . وقال برونيه :

– اسمعني ! فانا لا اريد ان احدثك بالمواربة، وانما جئت اقدم لك عرضاً: هل تريـد ان تدخـل الحزب ؟ اذا قبلت اصطحبتك وانتهت القضية في عشرين دقيقة .

فانتفض ماتيو وسأله :

– في الحزب الشيوعي ؟

فأخذ برونيه يضحك ، وتكسرت جفونه وكان يكشف عن اسنانه الباهرة وقال :

– طبعاً ، فانت لا تريدني ان ادخلك عند « لاروك » ؟

وساد صمت ثم سأله ماتيو برقة :

– لماذا تريدني يا برونيه ان اصبح شيوعياً ؟ ألصالحي ام لصالح الحزب ؟

قال برونيه : – لصالحك . وليست بك حاجة الى ان تتخذ هيئة رقابة ، فاني لم اصبح رقيب دعاية للتجنّـد في الحزب الشيوعي ، ثم لنتفاهم : ان الحزب لا يحتاج اليك قط . وانت لا تمثل في نظره الا

رأس مال صغيراً من الذكاء . وهذا ، اقصد المثقفين ، نملك منه مـا بوسعنا بيعه ، ولكنك انت بحاجة الى الحزب .

وردد ماتيو : — لصالحي . لصالحي .. (واستطرد فجأة) اسمع : انني لم اكن اتوقع عرضك هذا فقد بوغتّ به . ولكن ... اود لو تقول لي ما الذي تفكر فيه ؟ . انت تعلم اني اعيش محاطاً بصبيـة لا ينشغلون الا بانفسهم وهم معجبون بـي مبدئياً . وليس هناك من يحدثني قط عن نفسي ! وانا ايضاً احياناً ، اجد مشقة في ان اعثر على نفسي. واذن ؟ اتظن اني بحاجة الى ان التزم ؟

فقال برونيه بقوة : — نعم . نعم . انت بحـاجة الى ان تلتزم . اولا تحس ذلك بنفسك ؟

وابتسم ماتيو بحزن : كان يفكر في اسبانيا . وقال برونيه :

— لقد سلكت طريقك . انت ابن برجوازي ، ولم تكن تستطيـع ان تأتي الينا هكذا . بل كان يجب ان تتحرر . وقد تمّ هذا الآن ! فانت حر . ولكن ما جدوى هذه الحريـة ان لم تكن لتمكّن المرء من الالتزام ؟ لقد انفقت خمسة وثلاثين عاماً وانت تنظف نفسك ، وكانت النتيجة فراغاً (واضاف ببسمة ودية) انت ، لو تدري ، جسم غريب . انك تعيش في الهواء ، ولقد قطعت صلاتك البرجوازية ، وليست لك اية علاقة بالبروليتارية ، فانت عائم ، أنت مجرد ، انت غائب . ولا بد ان هذا ليس شيئاً طريفاً دائماً .

قال ماتيو : — لا ، ليس شيئاً طريفاً دائماً .

واقترب من برونيه وهزّه من كتفيه : لقد كان يحبه حباً قوياً . وقال له :

— ايها الداهية الملعون ، ايها المومس الملعون ! يسرني كثيراً ان تقول لي كل هذا !

وابتسم له برونيه بشرود : كان يتابـع فكرته فقال :

– لقد تنازلتَ عن كل شيء لتكون حراً . فقم بخطوة اخرى « تنازل عن حريتك نفسها : وسيُردّ لك كل شيء ».

قال ماتيو ضاحكاً : – انك تتكلم كالحوري . كـــلا يا عزيزي ! لنتكلم بجد . فان هذا لن يكن تضحية كما تعلم . انا اعرف جيداً اني سأسترد كل شيء ، لحماً ودماً وحماسات حقيقية . ولكنك تعرف يـــا برونيه اني انتهيت الى فقدان حسّ الحقيقة : فليس هناك ما يبدو لي حقيقياً مئة بالمئة .

ولم يجب برونيه : كان يتأمل . وكان له وجه ثقيل قرميدي اللون ذو ملامح مرتجفة وجفون حمراء ، صفراء جداً وطويلة جداً . وكان يشبه بروسياً . وكان ماتيو كلما رآه احس في منخريه بنوع من الفضول الحائر .

وكان يتنفس على مهل ويتوقع ان يشم فجأة رائحة انسانية قوية . ولكن لم يكن لبرونيه رائحة . وقال ماتيو :

– انك حقيقي انت وكل ما تلمسه يبدو حقيقياً . فان غرفتي منذ دخلتها تبدو حقيقية وتثير اشمئزازي .

واضاف فجأة : – انك انسان .

فسأله برونيه مدهوشاً : – انسان ؟ ان العكس مقلق . فماذا تريد ان تقول ؟

– لا شيء غير ما قلت : لقد اخترتَ ان تكون انساناً .

انسان ذو عضلات قوية معقدة بعض الشيء ، يفكر بحقائق قصيرة قاسية ، انسان مستقيم ، مقلق ، واثق من نفسه ، ارضي ،متمرد على المغريات الملائكية للفن وعلم النفس والسياسة ، انسان برمته ، ولا شيء غير انسان . وقد كان ماتيو هناك ، تجاهه ، متردد ، رديء الشيخوخة ، رديء الصنع ، تحاصره جميع دوارات اللاإنساني . وفكر : « امـــا انا ، فلا ابدو انساناً . » ونهض برونيه واقبل على ماتيو يقول :

— واذن ؟ افعل مثلي ، فما الذي يمنعك من ذلك ؟ اتراك تتصور ان بوسعك ان تعيش كل حياتك بين هلالين ؟ .

فنظر اليه ماتيو متردداً وقال :

— طبعاً ، طبعاً . واذا اخترت فاني اختار ان اكون معكم ، وليس هناك اختيار آخر .

فردد برونيه : — ليس هناك اختيار آخر . (وتلبث لحظة ثم سأل) : واذن ؟

قال ماتيو : — دعني قليلاً اتنفس .

فقال برونيه : — تنفس ، تنفس ، ولكن عجّل . فغداً تصبح اكبر سناً مما ينبغي ، وستكون لك عاداتك الصغيرة ، وستكون عبد حريتك . وربما كان العالم ايضاً اكبر سناً مما ينبغي .

قال ماتيو : — انني لا افهم .

فنظر اليه برونيه وقال بسرعة :

— ستنشب الحرب في ايلول .

قال ماتيو : — انك تمزح .

— يمكنك ان تصدقني . فالانكليز يعرفون ذلك ، وقد أُخطرتْ به الحكومة الفرنسية ، وفي النصف الثاني من ايلول سيدخل الألمان الى تشيكوسلوفاكيا .

قال ماتيو منزعجاً : — يا لهذه الاساليب !

فسأل برونيه متضايقاً : — ولكن الا تفهم شيئاً ؟ .

غير أنه تدارك واضاف برقة :

— لو كنت تفهم ، لما كنت بحاجة الى ان اوضح لك . اسمع : انك مثلي من المشاة. افرض انك تمضي في الحالة التي انت فيها الآن : فانك توشك ان تنفجر كفقاعة ، وتكون قد حلمت حياتك خمسة وثلاثين عاماً ، ثم تأتي ذات يوم قنبلة فتفجر احلامك ، وستموت من غير ان تكون قد

استيقظت . لقد كنت موظفاً مجرداً ، وستكون بطلاً مضحكاً ، وستسقط من غير ان تكون قد فهمت شيئاً . كل ذلك ليتمكن السيد شنيدر من المحافظة على مصالحك في معامل سكودا .

وسأله ماتيو : — وانت ؟ (واضاف مبتسماً) انـــني اخشى يا عزيزي الا تستطيع الماركسية ان تحمي الناس من القنابل .

فقال برونيه : — وانا اخشى ذلك ايضاً . اتدري اين سيرسلونني ؟ الى مقدمة خط ماجينو : انه مرمى الرصاص المضمون .

— واذن ؟

— ليس هو الامر نفسه ، فهذا خطر قد اضطلعنا به . انه لا شيء الآن يستطيع ان ينزع من حياتي معناها ، لا شيء يستطيع ان يمنعها من ان تكون قدراً .

واضاف بحيوية :

— كما هي حياة جميع رفاقي ، في الواقع .

لكأنه كان يخشى ان يأثم بدافع الكبرياء .

ولم يجب ماتيو . وذهب يرتفق حاجز الشرفة وهو يفكر : لقـــد « عبّر خير تعبير » . وكان برونيه على حق : لقد كانت حياته قدراً . سنه ، طبقته ، زمانه : لقد استرد كل شيء ، واضطلع بكل شيء ، واختار العصا الرصاصية التي ستضربه في صدره ، والقنبلة الالمانية التي ستبقر بطنه : لقد التزم ، وتنازل عن حريته ، فلم يكن بعد الا جندياً. ولقد أعادوا له كل شيء ، حتى حريته . « انه اكثر حرية منه : انه متفق مع نفسه ومتفق مع الحزب . » لقد كان هناك ، حقيقياً تماماً . وفي فمه مذاق حقيقي للتبغ ، وكانت الالوان والاشكال التي يملأ بهـــا عينيه اكثر حقيقة واكثف من تلك التي كان ماتيو يستطيع ان يراها . ومع ذلك فقد كان في اللحظة نفسها يتمدد عبر الارض كلها ، متألماً ومكافحاً مع عمّال جميع البلاد . في هذه اللحظة ، في هـــذه اللحظة

بالذات ، هناك اشخاص يطلقون على انفسهم الرصاص في ضاحية مدريد، وهناك يهود نمساويون يحتضرون في معسكرات الاعتقال ، وهناك صينيون في انقاض ننكين ، وانا هنا طري نضر . أحسّني حراً ، وسوف آخذ بعد ربع ساعة قبعتي واذهب لأتنزه في حديقــة اللكسمبورغ . والتفت الى برونيه ونظر اليه بمرارة وهو يفكر : « انني غير مسؤول . »

وقال فجأة : — لقد قصفوا فالنسيا .

فقال برونيه : — اعرف ذلك . ولم يكن هناك مدفع مضاد في المدينة كلها ، وقد قذفوا قنابلهم على سوق .

لم يكن قد حرّق الارم ، ولم يكن قد تخلى عن بهجته المطمئنــة وعن تدفقه المستنيم ، ومع ذلك ، فقد كان هو الذي قُصف ، وكان إخوته واخواته واولاده هم الذين قتلوا . وذهب ماتيو يجلس على اريكة. « ان ارائكك مفسدة . » وانتصب بحيوية ، وجلس على زاوية الطاولة. قال برونيه :

— واذن ؟

وكان يبدو انه يترصده . قال ماتيو :

— اذن ؟ انك محظوظ .

— محظوظ بأن أكون شيوعياً ؟

— نعم .

— رأي عجيب ! ان هذا يُختار يا عزيزي .

— أعرف ذلك . انك محظوظ في ان تكون قد استطعت الاختيار .

وقست ملامح برونيه قليلاً :

— هذا يعني انك لن تملك هذا الحظ .

والآن تجب الاجابة . وانتظر : نعم أم لا ؟ أن يدخــل الحزب ويمنح حياته معنى ، ويختار ان يكون انساناً ويعمل ، ويؤمن ، سيكون في ذلك الخلاص . ولم يكن برونيه ليغادره بعينيه :

– أترفض ؟
فقال ماتيو يائساً : – نعم ، نعم يا برونيه : أرفض .
وكان يفكر : « لقد جاء يمنحني أفضل ما لديه ! » وأضاف :
– أنت تعلم ان هذا ليس قراراً نهائياً .. ففيما بعد ...
وهز برونيه كتفيه .
– فيما بعد ؟ اذا كنت تعوّل على اشراقة داخلية لتقرر ، فانت توشك ان تنتظر طويلاً . هل تتصور انني كنت مقتنعاً حين دخلت الحزب الشيوعي ؟ ان الاقتناع أمر يُصنع .
وابتسم ماتيو بحزن .
– أعرف ذلك جيداً : اركع فتؤمن . ربما كنت على حق . أما أنا فاريد أن اؤمن أولاً .
قال برونيه بنفاد صبر : – طبعاً . انكم كلكم متشابهون ، أنتم المثقفين : كل شيء يتحطم ، كل شيء ينهار ، البنادق ستنطلق من تلقاء نفسها وأنتم هنا هادئون ، تطلبون حقكم في أن تكونوا مقتنعين . آه ! ليتك كنت تستطيع ان ترى نفسك بعيني أنا ، اذاً لفهمت أن الزمن مستعجل .
– حسناً . الزمن مستعجل ، أجل ! وبعد ذلك ؟
وأرسل برونيه الى مؤخرته صفعة غيظ .
– ها نحن ذا ! انت تتصنع انك متأسف على شكك . ولكنك تحرص عليه . وتلك هي راحتك المعنوية : فما أن يهاجموها حتى تتشبث بها في شراسة ، كما يتشبث أخوك بماله .
وقال ماتيو بهدوء : – هل يبدو عليّ في هذه اللحظة انني شرس؟
قال برونيه : – انا لا اقول ذلك .
وساد صمت . وكان يظهر على برونيه انه قد رقّ ؛ وفكر ماتيو : ليته يستطيع ان يفهمني . وبذل جهداً : إن اقتناع برونيه هو الوسيلة

الوحيدة التي تبقى له لاقناع نفسه .

— ليس عندي ما ادافع عنه : فأنا لست فخوراً بحياتي ولا املك مالا ، حريتي ؟ . انها تثقل عليّ : فهذه سنوات تنقضي وأنا حر من أجل لا شيء . وانني أذوب رغبة في ان استبدلها بيقين . إنني لا أطلب أفضل من أن أعمل معكم، فهذا سيبدلني من نفسي ، وأنا بحاجة الى ان انسى نفسي قليلاً . ثم انني افكر مثلك بأن المرء لا يكون انساناً ما لم يجد شيئاً يقبل ان يموت من اجله .

وكان برونيه قد رفع رأسه فقال بما يشبه المرح : — واذن ؟

— اذن ! انت ترى : لا استطيع الالتزام ؛ فليست عندي اسباب كافية لذلك . انني احتج مثلك ضد الاشخاص أنفسهم ، وضد الاشياء نفسها ، ولكن ليس بما فيه الكفاية . انني لا استطيع في ذلك شيئاً . فاذا اخذت اجري في الاستعراض رافعاً قبضتي ، منشداً «الانترناسيونال» ، واذا صرحت لنفسي بأنني راضٍ مع ذلك ، فانما أكذب على نفسي .

وكان برونيه قد تلبّس من هيئاته أكثفها وأكثرها طابعاً فلاحياً، وكان يشبه بُرجاً . ونظر اليه ماتيو في يأس :

هل تفهمني يا برونيه ؟ قل لي هل تفهمني ؟

فقال برونيه : — لا ادري ان كنت أفهمك جيداً ، ومهما يكن من أمر ، فليس لك ان تبرر نفسك لأنه ليس ثمة من تتهمه . انك تحتفظ بنفسك لمناسبة افضل ، وهذا حق ، وأتمنى ان تأتي هذه المناسبة في اقــرب وقت ممكن .

— وانا اتمنى ذلك ايضاً .

ونظر اليه برونيه بفضول :

— هل انت متأكد من انك تتمنى ذلك ؟

— طبعاً ...

— طبعاً ؟ حسناً ، فليكن . غــير اني اخشى الا تأتي هذه المناسبة

سريعاً .

فقال ماتيو : — لقد قلت لنفسي هذا انا ايضاً . قلت لنفسي انها قد لا تأتي ابداً ، او ربما اتت بعد فوات الاوان . او ربما لم يكن هناك فرصة اصلاً .

— واذن ؟

— اذن ! في هذه الحالة سأكون شخصاً مسكيناً . هذا كل ما في الامر .

ونهض برونيه وهو يقول :

— هكذا ، هكذا اذن يا عزيزي . مهما يكن من امر فاني مسرور بأني قد رأيتك .

— انك لن تذهب ... لن تذهب هكذا . فان عندك دقيقة اخرى ، اليس كذلك !

ونظر برونيه الى ساعته : لقد تأخرت .

وساد صمت . وكان برونيه ينتظر بأدب . وفكر ماتيو : « يجب الا يذهب ، يجب ان احدثه » . ولكنه لم يكن يجد شيئاً يقوله له . وقال بسرعة :

— يجب الا تحقد عليّ .

فقال برونيه : — ولكني لست حاقداً عليك . انك لست مجبراً على ان تفكر مثلي .

قال ماتيو آسفاً : — ليس هذا صحيحاً . انني اعرفكم جيداً ، انتم الآخرين : فانتم تعتقدون ان المرء مجبر على التفكير مثلكم ، الا ان يكون قذراً . انك تعتبرني قذراً . ولكنك لا تريد ان تقول ذلك، لأنك تحكم ان الحالة ميئوس منها .

فابتسم برونيه ابتسامة خفيفة وقال :

— انني لا اعتبرك قذراً . كل ما هنالك انك اقل انفصالاً عن طبقتك

مما كنت اظن .

وفيما كان يتكلم ، كان يقترب من الباب . وقال له ماتيو :—لا يمكن لك ان تعرف كم أثر فيّ مجيئك لرؤيتي ومدّك يد المعونة اليّ ، لمجرد ان سحنتي كانت قذرة هذا الصباح . انت على حق لو تعلم ، فانا بحاجة الى مساعدة . غير اني اريد معونتك انت .. لا معونة كارل ماركس . اود لو أراك غالباً وأتحدث معك ، فهل هذا مستحيل ؟

فصرف برونيه عينيه وقال :

— اود ذلك كثيراً ، ولكني لا املك كثيراً من الوقت .

وفكر ماتيو : « طبعاً.لقد اشفق عليّ هذا الصباح فخيبت شفقته . وقد عدنا الآن فأصبحنا غريبين احدنا بالنسبة الى الآخر . فليس لي اي حق في وقته » . وقال بالرغم منه :

— أتراك لا تذكر يا برونيه ؟ لقد كنت خير اصدقائي .

وكان برونيه يلعب بمزلاج الباب :

— لماذا تظن اني جئت ؟ لو انك قبلت عرضي ، لكان بامكاننا ان نعمل معاً ...

وصمتا . وكان ماتيو يفكر : « انه مستعجل ، وهو يذوب رغبة في الذهاب . »

واضاف برونيه ، من غير ان ينظر اليه :

— اني ما زلت حريصاً عليك . حريصاً على سحنتك ، على يديك، على صوتك ، ثم ان هناك الذكريات بالرغم من كل شيء . ولكن هذا لا يغير شيئاً في القضية : ان اصدقائي الوحيدين الآن ، انما هم رفاق الحزب ، فان عندي مع هؤلاء ، عالماً مشتركاً برمته .

فسأله ماتيو : — وتظن انه ليس بيننا بعد اي شيء مشترك ؟

فرفع برونيه كتفيه من غير ان يجيب . وكان حسبه ان يقول كلمة، كلمه واحدة ، حتى يجد ماتيو كل شيء من جديد ، صداقة برونيه ،

واسباباً للحياة . وكان ذلك مغرياً كالنوم . وانتصب ماتيو فجأة وقال:

. — انني لا اريد ان احجزك . فتعال لتراني حين تجد الوقت .

قال برونيه : — بكل تأكيـــد . وانت اذا غيرت رأيك ، فأرسل لي كلمة .

قال ماتيو : — بكل تأكيد .

وكان برونيه قد فتح الباب . وابتسم ماتيو ومضى ، وفكر ماتيو: « لقد كان خير اصدقائي » .

لقد ذهب . كان يذرع الشوارع وهو يتمايل ويتهادى كأنه بحار ، فتصبح الشوارع حقيقية الواحد بعد الآخر . ولكن حقيقة الغرفة كانت قد اختفت معه . ونظر ماتيو الى اريكته الخضراء المفسدة والى كراسيه والى ستائره الخضراء وفكر : « انه لن يجلس بعد على كراسيّ ، ولن ينظر بعد الى ستائري وهو يلف سيكارة . » ولم تكن الغرفة بعد الا لطخة نور خضراء كانت ترتجف لدى مـــرور الاوتوبيسات . واقترب ماتيو من النافذة وارتفق حاجز الشرفة . وكان يفكر : لم يكن بوسعي ان اقبل . وكانت الغرفة خلفه كأنها ماء هاديء ، ولم يكن ثمـــة الا رأسه خارجاً من الماء ، كانت الغرفة المفسدة خلفـــه ، وكان واضعاً رأسه خارج الماء ، وكان ينظر في الشارع وهو يفكر : هل هذا حقيقيّ ؟ هل حقيقي انني لم اكن استطيع ان اقبل ؟ وفي البعيد ، كانت طفلة صغيرة تقفز بالحبل ، وكان الحبل يرتفع فوق رأسها كأنه عروة ويسوط الارض تحت قدميها . اصيل صيفي . وكان النور قد حطّ في الشارع وعلى السقوف ، متساوياً ، ثابتاً ، بارداً كأنه حقيقة أزلية . أصحيح اني لست الا قذراً ؟ ان الاريكة خضراء ، وحبل القفز يشبه عروة : هذا امر غير قابل للنقاش . ولكن حين تتعلق القضية بالناس ، فالنقاش ممكن دائماً ، لان كل ما يفعله يمكن ان يشرح نفسه،من فوق او من تحت ، حسب رغبتنا . لقد رفضت لأني اريد ان اظل حراً ؛ وهذا ما

استطيع قوله ، واستطيع ان اقول كذلك : انني قد اصبت بالكبد ؛ احب ستائري الخضراء ، احب ان استنشق الهواء مساء وانا على شرفتي . ولا اريد ان يتغير ذلك . انه يروق لي ان اغضب واغتاظ من الرأسمالية ولا اريد ان تلغى ، لأنه لا يبقى لي اسباب للغضب والغيظ ، فيروق لي ان أحسني مزدرياً ومتوحداً ، يروق لي ان اقول لا ، دائماً لا . وسيخيفني ان يحاولوا حقاً بناء عالم يمكن العيش فيه ، لانه لا يبقى لي آنذاك الا ان اقول نعم ، وان اعمل كما يعمل الآخرون. من فوق او من تحت ، من الذي يقرر ؟ لقد قرر برونيه . فهو يفكر بأني قذر ، وجاك ايضاً ، ودانيال ايضاً . لقد قرروا جميعاً انني قذر . ماتيو هذا المسكين ، انه هالك ، انه قذر . وماذا عساني استطيع ان اعمل انا ضدهم جميعاً ؟ يجب ان اقرر : ولكن ماذا أقرر ؟ حين قال الساعة لا ، كان يحسب نفسه صادقاً ، وكانت حماسة مرّة قد نهضت فجأة في قلبه . ولكن من كان يستطيع ان يحتفظ ، تحت هذا النور ، بأصغر جزء من الحماسة ؟ لقد كان نوراً لنهاية امل ، وكان يخلّد كل ما كان يلمسه . ان الطفلة الصغيرة ستقفز بالحبل الى الابد ، وسيرتفع الحبل ابداً فوق رأسها وسيسوط ابداً الرصيف تحت قدميها ، وسينظر اليها ماتيو الى الابد . ما جدوى القفز بالحبل ! ما جدواه ؟ ما جدوى ان يقرر المرء ، ان يكون حراً ؟ فتحت هذا النور نفسه ، في مدريد وفي فلنسيا ، كان بشرٌ قد وقفوا امام نوافذهم ينظرون الى الشوارع الخالية الابدية ويقولون : «ما النفع ؟ ما جدوى متابعة النضال ؟ » . دخل ماتيو الى غرفته ، ولكن النور تبعه اليها . اريكتي ، اثاثي . وكان على الطاولة مثقلةٌ للورق تشبه عقرباً . فأخذها ماتيو من ظهرها ، كما لو انها كانت حيّة . انها مثقلتي : ما النفع ؟ ما النفع ؟ وترك العقرب يسقط على الطاولة وقرر : انني شخص هالك .

٩

كانت الساعة السادسة ؛ وكان دانيال قد نظر الى نفسه في المـــرآة وهو خارج من مكتبه ففكّر : « الامر يعود من جديد . » وأحسّ بالخوف . وسلك شارع « ريومور » : كان بوســع المرء ان يختبىء فيه ، فانه لم يكن الا قاعة كبيرة ذات سماء مفتوحة ، قاعـــة خطى ضائعة . وكان المساء قد أفرغ البنايات التجارية التي كانت تملأ جانبيه ؛ فعلى الأقل ، لم يكن هنـــاك ما يغري بتخيّل امور صميميـــة خلف زجاجها الأسود . وكان نظر دانيال يتسرّب متحرّراً بين هذه الأجراف المثقوبة حتى بركـــة السماء الوردية المنتنة التي كانت تحبسها عنـــد الأفق .

ولم يكن الاختباء يسيراً الى هذا الحدّ ، بل كان حتى بالنسبة لشارع ريومور أجلى مما ينبغي ؛ لقد كانت الفتيات الفارعات المزّينات اللواتي يخرجن من المحلات يرمينه بنظرات جريئة ، فكان يُحسّ بجسده ويقول بين اسنانه : « القذرات » . كـــان يخشى ان يشمّ رائحتهن : إن رائحة المرأة تنبعث مهما حرصت على ان تغسل نفسها ومن حسن الحظ ان النساء كنّ هناك نادرات ، فان هذا الشارع لم يكن رغم كل شيء شارعاً للنساء ، ولم يكن الرجال يهتمون به ، اذ كانوا يقرأون صحفهم

وهم سائرون ، او يفركــون بحركات ضجرة زجــاج نظاراتهم او يضحكون في الفراغ باندهاش . وكان جمهوراً حقيقياً بالرغم من انه كان منتثراً قليلاً ، وكان يسير ببطء ، فيخيّل ان قدراً جماهــيرياً ثقيلاً يسحقه . وانسجم دانيال مع هذا الصفّ البطيء ، واستعار من هؤلاء البشر بسمتهم المستنيمة وقدرهم الغامض المهدّد ، فضاع : لم يبقَ بعدُ فيه الاّ صوتُ وابلٍ أصمّ ، ولم يعُدْ الا شاطئاً من النوز المنسيّ :

« سأصل ابكر مما ينبغي الى بيت مارسيل ، ولدي الوقت لأسير قليلاً . »

وانتصب متصلباً حذراً : لقد وجد نفسه من جديـــد ، ولم يكن يستطيع ان يضيع نفسه بعيداً جداً : « لدي الوقت لأسير قليلاً . » وكان هذا يعني : سأقوم بجولة في السوق الخيرية ، وكان قد مضى وقت طويل لم يكن دانيال ينجح فيه بأن يخدع نفسه . وما جدوى هذا في الحق ؟ لقد كان يريد ان يذهب الى السوق الخيريــة ؟ حسناً ، سيذهب . سيذهب لأنه لم تكن لديه ادنى رغبة في ان يمتنع عن ذلك : هذا الصباح ؛ القطط ، زيارة ماتيو ، وبعد هذا اربع ساعـــات من العمل الكريه ، وهذا المساء مارسيل ، إن هذا غير محتمل ، فبوسعي ان اعوّض عن نفسي قليلاً .

مارسيل ، كانت مستنقعاً . كانت تستسلم ساعات طويلة للوعــظ والإرشاد ، وكانت تقول : نعم ، نعم ، دائماً نعم ، وكانت الافكار تغوص في رأسهــا ، فاذا هي غير موجــودة الا في الظاهر . من المستحسن ان يتسلى المرء لحظة مع الأغنياء ؛ فيمدّ لهم الحبل ليرتفعوا في الاجواء هائلين ذوي خفّة كفيلة مصنوعة من أحشاء الخراف ؛ فاذا شُدّ على الحبل عادوا يعومــون على مستوى الأرض وقد جنّوا وذعروا ، ورقصوا لكل هزّة من الخيط في وثبـــات ثقيلة ، ولكن

ينبغي غالباً تغيير الأغبياء ، وإلا ادى ذلك الى الاشمئزاز . ثم إن مارسيل كانت الآن فاسدة ؛ وسيكون الجو في غرفتها غير محتمل . إن المرء لا يستطيع الامتناع ، حين يدخل غرفتها عادة ، عن الاشمئزاز . لم يكن ثمة رائحة شيء ، ولكن المرء لم يكن واثقاً من شيء ، فهو يحتفظ طوال الوقت بالقلق في أعماق رئتيه ، وهذا ما يؤدي غالباً الى الربو . سأذهب الى السوق الحبرية . ولم تكن ثمة حاجة الى كل هذا الاعتذار فان الأمر كله بريء : كان يريد ان يراقب حركات العمات وهن يصطدن . لقد كانت سوق جادة سباستبول الحبرية مشهورة في نوعها ، فهناك أغرى « دورا » مراقب المالية الفتاة الصغيرة القذرة التي قتلته . اما السوقة الذين كانوا يتسكعون امام آلات الدراهم بانتظار الزبون ، فقد كانوا اظرف كثيراً من زملائهم في مونبارناس : لقد كانوا ألسنة سوء للمناسبات ، او افظاظاً صغاراً غير مهذبين ، متوحشين وسوقة ، ذوي اصوات مبحوحة وحركات خفية مغلّفة ، يسعون الى ربح عشرة فرنكات ووجبة عشاء . ثم كان هناك ايضاً « المحوونون » الذين كانوا يميتون ضحكاً برقتهم ونعومتهم وأصواتهم التي تشبه العسل ، وما في انظارهم من خفقان وتواضع وشرود . ولم يكن دانيـــال يستطيع ان يتحمل خضوعهم . فقد كانوا يظهرون دائماً بمظهر المذنبين . وكانت تأخذه الرغبة في ضربهم ، فاننا نرغب في ضرب انسان يحكم على نفسه بنفسه لنزيد في ارهاقه ونحطم الف قطعة ما بقي له من كرامة . وكانت عادته ان يستند الى جذع ويحـــدق فيهم بينما هم يتبخترون تحت اعين عشاقهم الشباب ، تلك الاعين الناعسة الماجنة . وكان المحوونون يظنونه حامياً لاحد الفتيان . وكان يفسد عليهم كل لذتهم . واخذت دانيـــال عجلة مفاجئة ، فحث خطاه : « سوف نضحك ! » وكانت حنجرته جافة . وكان الهواء الجاف يحرق ما حوله . ولم يكن ليرى شيئاً بعد ، كانت ثمة لطخة امام عينيه ، ذكرى نور كثيف اصفر ، وكان هذا

النور البغيض يدفعه ويجذبه في وقت واحد ، وكان محتاجاً الى ان يراه، ولكنه كان ما يزال بعيداً ، يعوم بين جدران واطئة ، كـأنه رائحة كهف . وتلاشى شارع ريومور ، ولم يكن باقياً امامه الا مسافة ذات عقبات ، هي الناس : وكان ذلك يُشعر بالكابوس . غير ان دانيال لم يكن يستطيع قط ، في الكوابيس الحقيقية ، ان يبلغ نهاية الشارع . وانعطف الى جادة سيباستبول وقد تكلّس تحت السماء المشرقة ، وتباطأ في مشيته . سوق خيرية : لقد رأى اللافتة ، وتأكد من انه لم يكن يعرف وجوه المارة ، فدخل .

كان ممراً طويلاً ضيقاً مغبراً ، ذا جدران مطوية باللون الاسمر وقبح قاس ورائحة مستودع خمر . وانفجر دانيال في النور الاصفر الذي كان اشد حزناً ولزوجة مما هو في العادة ، وكان اشراق النهار يركنه في جوف القاعة ؛ وفي عيني دانيال كان ذلك نور دوار البحر : كان يذكّره بتلك الليلة التي قضاها مريضاً على باخرة بالرمو : فقد كان في غرفة الآلات الخالية ضباب اصفر مشابه جداً ، كان يحلم بـه احياناً فيستيقظ منتفضاً ، سعيداً بأن يجد الظلمات من جديد . وكانت الساعات التي يقضيها في السوق الخيرية تبدو له موقّعة بضربات صماء تصدر عن اذرعٍ دافعة . وكانت قد أُسندت الى الجدران علب ضخمة على اربعة ارجلٍ ، وكانت تلك هي الالعاب . وكان دانيال يعرفها جميعاً : لاعبو كرة القدم ، ستة عشر تمثالاً خشبياً صغيراً ، مشكوكة على قضبان طويلة من النحاس ، ولاعبو البولو ، وسيارة الحديد الابيض التي كان يجب اركاضها على طريق من القماش ، من بيوت وحقول ، والقطط الصغيرة السود الخمس على السقف ، في ضوء القمر ، التي كانت تقتل بخمس طلقات من مسدس ، والبندقية الكهربائية ، وآلات توزيع الشوكولا والعطور . وفي جوف القاعة ، كانت ثلاثة صفوف من « الكينراما »، وكانت عناوين الافلام تنفصل في حروف ضخمة

سود : الزوجان الشابان ، الخادمات الفاجرات ، الحمّام الشمسي ، ليلة الزواج المستمرة . وكان سيد ذو نظارة قد اقترب خفيةً من احدى هذه الآلات، فأدخل عشرين فلساً في الشق ، وألصق عينية بعجلة خرقاء على بلور الميكا . وكان دانيال يختنق: كان هذا الغبار ، وهذه الحرارة، ثم انهم اخذوا يضربون ضربات كبيرة ، ذات اوقات منتظمة ، فيما وراء الجدار . والى اليسار رأى المصيدة : كان شبان يلبسون ثيـــاباً متواضعة قد تجمعوا حول الملاكم الزنجي ، وهو تمثال ذو مترين كان يضع في وسط بطنه وسادة من جلد وساعة . وكانوا اربعة ، واحـــد اشقر ، الشعر ، وآخر احمره ، واسمران ، وكانوا قد نزعوا ستراتهم وشمّروا عن اكمامهم وكانوا يضربون بأذرعتهم الهزيـــلة عـــلى الوسادة كأنهم صمّ . وكان عقرب على الساعة يشير الى قوة قبضاتهم. وراحوا ينظرون الى دانيال نظرات خفية ، ثم اخـــذوا يضربون ضرباً اشد . ووسّع دانيال عينيه ليظهر لهم انهم كانوا مخطئين بالعنوان ثم اولاهم ظهره ، والى اليمين بالقرب من الصندوق ، رأى في الظل شاباً طويلاً ذا خدين رماديين ، كان يرتدي ثوباً مدعوكاً كله ، وقميصاً للنـــوم وحذاء من قماش . ولم يكن بالتأكيد ممحوناً كالآخرين! والواقع انه كان يبدو عليه انه لا يعرفه . وقد دخل هناك بالمصادفة – وان دانيـــال ليقسم على ذلك – وكان يبدو مستغرقاً في تأمل آلة رافعة . وبعـــد لحظة ، اقترب بلا ضجة يجذبه من غير شك المصباح الكهربائي والكوداك اللذان كانا قائمين خلف الزجـــاج فوق ركام من الملبّس ، وأدخل بخبث قطعة نقدية في شق الآلة ثم ابتعد قليلاً ، وبدا انه يسقط من جديد في تأمله ، وكان يلامس طرفي انفه باصبعٍ مفكّر . وأحسّ دانيال بأن رعشة معهودة كانت تجري على رقبته وفكر : « إنه يحب نفسه جيداً ، يحب ان يلامس نفسه . » وكان هؤلاء اكثر الجميـــع جاذبية وأوفرهم روائية : اولئك الذين كانت ادنى حركة منهم تكشف

عن دلال غير واعٍ ، وعن حب للنفس عميق ملبَّد . وأخذ الشاب يدي الآلة بحركة حيّة وراح يحركها ببراعة . واستدارت الآلة الرافعة على نفسها بحركة دوامية وارتجافات شيخية . فكانت المكنة كلّها تهتزّ منها . وكان دانيال يتمنى له ان يربح المصباح الكهربائي ، ولكنّ نافذةً بصقت مابّساً مختلف الألوان يشبه مظهر الفاصوليا البخيل المحدود. ولم يبد الشاب خائباً ، وبحث في جيبه وأخرج قطعة نقود اخرى . وقرر دانيال « انها آخر دراهمه ، وهو لم يأكل منذ أمس . » وكان ينبغي الا يقرر ذلك . كان ينبغي الا يستسلم فيتصوّر خلف هذا الجسم الهزيل الساحر ، المشغول بنفسه ، حياةً غامضة من الحرمانات، والحرية والأمل . ليس اليوم . وليس هنا ، في هذا الجحيم ، تحت هذا النور الكئيب ، ومع هذه الضربات الصمّاء التي يُضرب بها الجدار ، لقد عاهدت نفسي ان اصمد . ومع ذلك كان دانيال يدرك تماماً ان احدى هذه الآلات يمكن ان تشرق الانسان . فيفقد فيها ماله شيئاً فشيئاً ويعود الى تجربة حظه مرة ومرة ، وقد جفّ حلقه من الدوار والغضب: لقد كان دانيال يفهم جميع الدوارات . وأخذت الآلة الرافعة تدور بحركات حذرة متكررة : وكان يبدو على هذه الآلة المنكّلة انها راضية عن نفسها . وأخذ دانيال الخوف : كان قد تقدم خطوة الى الامام ، وكان يذوب رغبة في وضع يده على ذراع الشاب — وكان قد بدأ فعلاً يُحسّ ملمس القماش الخشن المنتوف — وفي ان يقول له : « كفاك لعباً . » وكان الكابوس يوشك ان يعود ، بهذا المذاق من الأزلية ومن « التام — تام » المنتصر، من الجهة الاخرى من الجدار ؛ وكان بحاجة الى ايام وليالٍ ليخرج من هذا المستنقع من الحزن المتطامن الذي كان يصعد فيه ، هذا الحزن اللامتناهي المألوف الذي كان يوشك ان يغمر كل شيء . ولكن رجلاً دخل ، فتحرّر دانيال : لقد نهض وحسب انه سينفجر ضحكاً ، وفكّر : « هوذا الرجل » ؛ وكان تائهاً بعض

الشيء ، ولكنه كان مسروراً مع ذلك لأنه صمد . /

وتقدم الرجل في نزق ، وكان يسير وهو يطوي ركبتيه ، متصلّب القامة ، مَرِنَ الساقين . وفكّر دانيال : « انت ؟ أنك تلبس مشدّاً . » وكان عمره يقدر بالخمسين ، وكان قد حلق ذقنه منذ وقت قريب ، وكان ذا وجه متفهّم يبدو ان الحيــاة قد دلّلته بحب ، وبشرة خمرية تحت شعر ابيض ، وانف فلورنسي جميل، ونظرٍ اقسى قليلاً وأحسر مما ينبغي : نظر المناسبة . وكان لدخوله تأثير : فقــد انفتل السوقة الاربعة ، وهم يتكلّفون المنظر نفسه من البراءة الفاسدة ، ثم عــادوا يرسلون قبضاتهم في بطن الجندي التمثال ولكن من غير حماسة . وترك الرجل نظره يحط قليلا عليهم في تحفظ لم تكن القسوة بعيدةً عنه ، ثم انفتل واقترب من لعبة كرة القدم. وأدار القضبان الحديدية وتفحّص التماثيل في جدٍ باسم ، كما لو انه كان يسلّيه هو ذاتــه الهوس الذي اقتاده الى هناً. ورأى دانيال هذه البسمة فتلقّى ضربة زيفٍ في صدره، واستفظع جميع هذه التصنّعات والاكاذيب ، وأخذته الرغبة في الفرار. ولكن ذلك لم يدم الا لحظة : كانت اندفاعة بلا عاقبة ، وكان معتاداً على ذلك . واستند الى جذع وأخذ يحدِج الرجل بنظر ثقيــل . والى يمينه ، كان الشاب الذي يرتدي قميصَ النوم قد سحب من جيبه قطعة نقود ثالثة ، وكان يستأنف للمرة الثالثة رقصته الصغيرة الصامتة حول الآلة الرافعة .

وانحنى الرجل الجميل عل اللعبة وأمرّ سبابته عــلى اجسام اللاعبين الصغار : لم يكن يريد الانحطاط الى تقديم المغريات ، ولا ريب انــه كان يعتبر نفسه ، بشعره الابيض وثيابه الفاتحة ، قطعة حلوى لذيذة لذة كافية لاجتذاب جميع هــذا الذباب الفتيّ . والواقع ان الصغير الاشقر ، بعد لحظات من المشاورة ، انفصل عن الفرقة ، وكان قــد رمى سترته على كتفيه من غير ان يرتديها، واخذ يقترب من «الممحون»

متهادياً ، ويداه في جيبيه . وكان يبدو عليه الخوف والترقّب ، وكان نظره ، تحت حاجبيه الكثيفين نظر كلب . وتأمل دانيــال في اشمئزاز ردفه السمين وخديه الكبيرين الفلاّحين اللذين كانت لحية صغيرة قــد بدأت تلطّخهما . وفكر : « لحم امرأة وهو يُفرك كعجين الخبز . » سوف يقوده الرجل الى بيته ، فيغسله وينظفه بالصابون ، وربما عطره . واذ بلغ دانيال هذه الفكرة عاد اليه غضبه فتمتّم « قذرون ! » وكان الشاب قد توقف على بضع خطى من الرجــل الكهل واخــذ يصطنع بدوره ان يتفحص الآلة . وكان كلاهما منحنياً فوق القضبان يحدجها ، من غير ان ينظر الى الآخر ، في مظهر اهتمام . وبعد ذلك ، بدا على الشاب انه يتخذ قراراً نهائياً : فقبض على زر وأدار احد القضبان على نفسه في سرعة ، فرسم اربعةُ لاعبين صغــار نصف دائرة ثم توقفوا ورؤوسهم منخفضة .

وسأل الرجل بصوت يشبه معجون اللوز :

— هل تحسن اللعبة ؟ اوه ! هل تريد ان تشرح لي ؟ إنــني لا أفهم !

— تضع عشرين فلساً ثم تسحب ، فتأتيك الــكرة ، ويجب ان ترسلها الى الثقب .

— ولكن يجب ان يلعب اثنان ، اليس كذلك ؟ انني احاول ان ارسل الــكرة الى الهدف ، وانت ، عليك ان تمنعني من ذلك ؟

فقال الشاب : — طبعاً (واضاف بعد لحظة) يجب ان نكون على الطرفين ، هنا واحد ، وهناك واحد .

— اتريد ان تلعب معي دوراً ؟

فقال الشاب : — بكل ترحيب .

ولعبا . وقال الرجل بصوت مرتفع :

— ولكن ما ابرع هذا الشاب ! كيف تراك تفعل حتى تربــح

طوال الوقت ؟ علّمني .

فقال الشاب بتواضع : — إنها العادة .

— آه ! انت تتدرّب ! انك تأتي الى هنا غالباً ، بلا شك ؟ اما انا ، فيتفق لي ان امرّ فأدخل ، غير اني لم التق بك قط . ولو التقيت بك للاحظتك ، اجل كنت لاحظتك ، فانا عالم بالفراسة ، وان لك وجهاً يثير الاهتمام . هل انت من « تورين » ؟

فقال الشاب منزعجاً : — نعم ، نعم ، بالتاكيد .

وكف الرجل عن اللعب واقترب منه ، فقال الشاب بسذاجة :

— ولكن الدور لم ينته . فان امامك خمس كرات بعد.

فقال الرجل : — نعم ! اذن ، سنلعب عما قليل . انني افضّل ان اتكلم قليلاً ان كان ذلك لا يضايقك .

فابتسم الشاب ابتسامة مدروسة . واضطر الرجل الى ان يستدير على نفسه ليلحق به . ورفع رأسه وهو يمرّ لسانه على شفتيه الرقيقتين ، فالتقى بنظر دانيال . فكشر دانيال . وصرف الرجل عينه بسرعة ، وبدا حائراً ، ففرك يديه فيما بينهما بحركة كاهن . ولم يكن الشاب قد رأى شيئاً ، وكان فاغر الفم ، فارغ النظر ، ممتلاً ، ينتظر ان يوجّه اليه الكلام . وساد صمت ثم اخذ الرجل يحدّثه في عذوبة، من غير ان ينظر اليه ، بصوت مخنوق . واجهد دانيال نفسه في الانصات ، فلم يسمع الا كلمتي « فيلا » و « بايار » وهز الشاب رأسه في اقتناع ، وقال بصوت مرتفع :

— لا بد انه من النيكل !

فلم يجب الرجل ورمى بنظره سريعاً تجاه دانيال . وكان دانيال يحس بأن غضباً جافاً ولذيذاً كان يدفئه . وكان يعرف جميع طقوس الذهاب : سوف يودع احدهما الآخر ، فيذهب الرجل اولاً ، بخطوة عجلى . ويعود الفتى الى رفاقه بلا مبالاة فيضرب بطن الزنجي التمثال

ضربة او ضربتين ، ثم يمضي بدوره بعــد تحيات رخوة ، وهو يجرجر قدميه . وكان ينبغي ان يُتبع هــو بالذات . ويكون العجوز يذرع الطريق المجاورة ، فيرى فجأة دانيال في اعقاب الشاب الجميل . ويا لها من لحظة ! لقد كان دانيال يستمتع بها مقدماً ، فيلتهم بعينيه وجه فريسته الرقيق التعب ، وترتجف يداه ، وتكون سعادته كاملة لولا ان يكون حلقه جافاً وأنه يكاد يموت من العطش . فاذا كان يجد فرصة مناسبة مارس عمل شرطة الاخلاق : وقــد كان بوسعه دائماً ان يأخذ اسم الكهل ويخضعه لذعر شديد : « فاذا طلب مني بطــاقة التفتيش فسوف أريه بطاقة السير الممنوحة لي من المحافظة »

قال صوت خجول : — مرحباً يا سيد لاليك .

وانتفض دانيال : لقد كان لاليك اسماً حربياً يتخذه لنفسه احياناً .

والتفت فجأة وقال بقسوة :

— ماذا تفعل هنا ؟ لقد منعتك من ان تضع قدمك في هذا المكان.

انه بوبـي . وكان دانيال قد وظفــه لدى صيدلي . وقــد سمن وترهل ، وكان يرتدي بذلة جميلة ، ولم يكن يثير الاهتمام بعد على الاطلاق . وكان بوبـي قد احنى رأسه على كتفه مقلداً الطفل : وكان ينظر الى دانيال من غير ان يجيبه ببسمة بريئة حذقة كما لو انه قال : « كوكو : هأنذا . » وقد دفعت هذه البسمة بغضب دانيال الى ذروته، فسأله :

— هل ستتكلم ؟

فقال الفتى بصوته المسترخي :

— انني ابحث عنك منذ ثلاثة ايام ، ولست اعرف عنوانك . وقلت لنفسي : ان السيد دانيال سيأتي ذات يوم ليقوم بدورته الصغيرة...

« ذات يوم ! يا للقذارة الوقحة ! » لقد كان يسمح لنفسه ان يحكم على دانيال ، وان يقوم بتنبؤاته الصغيرة : « هو يتصور انــه

يعرفني ، وأن بوسعه ان يناور علي . » ولم يكن ثمة ما يُفعل: الا ان يُسحق كالبزاق : لقد كانت صورةٌ لدانيال متكيّسة هناك ، تحت هذا الجبين الضيق ، وستبقى فيه دائماً . وكان دانيال ، بالرغم من نفوره ، يشعر انه متضامن مع هذا الأثر الرخي الحي : انما كان هو نفسه الذي يعيش هكذا في ضمير بوبي .

وقال : — انك قبيح ! لقد سمنت ، ثم ان هذه البذلة لا تنسجم معك ، فمن اين التقطتها ؟ انه لمريعٌ كم يبدو ابتذالك واضحاً حين ترتدي ثياب الاحد !

ولم يبد على بوبي الانفعال . كان ينظر الى دانيال مباعداً ما بين عينيه بلطافة وهو دائم الابتسام . وكان دانيال يحتقر هذا الصبر الجامد ، الذي يشبه صبر الفقير ، وتلك الابتسامة المائعة اللزجة المطاطية: فحتّى لو مزقت هذه الشفاه بالأظافر ، لظلت تلك الابتسامة دامية على الفم . وألقى دانيال نظرة سريعة نحو الرجل الجميل فرأى في غيظ انه كان هادئاً غير منزعج : كان منحنياً فوق الشاب الاشقر يشم شعره وهو يضحك بجذل . وفكر دانيال في غضب : « كان هذا متوقعاً . انه يراني مع هذا الممحون فيظنني زميلاً له ، فهأنذا ملطّخ » وكان يكره روح المساعدة هذه المبولية . « انهم يتصورون ان جميع الناس ينتمون اليها . على اي حال ، افضّل ان اقتل نفسي على ان اشبه هذا الممحون ! »

وسأل بوحشية : — ماذا تريد ؟ إنني مستعجل ، ثم ارجع قليلاً الى الوراء ، فان رائحة « البريانتين » التي تتصاعد منك تفغم الانف!

فقال بوبي في بطء : — اعذرني ، لقد كنت مستنداً هناك الى العمود ، ولم يكن يبدو عليك انك مستعجل قط ، ولهذا سمحت لنفسي ...

فقال دانيال وقد انفجر ضاحكاً :

– اوه ! ولكن الحقيقة انك تحسن الكلام ، فهل تراك اشتريت لساناً مصنوعاً في الوقت الذي اشتريت فيه بذلتك المصنوعة ؟

وانزلقت هذه السخرية على بوبي : وكان قد قلب رأسه وراح ينظر الى السقف نظرة شهوة متواضعة عبر جفنيه المغمضين . « لقد راق لي لأنه كان يشبه قطة . » ولم يستطع دانيال ، اذ فكر بهذا ، ان يكبت انتفاضة غضب : أجل ! ذات يوم ! لقد راق له بوبي ذات يوم ! فهل كان هذا يكسبه حقوقاً مدى العمر ؟

وكان الرجل الكهل قد اخذ يد صديقه الشاب واحتفظ بها بين يديه بحركة ابوية . ثم حيّاه وهو يربت على خده ، ورمى بنظرة ضالعة الى دانيال ومضى في خطى واسعة راقصة . ومد له دانيال لسانه ، ولكن كان قد اولاه ظهره . واخذ بوبي يضحك .

وسأل دانيال : – ماذا دهاك ؟

فقال بوبي : – ذلك انك مددت لسانك للعجوز (واضاف بلهجة ناعمة) : « انك لا تتغير يا سيد دانيال ، وشيطنتك هي نفسها . »

وقال دانيال مذعوراً : – كفى ! (واخذه شك فسأله) وصيدليّك ؟ هل تركته ؟

فقال بوبي في لهجة شاكية : – لم يؤاتني الحظ عنده .

فنظر اليه دانيال في اشمئزاز :

– غير انك مع ذلك قد سمنت .

وخرج الشاب القصير الأشقر من السوق الخيرية بلا اكتراث ، فلامس دانيال وهو يمر . وما لبث رفاقه الثلاثة ان تبعوه ، وراحوا يتزاحمون وهم يضحكون بأصوات عالية . وفكر دانيال : ماذا افعل هنا ؟ » وبحث بعينيه عن كتفي الشاب صاحب قميص النوم ، وعن رقبته الهزيلة ، وقال بشرود :

– هيا ، تكلم ، ماذا فعلت له ؟ هل سرقته ؟

فقال بوبي : — بل ان السبب هو زوجة الصيدلي . انها لم تكن تطيقني .

وكان الشاب ذو قميص النوم قد خرج . واحس دانيال بأنه ضجر وخفيف ، وكان يخشى ان يجد نفسه وحيداً مرة اخرى . وتابع بوبي :

— لقد غضبت لأني كنت ارى رالف .

— لقد حذرتك بألا تعاشر رالف بعد . انه سارق قذر !

فسأله بوبي بغيظ : — اذن يجب التخلي عن الاصدقاء بمجرد ان يواتينا الحظ ؟ لقد كنت اراه اقل من السابق ، ولكني لم اكن اريد التخلي عنه دفعة واحدة . كانت تقول : « انه سارق ، وانا امنعه من ان يضع قدميه في صيدليتي » . ماذا تريد ، انها امرأة لئيمة . ولهذا كنت اراه في الخارج حتى لا تقبض عليّ . ولكن حدث ان المتمرن رآنا معاً . يا للعكروت القذر ، اعتقد ان عنده بعض الميول ... في البدء ، حين كنت هناك ، كان يلاطفني جداً ، فكيف اجرؤ على ان أصدّق ؟ فاذا به يقول لي : سوف اقبض عليك ! ودخل الى الصيدلية فسرد كل شيء ، وقال انه رآنا معاً ، واننا كنا في وضع سيء ، وان الناس كانوا يلتفتون الينا فقالت المعلمة : ماذا قلت لك ؟ اني امنعك من رؤيته والا فلن تبقى عندنا . وقلت لها : اسمعي يا سيدتي : انت التي تأمرين حين اكون في الصيدلية، اما حين اكون خارجاً فليس لديك ما تقولينه . وهكذا كان !

كانت السوق الحيرية خالية ، من الجهة الاخرى للجدار . وكان الطَّرق قد كفّ . ونهضت امينة الصندوق ، وكانت شقراء سمينة ، فمضت بخطى بطيئة الى بائع للعطور ، فنظرت الى نفسها في المرآة وهي تبتسم . ودقت الساعة السابعة . وردد بوبي في انبساط :

— في الصيدلية ، انت التي تأمرين ، اما حين اكون خارجاً فليس

لديك ما تقولينه .
وانتفض دانيال وسأله بطرف شفتيه :
– وهكذا طردوك ؟
فقال بوبي برصانة : – بل انا الذي ذهبت ، وانا اقول : افضّل ان ارحل . وتصور انه لم يكن باقياً معي فلس واحد ! انهم لم يريدوا ان يدفعوا ما استحق ، ولكن طز : انني هكذا . ابيت لدى رالف ، وانام بعد الظهر ، لأنه يستقبل في المساء امرأة مشهورة له علاقة بها . انني لم آكل منذ امس الأول .
ونظر الى دانيال نظرةً ملامسة :
– وقد قلت في نفسي : سأحاول مع ذلك ان أرى السيد لاليك ، فهو سيفهمني .
فقال دانيال :
– انك ابله صغير . فأنت لا تثير اهتمامي بعد . انني ابذل جهداً كبيراً لأجد لك عملاً فتجعلهم يطردونك بعد شهر . وبعد ذلك ، لا تتصور اني اصدق نصف ما تقوله لي . انت تكذب كخالع الضرس .
فقال بوبي : – إسأل ، وسترى ان كنت لا اقول الحقيقة .
– أسأل من ؟
– امرأة الصيدلي .
فقال دانيال : – سوف أتفادى ذلك جيداً حتى لا اسمع القصص . ثم اني لا استطيع شيئاً من اجلك .
واحس بالاسترخاء ففكر : « يجب ان اذهب » ولكن ساقيه كانتا مخدرتين .
وقال بوبي بلهجة مجردة :
– لقد فكرنا ، انا ورالف بأن نشتغل . وكنا نريد ان نعمل لحسابنا .

– صحيح ؟ وانت آت تطلب مني ان اسلفك مالاً لنفقاتك الأولى ؟ احتفظ بهذه القصص لآخرين . كم تريد ؟

فقال بوبي بصوت مبتل : – انك شخص لطيف يا سيد لاليك . والحق اني كنت اقول لرالف في هذا الصباح بالذات : لألتقِ بالسيد لاليك ، وسترى انه لن يتركني في المغطس .

وردد دانيال : – كم تريد ؟

واخذ بوبي يتلوى وهو يقول : – يعني ، لو كنت تستطيع ان تدينني ، أتسمع : تدينني ؟ فسوف اردها لك في آخر الشهر الأول .

– كم ؟

– مئة فرنك .

فقال دانيال : – خذ ، هذه خمسون فرنكاً ، وانا اهبك اياها . ولكن اختفِ الآن !

ووضع بوبي الورقة في جيبه من غير ان يقول كلمة ، وبقي احدهما تجاه الآخر ، مترددين .

وقال دانيال برخاوة : « اذهب » وكان جسمه كله من القطن .

فقال بوبي : « شكراً يا سيد لاليك » وخطا خطوة زائفة ، ثم عاد على اعقابه ، واستطرد يقول :

– اذا اردت احياناً ان تتحدث الي او الى رالف ، فنحن نسكن في الجوار ، ٦ شارع الاورس ، الطابق السابع . وانت مخطىء في حق رالف ، فهو ، لو كنت تعلم ، يحبك كثيراً .

– إذهب .

فابتعد بوبي متراجعاً ، وهو ما يزال يبتسم ، ثم استدار على نفسه ومضى . واقترب دانيال من الآلة الرافعة ونظر اليها . وكان الى جانب الكوداك والمصباح الكهربائي نظارة مزدوجة لم يلاحظها من قبل قط . وادخل قطعة من عشرين فلساً في الشق وادار الأزرار كيفما اتفق ،

فاسقطت الآلة ملاقطها على سرير الملبّس وأخذت تقشره بصورة غريبة. والتقط دانيال خمس ملبسات او ستاً في جوف يده وأكلها .

كانت الشمس تعلّق بعض الذهب على البنايات الكبيرة السوداء ، وكانت السماء ملأى بالذهب ولكن ظلاً مائعاً عذباً كان يصعد من الرصيف ، وكان الناس يبتسمون لمداعبات الظل . وكان دانيال على عطش جهنمي ، ولكنه لم يكن يريد ان يشرب : مُتْ ! مُت عطشاً ! وفكر : « مهما يكن من امر ، فاني لم افعل شيئاً سيئاً . » ولكن ذلك كان اسوأ : لقد استسلم للشر يلامسه ، وكان قد سمح لنفسه بكل شيء ، الا ارواء الغليل ، بل هو لم يجرؤ حتّى على ارواء الغليل . وها هو ذا الآن يحمل هذا الشر في نفسه كدغدغة حية ، من اعلى جسده حتى اسفله ، لقد كان منتناً ، وكان لا يزال لديه بعد ذلك المذاق الأصفر في عينيه ، كانت عيناه تجعلان كل شيء اصفر . لقد كان افضل لو قتل نفسه لذةً وقتل الشر في نفسه. صحيح ان هذا الشر كان يولد دائماً من جديد . والتفت فجأة وهو يفكر : « انه جدير بان يتبعني ليرى اين اسكن ، واني اود لو يتبعني حتّى اركله ركلة شديدة في وسط الشارع ! » ولكن بوبي لم يكن ليظهر . لقد ربح الآن نهاره ، فعاد الى المنزل . منزل رالف ، ٦ شارع الاورس . وانتفض دانيال : « ليتني استطيع ان انسى هذا العنوان ! ليته يتأتى لي ان انسى هذا العنوان . »

وكان الناس يثرثرون حوله ، آمنين مع انفسهم. وقال رجل لزوجته : « هيه ! ولكن هذا يرجع عهده الى ما قبل الحرب . عام ١٩١٢ . لا ١٩١٣ . كنت ما ازال لدى بول لوكاس . » السلام . سلام الشجعان ، الشرفاء ، ذوي الارادة الصادقة . ولماذا تكون ارادتهم هي الصادقة ، لا ارادتي ؟ لم يكن في اليد حيلة ، فكذلك كانت الامور. شيء ما في هذه السماء ، في هذا النور ، في هذه الطبيعة ، قد قررت

ذلك كذلك . وكانوا يعرفون هذا، يعرفون انهم كانوا على حق، وان الله ، لو كان موجوداً ، لكان في جانبهم. ونظر دانيال الى وجوههم: كم كانوا قساة ، بالرغم من استسلامهم . وكان حسبهم اشارة حتى يرتموا عليه ويمزقوه . وستكون السماء والنور والأشجار والطبيعة كلها على وفاق معه ، كشأنها دائماً : فقد كان دانيال انساناً ذا ارادة سيئة .

وكان ثمة بواب على عتبة بابه ، سمين ممتقع ، ذوكتفين منبسطتين ؛ يستنشق الهواء . ورآه دانيال من بعيد ، ففكر : هوذا « الخير » . وكان البواب جالساً على كرسي ويداه على بطنه ، كأنه بوذا ، ينظر إلى الناس يمرون ، ويقرهم بين لحظة واخرى بايماءة من رأسه . وفكر دانيال في حسد : « لو كنت هذا الشخص ! » لا بد انه كان قلباً فاضلاً ، والى جانب ذلك ، شديد الحساسية بالقوى الطبيعية الكبرى ، الحرارة والبرد والنور والرطوبة . وتوقف دانيال : لقد سحرته هذه الجفون الطويلة البليدة ، وهذا الخبث المتكلف على خدية الممتلئتين . انه يتوحش ويخبل حتى لا يكون بعد الا هذا ، حتى لا يبقى في رأسه الا عجينة بيضاء مع عطر يسير يشبه عطر معجون الحلاقة . وفكر : « انه ينام الليل بطوله » . ولم يكن يدري بعد ان كانت به رغبة في قتله ، أم في التسلل الى دفء هذه الروح المنظمة .

ورفع الرجل السمين رأسه ، فاستعاد دانيال سيره : « ان بوسعي ان اؤمل دائماً ، اذا استمرت هذه الحياة التي اسوقها ، بأن اصبح في اقرب وقت ممكن بليد الذهن ، ضعيف الادراك . »

ألقى نظرة استياء الى محفظته : لم يكن يحب ان يحملها في ذراعه ، فان ذلك كان يعطيه هيئة المحامي ، ولكن استياءه سرعان ما تلاشى ، لأنه تذكر انه لم يحملها من غير قصد ؛ بل انها ستكون مفيدة له الى حد بعيد . ولم يكن يخفي عن نفسه انه يتعرض للمخاطر ، ولكنه كان هادئاً بارداً منتعشاً بكل بساطة . « اذا وصلت طرف الرصيف في ثلاث

عشرة خطوة ... » وخطا ثلاث عشرة خطوة وتوقف جامداً على طرف الرصيف ، ولكن الخطوة الاخيرة كانت اوسع من سائر الخطى بوضوح ، اذ انه كان ينفسح كأنه خبير بالمسايفة : « والحق انه ليس لذلك اية أهمية ، فالقضية على كل حال في المحفظة . » ومـا كان لذلك ان يخطيء ، فانه امرٌ علميّ ، بل ان المرء ليتساءل كيف لم يخطر لأحد ان يفكر من قبل . وفكر في قسوة : « ان الأمر هو ان السارقين اغبياء . » وعبر الرصيف ووضّح فكرته : « فقد كان عليهم منـذ زمن طويل ان ينظّموا انفسهم في نقابة ، كالمشعوذين . » جمعيـةٌ لتطبيق الاساليب التكنيكية تطبيقاً مشتركاً ولاستغلالها ، ذلك مـا كان ينقصهم . على ان يكون لهم مقر اجتماعي ، ورتبة شرف ، وتقاليـد ومكتبة . وآلة للسينما ايضاً ، وافلام تفكّك ببطء الحركات الصعبة . وكل اتقان جديد يُصوَّر ، وتُسجل النظرية عـلى اسطوانات وتحمل اسم مخترعها ؛ وكل شيء يُصنّف في فئة ؛ فيكون هناك مثلاً سرقـة الاشياء المعروفة بالطريقة ذات الرقم ١٦٧٣ او بطريقة «سرغين» المسماة ايضاً بيضة كريستوف كولومب (لأنها سهلة جداً ولكن يجب ايجادها) وان بوريس مستعدّ لتصوير فيلم صغير توضيحيّ . وفكّر : «آه ! وبعد ذلك دروس مجانية عن علم نفس السرقة ، فهذا امرٌ لا بد منه . » وكانت طريقته تعتمد كل الاعتماد على علم النفس . ونظر برضى الى مقهى صغير ذي طابق واحد ، ولونه اصفر ، ولاحظ فجأة انه كان في وسط جادة اورليان . وكان غريباً ان يبدو الناس على مثل هـذا اللطف والقرب من القلب ، في جادة اورليان ، بين السابعة والسابعة والنصف مساء . ولا شك ان للنور أثراً كبيراً في الموضوع ، اذ كان « شاشاً » أحمر رائعاً ، وكان لطيفاً ان يوجد المرء في آخر باريس بالقرب من باب ، والشوارع تجري تحت قدميه نحو وسط المدينـة التجاري العتيق ، نحو الاسواق ، نحو ازقّة حيّ سانت انطوان المظلمة ،

حيث يشعر بأنه منغمر في منفى المساء والضواحي ، ذلك المنفى الديني الرقيق . لقد كان الناس يبدون وكأنهم خرجوا الى الشارع ليكونوا معاً ، فهم لا يغضبون حين يُدفعون ، بل يمكن الظنّ بأن هذا يسرّهم . ثم انهم ينظرون الى الواجهات باعجاب بريء مجرّد تماماً . وفي جادة سان ميشال ينظر الناس ايضاً الى الواجهات ، ولكن بنيّـة الشراء . وصمّم بوريس في حماسة « سأجيء الى هنا كل مساء » . وفي الصيف القادم ، سيستأجر غرفة في احد هذه البيوت ذات الطوابق الثلاثة التي كانت تبدو كأنها توائم وتذكّر بثورة ٤٨ . ولكن اذا كانت النوافذ ضيقة الى هذا الحد ، فاني اتساءل كيف كانت النساء تعمل لإخراج الفروش والقائها على الجنود . وكانت النوافذ محاطة كلها بسواد الدخان فكأنما لحستها نيران حريق ؛ ولم يكن هذا منظراً حزيناً ، فـان هذه الواجهات الكالحة المثقوبة بثقوب صغيرة سوداء تشبه فرجات سماء عاصفة تحت السماء الزرقاء ، واني انظر الى النوافذ ، ولو كـان بوسعي ان اصعد الى سقف هذا المقهى ، لرأيت الخزائن ذات المرايا وسط غرف تشبه بحيرات عمودية ؛ والجمع يمرّ عبر جسمي ، وافكر في حرَسٍ بلدي ، وفي ابواب « باليه — رويال » المذهّبة ، يوم ١٤ تموز ، ولست ادري لماذا افكر في ذلك : وفكر فجأة : « ماذا اتى يفعـل عند ماتيو ذلك الشيوعي ؟ » لم يكن بوريس يحب الشيوعيين ، فهم أرصن مما ينبغي . ولا سيما برونيه ، فكأنه البـابا ، وفكر بوريس مقهقهاً « لقد طردني ... الحيوان ، طردني » ثم أخذته فجأة الرغبة في ان يكون شريراً ، كأنها ريح سموم صغيرة في رأسه : « لعـل ماتيو لاحظ انه منخدعٌ على طول الخط ، ففكر في دخـول الحزب الشيوعي . » وتسلى لحظة في تعداد العواقب التي لا تحصى لمثل هـذا الانضواء . ولكنه شعر فجأة بالخوف فتوقّف . ان ماتيو لم ينخدع بكل تأكيد ، فان هذا سيكون خطيراً جداً ، الآن وقد التزم بوريس :

ففي صف الفلسفة احس ّ بود ّ غريب للشيوعية ، ولكن ماتيو صرفه عنها . وهو يشرح له ما هي الحرية . وكان بوريس قد فهم على الفور : يجب على المرء ان يفعل كل ما يريد ، وان يفكر بكل ما يبدو التفكير فيه حسناً ، والا يكون مسؤولاً الا امام نفسه ، والا يكف لحظة عن وضع كل ما يفكر به ، وكل الناس ، موضع الامتحان . وكان بوريس قد بنى حياته على هذا ، وكان حر ّاً بصورة دقيقة : وكان خصوصاً يضع جميع الناس موضع الامتحان ، باستثناء ماتيو وايفيش ؛ فقد كان لا جدوى من وضعهما كذلك ، بالنظر الى انهما كانا كاملين . وأما الحرية ، فلم يكن كذلك حسناً ان يتساءل المرء عنها ، لأنه يكف آنذاك عن ان يكون حراً . وحك بوريس رأسه في تململ ، وتساءل من اين تأتيه هذه الدفعات التي كانت تأخذه بين الفينة والفينة ؟ لتحطيم كل شيء وفكر في دهشة لذيذة : « ربما كنت في حقيقتي ذا مزاج قلق . » لأن ماتيو ، اذا نظرنا الى الامور ببرودة ، لم يكن منخدعاً ، فقد كان هذا امراً مستحيلاً : لم يكن ماتيو ذلك الشخص الذي ينخدع . واغتبط بوريس ، وجعل يؤرجح محفظته بجذل في ذراعه . وتساءل ايضاً اذا كان اخلاقياً ان يكون المرء ذا شخصية قلقة، فرأى لذلك حسنات وسيئات ، ولكنه امتنع عن ان يذهب بتقديراته الى ابعد من هذا ؛ سوف يستشير في ذلك ماتيو . كان بوريس يجد شائناً ان يفكر شخص في مثل سنه تفكيراً مستقلاً بنفسه . وقد سبق له ان رأى كثيراً من هؤلاء الخبثاء المزيفين في السوربون ، الذين كانت لهم دائماً نظرية خاصة محفوظة ، وكان ينتهي بهم الامر عادة الى الافلاس ، بطريقة او بأخرى ، وكانت نظرياتهم من غير هذا بشعة ، مقرنة . وكان بوريس يستفظع كل ما يدعو الى الهزؤ ، ولم يكن يريد ان يفلس ، ويؤثر ان يصمت ويُعتبر رأساً فارغاً ، فقد كان هذا أقل تكديراً . سيكون الامر فيما بعد ، طبعاً ، شيئاً آخر ؛ اما الآن ،

فهو يلجأ الى ماتيو الذي كانت تلك مهمته . ثم انه كان يغتبط دائماً اذ يرى ماتيو يأخذ في التفكير : كان ماتيو يحمّر ، وينظر الى اصابعه، ويتلعثم قليلاً ، ولكن ذلك كان عملاً طيباً وأنيقاً . وكانت تَرِدُ لبوريس ، بين حين وآخر ، فكرة صغيرة بالرغم منه ، فكان يجهد حتى لا يلاحظ ماتيو ذلك ، ولكن اذا حدث ان لاحظ هـذا اللئيم ذلك قال له : « ان في رأسك شيئاً » ثم يرهقه بالأسئلة . ويقع بوريس في العذاب ، ويحاول مئة مرة ان يغير وجهة الحديث ، ولكن ماتيو كان عنيداً كالقمل؛ وينتهي الامر ببوريس الى ان يلفظ الفكرة وينظر الى ما بين قدميه ، فيكون اسوأ ما في الامر ان ماتيو كان آنذاك يوسعه احتقاراً ويقول له بعد ذلك : « ان هذا سخيف جداً ، وانت تفكر كالحمقى . » كما لو ان بوريس ادعى انه عثر عـلى فكرة عبقرية . وردّد بوريس مقهقهاً « اللئيم ! » وتوقف امام مرآة صيدلية جميلة حمراء وتأمل صورته في غير ما تحيُّز . وفكر « انـني انسان متواضع » وألفى نفسه قريباً الى القلب . وصعد الى الميزان الآلي ووزن نفسه ليرى اذا كان قد سَمن منذ عشية الامس . وأضاءت كرة حمراء وأحدثت الآلة حركات متحشرجة ، ثم تلقى بوريس تذكرة من الكرتون : سبعة وخمسين كيلو وخمسمئة . وأخذته لحظة رعب ، وفكر : « لقد زدت خمسمئة غرام » ولكنه لاحظ بسرور انه كان ما يزال يحمـل المحفظة في يده . ونزل عن الميزان ، واستأنف سيره . سبعة وخمسون كيلو بالنسبة لطول متر وثلاثة وسبعين : هذا امر طيب . وكان مزاجه رقيقاً جداً ، وكان يشعر انه مخمليّ برمته في داخله . وفي الخارج ، كانت ثمة تلك الكآبة الدقيقة لذلك اليوم المسنّ الذي كان يسودّ رويداً حوله ويلامسه بضوئه الاحمر وعطوره الملأى بالأسف . ذلك النهار ، ذلك البحر الاستوائي الذي كان ينسحب مخلفاً إياه وحده تحت سمـاء مصفرّة ، كان هو ايضاً مرحلة ، مرحلة صغيرة . إن الليل قادم ،

وسوف يذهب الى « سومطرا » وسيرى ماتيو ، وسيرى ايفيش وسيرقص.
وعما قليل ، عند الرزّة التي تفصل بين النهار والليل ، ستكون تلك السرقة الرائعة. وانتصب وحث الخطى : ينبغي ان يكون متنبهاً كل التنبه ، ، بسبب هؤلاء الاشخاص الذين لا يبدو عليهم شيء ، بينما يقلّبون صفحات الكتب بجد ، وليسوا هم الا من رجال التحري . وكانت مكتبة « غاربور » تستخدم ستة منهم ، وكان بوريس قد حصل على هذه المعلومات من « بيكار » الذي امتهن هذه المهنة ثلاثة ايام حين سقط في شهادة علم الارض ، فاضطر الى ذلك بعد ان قطع عنه ذووه المؤن ؛ ولكنه ما لبث ان ترك هذه المهنة مشمئزاً . انه لم يكن عليه فحسب ان يتجسس على الزبائن كالديك المبتذل ، بل لقد أُعطي الأوامر بأن يترصد السذّج ، لابسي النظارات مثلاً ، الذين كانوا يقتربون بحياء من مكان العرض ، وان يثب عليهم فجأة متهماً إياهم بأنهم كانوا يريدون ان يختلسوا كتاباً ويخفوه في جيوبهم . وكان المساكين ينحلّون بطبيعة الحال ، فكانوا يقتادونهم الى جوف ممر طويل في مكتب صغير مظلم ، حيث كانوا يسلبونهم مئة فرنك تحت التهديد بالملاحقة القانونية . وأحسّ بوريس بأنه ثمل : سوف ينتقم لهم جميعاً ؛ فانهم لن يأخذوه ، هو ؛ وفكر : « ان معظم الناس يسيئون الدفاع عن انفسهم ؛ فمن مئة شخص يسرقون ، ثمانون يرتجلون ارتجالاً . » اما هو ، فلم يكن ليرتجل ، صحيح انه لم يكن يعرف كل شيء. ولكن ما يعرفه قد درسه دراسة منهجية ، لأنه كان قد فكر دائماً بأن الانسان الذي يعمل برأسه لا بد ان يملك فوق ذلك مهنةً يدوية ليظل على اتصال بالحقيقة . وحتى الآن ، لم يكن قد افاد اية افادة مادية من مشاريعه : فليس شيئاً هاماً ان يملك ست عشرة فرشاة اسنان ، وعشرين منفضة سجاير ، وموصلة ، ومنفخ نار ، وبيضة للرتي . وكانت الصعوبة التكنيكية هي ما كان يأخذه بعين الاعتبار في كل حالة . فقد كان

افضل ، كما حدث في الاسبوع الماضي ، ان يختلس علبة صغيرة من سوس « البلاكوبيد » تحت نظر الصيدلي ، على ان يسرق محفظة نقود جلدية من حانوت خالٍ . ان فائدة السرقة شيء معنوي كلياً ؛ ومن هذه الناحية ، كان بوريس على وفاق تام مع الاسبرطيين القدامى، فهذه عملية تقشف . ثم انه كانت هناك لحظة متعة ، هي حين يقول المرء لنفسه : سأعدّ حتى الخمسة ، وعند الخمسة يجب ان تكون فرشاة الأسنان في جيبي ؛ انه يشعر بانقباض في حلقه ، وباحساس هائل من الصفاء والقوة . وابتسم : سوف يُدخل على مبادئه استثناء ؛ فللمرة الاولى ، ستكون الفائدة هي دافع السرقة ؛ فبعد نصف ساعة على الاغلب ، سيمتلك هذه الجوهرة ، هذا الكنز الذي لا غنى عنه : « تيزوروس هذا ! » قال في نفسه بصوت منخفض لأنه كان يحب كلمة « تيزوروس » التي كانت تذكّره بالقرون الوسطى ، وأبيلارد ، وبفارست وأحزمة الطهارة التي كانت تُرى في متحف « كلوني » . « سوف يكون لي ، فأستطيع ان أتصفحه كل ساعة من النهار ، بينما كان ، حتى هذه اللحظة ، مضطراً الى تقليب اوراقه حيث هو معروض، وبسرعة ، فضلاً عن ان الصفحات لم تكن مقصوصة ؛ فلم يستطع غالباً ان يقتبس الا معلومات ناقصة . سوف يضعه ، في هذا المساء بالذات ، على طاولة سريره ، وحين يستيقظ في اليوم التالي ، ستكون نظرته الاولى له ؛ وقال في انزعاج : « آه ! ، كلا ! سأنام لدى لولا هذا المساء . » مهما يكن من امر ، فسيحمله الى مكتبة السوربون ، وسيقطع بين فترة وأخرى عمل المراجعة ، ليلقي عليه نظرة عجلى تسلّيه : وتعاهد مع نفسه ان يحفظ عبارة او ربما عبارتين كل يوم ، وسيساوي ذلك في ستة اشهر ستة في ثلاثة ثمانية عشر مضروبة باثنين : ثلاثمئة وستين ، فاذا اضاف اليها الخمسمئة او الستمئة التي يعرفها ، اصبح ذلك في حدود الالف ، وهذا ما كان يسمى معرفة متوسطة

طيبة ، واجتاز جادة راسباي وسلك شارع دانفير – روشيرو بشيء من الاستياء . كان شارع دانفير – روشيرو يضجره كثيراً ، وربما كان ذلك بسبب اشجار الكستناء ؛ مهما يكن من امر ، فهو مكان اجرد، باستثناء مصبغة سوداء ذات ستائر حمر باون الدم تتدلى بصورة مزرية كخصلتين مسلوختين . والقى بوريس نظرة ود الى المصبغة ، حين ألمّ بها ، ثم انغمر في صمت الشارع الاشقر المميّز . شارع ؟ انه لم يكن الا ثقباً ذا بيوت على الجانبين . وفكر بوريس : « نعم ، ولكن المترو يمر من تحته » واستمد من هذه الفكرة بعض العزاء ، وتمثل لدقيقة او دقيقتين انه كان يسير على قشرة رقيقة من الزفت لعلها ستنهار . وقال بوريس في نفسه : « يجب ان اروي هذا لماتيو ، فسوف يسيل له لعابه ! » لا . وصعد الدم فجأة الى وجهه ، انه لن يروي شيئاً على الاطلاق . بلى ، سيروي ذلك لإيفيش : لقد كانت تفهمه ، واذا كانت هي نفسها لا تسرق ، فلأنها لم تكن موهوبة . وسيروي القصة ايضاً للولا ، ليجعلها تغرغر من الضحك . اما ماتيو ، فلم يكن صريحاً في موضوع هذه السرقات . كان يقهقه برفق حين كان بوريس يحدثه عنها ، ولكن بوريس لم يكن على ثقة بأنه سيقرّها . كان يتساءل مثلاً عن المآخذ التي يمكن لماتيو ان يأخذها عليه . ان ذلك كان يثير جنون لولا ، ولكن هذا كان طبيعياً ، فهي لم تكن تستطيع ان تفهم بعض الدقائق ، لا سيما وانها كانت بخيلة بعض الشيء . كانت تقول له : « لن تتورع عن سرقة امك ، ولا بد ان تسرقني يوماً . » وكان يجيب : « هيه ! هيه ! لو اتيح لي ذلك لما قلت لا ! » وبالطبع ، لم يكن جاداً في ذلك : ان المرء لا يسرق اصدقاءه الصميميين ، فان هذا ايسر من ان يعمل، وانما كان يجيب بهذا الجواب بدافع الانزعاج: لقد كان يكره هذه الطريقة التي تلجأ اليها لولا لترد كل شيء الى نفسها . اما ماتيو ... أجل ماتيو ، فلم يكن يُفهم من موقفه شيء .

ما كان عساه ان يأخذ على السرقة ، ما دامت تنفّذ وفق القواعد ؟ فقد تبرم بوريس بضع لحظات من توبيخ ماتيو الصامت ، ثم هز رأسه وقال في نفسه : « ان هذا ظريف ! » فبعد خمس سنوات ، او سبع ، ستكون له افكاره هو ، فتبدو له افكار ماتيو مثيرة للعطف ومسنّة ، وسيكون آنذاك حكّمَ نفسه : « ما يدريني اننا سنتقابل بعد ؟ » ولم تكن لدى بوريس اية رغبة في ان يأتي ذلك اليوم ، وكان يلفي نفسه سعيداً للغاية ، ولكنه كان عاقلا ، وكان يدري انها ضرورة : كان لا بد من ان يتغير ، وان يخلّف وراءه ركاماً من الاشياء والناس ، وهو لم يُجعل بعد ذلك . لقد كان ماتيو مرحلة ، شأنه شأن اولا ، وفي اللحظات التي كان بوريس يكنّ له فيها من الاعجاب اعظم الدرجات ، كان يجد ان في ذلك الاعجاب شيئاً موقتاً يتيح له ان يكون مولعاً بلا ذلّ . لقد كان ماتيو افضل ما يمكن ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يتغير في الوقت نفسه الذي يتغير فيه بوريس ، بل لم يكن يستطيع ان يتغير قط ، لأنه كان اكمل من ان يتغير . وأظلمت نفس بوريس لهـذه الافكار فسرّه ان يصل الى ساحة ادمون روستان : كان يروق له دائماً ان يجتازها بسبب الاوتوبيسات التي كانت تقفز اليك بثقل ، كأنها أدياك رومية كبيرة ، والتي كان ينبغي تفاديها بالتوّ ، ولم يكن ذلك بأكثر من دفع الصدر الى الوراء . « المهم ألا يكونوا قد جاءتهم الفكرة بادخال الكتاب اليوم بالذات . » وعند زاوية شارع « مسيو لوبرنس» وجادة سان ميشال ، توقف لحظة ؛ كان يريد ان يكبت نفاد صبره ، فلم يكن من الحكمة ان يصل محمّر الوجنتين من فرط الامل ، وعيناه عينا ذئب . كان من خطته ان يعمل ببرودة . وفرض على نفسه ان يظل جامداً امام حانوت بائع للمظلات والسكاكين ، وان ينظر بانتظام الى البضائع المعروضة ، واحدة بعد الاخرى ، الى مظلات النساء القصيرة الخضراء والحمراء ، والمزينة ، والى المظلات ذات الايدي العاجية التي

كانت تمثل رؤوس كلاب ... كل ذلك كان حزين المنظر حتى ليبعث على البكاء ، وبالاضافة الى هذا ، اوقف بوريس فكره على الاشخاص المسنّين الذين كانوا يأتون لشراء هذه الحاجيات . وكان يوشك ان يبلغ حالة تصميم باردة وبلا جذل ، حين رأى فجأة شيئاً عاد فأغرقه في التهلل ؛ وتمتم « سكّين » وكانت يداه ترتجفان . وكان سكيناً حقيقياً ذا شفرة سميكة وطويلة ، ومحزّ شديد ، ويد من قرن اسود، وكان انيقاً يشبه الهلال ، وكان على الشفرة لطختا صدأ ، فكأنهما دم . وأنّ بوريس قائلاً : « اوه ! » وهو يتلوى من الرغبة . وكان السكين مفتوحاً ، موضوعاً على قطعة خشب مبرنقة : بين مظلتين ، ونظر بوريس اليه طويلاً ، ففقد العالم من حوله الوانه ، وكل ما لم يكن بريق هذه الشفرة البارد ، فقد في عينيه قيمته ، وكان يريد ان يتخلى عن كل شيء ، فيدخل الحانوت ، ويشتري السكين ويفر الى اي مكان ، كأنه سارق ، وهو يحمل غنيمة . وقال في نفسه : « سيعلّمني « بيكار » على قذفه . » ولكن حس واجباته الدقيق ما لبث ان تغلب : « سأشتريه بعد حين ، بعد حين لأكافيء نفسي اذا نجحت في ضربتي ! »

وكانت مكتبة « غاربوز » تقوم عند ملتقى شارع فوجيرار وجادة سان ميشال ، وكان لها مدخل من كل شارع ، وهذا ما كان يخدم مقاصد بوريس . وكانت قد وُضعت امام الحانوت ست طاولات طويلة محمّلة بالكتب التي كان معظمها كتباً مستعملة . ولاحظ بوريس من طرف عينه رجلاً ذا شارب احمر كان غالباً ما يجول في تلك النواحي، وكان يرتاب في ان يكون « ممحوناً » ، ثم اقترب من الطاولة الثالثة، وكان الكتاب هناك ، ضخماً ، بل من الضخامة بحيث فقد بوريس شجاعته ، سبعمئة صفحة من الحجم الكبير ، اوراق مطبوعة بحرف نافر ، سميكة كالاصبع الصغير . وقال في نفسه بشيء من الارهاق :

« يجب ان أُدخل هذا في حقيبتي » ولـكن كان حسبه ان ينظر الى العنوان المذهب الذي كان يلتمع بعذوبة على الغلاف ليحس بأن شجاعته تولد من جديد : « قاموس تاريخي واشتقاقي للغة السوقة واللغات العامية منذ القرن الرابع عشر حتى القرن المعاصر . » وردد بوريس في نشوة: « تاريخي ! » ولمس بطرف اصبعه الغلاف في حركة اليفـة ورقيقة ليستعيد اتصاله به ، وفكر في اعجاب : « ليس هـذا كتاباً ولكنه قطعة اثاث . ولا ريب في ان الرجل ذا الشارب كان قد التفت اليـه يترصده من ظهره . وكان ينبغي ان يبدأ التمثيلية فيقلّب الاوراق ويتخذ مظهره الشارد المتردد الذي يستسلم آخر الأمر . وفتح بوريس القاموس كيفما اتفق وقرأ احد التعريفات . ولم تكن الصفحات التالية مقطوعة . فترك بوريس القراءة وأخذ يضحك وحده وهو يردد عبارة قرأها ، ثم استعاد جدّه فجأة واخذ يعد : « واحد ! اثنان ! ثلاثة ! اربعة !» بينما كانت فرحة قاسية ونقية تزيد خفق صدره .

وأحس بيد تحطُّ على كتفه ، ففكر : « لقد أُخذت ، ولكنهم تصرفوا بأسرع مما ينبغي . انهم لا يستطيعون ان يثبتوا شيئاً ضدي . . » والتفت ببطء ورباطة . وكان الرجل دانيال سورينو ، احـد اصدقاء ماتيو . وكان بوريس قد رآه مرتين او ثلاثاً ، وكان يجده رائعاً ، فقد كان مثلاً يبدو قاسياً . وقال سورينو :

ـ مرحباً ، ما الذي تقرأه ؟ يبدو عليك انك مسحور .

لم يكن يبدو قاسياً على الاطلاق ، ولكن يجب الاحتراس : بل هو في الحقيقة يبدو لطيفاً اكثر مما ينبغي ، فلا بد انه كان يعد ضربة قذرة . ثم انه كان قد فاجأ بوريس وهو يتصفح هذا القاموس السوقي. فكأنه تقصّد ذلك ، ولا بد من ان يصل هذا الخبر الى مسمع ماتيو الذي سيسخر منه بصخب . وأجاب بلهجة متضايقة :

ـ لقد توقفت ، بينما انا مارٌ من هنا .

وابتسم سورينو ، وتناول المجلّد بكلتا يديه ورفعه حتى عينيه ، ولا بد انه كان حسير النظر بعض الشيء ، وأعجب بوريس بما كان في حركته من يسر : فان الذين كانوا يتصفحون الكتب عادة يحرصون على ابقائها فوق الطاولة ، خوفاً من رجال التحري الخصوصيين . ولكن كان بديهياً ان سورينو كان يعتقد كل شي مسموحاً به . وتمتم بوريس بصوت مخنوق وهو يصطنع اللامبالاة :

ـ انه كتاب يثير الفضول ...

فلم يُجب سورينو ، وكان يبدو مستغرقاً في القراءة ، فاغتاظ بوريس وأخضعه لامتحان قاس . ولكن كان لا بد له من ان يعترف ، بدافع من شرف التفكير ، بأن سورينو كان انيقاً الى حد الكمال . والحق انه كان في هذه البذلة من التويد الوردي تقريباً ، وفي هذا القميص من الكتان ، وفي هذه الربطة الصفراء ، جرأةٌ محسوبة تصــدم بوريس قليلاً . كان بوريس يحب الأناقة الساذجة والمهملة بعض الشيء. ومهما يكن من امر ، فان المجموع كان غير قابل للانتقاد ، وبالرغم من انه طري كالزبدة الطازجة . وانفجر سورينو ضاحكاً ؛ وكانت له ضحكة حارة رائقة ، ثم ان بوريس وجده قريباً الى القلب لأنه كان يفتح فمه على سعته وهو يضحك . وقال سورينو :

ـ « ان يكون من الرجل ! » ان يكون من الرجل ! هذه لقطة، سأفيد منها في المناسبات ! « ان يكون من الرجل ، اي ان يكون لوطياً » .

ووضع المجلد على الطاولة وسأل :

ـ هل انت من الرجل ، يا سرغين ؟

فقال بوريس ، منقطع النفس : ـ انني ...

قال سورينو : ـ لا يحمر وجهك (وأحس بوريس انـه اصبح قرمزي اللون) وثق بأن هذه الفكرة لم تخطر على بالي قط . انني

أعرف من عساهم يكونون « من الرجل » .. (لا شك في ان العبارة كانت تروق له كثيراً) – فان لحركاتهم استدارة رخية لا تخطئها العين ، اما انت ، فاني ألاحظك منذ فترة فتسحرني حركاتك : انها حية وجميلة ، ولكنها ذات زوايا . فلا بد انك حاذق جداً .

وكان بوريس يصغي الى سورينو بتنبه : فمن المهم دائماً ان تستمع الى من يشرح لك بأي عين يراك . ثم انه كان لسورينو صوت يلذ سماعه. فان عينيه مثلاً كانتا مزعجتين : للوهلة الاولى ، يُظن انهما مليئتان بالحنان ، ولكن اذا امعنا فيهما النظر ، اكتشفنا فيهما شيئاً قاسياً ، يكاد يكون هوساً . وفكر بوريس : « انه يحاول ان يمزح معي » فتذرع بالحذر . وقد كان بوده لو يسأل سورينو عما كان يعنيه بـ « الحركات ذات الزوايا » ولكنه لم يجرؤ ، وفكر بأن من الافضل التكلم بأدنى حد ممكن ، ثم انه كان يحس تحت هذا النظر المليح عذوبة غريبة حائرة تولد فيه ، فكانت تأخذه الرغبة في ان ينتفض ويضرب الارض بقدميه ليزيل هذا الدوار من العذوبة . ولفت رأسه ، فكانت لحظة صمت شاقة . وفكر بوريس باستسلام : « سوف يعتبرني حيواناً » . وقال سورينو :

– أظن انك تدرس الفلسفة ؟

وكان سعيداً ان يجد حجة لقطع الصمت . ولكن ساعة السوربون في تلك اللحظة دقت دقة فتوقف بوريس ، وقد جلّده الذعر . وفكر في قلق « الثامنة والربع . اذا لم يذهب فوراً ، فاتت الفرصة . » فقد كانت مكتبة « غاربور » تغلق في الثامنة والنصف . ولم يكن يبدو على سورينو اية رغبة في الذهاب . وقال :

– اعترف لك بأني لا افهم شيئاً في الفلسفة . اما انت ، فلا بد انك تفهم طبعاً ...

فقال بوريس وهو يتمزق : – لا ادري ، افهم قليلاً .

وكان يفكر : لا شك في اني ابدو قليل التهذيب . ولــكن لماذا تراه لا يذهب ؟ والحق ان ماتيو كان قد اخبره بأن سورينو كان يظهر دائماً في وقت غير مناسب ، فتلك كانت قطعة من طبيعته الشيطانية .
وقال سورينو :
ـ أتصور انك تحب الفلسفة .
فقال بوريس وقد احس بأنه يحمر للمرة الثانية : ـ نعم .
وكان يحتقر ان يتحدث عما كان يحب : فذلك كان امراً وقحاً . وكان لديه شعورٌ بأن سورينو يدرك ذلك ويتقصّد ان يظهر قليل التحفظ.
ونظر اليه سورينو نظرة تنبُّه نافذ :
ـ ولماذا ؟
فقال بوريس : ـ لا ادري .
وكان هذا صحيحاً : انه لم يكن يدري . ومع ذلك فقد كان يحب الفلسفة حباً شديداً ، حتى « كانت » . وابتسم سورينو قائلاً :
ـ على الاقل ، يرى الانسان ان هذا ليس حباً من الذاكرة .
فانتفض بوريس ، وأضاف سورينو بحماسة :
ـ اني امزح . والواقع اني اجد انك محظوظ . لقد درست انا الفلسفة كالجميع ، ولكنهم لم يعرفوا ان يحببوني بهــا ... واتصور ان دولارو هو الذي نفرني منها : فهو اذكى من ان يستطيع فهمه . وقد كنت اطلب منه احياناً بعض الشروح ، ولكن ما كان يبدأ في تقديمها حتى اكفّ عن فهم اي شيء ؛ بل كان يخيل الي اني لم اكن افهم بعد سؤالي !
وجُرح بوريس بهذه اللهجة الهازئة ، وارتاب في ان يكون سورينو راغباً في حمله بصورة غير مباشرة على ان يقول سوءاً عن ماتيو لمجرد الرغبة في ان ينقل اليه ذلك . واعجبه سورينو ان يكون قاسياً بهــذه الصورة المجانية ، ولكنه ثار وقال بجفاء :

— ان ماتيو يشرح الامور شرحاً جيداً جداً .
فانفجر سورينو ضاحكاً ، وعضّ بوريس على شفتيه :
— ولكني لا اشك في ذلك لحظة . غير اننا صديقان قديمان جداً ، وأتصوّر بأنه يحتفظ بمزاياه التربوية للشبان . فهو يختار عادة تلاميذه من بين طلابه .
فقال بوريس : — انني لست تلميذه .
فقال دانيال : — لم اكن افكر فيك . فأنت لا تبدو عليك هيئة التلميذ . وانما كنت افكر في « هورتيغير » ، ذلك الاشقر الطويل الذي سافر في العام الماضي الى الهند الصينية . ولا بد انك سمعت من يتكلم عنه : فمنذ عامين ، كان شغوفاً به تماماً ، وكان الناس يرونهما دائماً معاً .
وكن لا بد لبوريس من الاعتراف بأن الضربة قد نجحت ، فازداد اعجابه بسورينو ، ولكنه ودّ مع ذلك لو يوجّه قبضته الى سحنته . وقال :
— لقد حدثني ماتيو عن ذلك .
وكان يحتقر هورتيغير هذا الذي عرفه ماتيو قبله . وكان ماتيو يتخذ احياناً مظهر الغموض حين كان بوريس يأتي للقائه في « الدوم » وكان يقول « يجب ان اكتب لهورتيغير » وبعد ذلك ، يظل لحظة طويلة حالماً مجتهداً كجندي يكتب الى بلدته ، وكان يرسم دوائر في الهواء فوق ورقة بيضاء ، بواسطة ريشة قلمه . وكان بوريس ينصرف الى العمل الى جانبه ، ولكنه كان يحتقره . ولم يكن طبعاً يغار من هورتيغير ، فقد كان يكنّ له على العكس شفقة ممزوجة بشيء من النفور (والواقع انه لم يكن يعرف عنه شيئاً ، باستثناء صورة كانت تمثله كفتى طويل سيء الحظ يرتدي بنطلوناً من الغولف ، وموضوع فلسفي سخيف الى ابعد حد كان ملقىّ على طاولة ماتيو) غير انه لم يكن

يريد بأي ثمن ان يعامله ماتيو فيما بعد كما كان يعامل هورتيغير . وقد كان يؤثر ان ينقطع عن رؤية ماتيو اذا تصوره يقول ذات يوم بلهجة اهتمام وضجر امام فيلسوف شاب : « آه ! علي الآن ان اكتب لسرغين ! » . كان حسبه بأن يقبل بألا يكون ماتيو إلا مرحلة في حياته ، وكان هذا شاقاً بحد ذاته — ولكنه لم يكن يطيق ان يكون مرحلة في حياة ماتيو .

وكان يبدو على سورينو انه عازم على الاقامة هناك . وكان يستند الى الطاولة بكلتا يديه ، في وضع لامبالٍ ومستريح ، وأضاف :

— آسف كثيراً بأن اكون جاهلاً في هذا الميدان. فان الذين درسوا الفلسفة قد أفادوا منها ، على ما يبدو ، مباهج كثيرة .

فلم يُجب بوريس ، وقال سورينو :

— كنت بحاجة الى مدرب . الى شخص مثلك : شخص ليس بارعاً اكثر مما ينبغي ، ولكنه في الوقت نفسه جادّ .

وضحك كأنما مرت برأسه فكرة زائفة :

— قل لي .. سيكون مسلياً ان آخذ دروساً معك ...

فنظر اليه بوريس بحذر . لا بد ان هذا شَرَك . إنه لم يكن يتصور نفسه اطلاقاً وهو يعطي دروساً لسورينو الذي كان ولا بد اذكى منه والذي لا شكّ في انه سيطرح عليه طائفة من الاسئلة المربكة ، وعند ذلك سيختنق من الخجل . وفكر في استسلام بارد بأن الساعة لا بد ان تكون قد بلغت الثامنة والخامسة والعشرين . وكان سورينو ما يزال يبتسم ، وكان يبدو عليه انه مسحورٌ بفكرته ، ولكن كانت عيناه غريبتين . وكان بوريس يجد مشقة في النظر اليه مواجهة . وقال سورينو:

— انني كسول جداً ، لو تعلم . فيجب ان تعاملني بشيء من السلطة ...

ولم يستطع بوريس ان يمتنع عن الضحك وصارحه بصدق :

ـ احسب انني لن احسن ذلك على الاطلاق ..

قال سورينو :ـ بلى ، انني مقتنع بأنك ستستطيع .

فقال بوريس : ـ انك سوف تخيفني .

وهز سورينو كتفيه وقال :

ـ اسمع ! هل عندك دقيقة ؟ ان بوسعنا ان نأخذ قدحاً في الحانة المواجهة « داركور » فنتحدث عن مشروعنا .

« مشروعنا » ... وكان بوريس يتابع بعينيه في قلق احد عمال المكتبة الذي بدأ يراكم الكتب. وكان يود لو يتبع سورينو الى «داركور» فقد كان شخصاً غريباً ، فضلاً عن انه كان جميلاً ، ثم انه كان مسلياً ان يتحدث معه ، لأن على المرء ان يكون دقيقاً وحذراً ، اذ يشعر طوال الوقت بأنه في خطر . وتخبّط لحظة ، ولكن حس الواجب تغلب عليه فقال بصوت كان الأسى يقطعه :

ـ الواقع اني مستعجلٌ بعض الشيء .

فتغير وجه سورينو وقال :

ـ حسناً ، لا اريد ان ازعجك . اعذرني بأن اكون قد امسكتك هذا الوقت كله . هيا ، الى اللقاء ، وبلّغ ماتيو سلامي .

وانفتل فجأة ومضى ؛ وفكر بوريس في ضيق : « انراني قد جرحته ؟ » وتبع بنظر قلق كتفي سورينو العريضتين ، وكان يصعد جادة سان ميشال ، ثم فكر فجأة بأنه لم يكن امامه بعد دقيقة واحدة يضيعها .

« واحد . اثنان . ثلاثة . اربعة . خمسة . »

وعند الخمسة ، سحب المجلد خفية بيده اليمنى وتوجه نحو المكتبة من غير ان يحاول اخفاء نفسه .

خليط من الكلمات تفرّ في كل مكان ؛ كانت الكلمات تفرّ ؛ وكان

دانيال يفرّ جسماً طويلاً هزيلاً ، مقوّساً بعض الشيء ، ذا عينين جوزيتين ، ووجه قاسٍ فاتك ، انه راهب صغير ، راهب روسي ، اليوشا . خطوات ، وكلمات ؛ كانت الخطوات ترن حتى في داخل رأسه ؛ ان لا يكون الا هذه ، الا هـذه الكلمات ، فذلك خير من الصمت : السخيف الصغير ، لقد اصبت في الحكم عليه . لقد منعني اهلي من ان اتحدث الى الاشخاص الذين لا اعرفهم ، اتريدين حبة مابيّس يا آنستي الصغيرة ، ان اهلي منعوني ... ها ! ليس هو الا مخاً صغيراً ، لا ادري ، لا ادري ، هل تحب الفاسفة ، لا ادري .. عجباً ! وكيف تراه يدري ، ذلك الحمل المسكين ! ان ماتيو ينصب نفسه سلطاناً في صفّه ، وقد رمى له بالمنديل، وقاده الى المقهى فالتهم الصغير كل شيء ، القهوة بالكريم والنظريات ، كأنما يلتهم خبز القربان ؛ هيا ، هيا ، اذهب فتنزه ، لقد كان هنـاك ، متكلف الوقار متحذلقاً كحمار محمّل بالذخائر . اوه ! لقد فهمت ، انني لم اكن اريد ان امد يدي اليك ، فأنا لست جديراً بذلك ؛ وهذه النظرة التي رماني بها حين قلت له انني لا افهم الفلسفة ! انه لم يجهد نفسه حتى لأن يكون مؤدباً ، في النهاية . اوه ! انا على يقين — وقد شعرت بذلك منذ عهد « هورتيغير » — بأنه يحذرهم مني . وقال دانيال وهو يضحك راضياً : « هذا حسن جداً ، ان هذا درس ممتاز ، وبتكاليف قليلة ، انني مسرور لأنه صرفني عنه ؛ فلو جُننت واهتممت قليلاً به وحدّثته في ثقة ، اذن لذهب يطلع ماتيو علي ذلك كله ، ولتحدثا في هذا بصخب » وتوقف توقفاً فجائياً ، حتى ان سيدة كانت تسير خلفه صدمته في ظهره وأرسلت صيحة صغيرة . « لقد حدثه عني ! » وكانت هذه فكرة — لا — تحتمل ، اذ هي تخلف عندك موجـة من عرق الغضب ؛ وكان ينبغي تصورهما معاً ، سعيدين بأن يكونا معاً ، الصغير فاغر الفم طبعاً ، يباعد ما بين عينيه ويرهف اذنيه ، حتى لا يفقـد

شيئاً من المنّ الآلهي ، في مقهى ما من مقاهي مونمارتر ، احدى تلك المحاشش القذرة التي تتصاعد منها رائحة الثياب الوسخة ... « لا بد ان ماتيو كان ينظر اليه من تحت، نظرة عميقة ، ثم يشرح له شخصيتي ، مما يُميت من الضحك » وردد دانيال : « مما يميت من الضحك » ثم غرز اظافره في باطن كفه . لقد حكما عليه من خلف ظهره ، فحلّلاه وشرّحاه ، وكان بلا سلاح ، وكان لا يشعر بشيء ، وكان ممكناً ان يوجد ذلك اليوم كسائر الايام ، كما لو انه لم يكن شيئاً آخر غير شفافية لا ذاكرة لها ولا عاقبة ، كما لو انه لم يكن بالنسبة للآخرين جسماً سميناً بعض الشيء ذا خدين يتهدلان ، وجمال شرقي يذبل ؛ وبسمة قاسية ، ومن يدري ؟ ولكن لا ، لا احد . اذاً كان بوبي يعرف ، ورالف يعرف ، فان ماتيو لم يكن يعرف . ان بوبي إربيان ، وليس هو ضميراً واعياً ، انه يسكن رقم ٦ شارع الاورس ، مع رالف . ها ! ليتنا نستطيع ان نعيش بين العميان . انه ، هو ، ليس اعمى ، وهو يفخر بأنه يرى جيداً ، وهو عـالم نفسي دقيق . وله الحق بأن يتحدث عني بالنظر الى انه يعرفني منذ خمسة عشر عاماً وأنه خير صديق له ولا يحرم نفسه من التحدث عني ؛ فما ان يلتقي احداً ، حتى يكونا شخصين انا موجود بالنسبة اليهما ، ثم يكونوا ثلاثة ، ثم تسعة ، ثم مئـة . سورينو ، سورينو ، سورينو السمسار ، سورينو المضارب ، سورينو الـ ... ها ! ليته يفطس ، ولكن لا ، انه يتنزه بمطلق الحرية وفي رأسه رأيه فيّ ، وهو يُعدي به جميع من يقتربون منه ، ويجب ان أعدو في كل مكان وأحك وأمحو وأغسل بالماء الكثير ، لقد حككت مارسيل حتى العظم . ولقد مدت لي يدها ، في اليوم الاول، وهي تنظر الي طويلاً ، وقالت : « لقد حدثني ماتيو عنك كثيراً » . فنظرت اليها بدوري ، وكنت مبهوراً ، كنت هنا في داخلها ، كنت موجوداً في هذا الجسم ، خلف هذا الجبين ، وداخل هاتين العينين ،

يا للقذرة ! اما الآن ، فهي لا تصدق كلمة واحدة مما يقوله لها عني.

وابتسم برضى ؛ وكان شديد الاعتزاز بهذا النصر ، حتى انه نسي ، لمدة لحظة ، ان يراقب نفسه : وحدث تمزق في نسيج الكلمات كبر رويداً رويداً وامتد حتى اصبح صمتاً . الصمت الثقيل الفارغ . ما كان ينبغي له ، ما كان ينبغي له ان يكف عن الكلام . وكانت الريح قد سقطت ، وكان الغضب متردداً . وفي اعماق الصمت ، كان هناك وجه سرغين ، كأنه جرح . وجه عذب غامض ، كم كانت إضاءته بحاجة الى صبر وحميا . وفكر : « كان بوسعي ... » هذا العام ايضاً ، هذا اليوم ايضاً ، كان بوسعه . اما بعد ... وفكر : «فرصتي الأخيرة . » كانت هذه فرصته الاخيرة ، فأطفأها له ماتيو ، بكل إهمال . كانوا يتركون له نماذج من رالف وبوبي . « اما هو ، الصبي المسكين ، فسوف يجعل منه قرداً قبل ذلك . » وكان يمشي في صمت ، وكانت خطاه تصدي وحدها في جوف رأسه ، كما تصدي في شارع خال عند الصباح الباكر ، وكانت وحدتها كلية ، تحت هذه السماء الجميلة العذبة كالضمير الطيب ، وسط هذا الحشد المشغول ، بحيث انه كان يدهشه وجوده ، لا بد انه كان كابوس واحد من الناس ، واحد سينتهي به الأمر الى التيقظ . ومن حسن الحظ ان الغضب قد نشر قلوعه ، وغطى كل شيء ، فأحس بأن سورة جذلة تنعشه ، وبدأ الفرار ، وعاد صف الكلمات ؛ كان يكره ماتيو . انه واحد لا بد انه يرى من الطبيعي جداً ، ان يوجد ، فهو لا يطرح على نفسه سؤالاً : ان هذا النور اليوناني الصحيح ، وهذه السماء الفاضلة مجعولان له ، وهو في بيته ، ولم يكن قط وحيداً ؛ وفكر دانيال : « اقسم انه يظن نفسه غوته . » وكان قد رفع رأسه ، وكان ينظر الى المارة في عيونهم ، ويدغدغ حقده : « ولكن حذار ! اتخذ لك تلاميذ اذا كان هذا يسليك ، ولكن لا تفعل ذلك ضدي ، لأني سينتهي بي الأمر الى ان

العب معك دوراً قذراً . » واستخفت به دفقة غضب جديدة ، فبات لا يمس الارض ، وكان يطير ، وقد اخذه الفرح بان يشعر انه مريع ، وفجأة جاءته الفكرة حادّة ، حمراء لامعــة : « ولكن ، ولكن ، ولكن ... قد يكون ممكناً مساعدته على ان يفكر ، وان يدخل في ذاته ، وان يتدبر امره بحيث لا تكون الاشياء يسيرة عليه اكثر ممـــا ينبغي ، وستكون هذه خدمة عظيمة تؤدى له . » وكان يتذكر اللهجة المفاجئة الخشنة التي قذفته بها يوماً مارسيل : « حين تكون المرأة هالكة فليس امامها الا ان تحبل وتلد طفلاً » وقد كان يكون هذا امراً طريفاً لو لم يكونا متفقين تماماً على هذه القضية ، لو كان يعدو بحماسة بين حوانيت العقاقيريين ، بينما تكون هي في جوف غرفتها الوردية تذوب رغبةً في ان يكون لها ولد . انها مـــا كانت لتجرؤ على ان تقول له شيئاً ، ولكن ... لو كان ثمة احد ، صديق مشترك ، ليمنحها بعض الشجاعة... وفكر : « انني شرير » وكان مغموراً بالفرح . لقد كان الشر هو هذا الشعور الطاغي بالسرعة ، حيث ينفصل المرء فجأة عن نفسه ويجري الى الامام كالسهم ؛ وتأخذه السرعة من رقبته وهي تزداد دقيقة فدقيقة ؛ وكان ذلك شيئاً لذيذاً لا يُحتمل ، لأن المرء يتدحرج بـــلا ضابط ، والقبر امامه فاغر الفم ، ويقتحم حواجــز تنتصب ذات اليمين وذات اليسار ، على غير انتظار — ماتيو المسكين ، انني اقسى مما ينبغي ، فانا سأفسد له حياته — وتنكسر كالغصون الميتة ، وقد كانت مسكرةً ، هذه الفرحة التي يخترقها الخوف ، والتي هي جافّة كانتفاضة كهربائية ، هذه الفرحة التي لم تكن تستطيع التوقف . « انني اتساءل عمـا اذا كان سيكون له بعد تلامذة ؟ ربّ اسرة : ان هذا لا يكون غالباً . » هيئة سرغين ، حين يأتي ماتيو ليبلغه زواجه ، والازدراء الذي سيشعر به هذا الفتى ، وذعــره الساحق : « انك تتزوج ؟ » وسيتلعثم ماتيو : « ان هناك واجبات احياناً . » ولكن الصغار لا يفهمون مثل هـــذه

الواجبات . لقد كان هناك شيء ما يحاول ان يولد من جديد في حياء. ذلك هو وجه ماتيو ، وجهه الطيب الواثق ، ولكن السباق لم يلبث ان يُستأنف : ان الشر لا يتوازن الا بالسرعة القصوى ، شأنه في ذلك شأن الدراجة . وطفرت فكرته أمامه ، خفيفة فرحة : « انــه رجل خير ، ماتيو . وليس هو شريراً . اوه ! كلا ! انه من جنس هابيل، فهو له ضميره الخاص . واذن ، فعليه ان يتزوج مارسيل.وبعد ذلك، لا يبقى له الا ان ينام على غاره ، فهو ما زال شاباً ، وستكون امامه حياةٌ برمّتها ليسعد بعمله الطيب . »

وكانت هذه الراحة المسترخية لضمير نقيّ ، ضمير نقيّ لا يُنفذ اليه ، تحت سماء رحيمة مألوفة ، كانت هذه الراحة من شدة تدويخها بحيث لم يعد يعرف ان كان يتمناها لماتيو او لنفسه بالذات . شخصٌ منته ، خاضع ، هادىء ، أجل هادىء ... « واذا كانت لا تريد... اوهٍ ! لو كان ثمة حظ واحد لان تريد هذا الطفل ، فاني اقسم انها سوف تطلب منه ان يتزوجها مساء الغد . » السيد والسيدة دولارو ... السيد والسيدة دولارو يتشرفان باعلامكم ... وفكر دانيــال : « انني بالاجمال ملاكها الحارس ، ملاك الاسرة . » كان ملاكاً اكبر ، ملاك حقد وكراهية ، ملاك قضاء يسلك طريق فيرسانجيتوري . وتمثّل مرة اخرى ، للحظة ، جسماً طويلاً مرتبكاً وجميلاً ، ووجهــاً هزيلاً منحنياً فوق كتاب ، ولكن الصورة ما لبثت ان تهاوت ، وكان بوبـي هو الذي ظهر من جديد . « رقم ٦ شارع الاورس . » وكان يحس بأنه حر كالهواء ، وكان يمنح نفسه جميع الإجازات . وكان حانوت البقالة في شارع فيرسانجيتوري ما يزال مفتوحاً ، فدخله . وحين خرج ، كان يمسك بيده اليمنى سيف القديس ميشال الناري ، وفي اليد اليسرى علبة حلوى للسيدة دوفيه .

١٠

دقّت العاشرة في الساعة الصغيرة . ولم يبد على السيدة دوفيــه انها سمعت . كانت تحدّد في دانيال نظراً متنبهاً ، ولكن عينيها كانتا قد توردتا . وفكر : « انها لن تتأخر في الذهـــاب » وكانت تبتسم له باحتيال ، ولكن رياحاً خفيفة متسربة من ثقب الباب كانت تذوب عبر شفتيها المفترّتين : كانت تتثاءب تحت بسمتها . وفجأة ، رمت رأسها الى خلف وبدت تصمّم على أمر ؛ فقالت في اندفاع متلاعب :

— اسمعا يا ولديّ ، انني سآوي الى سريري ! لا تجعلها تسهر الى ساعة متأخرة اكثر مما ينبغي يا دانيال ، فانا معتمدة عليك في ذلك ، والا فانها ستنام حتى الظهر .

ونهضت واقبلت تربت كتف مارسيل بيدها الصغيرة الخفيفة، وكانت مارسيل جالسة على السرير . واستطردت تقول وهي تجد تسلية في ان تتحدث بين اسنانها المنقبضة :

— أتسمعين يا روديلارد ، انك تنامين في ساعة متأخرة جداً يا ابنتي ، تنامين حتى الظهر ، فتسمنين .

قال دانيال : — اقسم اني سأذهب قبل منتصف الليل .

فابتسمت مارسيل : — اذا اردتُ ذلك .

والتفت نحو السيدة دوفيه وهو يصطنع الارهاق :

ـ ما حيلتي ؟

قالت السيدة دوفيه : ـ المهم ان تكونا عاقلين . وشكراً لحلوياتك اللذيذة .

ورفعت العلبة المشرّطة الى مستوى عينيهـا بحركة تهديدية بعض الشيء :

ـ انك ألطف مما ينبغي ، وانت تدللني كثيراً ، ولا بـد من ان اوبخك في النهاية !

فقـال دانيال بصوت عميق : ـ انك لا تزيدين سروري الا بأن تحبيها .

وانحنى على يد السيدة دوفيـه وقبّلها . ورأى عن كثب ان بشرتها كانت متجعدة ببقع خبّازية ، وقالت السيدة دوفيه وقد استخفتها الحركة :

ـ يا للملاك ! هيا ، انني ذاهبة !

وقبلت جبين مارسيل ، فأحاطت مارسيل قامتها بذراعها وشدتها اليها لحظة ، فاشعثت السيدة دوفيه لها شعرها وتخلصت بخفة ، وقالت مارسيل :

ـ سآتي اليك عما قليل .

ـ لا ، لا ، ايتها الفتاة الرديئة . انني اتركك للملاكك .

وتسللت بحيوية طفلة صغيرة ، فتبع دانيال بنظـرة باردة ظهرها الدقيق : فلقد حسب انها لن تذهب ابداً . وانغلق الباب ، ولكنه لم يحس بالعزاء : فقد كان يخاف بعض الخوف ان يبقى وحده مـع مارسيل . والتفت اليها فرأى انها كانت تنظر اليه مبتسمة .

وسألها : ـ ما الذي يجعلك تبتسمين ؟

فقالت مارسيل : ـ يسلّيني دائماً ان اراك مـع امي . كم انت متملّق يا ملاكي المسكين ؛ ان هذا لعار ، فانت لا تستطيع الامتناع عن اغراء الناس .

وكانت تنظر اليه في حنان ملاّكة . وكان يبدو انها مسرورة بان

يكون لها وحدها . وفكر دانيال في ضغينة : « ان لها قناع الحَبَل »
وكان يؤذيه ان تبدو على هذا الحدّ من السرور . وكان يستشعر دائماً
بعض الضيق اذ كان يجد نفسه على حافة هذا الحديث الهامس وانـــه
سيستغرق فيه . وتنحنح وفكـــر : « سوف أُصاب بالربو » وكانت
مارسيل رائحة كثيفة حزينة ، موضوعة على السرير ، في كتلة ، وسوف
تتفسّخ لدى ادنى حركة .

ونهضت : — عندي ما أريك اياه .

وذهبت لتأتي بصورة كانت على المدخنة ، ومدّتها له وهي تقول:

— انت الذي تريد دائماً أن تعرف كيف كنت .

واخذها دانيال : كانت مارسيل وهي في الثامنة عشرة ، وكانت
تشبه الساقطات بفمها المرتخي وعينيها القاسيتين . وكان لهـــا هذا اللحم
اللدن الذي كان يعوم كأنه ثوب فضفاض . ولكنهـــا كانت هزيلة .
ورفع دانيال عينيه ففاجأ نظرتها القلقة . فقال بحكمة :

— لقد كنت جميلة ، ولكنك لم تتغيري قط .

فأخذت مارسيل تضحك :

— بلى ! انت تدري جيداً اني قد تغيرت ، ايها المخادع الكبير ،
ولكن اطمئن ، فلست مع امي .

واضافت :

— ولكن ألا ترى اني كنت فتاة جميلة ؟

فقال دانيال : — انني افضلك كما انت الآن . كان في فمك شيء
من الرخاوة .. انت الآن تبدين اكثر إثارة للاهتمام .

فقالت بلهجة عابسة : — ان المرء لا يعرف متى تكون جاداً .

ومع ذلك فقـــد كان يسيراً ان يلاحظ الانسان انها كانت مفتونة.
واستقامت قليلاً والقت الى المرآة بنظرة سريعة . وانزعـــج دانيال
لهذه الحركة الخرقاء الخالية من الحشمة : لقـــد كان في غندرتها ايمان

طفولي طيب ضعيف يتناقض مـــع وجهها ، وجـه المرأة المعانية .
وابتسم لها .
وقالت له : – وانا ايضاً اسألك لماذا تبتسم ؟
– لأنك قمت بحركة طفلة صغيرة لتنظري في المرآة . انه مؤثر جداً
ان تهتمي بنفسك بطريقة تلقائية .
فتوردت مارسيل وضربت بقدمها الارض :
– انه لا يستطيع ان يمتنع عن التملق ؟
وضحك الاثنان ، وفكر دانيال في غير ما شجاعة كبيرة : « هيّا
بنا » . وكانت الفرصة مؤاتية ، ولكنه كان يحسّ نفسه فارغاً ورخواً.
وفكر بماتيو ليكتسب بعض الشجاعة ، فسرّه ان يجد ان حقده ما زال
على حاله لم يُمس . لقد كان ماتيو واضحاً جافاً كالعظمة . وكان كرهه
ممكناً . اما مارسيل فلم يكن بالامكان كرهها .
– مارسيل ! انظري اليّ .
وكان قد تقدم وراح ينظر اليها نظرة اهتمام . وقالت مارسيل:
– هأنذا .
وردت له نظرته ، ولكن رأسها كان يتحرك باهتزازات صلبة :
كان يصعب عليها ان تقاوم نظرة الرجل .
– يبدو عليك التعب :
فطرفت مارسيل بعينيها وقالت :
– انني ضعيفة المزاج . والسبب الآن هو هذا الحر الشديد.
وانحنى دانيال قليلاً وردد بلهجة عتاب آسف :
– متعبة جداً ! كنت انظر اليك الساعة ، بينما كانت امك تروي
لنا رحلتها الى روما : فكان يبدو عليك انك مشغولة جداً ، ثائـــرة
الاعصاب جداً .
فقاطعته مارسيل بضحكة مغتاظة :

– اسمع يا دانيال . انها تروي لك هذه الرحلة للمرة الثالثة . وانت في كل مرة تستمع اليها بهيئة اهتمام مهووس ؛ واصارحك ان هــذا يزعجني قليلاً ، فانا لا ادري ماذا يكمن في رأسك في هذه اللحظات.

قال دانيال : – ان امك تسليني . انا اعرف هذه القصص ولكني احب ان اسمعها وهي ترويها بحركاتها الصغيرة التي تسحرني .

وحرّك عنقه حركة صغيرة فانفجرت مارسيل ضاحكة : كان دانيال يحسن تقاليد الناس اذا اراد . ولكنه ما لبث ان استعاد جده ، فكفت مارسيل عن الضحك . ونظر اليها معاتباً . فاضطربت قليلاً تحت هذا النظر . وقالت له :

– انما تبدو الغرابة عليك انت هذا المساء . فما بك ؟

فلم يعجل في الجواب . وكان صمت ثقيل يخيم عليهما ، وكانت الغرفة أتوناً حقيقياً . وضحكت مارسيل ضحكة صغيرة ما لبثت ان ماتت على شفتيها . وكان دانيال مسروراً جداً . فقال :

– مارسيل ، ما كان ينبغي ان اقولها لك ...

فارتدّت الى خلف : – ماذا ؟. ماذا ؟. ماذا هناك ؟.

– انك غير حاقدة على ماتيو ؟

فامتقع لونها :

– اوه هل ... لقد اقسم لي الا يقول لك شيئاً .

– ان الامر يا مارسيل هام الى هذا الحد وتريدين ان تخفيه عني ؟. ألست اذاً صديقك ؟

فارتعشت مارسيل وقالت : – انه امر قذر ؟

هكذا ! حسناً : انها عارية ، لم تكن القضية بعد قضية ملاك او صور شباب ؛ لقد فقدت قناع جدارتها الضاحك . ولم يكن هناك بعد الا امرأة كبيرة حامل ، تنبعث منها رائحة اللحم ، وكان دانيال يحس بالحر ، فأمرّ يده على جبينه العرق . وقال بهدوء :

كلا ، كلا ، ليست قذرة .

فندّت عن مرفقها وذراعها حركة مفاجئة خططت هواء الغرفة اللاهب وقالت :

— انك تشمئز مني .

فأخذته ضحكة فتية :

— اشمئز ؟ انا ؟ ان بوسعك يا مارسيل ان تبحثي طويلاً قبل ان تجدي شيئاً يجعلني اشمئز منك .

فلم تجب مارسيل . وكانت قد خفضت رأسها في حزن . وقالت اخيراً :

— لكم وددت ان ادعك بعيداً عن هذا كله .

وصمتا . ان بينهما الآن صلة جديدة كالسلك السرّيّ . وسألها دانيال :

— هل رأيت ماتيو ، منذ ان فارقني ؟

فقالت مارسيل بلهجة فجائية :

— لقد خابرني حوالي الساعة الواحدة .

وكانت قد تداركت نفسها وتصلبت ، ووقفت موقف الدفاع ، منتصبة مقروصة المنخرين ؛ كانت تتألم .

— هل قال لك اني رفضت ان ادينه مالاً ؟

— قال لي انه لم يكن معك مال .

— بل كان معي .

فرددت دهشة : — كان معك ؟

— اجل كان معي ، ولكني لم اكن اريد ان ادينه ... قبل ان اكون قد رأيتك على الأقل .

وبعد فترة اضاف :

— أينبغي لي يا مارسيل ان ادينه مالاً ؟

فقالت في ارتباك : — ولكن ... لا ادري ان عليك ان ترى اذا كان ذلك في امكانك .

— هذا ممكن جداً . ان معي خمسة عشر الف فرنك استطيع ان اتصرف بها من غير ان انزعج اطلاقاً .

قالت مارسيل : — اذاً نعم . نعم يا عزيزي دانيال . يجب ان تعيرنا مالاً .

وساد صمت . وكانت مارسيل تدعك غطاء السرير بين اصابعها ، وكانت رقبتها الثقيلة تخفق . وقال دانيال :

— انك لا تفهميني . انا اقصد : هل ترغبين من صميم قلبك ان ادينه ؟

فرفعت مارسيل رأسها ونظرت اليه في دهشة :

— انك غريب يا دانيال ؛ لا بد ان في رأسك شيئاً .

— الحقيقة ... كنت اتساءل بكل بساطة عما اذا كان ماتيو قد استشارك .

فقالت ببسمة خفيفة : — ولكن طبعاً مهما يكن فنحن لا نتشاور ، وانت تعرف كيف نتصرف : يقول احدنا : نفعل هذا او ذاك ، فيعترض الآخر اذا لم يكن موفقاً .

قال دانيال : — نعم ، . غير ان هذا يكون في صالح من له رأي ناجز : اما الآخر فيرتبك ولا يجد الوقت لتكوين رأي له .

قالت مارسيل : — ربما .

— انا اعرف كم يحترم ماتيو آراءك ولكن من اليسير علي ان اتمثل الحادث : فلقد تسلط علي طوال بعد الظهر . فلا بد انه كوّر ظهره كما يفعل في مثل تلك الحالات ، ثم قال وهو يجرض بريقه : « حسناً ! سنلجأ الى الوسائل الكبرى » . ولم يأخذه اي تردد ،والحق انه لم يكن يستطيع التردد : فهو رجل . ولكن ألم يتم ذلك في شيء

من العجلة ؟ لا بد انك انت نفسك لم تعرفي ما كنت تريدينه ؟

وانحنى من جديد نحو مارسيل :

ـ ألم تجر الامور على هذا الشكل ؟

ولم تكن مارسيل تنظر اليه . كانت قد لفتت رأسها من جهة المغسلة وكان دانيال يراها جانبياً . وكان يبدو عليها الأسى وقالت :

ـ هكذا تقريباً .

ثم احمرّ وجهها احمراراً عنيفاً :

ـ اوه ! لنكفّ عن التحدث في هذا يا دانيال ، ارجوك ! فليس ... ليس ذلك امراً لذيذاً .

ولم يكن دانيال ينزع عنها نظره . وفكر : « انها تخفق . » . ولكنه لم يكن يدري بعد ان كان يلذه ان يذلها او يذل نفسه معها . وقال في نفسه : « سيكون العمر ايسر مما كنت اظن . » وقال :

ـ لا تنغلقي يا مارسيل ، ابتهل اليك : انا اعرف كم يشقّ عليك ان نتكلم عن هذا كله .

قالت مارسيل : ـ ولا سيما معك . فكم انت يا دانيال شخص آخر. عجباً ، انني طهّرها ! وارتعشت من جديد وشبكت ذراعيها على صدرها وقالت :

ـ انني لا اجرؤ على النظر اليك . فحتى لو لم تكن تشمئز مني فيخيل اليّ اني قد فقدتك .

قال دانيال بمرارة : ـ اعرف ذلك . ان الملاك يجفل بسهولة . اسمعي يا مارسيل ! كفّي عن اسناد هذا الدور المضحك الي . فليس لدي شيء من ملاك ، كل ما هناك انني صديقك ، خير صديق لك . (واضاف بحزم) وان لي كلمة اقولها : ان بوسعي ان اساعدك . هل انت يا مارسيل متأكدة حقاً من انك لا تريدين طفلاً ؟

وتاه قليلا عبر جسم مارسيل ، فكأنه كان يريد ان ينفصل عن

نفسه . ثم اوقف هذا البدء في التجزؤ ، وتراكم الجسم على حافة السرير جامداً ثقيلا . ولفتت رأسها نحو دانيال وكانت قرمزية ؛ ولكنها كانت تنظر اليه من غير ضغينة ، في جزع لا سلاح له . وفكر دانيال : « انها يائسة . »

— ليس لك الا ان تقولي كلمة : اذا كنت واثقة من نفسك، فان ماتيو سيتلقى المال صباح الغد .

وكان يتمنى تقريباً ان تقول له : « انني واثقة من نفسي » وسيرسل المال وينتهي كل شيء . ولكنها لم تكن لتقول شيئاً ، وكانت قدالتفتت اليه ، كأنما كانت تنتظر ؛ وكان لا بدّ من المضيّ حتّى النهاية . وفكر دانيال في اشمئزاز : « هكذا اذن ! اقسم ان هيئة العرفان تبدو عليها . » كما كان الشأن مع ملفينا يوم ضربها .

وقالت : — انت ! لقد تساءلت عن هذا ! اما هو ... الحق يا دانيال ان ليس في الدنيا من يهتم بي سواك .

ونهض ، واقبل يجلس بالقرب منها واخذ يدها . يد رخوة محمومة كأنها مسارّاة : واحتفظ بها في يده من غير ان يتكلم . وكان يبدو على مارسيل انها تقاوم دموعها . وكانت تنظر الى ركبتيها .

— الأمر لديك سواء اذا أُجهض الطفل ؟

فقامت بحركة متعبة وقالت :

— وماذا تريد ان نفعل غير ذلك ؟

وفكر دانيال : « لقد ربحتُ ! » ولكنه لم يستشعر من ذلك اي سرور . كان يختنق . كانت مارسيل ، وهي قريبة هذا القرب ، تنبعث منها رائحة لا تكاد تُحسّ ، بل لعلها اذا صح التعبير ليست رائحة ، ولكن كأنها كانت تُخصب الهواء حولها . ثم انه كانت هناك تلك اليد التي ترشح في يده . وقسر نفسه على ان يشتدّ في ضغطها ، ليعبر لها عن كل عصيره . وقال بصوت جاف :

— لا اعرف ما يمكن ان نفعله : سنرى ذلك فيما بعد . انني في

هذه اللحظة لا افكر الا فيك فاذا رزقت هذا الطفل فربما كان ذلك كارثة ، ولكن ربما كان كذلك خطأ . ينبغي يا مارسيل ان لا تسيطيعي ان تتهمي نفسك فيما بعد بأنك لم تفكري كفاية .

فقالت مارسيل : — نعم ، نعم ...

وكانت تنظر الى الفراغ نظرة ثقة ترد اليها شبابها . وفكر دانيال بالطالبة الشابة التي سبق له ان رأى صورتها . « صحيح ! لقد كانت شابة ... » ولكن اشعاعات الشباب نفسها لم تكن مؤثرة على هذا الوجه العاقّ . وترك فجأة يدها وابتعد قليلاً عنها ، وردد بصوت مستعجل :

— فكري . هل انت حقاً متأكدة ؟

فقالت مارسيل : — لا ادري .

ونهضت : اعذرني ، يجب ان اطلّ على امي .

فانحنى دانيال بصمت : وكان ذلك شيئاً مألوفاً . وفكر حين اغلق الباب : « لقد ربحتُ ! » ومسح يديه بمنديله ثم نهض بحيوية وفتح درج طاولة الليل : وكان يوجد فيها احياناً رسائل طريفة وقصاصات قصيرة من ماتيو ذات لهجة زواجية او شكاوى لا تنتهي من اندريه التي لم تكن سعيدة . وكان الدرج فارغاً ، وجلس دانيال ثانية على الاريكة وفكر : « لقد ربحت ، فهي تموت رغبة في ان تبيض » . وكان سعيداً انه وحيد : فقد كان يستطيع ان يستعيد الحقد . وقال في نفسه : « اقسم انه سيتزوجها . والحق انه كان لئيماً ، حتى انه لم يستشرها ، انه لا يستحق ان اكرهه لدوافع طيبة : فان لدي من العمل مع الآخرين ما فيه الكفاية » .

ورجعت مارسيل بوجه متحلل . وقالت بصوت جاف :

— واذا كانت لي رغبة في الطفل ؟ ماذا يجديني ذلك ؟ انني لا استطيع ان اكون في ترف الفتاة الام ، وليس وارداً ان يتزوجني ، أليس كذلك .

فرفع دانيال حاجبيه مدهوشاً وسألها :

ـ ولماذا لا يستطيع ان يتزوجك ؟

فنظرت اليه مارسيل بذعر ثم آثرت ان تضحك قائلة :

ـ لكنك تعرف جيداً يا دانيال ما نحن عليه !

فقال دانيال : ـ انني لا اعرف شيئاً على الاطلاق . لا اعرف الا شيئاً واحداً : ليس عليه ، اذا اراد ، الا ان يقوم بالخطوات الضرورية، كجميع الناس بحيث تصبحين بعد شهر زوجته . اتكونين انت يا مارسيل التي قررت الا تتزوجي ابداً ؟

ـ سوف اشمئز من ان يتزوجني على مضض .

ـ ليس هذا جواباً .

وزال بعض توتر مارسيل ، فأخذت تضحك ، وادرك دانيال انه ضلّ الطريق . وقالت :

ـ الحقيقة أنه سيان عندي ان لا أُدعى السيدة دولارو .

وقال دانيال بحيوية : ـ انني متأكدة من ذلك . وانما عنيت : اذا كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالطفل ؟...

فبدت مارسيل مضطربة :

ـ ولكنني لم اواجه الامور قط على هذا النحو .

ولا بد ان ذلك كان صحيحاً . ولقد كان شاقاً جداً حملها على ان تنظر الى الاشياء مواجهة : كان ينبغي ان يوضع انفها فوق الاشياء ، والا تناثرت في كل اتجاه . واضافت :

ـ ان هذا ... امر قد اتفقنا عليه : ان الزواج عبودية . وليس فينا من يريده .

ـ ولكنك تريدين الطفل ؟

فلم تجب . وكانت اللحظة الحاسمة ؛ وردد دانيال بصوت قاس ،

ـ أليس كذلك ؟ انك تريدين الطفل؟

وكانت مارسيل تتكيء باحدى يديها على الوسادة بينما وضعت الاخرى على فخذها ، ثم رفعتها قليلاً ووضعتها على بطنها ، كما لو ان احشاءها كانت تؤلمها ، وكانت هذه حركة خرقاء وساخرة . وقالت بصوت متوحد :

نعم . اريد الطفل .

ربحنا . وصمت دانيال . ولم يكن يستطيع رفع نظره عن هذا البطن . اللحم العدو ، اللحم المشحم والمغذي ، خزانة الطعام . وفكر في ان ماتيو كان قد اشتهاها فاخذته شعلة سريعة من الرضى : لكأنما انتقم بعض الانتقام . وكانت اليد السمراء ذات الخاتم تتشنج على الحرير وتضغط على ذلك البطن . ما الذي كانت تشعر به ، في داخلها ، هذه الانثى الثقيله المتمزقة ؟ لقد كان يود ان يكونها . وقالت مارسيل بخفوت :

ـ لقد حررتني يا دانيال . فانني ... لم اكن استطيع ان اقول ذلك لأحد ابداً وكنت قد انتهيت الى الايمان بان ذلك كان إثماً .

ونظرت اليه بضيق :

ـ اليس ذلك إثماً ؟

فلم يتمالك نفسه من الضحك :

ـ إثم ؟ انما ذلك فساد يا مارسيل . اتجدين رغباتك آثمة حين تكون طبيعية ؟

ـ كلا ، انما اعني : تجاه ماتيو . ان ذلك بمثابة نقض للعهد .

ـ كل ما في الامر هو انه يجب ان تتفاهمي معه بصراحة .

فلم تجب مارسيل ؛ وكان يبدو عليها انها تجتر . وقالت فجأة بحماسة :

ـ اوه ! لو كان لي ولد ما سمحت له بان يفسد حياته مثلي .

ـ انك لم تفسدي حياتك .

– بلى !
– ولكن لا يا مارسيل ، لم تفسديها بعد .
– بلى ! انني لم افعل شيئاً ، وليس هناك من يحتاج الي .
فلم يجب : كان ذلك صحيحاً .
– ليس ماتيو بحاجة الي . واذا مت لم يؤثر ذلك عليه قط . وانت كذلك يا دانيال . صحيح انك تكنّ لي حباً كبيراً ، ولعل ذلك هو أثمن شيء عندي في الدنيا . ولكنك لست بحاجة الي ؛ بل الاصح انني انا بحاجة اليك .
ايجيب ؟ ام يحتج ؟ كان ينبغي له الحذر : كانت مارسيل تبدو في احدى تلك الحالات المستبصرة الوقحة . وتناول يدها بلا كلمة وشدّها شدّاً ذا مغزى . وتابعت مارسيل :
– اما الطفل ، اجل ، ان الطفل سيكون بحاجة اليّ .
فلامس يدها بحنان :
– يجب ان تقولي هذا كله لماتيو .
– لا استطيع .
– ولكن لماذا ؟
– انني عاجزة . وانتظر ان يأتي ذلك منه .
– ولكنك تعلمين جيداً ان ذلك لن يأتي منه ابداً : فهو لا يفكر فيه .
ولماذا لا يفكر في ذلك ؟ لقد فكرت انت فيه ملياً .
– لا ادري . واذن ... سيبقى الأمر كما قررنا : سوف تعيرنا المال ، وساذهب الى ذلك الطبيب .
فصاح دانيال فجأة : – انك لا تستطيعين ، لا تستطيعين !
وتوقف ينظر اليها في حذر : كان الانفعال هو الذي جعله يطلق هذه الصرخة البليدة . واثلجته هذه الفكرة ، لقد كان الترك يذعره .

وقرص شفتيه ، وأمرّ السخرية في عينيه ، وهو يرفع حاجبيه . وكان فاعاً لا جدوى منه ؛ كان الافضل الا يراها : فقد احنت كتفيها ، وكان ذراعاها يتدليان على جنبيها ؛ وكانت تنتظر جامدة معطلة ، وهي سوف تنتظر على هذا النحو طوال اعوام حتى النهاية. وفكر : «حظها الاخير » كما سبق له ان فكر لنفسه منذ حين ، فبين الثلاثين والاربعين عاماً يلعب الناس حظهم الاخير . وهي سوف تلعب وتخسر ؛ فبعد بضعة ايام لن تكون بعد الا بائسة كبيرة . وكان ينبغي الحيلولة دون ذلك .

– وما ترين في ان احدث انا نفسي ماتيو في ذلك ؟

وكان شفقة هائلة موحلة قد غمرته . ولم يكن يميل قط الى مارسيل . كان يشعر باشمئزاز عميق ، ولكن الشفقة كانت موجودة هنا ، لا تقاوم . وكان على استعداد ليفعل اي شيء من اجل ان يتخلص منها . ورفعت مارسيل رأسها وكان يبدو عليها انها تظنه مجنوناً .

– تتحدث اليه ؟ انت ؟ ولكن بمَ تفكر يا دانيال ؟.

– يمكن ان يقال له ... انني التقيت بك ...

– اين ؟ فأنا لا اخرج قط . وحتى لو فرضنا ذلك ، فهل يكون الامر قد بلغ بي ان اروي لك هذا ؟

– لا ، لا ، طبعاً .

ووضعت مارسيل يدها على ركبته .

– ارجوك يا دانيال ، لا تتدخل في هذا الامر . انني غاضبة من ماتيو ، وقد كان عليه الا يروي لك ...

ولكن دانيال كان متمسكاً بفكرته :

– اسمعي يا مارسيل . ألا تعرفين ما سوف نفعله ؟ سنقول له الحقيقة بكل بساطة . سأقول : يجب ان تغفر لنا سراً صغيراً ، فقد كنا انا ومارسيل نلتقي احياناً ، ولم نخبرك بذلك .

فابتهلت مارسيل تقول :

— دانيال ، يجب ان تقول ذلك . انني لا اريد ان تتكلم عني . لا اريد بأي ثمن ان اظهر بمظهر المطالِب . فقد كان عليه هو ان يفهم .

وأضافت بلهجة زواجية :

— ثم انه ، لو تعلم ، لن يغفر لي ابداً انني لم اخبره انا نفسي بذلك . اننا نتصارح دائماً بكل شيء .

وفكر دانيال : — « هذه نكتة ! » ولكن لم تكن به رغبة للضحك. وقال :

— ولكني لن اتكلم باسمك . سأقول له انني رأيتك ، وانه كان يبدو عليك انك متألمة ، وان الامور ليست بالبساطة التي قد يتصورها. سأقول ذلك كله كما لو انه صادر عني .

وقالت مارسيل بلهجة انزعاج :

— لا اريد . لا اريد .

وكان دانيال ينظر الى كتفيها وعنقها في نهم . وكان هذا العناد الابله يغيظه ، وكان يريد ان يحطّمه . وكانت رغبة هائلة مشوّهة تتملكه : ان ينتهك هذا الضمير وان يغرق معه في المذلّة . غير ان ذلك لم يكن من السادية : فقد كان اشد تلمّساً وأوفر رطوبة وأكثر بشرية . كان بالاحري طيبة .

بل يجب يا مارسيل . انظري اليّ يا مارسيل .

وأخذها من كتفيها ، فغرقت اصابعه في زبدة دافئة .

— إن لم احدثه بذلك ، فلن تقولي شيئاً ابداً ... وسينتهي الامر ، وستعيشين بالقرب منه صامتة ، وستنتهين الى كرهه .

فلم تجب مارسيل ، ولكنه ادرك من هيئتها الحاقدة المسترخية انها كانت بسبيل الاستسلام . وأضافت مرة اخرى :

ـ لا اريد.

فتركها وقال في غضب :

ـ ان لم تدعيني افعل ، فسألومك وقتاً طويلا . سيكون انك افسدت حياتك بيديك .

وكانت مارسيل تُمر طرف رجلها على منحدر السرير . وقالت :

ـ ينبغي ... ينبغي ان تُقال له اشياء مبهمة تماماً ، ان يوقظ انتباهه فحسب ...

فقال دانيال : ـ طبعاً .

وكان يفكر : « اعتمدي علي في ذلك . »

وبدت من مارسيل حركة اشفاق :

ـ هذا غير ممكن .

ـ وبعد ؟ كنت على وشك ان تكوني عاقلة ... لماذا يكون ذلك غير ممكن ؟

ـ ستكون مضطراً الى ان تقول له اننا كنا نتلاقى .

فقال دانيال في انزعاج :

ـ نعم . قلت لك ذلك . ولكني اعرفه : فهو لن يغضب من هذا . قد يغتاظ قليلا ، في الظاهر ، ولكنه اذ يشعر بانه مذنب فانه سيكون مسروراً اكثر مما ينبغي بأن يجد شيئاً يؤاخذك عليه . ثم اني سأقول له اننا نتلاقى منذ اشهر فقط ، وفي فترات نادرة . ومهما يكن ، فلا بد ان نقول له ذلك يوماً .

ـ هذا صحيح .

ولم يكن يبدو عليها انها مقتنعة ، وقالت بأسف عميق :

ـ لقد كان ذلك سرنا . اسمع يا دانيال، تلك كانت حياتي الخاصة، وليست لي حياة غيرها .

وأضافت بكراهية :

- انني لا استطيع ان احتفظ لنفسي إلا بما اخفيه عنه .
- يجب ان تحاولي . من اجل الطفل .

انها تكاد تستسلم : وليس ثمة بعد الا الانتظار ؛ كانت توشك ان تنزلق نحو الخضوع والاستسلام ، يقودها في ذلك ثقلها نفسه؛ ستكون بعد لحظة منتفخة كلها ، من غير سلاح ، وستقول له في دعة : « افعل ما يبدو لك ، انني بين يديك . » وكانت تسحره ؛ ولم يكن يعرف بعد ان كانت هذه النار التي تلتهمه هي « الشر » او الطيبة . الخير والشر ، خيرهما وشره ، كان ذلك سواء . لقد كان ثمة هذه المرأة ، وهذا التواصل المنفّر الباعث على الدوار .

وأمرّت مارسيل يدها في شعرها ، وقالت في تحدّ :

- حسناً ! لنحاول . انها ستكون على كل حال تجربة .

فسألها دانيال :

- تجربة ؟ اهو ماتيو الذي تريدين ان تدخليه في التجربة ؟
- نعم .
- وهل تظنين بأنه سيظل لامبالياً ؟ وانه لن يتعجل ساعة اللقاء بك ليتفاهم معك ؟
- لا ادري .

وقالت بجفاف :

- انني بحاجة الى احترامه .

فأخذ قلب دانيال يخفق :

- ألا تحترمينه اذن بعد ؟
- بلى .. ولكني لست بعد في ثقة معه منذ مساء الامس . لقد كان ... انت على حق : لقد كان مهملا اكثر مما ينبغي . انه لم يهتم بشأني . ثم ان مخابرته التلفونية اليوم ... تثير الشفقة . لقد ...

واحمرّت :

– لقد ظنّ ان عليه ان يقول انه كان يحبني ، حين أنهى المخابرة. وكان ذلك يرشح بتأنيب الضمير . ولا استطيع ان اصــف لك الأثر الذي خلّفه ذلك فيّ . واذا اتفق لي ان كففت عن احترامه ... ولكني لا اريد ان افكر بذلك . انه يشقّ عليّ جداً ان اعتب عليه ، حين يتفق لي ذلك . آه ! ليته يحاول غداً ان يدفعني قليلاً الى الكلام. ليته يسألني مرة واحدة فقط : « ماذا يجول في رأسك ؟ »

وصمتت ، وهزت رأسها في حزن . وقال دانيال :

– سوف احدثه . حين أغادرك ، سأترك له كلمة ، وأحدّد له موعد لقاء للغد .

وصمتا . وأخذ دانيال يفكر في لقاء الغد : لقد كان يَعد ان يكون لقاءً عنيفاً وقاسياً ، وسوف يطهّره ذلك من هذه الشفقة اللزجة . وقالت مارسيل :

– دانيال ، عزيزي دانيال .

ورفعت رأسها فرأت نظرته . وكانت نظرة ثقيلة ساحرة تفيض بالعرفان الجنسي ، نظرة ما بعد المضاجعة . وأغمض عينيه : لقد كان بينهما ما هو اقوى من الحب . لقد سبق ان انفتحت ، فدخل فيها ، فليسا هما بعد الا شخصاً واحداً .

ورددت مارسيل : – دانيال .

ففتح دانيال عينيه ، وسعل بمشقة ؛ وكان مصاباً بالربو . واخذ يدها وقبّلها قبلة طويلة وهو يمسك انفاسه . وكانت مارسيل تقول ، من فوق رأسه :

– يا ملاكي .

سيقضي حياته كلها منحنياً فوق هذه اليد العاطرة ؛ وراحت تلامس شعره بحنان .

١١

كانت زهرة كبيرة بنفسجية تصعد نحو السماء ، وكانت هي الليل . وكان ماتيو يتنزّه في هذا الليل ، وكان يفكر : « انـني شخص هالك . » وكانت تلك فكرة جديدة كل الجدّة ، وكان لا بدّ من تقليبها على وجوهها ، ومن شمّها في احتراس . وكان ماتيو يفقدها بين الفينة والفينة ، فلا تبقى بعد غير الكلمات . ولم تكن الكلمات خاليةً من بعض سحر غامض : « شخص هالك » . كان المرء يتخيّل كوارث جميلة : الانتحار ، الثورة ، ومخارج اخرى متطرفة . ولكن الفكرة كانت سريعاً ما تعود : لم يكن الامر كذلك ، لم يكن كذلك قط ؛ وانما كانت القضية بؤساً صغيراً هادئاً ومتواضعاً ، ولم تكن قضية يأس ، بل على العكس ، كان ذلك يبعث على الرضى والراحة : لقـد كان ماتيو يشعر بأنه قد سُمح له بكل شيء ، كما هو الشأن بالنسبة لمريض لا يُرجى شفاؤه . وفكر : « ليس عليّ بعـدُ الا ان ادع نفسي أعيش . » وقرأ اسم « سومطرا » بأحرف نارية ، وهُرع اليه الزنجي ، وهو يلامس قبعته . وتردد ماتيو على عتبة الباب : كان يسمع ضجيجاً ، وموسيقى تانغو ؛ وكان قلبه ما يزال ممتلئاً بالكسل والليل . ثم حدث ذلك فجأة ، كما يحدث في الصباح ، حين يلفي المرء نفسه واقفاً من غير ان يدرك كيف نهض : كان قـد أزاح الستار الاخضر ، وهبط

درجات السلم السبع عشرة ، فاذا هو في كهف قرمزي ضاج ، ذي لطخات بيضاء قذرة ، هي اغطية الموائد ؛ وكانت رائحة البشر منتشرة هناك ، كانت القاعة تغصّ بالبشر ، كما هو الحال في قداس . وفي جوف الكهف ، كان ثمة رعاةٌ يرتدون القمصان الحريرية يعزفون الموسيقى فوق منصة . وكان امامه اشخاص واقفون في جمود واحترام كأنهم ينتظرون : وكانوا يرقصون ؛ وكانوا شرسين ، وكان يبدو انهم فريسة قدر لا ينتهي . واستعرض ماتيو القاعة بنظره المتعب بحثاً عن بوريس وايفيش .

ــ هل تريد طاولة ، ياسيدي ؟

وكان شاب جميل ينحني امامه في هيئة سمسار .

وقال ماتيو : ــ انني ابحث عن شخص .

فعرفه الشاب ، وقال بودّ :

ــ آه ! ها انت يا سيدي ؟ إن الآنسة لولا ترتدي ثيابها وأصدقاؤك في الداخل ، الى اليسار ، واني مرافقك اليهم .

ــ لا ، شكراً . سأجدهم بنفسي . ان روادكم اليوم كثيرون .

ــ نعم ، لا بأس بعددهم . هولانديون . انهم يضججّون كثيراً ، ولكنهم يستهلكون جيداً .

واختفى الشاب . وكان ينبغي الا يفكر المرء بأن يشق لنفسه طريقاً بين الازواج الذين كانوا يرقصون . وانتظر ماتيو : كان يصغي الى التانغو والى جر الاقدام ، وكان ينظر الى التقلبات البطيئة لهذا الاجتماع الصامت . اكتاف عارية ، رأس زنجي ، بياض ياقة ، نساء رائعات ناضجات ، كثير من الرجال المسنّين كانوا يرقصون وعليهم مظهر الاعتذار . وكانت ألحان التانغو الحادة تمر فوق رؤوسهم : لم يكن يبدو على الموسيقيين انهم يعزفون لهم . وتساءل ماتيو : « ماذا جئت افعل هنا ؟ » وكانت سترته تلمع لدى المرفقين ، ولم يكن لبنطلونه

بعدُ أية ثنية ، ولم يكن يرقص جيداً ، وكان غير قادر على ان يتسلّى وهو في تلك البطالة الرصينة . وأحس بالضيق : ان المرء لم يكن يستطيع في مونمارتر ان يشعر بالرضى والراحة ، فان قسوة حائرة كانت ترفرف في الهواء .

وأضاءت اللمبات البيضاء من جديد . وتقدم ماتيو الى الحلبة وسط الظهور الهاربة . وكانت في احدى الزوايا طاولتان ، وإزاء واحدة منهما كان رجل وامرأة يتكلمان بلهجة حادة ، من غير ان ينظر احدهما الى الآخر . وإزاء الاخرى رأى بوريس وايفيش ، وكان احدهما ينحني نحو الآخر باهتمام في قسوة مليئة بالروعة . « لكأنهما راهبان صغيران . » وكانت ايفيش هي التي تتكلم ، وكانت تتحرك حركات حيّة . ولم يسبق لها قط ، حتى في لحظات الثقة ، ان بدت لماتيو في مثل ذلك الوجه . وفكر ماتيو : « كم هما شابان ! » وكانت به رغبة في ان يستدير على عقبيه ويذهب . ولكنه اقترب ، لأنه لم يكن يستطيع بعد ان يتحمّل الوحدة ، وكان يحس انه كان ينظر اليهما من ثقب الباب. انهما سيلاحظانه عما قليل ، وسيديران اليه ذينك الوجهين المتحللين اللذين كانا يواجهان بهما ابويهما والشخصيات الكبيرة ، وسيكون ثمة ، حتى في اعماق قلبيهما ، شيءٌ ما قد تغير . وكان شديد القرب من ايفيش في تلك اللحظة ، ولكنها لم تكن تراه . وكانت قد انحنت على اذن بوريس هامسة . وكانت تشبه قليلاً — قليلاً جداً — اختاً كبيرة ، وكانت تتحدث الى بوريس في تنازل مدهوش . وأحس ماتيو ببعض العزاء : ان ايفيش لم تكن تستسلم كلياً حتى مع اخيها ، بل هي تلعب دور الاخت الكبيرة ، ولم تكن تنسى نفسها قط . وضحك بوريس ضحكة مقتضبة وقال ببساطة :

— مسامير !

ووضع ماتيو يده على طاولتهما . « مسامير ». وكان حوارهما ينتهي

بهذه الكلمة الى الأبد : فكأنها كانت آخر عبــارة في قصة او في مسرحية . وكان ماتيو ينظر الى ايفيش وبوريس : وكان يجدهما بطلي رواية . وقال :

ــ مرحباً .

فقال بوريس وهو ينهض : ــ مرحباً .

والقى ماتيو نظرة سريعة نحو ايفيش : وكانت قد استلقت الى الوراء ورأى عينين كئيبتين ممتقعتين . كانت ايفيش الحقيقية قد اختفت . وفكر في غيظ : « ولماذا الحقيقية ؟ »

وقالت ايفيش :

ــ مرحباً يا ماتيو .

ولم تبتسم ، ولكن كان يبدو عليها كذلك مظهر الدهشة او الحقد؛ كان يبدو عليها انها كانت تجد حضور ماتيو طبيعياً جداً . واشار بوريس الى الجمع بحركة سريعة وقال في رضى :

ــ الحضور كثيرون .

فقال ماتيو : ــ نعم .

ــ هل تريد مكاني ؟

ــ لا ، لا تكلّف نفسك ، فسوف تعطيه الساعة الى لولا .

وجلس . وكانت الحلبة خالية ، ولم يبق ثمة احــدٌ على منصّة الموسيقيين : فان الرعاة كانوا قد انجزوا سلسلتهم من رقصات التانغو ، وكانت جوقة الجاز الزنجية « فرقة هيجينو » توشك ان تحلّ محلّهم . وسأل ماتيو :

ــ ماذا تشربان ؟

وكان الناس يطنّون حوله ، ولم تكن ايفيش قد اساءت استقباله ، وكانت تغمره حرارة رطبة ، وكان يستمتع بالكثافة السعيدة التي يخلّفها الشعور بان يكون رجلاً بين الآخرين .

وقالت ايفيش : — قدح فودكا .
— عجباً ! أصبحت تحبين ذلك ؟
فقالت باقتضاب : — انه قويّ .
فأشار ماتيو الى زبدٍ ابيض في قدح بوريس وسأل بدافع من الإنصاف « وهذا ؟ » وكان بوريس ينظر اليه في إعجاب جذلٍ مشدوه ، فيحسّ ماتيو لذلك بالضيق . وقال بوريس :
— إنه مسلٍّ . هو كوكتيل صاحب الحانة .
— لقد طلبته اذن بدافع التأدّب ؟
— انه يلحُّ عليّ منذ ثلاثة اسابيع لأذوقه . وهو ، لو تعلم ، لا يُحسن صنع الكوكتيل . لقد اصبح صاحب حانة لانه كان مشعوذاً ، وهو يقول انها المهنة نفسها ، ولكنه على ضلال .
قال ماتيو : — أظن ان ذلك بسبب الطاسة ... ثم ان على من يكسر البيض ان يحذق تحريك اليد
— كان خيراً له اذن ان يبقى مشعوذاً . ومهما يكن من امر ، فاني ما كنت آخذ من خليطه القذر لولا انه اعارني مئة فرنك هذا المساء .
فقالت ايفيش :
— ولكن كان معي مئة فرنك .
قال بوريس : — وانا ايضاً ، ولكن لأنه صاحب حانة .
ثم قال موضحاً في دقّة قاسية :
— يجب ان يقترض المرء مالاً من اصحاب الحانات .
فنظر ماتيو الى صاحب الحانة ، وكان واقفاً وراء مشربه ، مرتدياً اللباس الابيض مشبك الساعدين ، يدخّن سيكارته . وكان ذا مظهر هادىء . وقال ماتيو :
— وددت لو كنت صاحب حانة ... لا بد ان يكون ذلك طريفاً...
فقال بوريس : — كان ذلك سيكلفك غالياً ، لانك كنت ستحطّم

كل شيء .

وساد صمت : كان بوريس ينظر الى ماتيو ، وكانت ايفيش تنظر الى بوريس .

وقال ماتيو في نفسه باكتئاب : « ان وجودي هنا لا ضرورة له » ومدّ له الخادم لائحة المشروبات : وكان عليه ان يكون حذراً ، فهو لا يملك بعد اكثر من خمسمئة فرنك . وقال ماتيو :

— ويسكي .

وأخذه فجأةً نفورٌ من التوفير ومن هذه الحزمة القابعة في محفظته . فنادى الخادم :

— انتظر . انني افضل قدح شمبانيا .

واخذ اللائحة من جديد . وكان سعـــر « الموم » ٨٠٠ فرنك . وقال لايفيش :

— وانت تأخذين منه ؟

— كلا (وبعد لحظة تفكير) نعم . هذا افضل .

— اعطنا زجاجة « موم » ذات شريطة حمراء .

قال بوريس : — يسرّني ان اشرب الشمبانيا لاني لا احبه . ويجب ان اعتاد .

فقال ماتيو : — انكما ، كليكما ، منفوخان . تشربان دائماً مشروبات لا تحبانها .

وتفتّح بوريس : كان يلذّه ان يحدّثه ماتيو بهذه اللهجة . وعضّت ايفيش على شفتيها . وفكر ماتيو في شيء من الارتياح : « لا يستطيع المرء ان يقول لها شيئاً . فان احدهما لا بد ان يغتاظ . » وكانا هناك، تجاهه ، متنبّهين ، قاسيين . كان كل منهما قد صنـــع لنفسه صورة خاصة عن ماتيو ، وكانا يطلبان منه ان يشبهها . غير ان هاتين الصورتين لم تكونا قابلتين للتوفيق .

وصمتوا .

وارخى ماتيو ساقيه وابتسم من الرضى . وكانت ألحان بوق تبلغه في دفعات ، مُزّةً مجيدة ؛ ولم يكن يفكر في ان يلتمس فيها نغماً : كان حَسْبُه أنها هناك ، وانها تحدث ضجيجاً ، وكان هذا يخلّف لديه متعةً ضخمة تكاد تكون جسدية . طبعاً ، كان يدرك جيداً انه كان انساناً هالكاً ؛ ولكن ذلك ، في آخر المطاف ، في هذا المرقص،وازاء هذه الطاولة ، ووسط جميع هؤلاء الآخرين الهالكين مثله ، ان ذلك لم يكن ذا أهمية كبيرة ، ولم يكن شاقاً على الاطـلاق . وأدار رأسه : كان صاحب الحانة ما زال يحلم ؛ وكان الى اليمين رجـلٌ ذو نظارة واحدة ، وكان وحده ، ذا وجه مدمَّر . وأبعد قليلاً ، كان ثمة رجل آخر وامامه ثلاث كؤوس ومحفظة سيدة ؛ لا بد ان زوجته وصديقه يرقصان ، وكان يبدو عليه انه اقرب الى الارتياح والعزاء : وقـد تثاءب طويلاً خلف يده ، وطرفت عيناه الصغيرتان في نشوة . وكانت في كل مكان وجوه باسمة ونظيفة ، وعيونٌ مجوّفـة . واحس ماتيو فجأة انه متضامن مع جميع هؤلاء الاشخاص الذين كان خيراً لهم لو عادوا الى منازلهم ؛ ولكنهم لم يكونوا حتّى ليقووا على ذلك ، فكانوا يلبثون هناك يدخنّون لفائف دقيقة ، ويشربون مزيجـاً ذا مذاق من فولاذ ، ويبتسمون وآذانهم تقطر موسيقى ، ويتأملون بعيونهم الفارغة شظايا قَدَرهم ؛ وأحسّ نداء خفياً لسعادة متواضعة جبانة : « لو كنت مثلهم ... » وأخذه الخوف فانتفض ، والتفت الى ايفيش . لقد كانت ملاذه الوحيد ، بالرغم مما كانت تبدو عليه من حقد وابتعاد . وكانت ايفيش تنظر الى السائل الشفّاف الذي كان باقياً في كأسهـا : كانت تحول عينيها في قلق . وقال بوريس :

— يجب ان تشرب دفعة واحدة .

فقال ماتيو : — لا تفعل ذلك ، فانك سوف تحرق حنجرتك.

قال بوريس في قسوة : – ان الفودكا تُشرب دفعة واحدة .
وتناولت ايفيش كأسها :
– اني افضل ان اجرعها دفعة واحدة ، فهي بذلك تنتهي سريعاً .
– لا ، لا تشربي . انتظري الشامبانيا .
فقالت في غيظ : – يجب ان التهم ذلك ، فاني اريد ان أتسلّى .
وانقلبت الى خلف وهي تُدني الكأس من شفتيها ، وافرغت كل محتواها في فمها ؛ وكانت تبدو وكأنها تملأ ابريقاً . وظلت كذلك لحظة لا تجرؤ على الجرع ، وفي جوف حلقها تلك البحيرة النارية الصغيرة . وكان ماتيو يتألم من اجلها .
وقال لها بوريس :
– إجرعي ! تخيّلي انه ماء : فليس هناك الا هذا .
وانتفخ عنق ايفيش ، ووضعت الكأس وعلى وجهها كزازة فظيعة ؛ وكانت عيناها مملوءتين بالدمع . وكان من شأن السيدة السمراء، جارتهم ، ان تركت لحظة حلمها الجذل ، واسقطت عليها نظرة مليئة بالتوبيخ .
وقالت ايفيش :
– اوه ! انه يحرق ... هذا نار !
قال بوريس : – سأشتري لك زجاجة من اجل ان تتدرّبي .
وفكرت ايفيش لحظة :
– خيرٌ لي ان اتدرّب بعصير الفاكهة ، فهو اقوى .
واضافت في شيء من ضيق : – احسب اني سأستطيع الآن ان أتسلّى .
فلم يجبها احد . والتفتت بحيوية الى ماتيو : وكانت هذه هي المرة الاولى التي تنظر اليه :
– انت ، هل تقاوم الخمرة جيداً ؟
قال بوريس : – هو ! انه فظيع ! لقد شرب سبعة اقداح من

الويسكي حين كان ذات يوم يحدثني عن « كانت » . وانتهى الامر بي الى اني بتّ لا اسمع ، فقد ثملت بدلاً منه .

وكان ذلك صحيحاً : ان ماتيو لم يكن يستطيع ان يضيع نفسه ، حتى في مثل هذه الحالة . ففي الوقت كله الذي كان يشرب فيه، كان يتعلّق بأي شيء . واستعاد فجأة غوغان ، بسحنته الضخمة المتقعة ذات العينين الفارغتين ؛ وفكر : « بكرامتي الانسانية . » وكان يخشى ، اذا هو استسلم لحظة ، ان يجد في رأسه فجأة فكرة ذبابة او صرصور ، تائهة عائمة كغيمة من الحرّ . وقال موضحاً في ذلّ :

– انني استفظع ان أثمل . انني اشرب ، ولكني ارفض السُكْر بكل قُواي .

فقال بوريس بإعجاب : – الحقيقة انك في هذا عنيد ، بل اعند من بغل !

– لست عنيداً ، ولكني متوتّر : فأنا لا أُحسن التراخي والاستسلام. يجب عليّ دائماً ان افكر بما يحدث لي ، وهذا سلاح للدفاع .

واضاف في سخرية ، كأنما يحدث نفسه :

– انني قصبة مفكّرة .

كأنما يحدث نفسه . ولكن ذلك لم يكن صحيحاً ، انه لم يكن صادقاً : لقد كان يودّ في الحقيقة ان لا يروق لايفيش . وفكر : « أتراني اذن بلغتُ هذا ؟ » لقد بلغ ان يغتنم فرصة انهيارها ، ولم يكن يحتقر ان يستغل من ذلك فوائد دقيقة ، وكان يستخدمها ليتقدّم من الفتيات الصغيرات بحركات متأدبّة . « دنيء ! » ولكنه توقّف مذعوراً : فحتى حين كان يصف نفسه بالدناءة ، لم يكن كذلك صادقاً ؛ انه لم يكن مغتاظاً حقاً . لقد كانت هذه طريقة ليستدرك نفسه ؛ كان يظنّ انه ينقذ نفسه من الاحتقار بـ «الصفاء» ، ولكن هذا الصفاء لم يكن يكلّفه شيئاً ، بل كان بالاحرى يسلّيه . وهذا الحكم نفسه الذي كان يحمله

عن صفائه ، هذه الطريقة في ان يتسلّق على كتفيه هو بالذات ...
« يجب ان أتغير حتى العظام . » ولكن لم يكن ثمة ما يستطيع ان يعينه على ذلك : فقد كانت افكاره جميعاً ملوثة منذ مولدها . وفجأة ، انفغر ماتيو كالجرح ، رأى نفسه كلّه منتفخاً : افكار ، افكار على افكار ، افكار على افكار على افكار ، كان شفافاً حتى اللانهاية ، وفاسداً حتى اللانهاية . ثم انطفأ ذلك ، فالفى نفسه جالساً تجاه ايفيش التي كانت تنظر اليه نظرة غريبة . وسألها :

ـ هل درست اذن في المدة الاخيرة ؟

فهزت ايفيش كتفيها في غضب :

ـ لا اريد ان يحدثني احدٌ في هذا ! لقد مللت ذلك ، وانا هنا لأتسلّى .

ـ لقد قضت نهارها متجمّعة على الديوان ، وعيناها تشبهان صحنين !

واضاف بوريس باعتزاز ، من غير ان يهتمّ بالنظرة السوداء التي كانت اخته ترميه بها :

ـ انها طريفة ! يمكن لها ان تموت برداً في ابان الصيف .

وكانت ايفيش قد ارتعشت ساعات طويلة ، ولعلها بكت . اما الآن، فلم يكن شيء ليبدو عليها : كانت قد وضعت مسحوقاً ازرق على جفنيها ، وحمرةً فريزية على شفتيها ، وكانت الحمر يلهب وجنتيها ، وكانت كلها نابضة متفجّرة . وقالت :

ـ اودّ لو اقضي امسيةً عظيمة ، لأن هذه آخر أمسية لي .

ـ انك مضحكة .

فقالت بعناد : ـ بلى ، سوف اسقط ، اعرف ذلك ، وسأرحل على الفور ؛ فلن استطيع ان ابقى يوماً واحداً بعد في باريس ، والاّ ...

والآن ...

– لا شيء . ارجوك ، لا تتحدث بعد بهذا ، فانه يذلّني . آه ! (واضافت بمرح) هي ذي الشمبانيا .

ورأى ماتيو الزجاجة ففكر : « ٣٥٠ فرنكاً » . ان الرجل الذي لحقه بالأمس ، في شارع فرسانجيتوري ، كان هو ايضاً هالكاً ، ولكن بكل تواضع ؛ من غير شمبانيا ولا حماقات جميلة ؛ ثم ان فوق ذلك كان جائعاً . واشمأز ماتيو من الزجاجة ، كانت ثقيلة وسوداء ؛ وكان لها حول عنقها منديل ابيض . وكان الخادم منحنياً فوق دلو الثلج بتكلف ووقار واحترام ، يديره بطرف أصابعه في براعة . وكان ماتيو ما يزال ينظر الى الزجاجة ، وما يزال يفكر برجل الأمس ؛ فيحس قلبه منقبضاً بضيق حقيقي ؛ ومن قبيل الصدف انه كان ثمة تلك اللحظة ، على المنصّة ، شاب رصين يغني في بوق . ثم كانت هناك تلك الزجاجة التي كانت تدور بأناقة تحت الاصابع الصفر ، وجميع اولئك الاشخاص الذين كانوا يتألمون في عصرهم من غير ان يفعلوا مثل هذه المشاكل . وفكر ماتيو : « ان رائحة الخمر الأحمر تنبعث منها ، والواقع انها تشبهها . ثم انني لا احب الشمبانيا » وبدا له المرقص كله جحيماً صغيراً خفيفاً كفقّاعة صابون ، وابتسم .

وسأله بوريس وهو يضحك مقدماً : – لماذا تتلوّى من الضحك ؟

– تذكرت انني انا ايضاً لا أحب الشمبانيا .

واخذوا جميعاً يضحكون . وكانت ضحكة ايفيش ثاقبة ؛ وقد ادارت جارتها رأسها وحدجتها . وقال بوريس : « اننا مغتبطون » ثم اضاف :

– بوسعنا ان نفرغها في دلو الثلج حين يذهب الخادم .

فقال ماتيو : – كما تشاء .

قالت ايفيش : – كلا . اريد ان اشرب ، انا . وسأشرب الزجاجة

كلها اذا كنتما لا تريدان ان تشربا منها .
وسكب الخادم الخمرة ، وحمل ماتيو كأسه الى شفتيه في كآبة .
وكانت ايفيش تنظر الى كأسها في تبرّم . وقال بوريس :
– لن يكون شيئاً رديئاً اذا كان قد قُدّم لنا وهو يغلي .
وانطفأت اللمبات البيض ، واضيئت اللمبات الحمر مرة اخرى ، وانبعثت ضربات طبل . وقفز الى المنصة رجلٌ قصير اصلع مكتنز الجسم يرتدي السموكنغ واخذ يبتسم في بوق :
– سيداتي وساداتي ، يسر ادارة « سومطرا » ان تقدم لكم الآنسة الينور (وكرّر) الآنسة الـ – لـ – ينو – ر . ها !
ودخلت الى القاعة ، لدى اول نغمات رقصة شعبية ، فتاة طويلة شقراء . وكانت عارية ، وكان جسمها يبدو ، في الهواء الأحمر ، قطعة قطن كبيرة . والتفت ماتيو الى ايفيش : كانت تنظر الى الفتاة العارية بعينيها الكبيرتين الصفراوين على سعتهما ؛ وكانت قد اتخذت مظهرها القاسي الأهوس . وهمس بوريس :
– انني اعرفها .
وكانت الفتاة ترقص ، وقد استخفتها رغبة مجنونة بان تروق للجمهور ؛ وكانت تبدو غير بارعة ، وكانت تقذف بقوة ساقيها الى امام ، واحدة بعد الاخرى ، وكانت قدماها تبرزان في نهاية ساقيها كالأصابع . وقال بوريس :
– سوف تهدم نفسها ، وستندم !
والواقع انه كان في اطرافها الطويلة رخاصةٌ مقلقة ؛ وكانت حين تضع رجليها على الارض ، تأخذ ساقيها رعشاتٌ تهزّهما من الأخمص الى العجز . واقتربت من المنصة والتفتت ، ففكر ماتيو : « والآن ، ستشتغل بردفيها » وكانت ضجة الأحاديث تغطي الموسيقى في موجات . وقالت جارة ايفيش وهي تزوي شفتيها :

انها لا تحسن الرقص . وحين يكون ثمن المشروب خمسة وثلاثين فرنكاً ، فيجب الاعتناء بالبرنامج .

وقال الرجل السمين : — ان عندهم « لولا مونتيرو »

— هذا لا يغيّر الحقيقة . انه لأمر معيب ، فقد لمّوا هذه من الشارع .

وشربت جرعة من كأسها الممزوج واخذت تلعب بخواتمها . واجال ماتيو نظره في القاعة فلم يلتق الا بسحنات قاسية رصينة . وكان الناس يتلذّذون بغيظهم : فقد كانت الفتاة تبدو لهم عارية مرتين ، لأنهـا كانت عديمة الحذق . وكأنها كانت تشعر بعداوتهم وكانت تأمل ان تعطفهم عليها . ودهش ماتيو لارادتها المصممة المتفانية : فقد كانت تمدّ لهم ساقيها المنفرجتين في موجة من حماسةٍ تمزّق القلب . وقال بوريس :

— ما أشدّ ما تنفق نفسها !

فقال ماتيو : — انها لن تنجح ، فالناس يريدون ان يحترموا .

— بل يريدون خاصةّ ان يروا إستات .

صحيح ، ولكن يجب إحاطة ذلك باطارٍ من الفنّ .

وذات لحظة انثنت ساقا الراقصة تحت وهن ردفيها الجذلين ، فنهضت وهي تبتسم ورفعت ذراعيها في الهواء وهي تهزّهما ، فسقطت منها رعشات انزلقت الى الراسلين ، وجاءت تتلاشى في ثنية الاصلاب .

وقال بوريس :

— ما أصلب وركيها . ان هذا لعجيب !

فلم يجب ماتيو ، وكان يفكر في ايفيش . ولم يكن يجرؤ على النظر اليها ، ولكنه كان يتذكر مظهرها القاسي ؛ ان هذه الصبية الملعونة كانت ، في آخر المطاف ، كجميع الناس : كانت تلتهم بعينيها ، في احساسٍ من الفظاظة ، هذا اللحم المسكين العاري ، وهي محمية بجمالها ،

بثيابها الرصينة . وصعدت الى شفتي ماتيو موجة من الحقد سمّمت فمه :
« لم يكن الامر يستحق ما اخذت نفسي به من تكلّف وحذر ، في هذا الصباح . » ولوى رأسه قليلاً ، فرأى قبضة ايفيش متشنجة فوق الطاولة . وكان ظفر الإبهام القرمزي الرهيف يتجه الى الحلبة كأنه سهمٌ للإشارة . وفكر « انها متوحّدة ، وهي تخفي وراء شعرها وجهها المضطرب ، وهي تضم ساقيها ، انها تلتذّ ! » وكانت هذه فكرة لا يحتملها ، وقد اوشك ان ينهض ويمضي ، ولكنه لم يكن يقوى على ذلك ، فاكتفى بأن فكر : « انما احبها لطهارتها » . وكانت الراقصة ويداها على خاصرتيها ، تنتقل على عقبيها ، فلامست طاولتهم بجنبها . وودّ ماتيو لو يشتهي هذه الوسادة ليتلهّى عن افكاره ، وليمثّل مع ايفيش فصلاً جميلاً . وكانت الفتاة قد قرفصت ، مباعدةً ما بين ساقيها ، وكانت تؤرجح ردفيها على مهل من امام الى وراء ، كأحد هذه المصابيح الصفراء التي تنوس ليلاً في المحطات الصغيرة وهي معلّقة بذراعٍ غير مرئية . وقالت ايفيش :

– تفه ! انني لا اريد بعدُ ان اراها .

فالتفت اليها في دهشة ، ورأى وجهاً مثلثاً متحلّلاً بالغضب والاشمئزاز . وفكر في عرفان « انها لم تتأثر » . وكانت ايفيش ترتعش ، وودّ ان يبتسم لها ، ولكن رأسه امتلأ بالجلاجل ؛ وتسلّل بوريس وايفيش والجسد الداعر والغيمة الحمراء خارج متناول يده ، فاذا هو وحيد ، واذا في البعيد نارٌ من بنغال ، وفي الدخان مسخٌ بأربع سيقان يستعرض براعته ، وكانت موسيقى حفلة تبلغه في قفزات عبر ضجيج اوراق رطبة . وتساءل : « ماذا دهاني ! » كان ذلك كالصباح : فانه لم يكن حوله بعد الا مشهد ،وكان ماتيو في مكان آخر .

وكفّت الموسيقى فجمدت الفتاة مولية وجهها شطر القاعة . وكان لها فوق بسمتها عينان جميلتان يائستان . ولم يصفّق احد ، وندّت بعض

ضحكات جارحة . وقال بوريس :

ـ متوحشون !

وصفّق بيديه في قوة ، فالتفتت اليه وجوه دهشة ، وقالت ايفيش غاضبة :

ـ اتريد ان تكفّ ؟ انك لن تصفّق لها .

فقال بوريس وهو يصفّق : ـ انها تفعل ما تستطيع . وهذا أولى !

فهز بوريس كتفيه وقال : ـ انني اعرفها . لقد تعشيت معها ومع لولا ، وهي فتاة طيبة ولكنها قاصرة الخيال .

واختفت الفتاة وهي تبتسم وترسل القبلات . وغمر القاعة نورٌ ابيض ؛ فكانت اليقظة : كان الناس مسرورين ان يتلاقوا فيما بينهم بعد ان اخذت العدالة مجراها ، واشعلت جارة ايفيش سيكارة وبسطت وجهها لنفسها وحدها . ولم يكن ماتيو ليستيقظ ، وانما كان غارقاً في كابوسه الابيض ، وكانت الوجوه تتفتح حوله في اكتفاء ضاحك رخو ، ولم يكن يبدو على معظمها انها مسكونة . اما وجهي فلا بدّ انه كذلك ، ولا بدّ انه يملك ملاءمة العينين وزوايا الفم ، ومع ذلك ، فلا بد ان يُرى انه كان أجوف .. كان وجه كابوس ، ذلك الرجل الذي كان ينطنط على المنصّة ويقوم بحركات يطلب فيها السكوت ، وعليه مظهر من يتلذّذ سلفاً بالدهشة التي سوف يُحدثها ، بأن يتصنع انه يُسقط إسقاطاً في البوق ، من غير تعليق ، وبكل بساطة ، الاسم الشهير :

ـ لولا مونتيرو !

واهتزت القاعة مشاركة وحماسة ، وانفجر التصفيق وبدا بوريس مفتوناً .

ـ انهم منشرحون تماماً ، وسوف يمشي الحال .

وكانت لولا قد التصقت بالباب ؛ وكان وجهها المسطّح الحرب

يشبه من بعيد فم أسد ، وكان كتفاها في بياضهما الراعش ذي الاشعاعات الخضراء تشبهان ظلال شجرة في مساء عاصف تحت اضواء سيّارة .
وتمتمت ايفيش :
ما اجملها !
واقتربت بخطى واسعة هادئة ، في يأس مليء بالارتياح ؛ وكانت لها يدا سلطانة صغيرتان ومحاسنها المثقلة ، ولكنها كانت تضفي على مشيتها سخاء رجل .
وقال بوريس في اعجاب :
– انها تنثر حولها الرضى ، فهم لن يحاولوا ان يجعلوها تتعثر .
وكان هذا صحيحاً : فان جلوس الصف الاول كانوا قد تقهقروا على كراسيهم مستشعرين الرهبة ، يكادون لا يجرؤون على النظر عن كثب الى هذا الوجه المجيد . وجه خطيب كبير شعبيّ ، عليه ظلّ من الأهمية السياسية : كان الفم يدرك عمله ، وكان قد ألف التثاؤب العريض ، وكانت الشفتان بارزتين لتقيئا الفظاعة والاشمئزاز ولتنقلا الصوت الى بعيد . وتجمّدت لولا فجأة ، فتنهدت جارة ايفيش عجباً وإعجاباً ، وفكر ماتيو « لقد استولت عليهم » .
واستشعر الضيق : لقد كانت لولا في صميم ذاتها شامخة ومهووسة ، غير ان وجهها كان يكذب فيمثّل الشموخ والهوس . وكانت تتألم ، لان بوريس كان يوئسها ، غير انها كانت تغتنم دورها في الغناء ، خمس دقائق في اليوم ، لتتألم في فنّ ! « حسناً ! وانا ؟ ألست أتألم في فن ، وامثل دور الشخص الهالك بمرافقة الموسيقى ؟ (وفكر) ومع ذلك ، فانا حقاً شخص هالك . » وكان الوضع حوله شبيهاً : كان ثمّة اشخاص غير موجودين على الاطلاق ، أبخرة ، ثم كان هناك اشخاص موجودون اكثر مما ينبغي . كصاحب الحانة مثلاً . لقد كان الساعة يدخن سيكارة يبدو غامضاً شاعرياً كأنه شجرة لبلاب ، اما الآن فقد استيقظ ، فاذا

هو صاحب حانة اكثر مما ينبغي ، كان يهزّ الدلو ويفتح الزجاجة ويدلق منها زبداً اصفر في كؤوس بحركات ذات دقة مبالغ فيها : كان يمثّل دور صاحب الحانة . وفكر ماتيو في برونيه . « لعل المرء لا يستطيع ان يفعل غير ذلك ، ولعل عليه ان يختار : اما ان لا يكون شيئاً او ان يمثل ما هو . (وقال في نفسه) سيكون هذا مريعاً ، لان المرء سيكون مزوّراً بطبيعته . »

وأجالت لولا نظرها في القاعة ، على غير ما عجل . وكان قناعها المتألم قد قسا وتجمّد ، فكان يبدو منسياً على وجهها . ولكن ماتيو حسب انه يفاجيء في جوف عينيها ، ووحدهما كانتا حيّتين ، وشعلةً من فضول مرّ ومهدّد لم يكن فيه تمثيل . ورأت اخيراً بوريس وايفيش فبدت مطمئنة . وابتسمت لها بسمة كبيرة مليئة بالطيبة ، ثم أعلنت بلهجة ضائعة :

ـ اغنية بحار : جوني بالمر .

وقالت ايفيش : ـ احبّ صوتها ، لكأنه قطعة مخمل كبيرة مضلّعة .

ـ نعم .

وفكر ماتيو : « جوني بالمر ايضاً ! »

وبدأت الموسيقى ، ورفعت لولا ذراعيها الثقيلتين . هكذا اذن ، انها تصلّب ، ورأى فماً دامياً ينفتح :

من هو قاسٍ ، حسود ، مرير ؟
ومن يغشّ في اللعب ، حين يخسر ؟

ولم يعد ماتيو يصغي ، وكان خجِلاً امام هذه الصورة للألم . كان يدرك جيداً انها لم تكن الا صورة ، ولكن مع ذلك ...

« لست اعرف ان اتألم ، انني لا اتألم ابداً بما فيه الكفاية . »

كان أشقّ ما في العذاب ، أنه كان شبحاً ، وان المرء يقضي وقته في

الجري خلفه ، ويحسب دائماً انه سيدركه ويرتمي في داخله ويتعذب حقاً وهو يكزّ على اسنانه ، ولكنه ما ان يسقط فيه حتى يفرّ ، فلا يجد المرء بعد الا نثاراً من كلام وألوفاً من المحاكمات العقلية المجنونة تضج بدقة « ان ذلك يثرثر في رأسي ، ولا يني يثرثر ، واني اعطي ايّ ثمن لاستطيع ان اصمت . » ونظر الى بوريس في غيرة ، لا بدّ ان وراء هذا الجبين المصدوم ألواناً عظيمة من الصمت .

من هو قاسٍ ، حسود ، مرير ؟

انه جوني بالمر !

« انني اكذب ! » كان انهياره ، وانتحابه اكاذيب وفراغاً ؛ كان قد قذف نفسه في الفراغ ، على سطح نفسه ، ليفلت من ضغط عالمه الحقيقي ، هذا الضغط الذي لا يحتمل . عالم اسود شديد الحرارة يُنتن الاثير . في ذلك العالم ، لم يكن ماتيو شخصاً هالكاً — على الاطلاق ، بل كان اسوأ من ذلك : كان جذلاً — جذلاً ومذنباً ، وكانت مارسيل هي التي ستكون هالكة اذا لم يجد خمسة آلاف فرنك قبل اليوم التالي . ستكون هالكة حقاً . من غير غنائية ؛ لان ذلك يعني انها ستبيض الطفل او انها ستموت بين يدي امرأة عقاقيرية . في ذلك العالم لم يكن العذاب حالة نفسية ، ولم تكن ثمة حاجة الى الكلمات للتعبير عنه : وانما كان مظهراً للاشياء . « تزوّجْها ايها البوهيمي المزيف ، تزوجها يا عزيزي ، لماذا لا تتزوجها ؟ » وفكر ماتيو في اشمئزاز : « اراهن انها ستموت من ذلك . » وصفّق الجميع وتنازلت لولا فابتسمت ، وانحنت وقالت :

— اغنية من اوبرا « الفلوس الاربعة » : خطيبة القرصان .

« لا احبّها حين تغني هذا . لقد كانت مارغوليون ابرع منها . اشدّ غموضاً . اما لولا فهي عقلانية ، وهي بلا غموض . ثم انها طيبة اكثر مما ينبغي . انها تكرهني ، ولكن كراهية كبيرة صريحة ، وهذا

امر سليم ، كراهية انسان شريف . » وكان يستمع بشرود الى هذه الافكار الخفيفة التي كانت تركض كالفئران في مستودع حبوب . وكان تحت ذلك نعاس ثقيل حزين ، عالم ينتظر في صمت : لا بدّ ان يسقط فيه ماتيو عاجلاً ام آجلاً . وتمثّل مارسيل ، تمثّل فمها القاسي وعينيها الشاردتين : « تزوجها ايها البوهيمي المزيّف ، تزوجها ، لقد بلغت سنّ الرشد ، يجب ان تتزوجها . »

سفينة حربية
ذات ثلاثين مدفعاً في الكوى
ستدخل المرفأ

« كفى ، كفى ! سأجد المال ، لا بد ان اجده والا تزوجتها ، هذا مفهوم ، فلست دنيئاً جباناً ، ولكن هذا المساء ، هذا المساء فقط ، دعوني من هذا كله ، اريد ان انسى ؛ ان مارسيل لا تنسى ، انها في الغرفة ، متمدّدة فوق السرير ، انها تتذكر كل شي ، وهي « تراني » وتصغي الى ضجّات جسمها ، وبعد ذلك ؟ سيكون لها اسمي ، وحياتي كلها عند اللزوم ، ولكن هذه الليلة لي . » والتفت الى ايفيش ، وارتمى نحوها ، فابتسمت له ، ولكنه صدم انفه بجدار زجاجي بينما كان الناس يصفقون ، ويطلبون « اغنية اخرى ، اغنية اخرى . » فلم تبال لولا بهذه الابتهالات : فقد كان لها دورٌ غنائي آخر ، عند الساعة الثانية صباحاً ، وكانت ترفق بنفسها . وحيّت الجمهور مرتين ، واقتربت من ايفيش ، فالتفتت رؤوس الى طاولة ماتيو ، ونهض ماتيو وبوريس :

— مرحباً يا صغيرتي ايفيش ، كيف الحال ؟

وقالت ايفيش بلهجة رخوة : — مرحباً لولا .

ولامست لولا ذقن بوريس بيد خفيفة :

— مرحباً ايها اللئيم .

وكان صوتها الهادىء الرصين يضفي على كلمة « لئيم » لوناً من الجدارة ؛ وكان يبدو ان اولا تقصّدت اختيارها من الكلمات الرديئة المؤثرة التي تطفح بها اغانيها . وقال ماتيو :

– تحية يا سيدتي .

فقالت : – آه ! انت هنا ايضاً ؟

وجلسوا . والتفتت لولا الى بوريس ، وكان يبدو انها مرتاحة كل الارتياح .

– يظهر انهم طاردوا الينور ؟

– انهم يتكلمون عنها .

– لقد جاءت تبكي في غرفتي . وكان سارونيان غاضباً ، فهذه هي المرة الثالثة منذ ثمانية ايام .

وسأل بوريس في قلق : – انه لن يسرّحها ؟

– كان راغباً في ذلك : فليس بينهما تعاقد . فقلت له : اذا ذهبت، ذهبتُ معها .

– وماذا قال ؟

– ان بوسعها ان تبقى اسبوعاً آخر .

وأجالت نظرها في القاعة وقالت بصوت مرتفع :

– ان الجمهور قذر ، هذا المساء .

قال بوريس : – عجباً ! ليس هذا رأيي !

وكانت جارة ايفيش التي كانت تلتهم لولا بعينيها في وقاحة قد ارتعشت . وأخذت ماتيو رغبة في الضحك ، وكان يجد لولا قريبة جداً الى القلب . وقالت لولا :

– ذلك انك غير معتاد . حين دخلت رأيت فوراً انهم ارتكبوا عملاً رديئاً ، فقد كان مظهرهم سيئاً . (واضافت) هل تعلم ؟ اذا فقدت الفتاة مكانها ، لم يبق لها الا ان تكون فتاه رصيف .

ورفعت ايفيش رأسها فجأة ، وكان الشرود بادياً عليها ، فقالت في عنف :

ـ لا يهمني ان تكون فتاة رصيف ، ان ذلك يناسبها اكثر من الرقص .

وكانت تجهد في ان يظل رأسها مستقيماً وعيناها الورديتان الحائلتان مفتوحتين . وفقدت شيئاً من اطمئنانها ، فأضافت في لهجة مصالحة عاجلة :

ـ طبعاً ، انني ادرك ان عليها ان تكسب قوتها .

فلم يجب احد : فتألم ماتيو من اجلها : لقد كان شاقاً عليها ان تبقي رأسها مستقيماً . وكانت لولا تنظر اليها في سكينة ، كما لو انها كانت تفكر : « طفلة ثري . » وضحكت ايفيش ضحكة صغيرة وقالت بلهجة خبيثة :

ـ لست بحاجة الى الرقص .

وانكسرت ضحكتها وهوى رأسها . وقال بوريس في هدوء :

ـ ما اشد ما تقاوم !

وكانت لولا تتأمل رأس ايفيش في فضول . وبعد لحظة ، مدت يدها الصغيرة السمينة ، فتناولت شعر ايفيش في قبضتها ورفعت لها رأسها ، وكان يبدو عليها مظهر الممرضة :

ـ ماذا دهاك ياصغيرتي ؟ هل افرطت في الشرب ؟

وكانت تزيح خصلات ايفيش الشقراء ، كأنها تزيح ستاراً ، كاشفة عن خدين ممتقعين بارزين . وفتحت ايفيش عينين محتضرتين ، وتركت رأسها يهوي الى خلف . وفكر ماتيو من غير انفعال : «سوف تقيء .» وكانت لولا تشد شعر ايفيش شدات صغيرة .

ـ افتحي عينيك ، افتحي عينيك ! هل تريدين ان تنظري الي ؟ فانفتحت عينا ايفيش على سعتهما ، وكانتا تلتمعان بالكراهية ، وقالت

بصوت واضح مثلّج :
– حسناً ! هأنذا انظر اليك !
قالت لولا : – عجباً ! لست ثملة الى الحد الذي ظننت ! X
وتركت شعر ايفيش . فرفعت ايفيش يديها بحيوية وردّت خصلاتها على خديها ، وكانت تبدو وكأنها تسوّي قناعاً ، والواقع ان وجهها المثلث عاد فظهر تحت اصابعها ، ولكن بقي حول فمها وفي عينيها شيء ما لزج ومنهوك . وظلت لحظة بلا حراك ، تشبه السائر في النوم ، بينما كانت الجوقة تعزف رقصة « سلو » . وسألت لولا :
– هل تدعوني للرقص ؟
فنهض بوريس وأخذا يرقصان . وتابعهما ماتيو بنظره ، ولم يكن راغباً في الكلام . وقالت ايفيش بلهجة غامضة :
– ان هذه المرأة توبخني .
– لولا ؟
– كلا . جارتي . انها توبخني .
فلم يجب ماتيو . واستتلت ايفيش :
– كنت اود كثيراً ان اتسلّى هذا المساء ... وهكذا ! انني اكره الشمبانيا .
« لا بد انها تكرهني ايضاً ، لأني انا الذي حملتها على شربها . »
وأدهشه ان يراها تتناول الزجاجة من الدلو وتملأ قدحها ، فسألها :
– ماذا تفعلين ؟
– اعتقد انني لم اشرب قدراً كافيا منها . هناك درجة يجب بلوغها ، وبعدها يكون المرء في حالة جيدة .
ففكر ماتيو بأنه كان عليه ان يمنعها من الشرب ، ولكنه لم يفعل شيئا . وحملت ايفيش القدح الى شفتيها فارتسمت على وجهها كزازة اشمئزاز وقالت وهي تضع القدح :

– كم هو رديء !

ومرّ بوريس ولولا قرب طاولتهما ، وكـانا يضحكان . وصاحت لولا :

– كيف الحال ، ايتها الفتاة الصغيرة ؟

فقالت ايفيش ببسمة ودية : على خير ما يرام الآن .

واخذت قدح الشمبانيا وافرغته دفعة واحدة من غير ان تغادر لولا بعينيها . فبادلتها لولا بسمتها ، وابتعد الراقصان . وكان يبدو عـلى ايفيش انها مفتونة ، فقالت بصوت لا يكاد يسمع :

– انها تشدّه اليها ، وهذا ... مضحك . فهي تشبه الغولة .

وقال ماتيو في نفسه : « انها تغار ، ولكن من ايهما ؟ »

كانت نصف سكرى ، وكانت تبتسم بسمة مهووسة وهي منشغلة ببوريس ولولا . وكانت تهتم به كما تهتم بشجرة كرز ، وكان فقط وسيلةً تمكنها من ان تتكلم بصوت مرتفع : فان ابتساماتها ومظاهرها وجميع الكلمات التي تقولها ، انما كانت توجهها لنفسها عبره هو. وفكر ماتيو : « لا بـد ان ذلك امرٌ لا احتمـله ، وهو يدعني بارداً تماما . »

وقالت ايفيش فجأة :

– لنرقص .

فانتفض ماتيو :

– ولكنك لا تحبين ان ترقصي معي .

قالت ايفيش : – لا بأس ، انني سكرى .

ونهضت وهي تترنّح ، وكادت تسقط ولكنها امسكت بطرف الطاولة . وأخذها ماتيو بين ذراعيه وحملها ، فدخلا في حمّام بخاري ، فانطبق الجمع عليهما ، مظللاً معطراً . وذات لحظة ابتُلع ماتيـو ، ولكنه سرعان ما وجد نفسه ، وكان يسير خلف زنجي ، وكان وحيداً ،

اذ كانت ايفيش قد طارت منذ الخطوات الاولى فهو لا يحس بها بعد.

– كم انت خفيفة !

واخفض عينيه فرأى اقداماً وفكر : « هناك كثيرون لا يرقصون خيراً مني » وكان يمسك بايفيش بعيدة عنه ، في طرف ذراعه تقريباً، ولم يكن ينظر اليها . وقالت :

– انت ترقص بدقة . ولكن الظاهر ان ذلك لا يروق لك .

قال ماتيو : – انه يخيفني .

وابتسم : – انت مدهشة . كنت منـــذ لحظة لا تزالين تستطيعين السير . وها انت ترقصين الآن كأنك محترفة .

فقالت ايفيش : – استطيع ان ارقص وانا سكرى ميتة ، واستطيع ان ارقص طول الوقت ، فهذا لا يُتعبني .

– حبذا لو كنت كذلك .

– انك لن تستطيع .

– اعرف ذلك .

وكانت ايفيش تنظر حولها في عصبية ، وقالت :

– انني لا ارى بعدُ الغولة .

– لولا ؟ هي الى اليسار خلفك .

قالت : – لنذهب نحوهما .

وصدما زوجاً من الراقصين هزيلاً ، فاعتذر منهما الرجل وقذفتهما المرأة بنظرة سوداء ؛ وكانت ايفيش ، ورأسها مستدير الى الخلف ، تسحب ماتيو القهقرى . ولم يرهما بوريس ولا لولا قادمين ؛ وكانت لولا تغمض عينيها ، وكانت جفونها لطختين زرقاوين في وجهها القاسي ؛ وكان بوريس يبتسم وهو ضائع في عزلة ملائكية .

وسألها ماتيو : – والآن ؟

– لنبق هنا ، فالمكان ارحب .

وكانت ايفيش قد اصبحت ثقيلة تقريباً ، وكانت لا تكاد ترقص وعيناها مسمّرتان على اخيها وعلى لولا . ولم يكن ماتيو يرى بعد الا طرف أُذن بين خصلتين . واقترب بوريس ولولا وهما يستديران على نفسيهما ، وحين اصبحا قريبين جداً ، قرصت ايفيش اخاها فوق مرفقه :

– مرحباً يا « بوسيه » الصغير .

فحملق بوريس بعينيه في دهشة وقال :

– ايه ! لا تهربي يا ايفيش ! لماذا تسميني هكذا ؟

فلم تجب ايفيش ، بل حملت ماتيو على الانفتال وأولت بوريس ظهرها . وكانت لولا قد فتحت عينيها ، فسألها بوريس :

– أتفهمين لماذا تسميني « بوسيه » الصغير ؟

قالت لولا : – اظن اني افهم السبب .

وقال بوريس بضع كلمات اخرى ، ولكن ضجة التصفيق غطّت صوته ؛ وكان الجاز قد صمت ، وكان الزنوج يستعجلون الذهاب ليفسحوا المجال للجوقة الارجنتينية .

وعادت ايفيش وماتيو الى طاولتهما . وقالت ايفيش :

– انني اتسلى بصورة جنونية .

وكانت لولا قد جلست ، فقالت لايفيش :

– انك ترقصين ببراعة كبيرة .

فلم تجب ايفيش ، وكانت تحدّد في لولا نظراً ثقيلاً . وقال بوريس لماتيو :

– لقد كنتَ ظريفاً ، وكنت احسب انك لم تكن ترقص .

– ان اختك هي التي ارادت .

فقال بوريس : – ان من كان قوياً مثلك ينبغي ان يقوم بالرقص البهلواني .

وساد صمت ثقيل . وكانت ايفيش معتصمة بالسكوت ، متوحّدة متطلّبة ، ولم تكن لأحد رغبة في الكلام . وكانت سماء محلية صغيرة قد تكوّنت فوق رؤوسهم ، مستديرة جافّة ، خانقة . وأضيئت اللمبات من جديد . وعند انغام التانغو الاولى ، انحنت ايفيش نحو لولا وقالت بصوت ابح :

— تعالي .

فقالت لولا : — لا اعرف ان اقود .

قالت ايفيش : — انا التي اقود .

وأضافت بلهجة رديئة وهي تكشف عن اسنانها :

— لا تخافي ، فاني اقود كالرجل .

ونهضتا ، فضمت ايفيش اليها لولا في وحشية ودفعتها نحو الحلبة .

وقال بوريس وهو يحشو غليونه :

— انهما ظريفتان .

— نعم .

وكانت لولا خاصة ظريفة : فقد كانت تبدو عليها هيئة فتاة صبية .

وقال بوريس :

— انظر .

وأخرج من جيبه سكيناً ضخماً ذا مقبض عاجيّ ووضعه على الطاولة. وقال موضحاً :

— انه سكين باسكيّ .

وأخذ ماتيو السكين في ادب وحاول ان يفتحه ، فقال له بوريس :

— لا يُفتح بهذه الطريقة ايها الشقيّ ! انك توشك ان تذبح نفسك!

واستردّ السكين ففتحه ووضعه بالقرب من قدحه وقال :

— انه سكين قائد . هل ترى هذه اللطخات السمراء ؟ لقد اقسم لي الشخص الذي باعني إياه ان هذا دم .

وصمتا . وكان ماتيو ينظر من بعيـد الى رأس لولا المأساوي الذي كان ينزلق فوق بحر مظلم . « لم اكن ادري انها كانت طويلة الى هذا الحد . » وصرف عينيه فقرأ على وجه بوريس سروراً ساذجاً انفطر له قلبه . وفكر في ندم : « انه مسرور لأنه معي ، وانا لا اجد قط شيئاً اقوله له . » وقال بوريس :

ـ انظر الى هذه المرأة التي وصلت ، الى اليمين ، عنـد الطاولة الثالثة .

ـ الشقراء ذات المجوهرات ؟

ـ نعم ، انها مجوهرات مزيفة . هيا . انها تنظر الينا .

فأراق ماتيو نظرة خفيّة نحو فتاة طويلة وجميلة ذات مظهر بارد .

ـ كيف تجدها ؟

ـ بين بين

ـ كان لي معها اتصال يوم الثلاثاء الماضي ، وكانت محشوّة ، وكانت تريد طوال الوقت ان تدعوني للرقص . وبالاضافة الى ذلك ، اهدت اليّ علبة سكائرها الفضية . وقد جنّ جنون لولا . فأعادتها لها مع الخادم .

واضاف باقتضاب :

ـ كانت من فضة ، وكانت مطعمة بأحجار كريمة .

قال ماتيو : ـ انها تأكلك بعينيها

ـ افهم ذلك .

ـ وماذا ستفعل بها ؟

فقال باحتقار : ـ لا شيء . انها خليلة احدهم .

فسأله ماتيو عجباً : ـ يعني ؟ ها انت ذا فجأة متطهّر !

فقال بوريس ضاحكاً : ـ ليس الامر كذلك . ولـكن البغايا والراقصات والمغنيات متشابهات في آخر المطاف . فاذا ملكت احداهن

ملكتهنّ جميعاً . (ووضع غليونه وقال بجد) ثم انني انسان طاهر ، ولست مثلك .

قال ماتيو : — هكذا اذن !

فقال بوريس : — سترى ، سترى فسوف ادهشك : سأعيش كالرهبان حتى تنتهي علاقتي بلولا .

وكان يفرك بيديه فيما بينهما بهيئة اغتباط . وقال ماتيو :

— لن تنتهي بمثل هذه السرعة .

— في اول تموز . بمَ تراهن ؟

— بلا شيء . انك تراهن كل شهر بأنك ستقطع علاقتك في الشهر القادم ، ثم تخسر في كل مرة . انت مدين لي قبل الآن بمئة فرنك ، وبزوج من نظارات السباق ، وخمس علب سكاير والسفينة التي رأيناها في شارع السين وهي داخل زجاجة . انك لم تفكر قط في القطيعة ، لأنك احرص على لولا مما ينبغي .

قال بوريس : — انت تؤذيني في صميم قلبي .

فأضاف ماتيو من غير ان يضطرب : — غير ان ذلك اقوى منك. انك لا تستطيع ان تشعر انك ملتزم . ان هذا يثير جنونك .

قال بوريس بلهجة غضب مرح : — آن لك ان تصمت . وبوسعك ان تتأكد من انك لن تحصل على سكايرك وعلى سفينتك !

— اعلم ذلك ، فأنت لا تسدد قط ديونك الشرفية : انك شقيّ صغير .

فأجاب بوريس : — وانت ... انت انسان متوسط .

واشرق وجهه : — الا ترى انها اهانة فظيعة ان تقذف انساناً بقولك : ياسيدي ، انت شخص متوسط .

قال ماتيو : — لا بأس .

— او ان تقول له ، وهذا افضل : — انت يا سيدي إمّعة !

فقال ماتيو : — كلا ، ليس هذا ؛ فانك تضعف به مركزك .

فأقرّه بوريس على فكرته وقال : — انت على حق . انك كريه، لأنك دائماً على حق .

وأشعل غليونه مرة اخرى بعناية ، وقال بلهجة مختلطة مهووسة :

— سأصارحك برأيي : اود ان تكون لي امرأة من النساء المشهورات.

قال ماتيو : — عجباً ، ولماذا ؟

— لست ادري . اعتقد ان ذلك لا بد ان يكون طريفاً ، وانهنّ لا بد ان تكون لهن تصرفات كثيرة . ثم ان ذلك مثير للغرور ، فمنهن من تذكر اسماؤهن في مجلة « فوغ » وانت تدرك معنى ذلك . تشتري « فوغ » وتنظر الى الصور فترى الكونتيس مدام دوروكامادور مع كلابها الستة ثم تفكر : لقد ضاجعت هذه المرأة مساء امس . لا شك ان ذلك يروعك .

قال ماتيو : — أتلاحظ انها تبتسم لك الآن ؟

— نعم . انها مُملة . وانها لو تدري خبيثة ، فهي تريد ان توقع بيني وبين لولا لأنهـا لا تطيقها . (وقال مصمماً) اريد ان اوليها ظهري .

— ومن هو الشخص الذي يجالسها ؟

— زميل . انه يرقص في « الالكازار » . هـو جميل ، اليس كذلك ؟ انظر الى سحنته . انه في حدود الخامسة والثلاثين ، وهو يشبه شخصية « شاروبين »[1]

قال ماتيو : — وماذا في ذلك ؟ ستصبح انت هكذا حين تبلغ الخامسة والثلاثين .

فقال بوريس باقتضاب : — سأكون قد متّ منذ وقت طويل حين

---

(١) بطل من ابطال «زواج الفيغارو» لبورماشيه ، نموذج المراهق الذي يتفتح للحب — المترجم.

ابلغ الخامسة والثلاثين .

- يروقك ان تقول ذلك .

قال بوريس : — انني مسلول .

— اعرف ذلك (كان بوريس ذات يوم قد جرح لثّتيه وهو ينظف اسنانه فبصق دماً) اعرف ذلك . وبعد ؟

قال بوريس : — سيّان لدي ان اكون مسلولاً . كل ما في الامر اني اشمئز من العناية بنفسي . واري ان على الانسان الا يتجاوز الثلاثين ، لأنه يصبح بعد ذلك طرحاً عجوزاً .

ونظر الى ماتيو وأضاف :

— انا لا اعنيك في هذا القول .

قال ماتيو : — نعم . ولكنك على حق ؛ ان المرء بعد الثلاثين طرح عجوز .

— اود لو أعطي عامين اضافيين ، ثم ابقى طوال حياتي في تلك السن . سيكون ذلك ممتعاً .

فنظر الى ماتيو في ود مدهوش . لقد كان الشباب بالنسبة لبوريس مزيةً قابلة للاستهلاك ومجانيّة . وينبغي ان يُفاد منها بوقاحة ، وكان في الوقت نفسه فضيلة اخلاقية ينبغي للمرء ان يبدو جديراً بها . بل كان اكثر من ذلك ، كان الشباب في نظره تبريراً . وفكر ماتيو « لا بأس ، انه يعرف ان يكون شاباً . » ربما كان هو وحده ، بين جميع هؤلاء الناس ، موجوداً هنا حقاً ، في هذا المرقص، على كرسيه. « ليس الامر سخيفاً الى هذا الحد : ان يعيش المرء شبابه بعمق ثم ينفجر في الثلاثين. مهما يكن من امر ، فان المرء بعد الثلاثين ميت . »

قال بوريس : — يبدو عليك انك متضايق جداً .

فانتفض ماتيو : لقد كان بوريس محمراً من فرط الاضطراب ، ولكن كان ينظر الى ماتيو في رغبة بالمساعدة قلقة . وسأله ماتيو :

– هل يُرى ذلك عليّ ؟

– وكيف ! انه يُرى جيداً جداً .

– انني في ضيق مادي .

فقال بوريس بقسوة : – انك تسيء الدفاع عن نفسك . لو كنت اتقاضى مثل راتبك لما احتجت الى الاستدانة . هـل تريد المئة الفرنك التي استدنتها من صاحب الحانة ؟

– شكراً . اني بحاجة الى خمسة آلاف فرنك .

فصفر بوريس صفرة مسموعة وقال :

– اوه ، معذرة ! هل سيقدمها لك صديقك دانيال ؟

– انه لا يستطيع .

– وأخوك ؟

– لا يريد .

فقال بوريس حزيناً : – اوه ! طز ... (واضاف بارتباك) اذا كنت تريد ...

– اذا كنت اريد ماذا ؟

– لا شيء . كنت افكر : شيء مزعج . ان لولا تملك محفظـة محشوة ، وهي لا تفعل بها شيئاً .

– اريد انْ استدين من لولا .

– ولكني ما دمت اقسم لك انها لا تفعل بها شيئاً . لو كان الامر بحسابها في المصرف لما قلت ذلك : انها تشتري اسهماً ، وتضارب في البورصة ، فلنقل انها بحاجة الى مالها . ولكنها تحتفظ في بيتهـا بسبعة آلاف فرنك منذ اربعة اشهر ، وهي لم تمسّ منها فلساً ، بل هي لم تجد الوقت لإيداعها في البنك . اكرر لك انها قابعة في جوف محفظة .

فقال ماتيو منزعجاً :

– انك لا تفهم . لا اريد ان استدين من لولا لأنها لا تطيقني .

فأخذ بوريس يضحك وقال :
– هذا صحيح . انها لا تطيقك .
– اترى اذن .
قال بوريس : – غير ان ذلك مزعج . انك متضايق جداً بسبب خمسة آلاف فرنك ، حتى اذا كانت في متناول يدك عدلت عن اخذها. واذا طلبتها لحسابي انا ؟
قال ماتيو بحيوية : – كلا ، كلا ، لا تفعل شيئاً ، فلا بد ان تعرف الحقيقة يوماً . (وأضاف بإلحاح) أتعدني حقاً ؟ سوف يزعجني ان تطلب منها .
فلم يجب بوريس . وكان قد تناول سكّينه بين اصبعيه ورفعه على مهل الى مستوى جبينه ، موجهاً رأسه الى اسفل . واستشعر ماتيو الضيق وفكر : « انه دنيء . انه لا يحق لي ان اتلبس صورة الرجل الشريف على حساب مارسيل . » والتفت الى بوريس ، وكان يريد ان يقول له : « هيا ، اطلب المال من لولا . » ولكنه لم يستطع ان ينتزع كلمة واحدة ، ونفر الدم الى خديه . وباعد بوريس اصابعه فسقط السكين ، وانغرزت الشفرة في الارض الخشبية وأخذ مقبضها يهتزّ .
وعادت ايفيش ولولا الى مكانهما . ولمّ بوريس السكين ووضعها على الطاولة ثانية .
وسألت لولا : – ما هذا الشيء الفظيع ؟
قال بوريس : – انه سكين قائد . وقد جلبته لأجعلك تمشين في استقامة .
– انك مسخٌ صغير .
وكانت الجوقة قد بدأت تانغو آخر . ونظر بوريس الى لولا نظرة غامضة وقال بين اسنانه :
– تعالي نرقص .

قالت لولا : — ستميتونني جميعاً .
وكان وجهها قد اشرق ، وأضافت ببسمة سعيدة :
— انك لطيف .
ونهض بوريس ، وفكر ماتيو : « سيطلب منها المال مع ذلك » وكان مسحوقاً بالخجل ، ولكنه كان يشعر بارتياح جبان . وجلست ايفيش الى قربه ، وقالت بصوت ابح :
— انها عظيمة .
— نعم . انها جميلة .
— اوه ... ثم هذا الجسم ! كم هو مؤثّر ذلك الوجه الحرب على هذا الجسد المتفتح . لقد كنت اشعر بالزمن يمضي ، وأحس بأنها سوف تذبل بين ذراعيّ .
وكان ماتيو يتابع بعينيه بوريس ولولا . ان بوريس لم يبدأ الموضوع بعد ، كان يبدو وكأنه يمازح لولا ، وكانت هي تبتسم له . وقال ماتيو بشرود :
— انها قريبة الى القلب .
فقال بلهجة جافة : — قريبة الى القلب ؟ اوه ، كلا ، انها انثى قذرة .
واضاف في فخر : — لقد كنت اخيفها .
قال ماتيو : — لقد رأيت .
وكان يشبك ساقيه ثم يفكهما . وسألها :
— هل تريدين ان ترقصي ؟
قالت ايفيش : — لا. اريد ان اشرب (وملأت قدحها الى منتصفه وأضافت موضحة) من الخير ان يشرب المرء حين يرقص، لأن الرقص يمنع السكر والخمر يجعلك صامداً .
وأضافت بلهجة متوترة :

ــ عجيب كم انا مسرورة !

وفكر ماتيو : « هذا هو . انه يحدّثها » وكان بوريس قد اتخذ لهجة الجد ، وكان يتكلم من غير ان ينظر الى لولا . ولم تكن لولا تقول شيئاً . وذات لحظة حجب كتفا زنجي عملاق رأس لولا عنه، ثم ظهرت ثانية في هيئة غامضة ، ثم كفّت الموسيقى ، وانفرج الجمـــع فخرج منه بوريس متغطرساً مستاء . وكانت لولا تتبعه عن كثب . ولم يكن يبدو عليها السرور . وانحنى بوريس على ايفيش وقال بسرعة :

ــ أدّي لي هذه الخدمة : ادعيها للرقص .

فنهضت ايفيش من غير ان تظهر دهشة وهرعت للقاء لولا . وقالت لولا :

ــاوه ، كلا ، يا صغيرتي ايفيش ، انني متعبة جداً .

وتشاورتا لحظة ، ثم اقتادتها ايفيش . وسأل ماتيو :

ــ ألا تريد ؟

ــ كلا . وستدفع ثمن ذلك غالياً .

وكان ممتقعاً ، وكانت هيئته الحاقدة المسترخية تكسبه شبهاً بأخته . وكان ذلك شبهاً يثير القلق والاستياء . وقال ماتيو خائفاً :

ــ لا ترتكب اية حماقة .

وسأله بوريس : ــ انك عاتب عليّ ، اليس كذلك ؟ لقد منعتني من ان احدثها ...

ــ سوف اكون قذراً اذا كنت عاتباً عليك : فأنت تعلم اني تركتك تحدثها ... ولماذا رفضتْ ؟

قال بوريس وهو يهز كتفيه :

ــ لا ادري ، فقد بدت بهيئة قذرة . وقالت انها كانت بحاجة الى مالها . هكذا اذن ! (قال بلهجة اندهاش) للمرة الاولى اطلب منها شيئا ... لقد اضاعت رشدها ! يجب ان تدفع الثمن ، امرأة في مثل

سنّها ، حين تريد ان تحصل على شخص مثلي !

– وكيف صورت لها الامر ؟

– قلت لها ان المال من اجل صديق يريد ان يشتري مرأباً . وقلت لها اسمه : بيكار . وهي تعرفه . وصحيح انه يريد ان يشتري مرأباً .

– لا بد انها لم تصدقك .

قال بوريس : – لا ادري ، ولكن الذي ادريه انها ستدفع ثمن ذلك على التو .

فصاح به ماتيو : – احتفظ بهدوئك .

فقال بوريس بلهجة عدائية : – اوه ... حسناً ! هذا من شأني .

ومضى ينحني امام الشقراء الطويلة التي تورّدت قليلا ثم نهضت . وحين اخذا يرقصان مرت لولا وايفيش بالقرب من ماتيو . وكانت الشقراء تتصنّع المرح على وجهها ، ولكن بسمتها كانت تخفي الحذر . وكانت لولا تحتفظ بهدوئها ، وتتقدم بعظمة فيبتعد الناس لمرورها تعبيراً منهم عن الاحترام . اما ايفيش فكانت تسير القهقرى وعيناها في السماء ، بلا شعور . وتناول ماتيو سكين بوريس من شفرتها وضرب مقبضها بالطاولة ضربات صغيرة جافة . وفكر : « سيسيل الدم » . وكان غير مكترث بذلك على الاطلاق . كان يفكر بمارسيل . وفكر : « مارسيل ، امرأتي . » وانغلق شيء ما عليه ، هادراً . امرأتي ، وستعيش في منزلي . هكذا . وكان هذا طبيعياً ، طبيعياً جداً ، كما لو ان المرء يتنفس ، ويبتلع ريقه . وكان ذلك يلامسه من كل مكان ، إمضِ ، لا تتشنّج ، كن مرناً ، كن طبيعياً . في بيتي . سأراها كل يوم من ايام حياتي . وفكر « كل شيء واضح . ان لي حياة . »

حياة . كان ينظر الى جميع تلك الوجوه المحمرّة ، وهذه الاقمار الحمراء التي كانت تنزلق على وسائد من غيوم : « ان لهم حيوات . جميعاً . لكلٍ حياته . وهي تتمطّى عبر جدران المرقص ، عبر شوارع

باريس ، عبر فرنسا ، وتلتقي متشابكة ، وتتقاطع وتبقى كل منها مع ذلك شخصية خاصة كفرشاة اسنان ، كموسى حلاقة ، وكأشياء الزينة التي لا تُعار . كنت اعرف ذلك . كنت اعرف أنه كان لكلٍ منهم حياته . ولم أكن اعرف انه كانت لي انا ايضاً حياة . كنت افكر : انني لا افعل شيئاً . وسوف افلت منها . والحقيقة اني كنت ألجها . »
ووضع السكين على الطاولة ، واخذ الزجاجة فحناها فوق قدحه : كانت فارغة . وكان باقياً بعض الشمبانيا في قدح ايفيش ، فتناول القدح وشرب .

« لقد تثاءبت ، وقرأت وضاجعت. وكان هذا يترك طابعه وأثره . كانت كل حركة من حركاتي تثير ، خارجاً عنها ، في المستقبل ، انتظاراً صغيراً عنيداً كان ينضج . وهذه الانتظارات هي انا ، وانا الذي انتظر نفسي في المنعطفات وفي ملتقيات الطرق ، وفي قاعة مختارية الدائرة الرابعة عشرة الكبرى ، انا الذي انتظر نفسي هناك ، على اريكة حمراء ، انتظر ان آتي الى هناك ، مرتدياً ثوباً اسود ، مع ياقة مستعارة قاسية ، ان آتي الى هناك لأموت من فرط الحرّ واقول : نعم ، نعم ، اوافق على ان اتخذها زوجة . » وهزّ رأسه بعنف ، ولكن حياته كانت تصمد جيداً حوله . « بهدوء ودفقة ، ووفقاً لاهوائي ولكسلي ، فرزت محارتي . وقد انتهى الآن كل شيء . انني مسوّر من كل مكان ! في الوسط يقوم منزلي وانا في داخله ، وسط ارائكي الجلدية الخضراء ، وفي الخارج يقوم شارع « الغيتيه » ذو الاتجاه الواحد لانني اهبطه دائماً ، وجادة « مين » وباريس كلها مستديرة حولي ، الشمال من امام ، والجنوب من خلف ، والبانتيون الى اليمين ، وبرج ايفل الى اليسار ، وباب غلينيانكور تجاهي ، وفي وسط شارع فيرسينجيتوري ثقب صغير مصقول باللون الوردي ، غرفة مارسيل ، امرأتي ، ومارسيل في داخلها ، عارية ، تنتظرني . ثم حول باريس

كلها ، تقوم فرنسا تخترقها الشوارع ذات الاتجاه الواحد ، ثم بحور مرقشة بالازرق او الاسود ، البحر المتوسط بالازرق ، وبحــر الشمال بالاسود ، والمانش بلون قهوة مع الحليب ، ثم بلاد ، المانيا ، ايطاليا – اسبانيا بالابيض لانني لم اذهب لاقاتل فيها – ثم مدن مستديرة ، على مسافات محدّدة من غرفتي ، تومبوكتو ، تورنتو ، كازان ، نيجني – نوفغورد ، جامدة كأنهــا انصاب . واذهب ، وامضي ، واتنزّه ، وأتيه ، ومهما تهت : فهــذه عطلة جامعيّ ، فأينما ذهبت حملت معي محارتي ، وابقى في غرفتي بالمنزل ، وسط كتبي ، ولا اقترب سنتمتراً واحداً من مراكش او من تومبوكتو . حتى ولو كنت استقل القطار ، او الباخرة ، او الاوتوكار ، لو ذهبت اقضي عطلتي في مراكش ، ولو وصلت فجأة الى مراكش العاصمة ، فاني سأكون باقيــاً ابداً في غرفتي ، بمنزلي . واذا مضيت اتنــزه في الساحات والاسواق ، واذا شددت على كتف عربيّ ، لألمس فيه مراكش ... فان هذا العربي هو الذي سيكوَن في مراكش ، لا انا . اما انا ، فسأظل دائماً جالساً في غرفتي ، هادئاً متأملاً كما اخترت ان اكون ، على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من المراكشي ومن برنسه . وفي غرفتي . الى الابد ، الى الابد عشيق مارسيل القديم ، والآن زوجها الاستاذ ، الى الابد ذلك الذي لم يتعلم الانكليزية ، ولم يدخل الحزب الشيوعي ، والذي لم يكن في اسبانيا ، الى الابد . »

« حياتي » . كانت تحيط به . كانت شيئاً غريباً لا بدء له ولا نهاية ، وليس هو مع ذلك لامحدوداً . كان يتابعها بنظرة من مختارية الى اخرى ، من مختارية الدائرة الثامنة عشرة حيث قضى في اكتوبر ١٩٢٣ مدة المحكمة الادارية ، الى مختارية الدائرة الرابعة عشرة حيث سيتزوج مارسيل في شهر آب او ايلول ٣٨ ؛ كان لها معنى مبهم وحائر كالاشياء الطبيعية ، وتفَهَةٌ لزج ، ورائحة غبار وبنفسج .

وفكر : « لقد قضيت حياة درداء ، حياة درداء . لم اعض قط . كنت انتظر ، كنت احفظ نفسي لما بعد – وهأني الاحظ انه لم تبق لي اسنان . فما العمل ؟ أأحطّم المحارة . هذا يسيرٌ في القول . ومن جهة اخرى ، ما الذي سوف يبقى ؟ قطعة صغيرة من الصمغ اللزج سوف يزحف في الغبار مخلّفاً وراءه اثراً برّاقاً . »

ورفع عينيه فرأى لولا ، وكان على شفتيها بسمة خبيثة . ورأى ايفيش : كانت ترقص ، ورأسها مرتدٌ الى الخلف ، ضائعة ، لا عمر لها ولا مستقبل : « ليست لها محارة » كانت ترقص ، وكانت ثملة ، ولم تكن تفكر في ماتيو . على الاطلاق . ليس اكثر مما لو كان غير موجود . وكانت الجوقة قد اخذت تعزف تانغو ارجنتينياً . وكان ماتيو يعرفه جيداً ، هذا التانغو ، انــه « ميو كابالو موريو » ولكنه كان ينظر الى ايفيش . وكان يخيل اليه انه كان يسمــع هــذه النغمة الحزينة القاسية للمرة الاولى . « انها لن تكون لي ابداً ، لن تدخــل ابداً ، لن تدخل ابداً في محارتي » وابتسم ، وكان يُحسّ ألماً صغيراً منعشاً ، وتأمل بحنان هذا الجسم الصغير الغضوب الدقيق الذي رست فيه حريته : « عزيزتي ايفيش ، عزيزتي الحرية » وفجأة اخذ يحلّق فوق جسمه الوسخ ، فوق حياته ، وعيٌ نقيّ ، وعيٌ بــلا انا ، بعض هواء حارّ فحسب : كان يحلّق ، وكان نظراً ، ينظر الى البوهيمي المزيّف ، البورجوازي الصغير المتشبّث بأهوائه ، المثقّف الفاشل « الذي ليس هو ثورياً ولا ثائراً » الحالم التجريدي الذي تحيط به حياته الدبقة ، وكان يحكم : « ان هذا الشخص هالك ، انه لم يسرقها . » اما هو ، الوعي ، فلم يكن متضامناً مع احد ، كان يدور في الحبب الدائــر ، مسحوقاً ، ضائعاً ، متألماً هناك على وجــه ايفيش المرنّة بالموسيقى ، الحزينة ، الزائلة . وعي احمــر ، شكوى صغيرة غامضــة ، ميو كوبالو موريو ، وكان قادراً على كل شيء ، على ان ييأس حقاً من

اجل الاسبانيين ، وعلى ان يقرّر اي شيء . ليت ذلك يدوم هكذا ... ولكن ذلك لا يمكن ان يدوم : كان الوعي ينتفخ وينتفخ ، وكفّت الجوقة ، فانفجر . وألفى ماتيو نفسه وحيداً مع نفسه ، في قعر حياته ، جافاً وقاسياً ، وكفّ عن ان يديـــن نفسه ، وعن ان يقبل نفسه ، وكل ما هناك انه كان ماتيو : « نشوة اخرى . وبعد ذلك ؟ » وعاد بوريس الى مكانه ، ولم يكن يبدو عليـــه كثير من الاعتزاز . وقال لماتيو :

– اوه لا ، لا !

فسأله ماتيو : – ماذا هناك ؟

– الشقراء . انها امرأة قذرة .

– ماذا فعلت ؟

– فقطّب بوريس حاجبيه وارتعش من غير ان يجيب . وعادت ايفيش تجلس بالقرب من ماتيو . وكانت وحيدة . واجال ماتيو نظره في القاعة فاكتشف لولا بالقرب من الموسيقيين ، وكانت تتحدث مع سارونيان . وكان يبدو على سارونيان انه دَهِش ، ثم رمى نظرة خفيـــة باتجاه الشقراء الطويلة التي كانت تهزّ المروحة باهمـــال . وابتسمت له لولا وعبرت القاعة . وحين جلست ، كان يبدو عليها مظهر غريب . ونظر بوريس الى حذائه الأيمن في تصنّـــع ، وساد صمت ثقيل . وصاحت الشقراء :

– ان هذا مبالغ فيه ، فليس لك الحق ، وانا لن اذهب .

وانتفض ماتيو ، والتفت الجميع . كان سارونيان قد انحنى باكرام مفرط فوق الشقراء كخادم في مطعم يتلقى طلب الزبون . وكان يحدّثها بصوت منخفض بلهجة هادئة قاسية . ونهضت الشقـــراء فجأة وقالت لرفيقها :

– تعال .

فقال سارونيان : – لا ، لا ، انا الذي ادفع .

فدعكت الشقراء ورقة من فئة المئة فرنك ورمتها على الطاولة . وكان رفيقها قد نهض ، وكان ينظر الى الورقة المالية في توبيخ . ثم اخذت الشقراء ذراعه ومضى الاثنان مرتفعي الرأس ، وهما يهزان كشحيهما هزّة واحدة .

واقترب سارونيان من لولا وهو يصفّر فقال في بسمة راضية :

– سيُحرُ الجو حين تعود .

قالت لولا : – شكراً . لم اكن اتوقع ان يكون الامر بهذه السهولة .

وكانت الجوقة الارجنتينية قد غادرت القاعة ، فعاد الزنوج يدخلون بآلاتهم واحداً اثر الآخر . وحدّد بوريس بلولا نظر غضب واعجاب ، ثم التفت فجأة نحو ايفيش وقال :

– تعالي لنرقص .

ونظرت اليهما لولا نظرة ساكنة بينما كانا ينهضان . ولكن وجهها تحلّل فجأة حين ابتعدا . وابتسم لها ماتيو قائلاً :

– انك تفعلين ما تشائين في المرقص .

فقالت بلامبالاة : – انني اجذبهم . ان الاشخاص يأتون الى هنا من اجلي .

وظلت عيناها قلقتين ، واخذت تربّت على الطاولة في عصبية . ولم يعد ماتيو يعرف ما يقول لها . ومن حسن الحظ انها نهضت بعد لحظة وهي تقول : « المعذرة . »

ورآها ماتيو تجتاز القاعة وتختفي . وفكر : « انها ساعة المخدّر » وكان وحيداً . كانت ايفيش وبوريس يرقصان في صفاء يشبه صفاء لحن موسيقي ويكادان لا يقلاّن عنه قسوة . وأدار رأسه ونظر الى قدميه. ومرّ زمن . ولم يكن يفكر بشيء . وانتفض لنوع من الشكوى

المبحوحة . كانت لولا قد عادت ، وكانت عيناها منغلقتين ، وكانت تبتسم . وفكر : « لقد اخذت حسابها . » وفتحت عينيها وجلست دون ان تكف عن الابتسام .

— أكنت تعلم ان بوريس كان بحاجة الى خمسة آلاف فرنك ؟

فقال : — كلا . لم اكن اعرف . كلا . هل هو بحاجة الى خمسة آلاف فرنك ؟

وكانت لولا ما تزال تنظر اليه ، وكانت تهتزّ من خلف الى امام. وكان ماتيو يرى حدقتين كبيرتين خضراوين مع بؤبؤين دقيقين . وقالت لولا :

— لقد رفضت ان اعيره اياها . هو يقول انهـا لبيكار ، وكنت اظنّ انه في هذه الحالة سيتوجه اليك .

فأخذ ماتيو يضحك :

— هو يعرف اني لا املك درهماً قط .

وسألت لولا بلهجة من لا يصدّق :

— اذن لم يكن لديك علم بهذا ؟

— طبعاً ، لا .

قالت : — عجباً ! ان هذا غريب .

وكان يخيَّل لمن يراها انها ستسقط ، بما هي هيكل في الهواء ، كأنه حطام قديم ، او ان فمها سيتمزق ويطلق صرخة رهيبة . وسألته:

— هل أتى الى بيتك منذ حين ؟

— نعم ، حوالى الساعة الثالثة .

— ولم يحدّثك عن شيء ؟

— ما الذي يُدهش في ذلك ؟ ربما التقى ببيكار بعد ظهر اليوم .

— هذا ما قاله لي .

— واذن ؟

فهزت لولا كتفيها :
– ان بيكار يعمل طوال النهار في « ارجانتوي » .
فقال ماتيو بلامبالاة :
– كان بيكار في حاجة الى مال ، ولا بدّ انه مرّ على بوريس في الفندق . فلم يجده ، ثم التقى به وهو يهبط جادة سان ميشال .
فنظرت اليه لولا باستهزاء :
– هل تتصور ان يأتي بيكار ليطلب خمسة آلاف فرنك من بوريس الذي لا يملك الا ثلاثمئة فرنك شهرياً كنفقات جيب ؟
فقال ماتيو مغتاظاً : – اذن لا ادري .
وكانت به رغبة لأن يقول لها : « ان المال لي . » فبهذا سينتهي الامر على الفور . ولكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب بوريس . « انها ناقمة عليه نقمة رهيبة ، فهو يبدو وكأنه ضالعٌ معي . » وكانت لولا تربت على الطاولة بطرف اظافرها القرمزية ؛ وكانت زاويتا فمها ترتفعان فجأة فترتجفان قليلاً ثم تسترخيان . وكانت ترصد ماتيو في إلحاحِ قلق، ولكن ماتيو كان يُحسّ ان تحت هذا الغضب المتربّص فراغاً كبيراً معتكراً . وكانت به رغبة للضحك . وادارت لولا عينيها وسألته :
– اليس في الامر ، على الارجح ، امتحان ؟
فردّدت بدهشة : – امتحان ؟
– أتساءل .
– امتحان ؟ اية فكرة غريبة .
– ان ايفيش تقول له دائماً انني بخيلة .
– ومن اخبرك ذلك ؟
فقالت لولا في لهجة انتصار : – ايدهشك ان اعرفه ؟ الحقيقة انه طفل وفيّ . ينبغي الا تتصوّر ان بالامكان ان يحدّثه احد عني بالسوء من غير ان يبلغني ذلك . انني ادرك هذا في كل مناسبة ، مكتفية

بالطريقة التي ينظر اليّ بها . او انه يطرح عليّ اسئلة في لهجة تتقصّد عدم المسّ بالموضوع . يكفي ان اراه آتياً من بعيد . ان هـذا اقوى منه ، فهو يريد ان يكون قلبه صافياً .

ـ واذن ؟

ـ لقد اراد ان يرى ان كنت حقـاً بخيلة ، فاختلق قضية بيكار هذه . الا ان يكون هناك من اوحى له بذلك .

ـ ومن تريدين ان يكون قد اوحى له ؟

ـ لست ادري . ان هناك كثيرين يفكرون بأنني عجوز وانه طفل . يكفي ان ترى وجوه سمكات هذا المرقص حين ترانا معاً .

ـ أتتصورين انه يهتمّ بما يقلنه له ؟

ـ لا ، ولكن هناك من يحسبون انهم يعملون لصالحه حين يملأون رأسه غروراً .

فقال ماتيو : ـ اسمعي ، لا حاجة بك الى لبس القفاز : ان كنت تقصدينني بهذا الكلام ، فانك مخطئة .

قالت اولا ببرودة : ـ آه ! هذا ممكن (وساد صمت ثم سألت فجأة) كيف يتفق ان تحدث هنا مشاكل حين تأتي معه ؟

ـ لا ادري ، ولا افعل شيئاً لهذه الغاية . لم اكن اريد اليوم ان آتي ... وانا اتصور انه يحب كلاًّ منا بشكل مختلف ، وان اعصابه تثور حين يرانا نحن الاثنين في وقت واحد .

وكانت لولا تنظر امامها باستقامـة نظرة غامضة متوترة . وقالت اخيراً :

ـ اسمع هذا جيداً : انني لا اريد ان يؤخذ مني . انا متأكدة انني لا اسيء اليه . وحين يملّني يستطيع ان يتركني ، وسوف يأتي ذلك عما قريب . ولكني لا اريد ان يأخذه الآخرون مني .

وفكر ماتيو : « انها تكشف بضاعتها . » وكان ذلك طبعاً بتأثير

المخدّر . ولكنْ هناك شيء آخر : كانت لولا تكره ماتيو ، ومع ذلك فان ما تقوله له هذه اللحظة لم تكن تجرؤ على ان تقوله لسواه . لقد كان بينها وبينه ، بالرغم من الكراهية ، نوع من التضامن .

وقال : لا اريد ان آخذه منك .

فقالت لولا بلهجة مغلقة : — لقد كنت اظنّ .

— يجب اذن الا تظنّي ذلك . ان علاقاتك ببوريس لا تعنيني . ولو كانت تعنيني لوجدت ان وضعكما هكذا جيدٌ جداً .

— كنت اقول لنفسي : يظنّ انه مسؤول لانه استاذه .

وصمتت ففهم ، ماتيو انه لم يقنعها . كانت يبدو وكأنها تبحث عن كلماتها. واضافت بمشقة :

— اعرف ... اعرف انني امرأة مسنة .. وانا لم انتظرك لألاحظ ذلك . ولكن من اجل هذا بالذات استطيع ان اساعده (واضافت في تحدّ) هناك اشياء استطيع ان اعلّمها اياها . ثم ما الذي ينبئك باني كبيرة عليه ؟ انه يحبني كما انا ، وهو سعيد معي اذا لم توضع في رأسه جميع هذه الافكار .

وكان ماتيو صامتاً . وصاحت لولا بعنف غير موثوق :

— ولكن لا بدّ انك تعرف انه يحبني . لا بدّ انه ابلغك ذلك ، ما دام يقول لك كل شيء .

قال ماتيو : — اعتقد انه يحبك .

فأدارت لولا نحوه عينيها الثقيلتين :

— لقد رأيت الواناً كثيرة من الرجال ، ولا انكر ذلك ، ولكني اقول لك : ان هذا الطفل هو حظّي الاخير : وبعد هذا ، افعلوا ما شئتم .

ولم يجب ماتيو على الفور . كان ينظر الى بوريس وايفيش اللذين كانا يرقصان ، وكانت به رغبة لان يقول للولا : « لا نتنازع ، فانت

ترين جيداً اننا متشابهان . » ولكن هذا الشبه كان يثير اشمئزازه قليلاً ؛ فقد كان في حب لولا ، بالرغم من عنفه ، وبالرغم من صفاته ، لشيء ما رخوٌ وشَرِه . ومع ذلك ، فقد قال من طرف شفتيه :

— تقولين هذا لي ... انني اعرفه مثل معرفتك له .

— ولماذا مثل معرفتي له ؟

— اننا متشابهان .

— وماذا يعني هذا ؟

فقال : — انظري الينا ، وانظري اليهما .

فاتخذت لولا مظهر الازدراء وقالت :

— لسنا متشابهين .

وهز ماتيو كتفيه ثم صمتا ، وهما على خلاف . وكان كلاهما ينظر الى بوريس وايفيش . وكان بوريس وايفيش يرقصان ، وكانا قاسيين من غير ان يعرفا ذلك . او ربما كان يعرفانه قليلاً . وكان ماتيو جالساً بالقرب من لولا ، ولم يكونا يرقصان لان الرقص لم يكن يناسب سنهما كثيراً . وفكر : « لا بدّ ان الناس ينظرون الينا كعاشقين . » وسمع لولا تتمتم لنفسها وحدها : « ليتني اتأكد من ان ذلك هو حقاً لبيكار » .

وكان بوريس وايفيش عائدين نحوهما . ونهضت لولا في جهد . وحسب ماتيو انها ستسقط ولكنها تشبثت بالطاولة واخذت نَفَساً طويلاً . وقالت لبوريس :

— تعال ، اريد ان احدّثك .

فبدا الضيق على بوريس :

— الا تستطيعين ان تحدثيني هنا ؟

— لا .

— حسناً . انتظري حتى تستأنف الموسيقى ونرقص .

قالت لولا — لا . انني متعبة . وسوف تأتي الى غرفتي . المعذرة يا صغيرتي ايفيش .

قالت ايفيش بتودّد : انني سكرى .

وقالت لولا : سنعود عما قليل . ثم ان دوري في الغناء وشيك .

وابتعدت لولا فتبعها بوريس على مضض . وتراخت ايفيش على مقعدها ، وهي تقول :

— صحيح اني سكرى . ولقد شعرت بذلك وانا ارقص .

فلم يجب ماتيو . وسألت ايفيش :

— لماذا ذهبا ؟

— سوف يتحادثان . ثم إن لولا قد اخذت مخدّراً . وانت تعلمين ان من يأخذ الجرعة الاولى لا يفكر بعد الا بأخذ الثانية .

وقالت ايفيش حالمة :

أظن اني احبّ ان آخذ مخدّراً .

— طبعاً .

فقالت مغتاظة :

— ولِمَ لا ؟ اذا كان عليّ ان ابقى طوال حياتي في « لاون » ، فيجب ان أشغل نفسي .

وصمت ماتيو فقالت :

— آه فهمت ! انك غاضب عليّ لأني سكرى .

— كلا .

— بلى ، انت توبخني .

— كيف ذلك ؟ ثم انك لست سكرى الى هذا الحدّ .

فقالت ايفيش في سرور :

— انني سكرى الى — ابعد — حد .

وبدأ الناس يذهبون . وكانت الساعة حوالي الثانية صباحاً . وكانت

لولا في غرفتها ، وهي حجرة صغيرة قذرة مفروشة بالمخمل الأحمر ، تتهدد وتبتهل : بوريس ! بوريس ! بوريس ! انك تجنّني ، فيخفض بوريس رأسه خائفاً وعنيداً . وكان ثوب طويل اسود يتطاير بين الجدران الحمراء ، فينعكس بريقه الاسود في المرآة مع انبثاق الذراعين الجميلتين البضاوين اللتين كانتا تتلويان في تأثير بالغ . ثم ان لولا ستختفي فجأة خلف حاجز ، وهناك ستنشق في استسلام ، ورأسها مرتد كما لو انها تريد وقف نزيف دموي من انفها ، نشقتين من مسحوق ابيض وكان جبين ماتيو يسيل عرقاً ، ولكنه لم يكن يجرؤ على مسحه ، وكان خجلاً من ان يعرق امام ايفيش ؛ لقد رقصت من غير توقف ، وظلت ممتقعة الوجه ، ولكنها لم تكن ترشح عرقاً . وكانت قد قالت صباح اليوم نفسه : « انني اشمئز من جميع هذه الايدي اللزجة » ؛ وهو لا يعرف بعد ما يفعل بيديه . وكان يستشعر الضعف والتعب ، ولم تكن به اية رغبة بعد ، ولم يفكر بشيء بعد . وبين لحظة واخرى ، كان يقول ان الشمس لن تلبث طويلاً حتى تشرق ، وان عليه ان يستأنف مساعيه ويخابر مارسيل ، وساره ، ويعيش نهاراً آخر بطوله . وكان هذا يبدو له امراً لا يصدق . انه يود لو يبقى الى الابد امام هذه الطاولة ، تحت هذه الانوار الاصطناعية . بالقرب من ايفيش .

وقالت ايفيش بصوت ثمل :

– انني مسرورة جداً .

ونظر اليها ماتيو : كانت في تلك الحالة من النشوة الفرحة التي كان شيء تافه كافياً لإحالتها الى غضب . وقالت ايفيش :

– طز في الامتحانات ، واذا سقطت فسأكون مسرورة . انني هذا المساء ادفن حياتي كطفلة .

وابتسمت وقالت في حماسة .

– انها تلتمع كلؤلؤة صغيرة !

ـ مالذي يلتمع كلؤلؤة صغيرة ؟

ـ هذه اللحظة . انها مستديرة ، معلّقة في الفضاء كلؤلؤة صغيرة. انني خالدة .

وتناولت سكيّن بوريس من مقبضها ، وأسندت صفحة الشفرة على جانب الطاولة واخذت تتسلى بمحاولة طيّها ، ثم سألت فجأة :

ـ ما بالها ، تلك ؟

ـ من ؟

ـ المرأة ذات الثوب الاسود ، الى جـانبي . انها لم تكفّ منذ مجيئها توبّخني .

وأدار ماتيو رأسه : وكانت ذات الثوب الاسود تنظر الى ايفيش من طرف عينها .

وسألت ايفيش : ـ الا ترى ؟ اليس صحيحاً .

ـ اظنّ ان نعم .

ورأى وجه ايفيش الصغير الكزّ وعينيها الغامضتين الحاقدتين وفكر: « كان خيراً لي ان اصمت . » وكانت ذات الثوب الاسود قد فهمت جيداً انهما كانا يتحدثان عنها : ذلك انهـا اتخذت مظهراً متغطرساً، وكان زوجها قد استيقظ فراح ينظر الى ايفيش بعينيه الكبيرتين . وفكر ماتيو « كم يبدو هذا مضجراً ! » وكان يستشعر الكسل والجبن ، وكان مستعداً لإعطاء كل شيء ليحول دون حدوث شيء .

وتمتمت ايفيش وهي تخاطب السكّين :

ـ هذه المرأة تحتقرني لأنها محتشمة . اما انا فلست محتشمة : انني اتسلّى وأتمل ، وسوف أسقط في شهادتي (واضافت فجأة بصوت قوي) اكره الحشمة !

ـ اسكتي يا ايفيش ، ارجوك .

فنظرت اليه ايفيش نظرة مثلجة وقالت :

ـ اظنّ انك تكلمني ؟ صحيح . انت ايضاً محتشم . لا تخف : فحين سأقضي عشر سنوات في لاون بين امي وابي ، فسأكون اكثر احتشاماً منك .

وكانت مسترخية على مقعدها ، وكانت تسند بعناد شفرة السكّين على الطاولة وتثنيها بحركة مجنونة . وساد صمت ثقيل ثم التفتت ذات الثوب الاسود الى زوجها وقالت :

ـ انني لا افهم كيف تجلس هذه الصغيرة في هذا الوضع .

فنظر الزوج بخوف الى كتفي ماتيو وهمهم : « نعم »

واضافت المرأة : ـ ليس الخطأ كله خطأها ، وانما المذنبون هم الذين ساقوها الى هنا .

وفكر ماتيو : « هكذا ! هذه هي الفضيحة ! » ولا شك في ان ايفيش قد سمعت ، ولكنها لم تقل شيئاً ، وكانت عاقلة . عاقلة اكثر مما ينبغي : كانت تبدو وكأنها ترصد شيئاً ، وكانت قد رفعت رأسها واتخذت مظهراً غريباً مهووساً وجذلا .

وسألها ماتيو في قلق : ـ ماذا هناك ؟

وكانت ايفيش قد امتقعت تماماً .

ـ لا شيء . وانما أرتكب عملاً آخر غير محتشم ، لكي أسلّي السيدة . اريد ان ارى كيف تحتمل منظر الدم .

واطلقت جارة ايفيش صرخة خفيفة وخفقت اجفانها . ونظر ماتيو بسرعة الى ايدي ايفيش : كانت تمسك السكّين بيدها اليمنى وتشقّ باطن يدها اليسرى بعناية . وكانت بشرتها قد انفلقت مـا بين ربلة الابهام حتى جذر الاصبع الصغير . وكان الدم يقطر على مهل . وصاح ماتيو :

ـ ايفيش .. يداك المسكينتان .

وكانت ايفيش تقهقه في غموض ، وسألته :

ــ هل تظنّ انها سوف تدير عينيها ؟

ومدّ ماتيو يده فوق الطاولة فتركته ايفيش يأخذ السكين بلا مقاومة . وكان ماتيو ضائعاً ، وكان ينظر الى اصابع ايفيش الهزيلة التي كان الدم قد لوّثها ، وكان يفكر بان يدها كانت تؤلمها . وقال :

ــ انت مجنونة ! تعالي معي ، فان سيدة المغسلة سوف تضمد جرحك .

وندت عن ايفيش ضحكة خبيثة :

ــ تضمد جرحي ؟ هل انت مدرك لما تقول ؟

فنهض ماتيو : ــ تعالي يا ايفيش ، ارجوك ، تعالي بسرعة .

فقالت ايفيش من غير ان تنهض :

ــ انه شعور لذيذ جداً . لقد كنت اظنّ ان يدي كانت قطعة من الزبدة .

وكانت قد رفعت يدها اليسرى حتى انفها ونظرت اليها بعين فاحصة . وكان الدم يسيل في كل ناحية ، فكأنه ذهاب نمل وايابه . وقالت :

ــ انه دمي . احبّ كثيراً ان ارى دمي .

قال ماتيو : ــ كفى ، كفى !

وامسك ايفيش من كتفها ، ولكنها تخلصت منه بعنف فسقطت نقطة دم كبيرة على الخوان . وكانت ايفيش تنظر الى ماتيو بعينين تلتمعان كراهية . وسألته :

ــ ما زلت تسمح لنفسك بان تلمسني ؟ (واضافت في ضحكة شامتة) كان عليّ ان اوقن بانك ستجد ذلك مبالغاً فيه . انه يثيرك ويغضبك ان يتسلّى المرء بدمه .

وكان ماتيو يشعر بأنه يمتقع من فرط الغضب . فعاد يجلس ، وبسط يده اليسرى على الطاولة وقال بتلذّذ :

ــ مبالغ فيه ؟ يا ايفيش ، بل اني أجده جذّاباً . اظنّ ان ذلك

لعبٌ تمارسه فتيات الطبقة النبيلة ؟

وزرع السكّين دفعةً واحدة في باطن يده ولم يشعر بشيء تقريباً : وحين ترك السكّين ، ظلّت مركوزة في لحمه ، مستقيمة ، ومقبضها في الهواء . وقالت ايفيش مشمئزة :

ـ آه ! آه ! إنزعها ! إنزعها !

فقال ماتيو وهو يكزّ على اسنانه :

ـ اترين ؟ ان هذا في متناول جميع الناس .

واستشعر العذوبة والكثافة ، وخشي قليلاً ان يغمى عليه . ولكن كان في داخله نوعٌ من الرضى المصدوم وارادة سرطان رديئة وخبيثة . إنه لم يفعل ضربة السكّين هذه في باطن كفه ازدراء لايفيش فحسب ، بل كان ذلك ايضاً تحدّياً لجاك ، وبرونيه ، ودانيال ، وحياته . وفكر : « انني حمار ، وان برونيه على حق اذ يقول بانني طفل عجوز . » ولكنه لم يكن يستطع ان يمنع نفسه من ان يكون مسروراً . وكانت ايفيش تنظر الى يد ماتيو التي كانت تبدو مسمّرة على الطاولة ، والى الدم الذي كان يتدفق من حول الشفرة . ثم نظرت الى ماتيو ، وكانت هيئتها قد تغيرت تماماً . وقالت على مهل :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

فسألها ماتيو في صلابة : وانتِ ؟

والى يسارهما ، كانت ثمة ضجة مهدّدة : كان ذلك الرأي العام . وكان ماتيو يسخر منه ، وكان ينظر الى ايفيش . وقالت ايفيش :

ـ آه انني ... انني آسف جداً .

وتضخمت الضجة ، واخذت ذات الثوب الاسود تنقنق :

ـ انهما ثملان ، وسيذبح احدهما الآخر ... يجب ان يُمنعا من ذلك . انني لا استطيع ان ارى هذا .

والتفتت بعض الرؤوس ، وهُرع الخادم :

– هل تريد السيدة شيئاً ؟
وكانت ذات الثوب الاسود تضغط منديلاً على فمها ، وأشارت الى ايفيش وماتيو من غير كلمة . ونزع ماتيو بسرعة السكّين من الجرح فأحدث له ذلك ألماً شديداً .
– لقد جرحنا ايدينا بهذا السكين .
وكان الخادم قد رأى غيرهما يفعل ذلك ، فقال من غير ان ينفعل :
– اذا شاء السيد والآنسة ان يتوجها الى المغسلة ، فان السيدة هناك تملك كل ما يلزم .
ونهضت ايفيش هذه المرة بوداعة ، فاجتازا الحلبة وراء الخادم ، وكل منهما يرفع احدى يديه في الهواء ؛ وكان هذا مشهداً هزلياً لم يستطع ماتيو معه ان يمتنع عن الانفجار بالضحك . ونظرت اليه ايفيش نظرة قلقة ثم أخذت تضحك هي ايضاً . وكانت من شدة الضحك بحيث ان يدها قد ارتجفت ، فسقطت نقطتا دمٍ على البلاط .
وقالت ايفيش : – انني اتسلى كثيراً .
وصاحت سيدة المغسلة :
– يا الهي ! يا آنستي المسكينة ، ماذا فعلت بنفسك ؟ والسيد المسكين ؟
فقالت ايفيش : – لقد لعبنا بسكين .
فقالت سيدة المغسلة حانقة : – هكذا ! ان الحادث يقع بسرعة . وهل كان سكّين منزل ؟
– كلا .
– آه ! كنت احدّث نفسي .. (واضافت وهي تفحص جرح ايفيش) ما اعمقه ! ولكن لا تقلقي . سوف اسوّي كل شيء .
وفتحت خزانة فاختفى فيها نصف جسمها . وتبادل ماتيو وايفيش بسمة . وكانت ايفيش تبدو وكأنها صحت من سكرها ، وقالت لماتيو :
– ما كنت اصدّق ان بوسعك ان تفعل هذا .

قال ماتيو : — ترين اذن ان كل شيء لم يضع .
فقالت ايفيش : — لقد بدأ هذا يؤلمني الآن .
قال ماتيو : — وانا كذلك .
وكان سعيداً . وقرأ كلمة « للسيدات » ثم « للسادة » بأحرف من ذهب على بابين ملمّعين بالرمادي المصفرّ ، ونظر الى الارض ذات المربّعات البيضاء ، واستنشق رائحة معطّرة بالأنيسون المطهّر ، فتمدّد قلبه ، وقال باندفاع :
— ليس من الرديء جداً ان يكون المرء سيدة مغسلة !
فقالت ايفيش في تفتّح : — طبعاً لا !
وكانت تنظر اليه في هيئة وحشية رقيقة ، وتردّدت لحظة ، ثم اطبقت فجأة باطن كفّها اليسرى على كفّ ماتيو المجروحة ، فندّ عن ذلك اصطفاقٌ مبلّل . وقالت موضّحة :
— ان هذا اختلاط الدمين .
فشدّ ماتيو على يدها من غير ان يقول كلمة ، واحسّ بألمٍ حيّ ، وكان لديه إحساسٌ بأنّ فماً كان ينفتح في يده . وقالت ايفيش :
— انك تؤلمني كثيراً .
— اعرف ذلك .
وكانت سيدة المغسلة قد خرجت من الخزانة وهي تشعر ببعض عسر هضم . وفتحت علبة حديدية وقالت :
— هذا هو العلاج .
ورأى ماتيو زجاجة من صبغة اليود ، وإبراً ومقصّات ولفافات . فقال :
— انت مجهّزة تجهيزاً جيداً .
فهزّت رأسها في جدّ وقالت :
— آه ! هناك ايام لا مجال فيها للمزاح . امس الاول ، القت امرأة

قدحها على رأس واحدٍ من خيرة زبائننا . وكان هذا السيد يسيل ذمه ويسيل ، فخشيت على عينيه ، وانتزعت من حاجبه شظية كبيرة من الزجاج .

وكانت سيدة المغسلة تشغل نفسها حول ايفيش :

– بعض الصبر يا جميلتي ، أن ذلك سيحرقك قليلاً ، انها صبغة اليود ، حسناً ، انتهى .

وسألت ايفيش بصوت منخفض :

– هل تصارحني ... اذا بدوت قليلة الرصانة ؟

– نعم .

– اودّ ان اعلم بمَ كنت تفكر حين كنت ارقص مع لولا .

– منذ لحظة ؟

– نعم ، حين دعا بوريس الشقراء . كنت وحيداً في ركنك.

قال ماتيو : – اظنّ اني كنت افكر بنفسي .

– كنت انظر اليك . . لقد كنت ... جميلاً تقريباً . ليتك تستطيع دائماً ان تحتفظ بتلك الهيئة .

– ليس بوسع المرء دائماً ان يفكر بنفسه .

وضحكت ايفيش :

– اما انا ، فأعتقد اني افكر دائماً بنفسي .

وقالت سيدة المغسلة : – اعطني يـدك يا سيدي . انتبه ، سوف يحرقك قليلاً . حسناً ، لن يكون هذا شيئاً ذا بال .

وأحسّ ماتيو بحرقٍ شديد . ولكنه لم يكترث له ، وكان ينظـر الى ايفيش التي كانت تسرّح شعرها بلا حذق امام المرآة ، وهي تمسك خصلاتها بيدها المضمّدة . وردّت شعرها الى خلف فبدا وجهها العريض عارياً . واحسّ ماتيو بأنه يمتليء برغبة قاسية ويائسة ، وقال :

– انك جميلة .

فقالت ايفيش وهي تضحك :

ـ كلا ، انني على العكس بشعة الى حد فظيع . وهذه هي هيئتي الخفيّة .

قال ماتيو : ـ اعتقد انني احبّها اكثر من تلك .

قالت : ـ سأمرّح شعري غداً على هذا النحو .

فلم يجد ماتيو ما يجيب به ، فأحنى رأسه وصمت . وقالت سيدة المغسلة :

ـ انتهى الامر .

ولاحظ ماتيو انه كان لها شارب رماديّ .

ـ شكراً كثيراً يا سيدتي ، انك بارعة كممرضة .

فاحمرّ وجه سيدة المغسلة من السرور وقالت :

ـ اوه ! هذا طبيعي . ان في مهنتنا كثيراً من الاعمال التي تتطلب الدقّة .

ووضع ماتيو عشرة فرنكات في صحن ، وخرجا . وكانا ينظران في رضى الى يديهما الصقعتين المضمدتين . وقالت ايفيش :

ـ كأنّ لي يداً من خشب .

وكان الرقص قد خلا تقريباً . وكانت لولا توشك ان تغني ، وهي واقفة في وسط الحلبة . وكان بوريس جالساً على طاولتها ، وكان ينتظرهما . وكانت ذات الثوب الاسود وزوجها قد اختفيا ، وكان باقياً على طاولتهما قدحان نصف ممتلئين ودزينة من السكاير في علبة مفتوحة .

وقال ماتيو : ـ انه ضلال .

قالت ايفيش : ـ اجل ، لقد ضللت .

ونظر اليها بوريس نظرة جذل :

ـ ماذا ؟ هل ذبح كل منكما نفسه ؟

قالت ايفيش في كزازة : — انه سكّينك القذر .
فقال بوريس وهو ينظر الى يديها نظرة فنّان :
— يبدو أنه يقصّ جيداً .
وسأله ماتيو : — ولولا ؟
فاغتمّ بوريس :
— إن الامر قد ساء كثيراً . لقد نطقتُ بحماقة .
— ماذا ؟
— قلت ان بيكار قد جاءني وقد استقبلته في غرفتي . يبدو انني قلت شيئاً آخر في المرة الاولى ، الشيطان يدري ماذا !
— لقد قلت انه التقى بك في جادة سان ميشال .
قال بوريس : — هكذا اذن !
— وهل غضبت وصاحت ؟
— اوه ! كالخنزير . حسبك ان تنظر اليها .
ونظر ماتيو الى لولا . وكانت لها سحنة جهمة وقاتمة . وقال ماتيو :
— اعذرني .
— ليس لك ان تعتذر : انها غلطتي . ثم ان الامر يُسوّى ، لقد ألفت ذلك . انه يسوّى دائماً في آخر الامر .

وصمتا . وكانت ايفيش تنظر إلى يدها المضمدة نظرة عطف . وكان النعاس والرطوبة والفجر الرمادي قد تسرّبت الى القاعة ، على غير احساس ، وكان المرقص يبعث براىٔحة الصباح . وفكر ماتيو : «لؤلؤة، لقد قالت لؤلؤة صغيرة . » وكان سعيداً ، ولم يكن يفكر بعد بأي شيء عن نفسه ، وكان يُحسّ انه جالسٌ في الخارج على مقعد : في الخارج ، خارج المرقص ، خارج حياته . وابتسم : « لقد قالت ذلك ايضاً : انني خالدة »
واخذت لولا تغنّي .

١٢

« في الدوم ، الساعة العاشرة » واستيقظ ماتيو . وهذه الأكمة الصغيرة من الشفّ الأبيض ، على السرير ، كانت يده اليسرى . وكانت تؤلمه ، ولكن جسمه كله كان منتعشاً . « في الدوم الساعة العاشرة . » وكانت قد قالت : « سأكون هناك قبلك ، فلن أستطيع ان اغمض عيني طوال الليل . » وكانت الساعة التاسعة ، وقفز من السرير وفكّر « ستغيّر تسريحتها . »

ودفع المصراعين : كان الشارع خالياً ، وكانت السماء واطئة رمادية، وكان الطقس اقل حرارة من الأمس ، كان صباحاً حقيقياً . وفتح صنبور المغسلة وغطّس رأسه بالماء : انني انا ايضاً من الصباح . وكانت حياته قد سقطت الى قدميه ، في ثنيات ثقيلة ، وكانت ما تزال تحيط به ، وكانت تُربك كعبيه ، ولكنه سيتجاوزها ، وسيخلّفها وراءه كجلد ميت . السرير ، المكتب ، المصباح ، الأريكة الخضراء : انها ليست بعد شريكاته ، وانما كانت اشياء مغفلة من حديد وخشب ، ادوات . وكان قد قضى الليلة في غرفة فندق . وارتدى ثيابه وهبط السلّم وهو يصفر . وقالت البوّابة :

— هناك رسالة مستعجلة لك .

مارسيل ! وأحسّ ماتيو بمذاق مرّ في فمه : كان قد نسي مارسيل

ومدّت له البوّابة مغلّفاً أصفر : كان من دانيال . وقد كتب دانيال يقول :

« عزيزي ماتيو ، لقد بحثت حولي ، ولكني لا استطيع حتماً ان اجمع المبلغ الذي تطلبه . صدقني اني آسف . هل لك ان تمرّ عليّ ظهراً ؟ إن عندي ما احدثك به عن قضيتك . ولك ودّي . »

وفكر ماتيو « حسناً ، سأذهب لرؤيته . إنه لا يريد ان يترك المال ، ولكنه ربما وجد حلاً . »

وكانت الحياة تبدو له هيّنة ، وكان ينبغي ان تكون هيّنة : مهما يكن من امر ، فان ساره ستتكلّف أمر اقناع الطبيب بالانتظار بضعة ايام ؛ وعند الإلحاح يُرسل له المال الى اميركا .

وكانت ايفيش هناك ، في زاوية مظلمة . وقد رأى اولاً يدها المضمدة . وقال في عذوبة :

– ايفيش .

فرفعت عينيها اليه ، وبدا وجهها الكاذب المثلّث ، وطهارتها الصغيرة الرديئة . وكانت خصلاتها تخفي نصف وجهها : لم تكن قد رفعت عينيها كما وعدت . وسألها ماتيو بحزن :

– هل نمتِ قليلاً ؟

– ابداً .

وجلس . ورأت انه كان ينظر الى يديها المضمدتين ، فسحبت يدها بهدوء وأخفتها تحت الطاولة . واقترب الخادم ، وكان يعرف ماتيو جيداً ، فسأله :

– كيف الحال يا سيدي ؟

قال ماتيو : – لا بأس . اعطني فنجان شاي وتفاحتين .

وساد صمتٌ انتهزه ماتيو ليكفّن ذكريات الليل . وحين أحسّ بان قلبه كان خالياً رفع رأسه :

ـ انك لا تبدين مرتاحة . ايكون السبب ذلك الامتحان ؟

فلم تجب ايفيش الا بانقباض ازدراء ، وصمت ماتيو ، وكان ينظر الى المقاعد الفارغة . وكانت امرأة راكعة تغسل البلاط بماء كثير . وكان « الدوم » يستيقظ رويداً رويداً ، وكان الصباح . لا بدّ من مرور خمس عشرة ساعة قبل ان تستطيع النوم . وأخذت ايفيش تتحدث بصوت منخفض ، وبلهجة برمة ، وقالت :

ـ الساعة الثانية . والآن هي الساعة التاسعة . انني احسّ الساعات تنهار تحتي .

وعادت تشدّ على خصلاتها شدّاً مهووساً . وكان هذا غير محتمل. وقالت :

ـ اتعتقد ان هناك من يقبلني ان اكون بائعة ، في مخزن كبير ؟

ـ لا تفكّري بهذا يا ايفيش ، فانه قاتل .

ـ وعارضة ازياء ؟

ـ انك قصيرة بعض الشيء ، ولكن بوسعك ان تجرّبي ...

ـ سأفعل كل شيء حتى لا ابقى في لاون . سأكون غاسلة اوان (واضافت بلهجة مهمومة مسنّة) في مثل هذه الحالات . الا يضع الناس اعلانات في الصحف ؟

ـ اسمعي يا ايفيش ، ان امامنا الوقت للتفكير في الموضوع ، وانت لم تسقطي بعد ، على اية حال .

وهزت ايفيش كتفيها فاستطرد ماتيو بحيوية :

ـ ولكن حتى لو سقطت ، فلن تصبحي ضائعة . فانت تستطيعين مثلاً ان تعودي الى بيتك لمدة شهرين ، وفي هذه الاثناء سأبحث حتى أجد لك شيئاً .

وكان يتكلم بلهجة اقتناع طيبة ، ولكن لم يكن له اي امل : فحتى لو حصل لها على عمل ؛ فانها لن تلبث اسبوعاً حتى تُطرد منه .

وقالت ايفيش في غضب :

– شهران في لاون .. من الواضح انك تتكلم بلا معرفة . إن هذا.. ان هذا لا يحتمل !

– مهما يكن من امر ، فانك ستقضين هناك العطلة .

– صحيح .. لكن كيف يستقبلونني الآن ؟

وصمتت . ونظر اليها من غير ان يقول كلمة : وكان لها وجهها الصباحي الممتقع . وكان يبدو ان الليل قد انزلق عليها . وفكر « ليس هناك ما يطبعها » ولم يستطع ان يمتنع عن ان يقول لها :

– انك لم ترفعي شعرك ؟

فقالت ايفيش بجفاء : – انت ترى ان لا .

وقال في شيء من الغيظ : – ولكنك وعدتني بذلك مساء امس .

قالت : – كنت ثملة (ورددت بقوة كما لو كانت تريد ان تخيفه) كنت ثملة تماماً .

– لم يكن يبدو عليك انك كنت ثملة الى هذا الحد حين وعدتني بذلك .

فقالت في نفاد صبر : – طيب ! وماذا في ذلك ؟ ان الناس مدهشون بوعودهم .

فلم يجب ماتيو . وكان لديه احساس بأن اسئلة عاجلة كانت تُطرح عليه بلا هوادة : كيف السبيل الى ايجاد خمسة آلاف فرنك قبل المساء؟ كيف السبيل الى اعادة ايفيش الى باريس في السنة القادمة ؟ اي موقف يجب ان يتخذه الآن تجاه مارسيل ؟ ولم يكن لديه الوقت للتفكير ، ولأن يعود الى الأسئلة التي كانت اساس افكاره منذ عشية الامس : من انا ؟ ماذا فعلت بحياتي ؟ واذ كان يلفت رأسه لينفض هذا الهم الجديد ، رأى في البعيد طيف بوريس الطويل المتردد الذي كان يبدو عليه انه كان يبحث عنهما على السطيحة . وقال منزعجاً :

ـ هوذا بوريس (ثم سألها وقد اخـــذه شك مزعج) أأنت التي قلت له ان يأتي ؟

فقالت ايفيش مندهشة : ـ كلا . كان عليّ ان القاه ظهراً لأنه.. لأنه كان يقضي الليل مع لولا . فانظر الى هيئته !

وكان بوريس قد رآهما ، فأقبـــل عليهما . وكانت عيناه مفتوحتين على سعتهما وثابتتين ، وكان قبيحاً . وكان يبتسم . وصاح ماتيـــو : « مرحباً » فرفع بوريس اصبعين نحو صدغيه ليحيي تحيته المـــألوفة ، ولكنه لم يستطع ان ينجز حركته . والقى بيـــديه الاثنتين على الطاولة وأخذ يتأرجح على عقبيه من غير ان يقـــول كلمة . وكان مـــا يزال يبتسم . وسألته ايفيش :

ـ ما بالك ؟! إنك تشبه فرنكشتين !

قال بوريس : ـ ماتت لولا .

وكان ينظر امامه باستقامة نظرة بلهاء . وبقي ماتيو بضع لحظات من غير ان يفهم ، ثم غمره ذهول مندهش :

ـ ماذا ؟

وكان ينظر الى بوريس : ولم يكن ينبغي التفكير بسؤاله على الفور فأمسك بذراعه وقسره عـــلى الجـــلوس بالقرب من ايفيش . وكرر بآلية :

ـ ماتت لولا .

وأدارت ايفيش الى اخيها عينين منفرجتين . وكانت قد تراجعت قليلاً وهي على المقعد ، كما لو أنها كانت تخاف ان تلمسه ، وسألته :

ـ هل انتحرت ؟

فلم يجب بوريس ، وأخذت يداه ترتجفان . فرددت ايفيش بعصبية :

ـ تكلم ! هل قتلت نفسها ؟ هل قتلت نفسها ؟

فاتسعت بسمة بوريس اتساعاً مقلقاً ، وكانت شفتاه ترقصان. وكانت

شفتاه ترقصان . وكانت ايفيش تنظر اليه باحداد وهي لا تني تشد على عضلاتها . وفكر ماتيو في غيظ : « انها لا تفهم . » وقال :

ــ حسناً . ستخبرنا فيما بعد . لا تتكلم .

فبدأ بوريس يضحك وقال :

ــ لو كنتما .. لو كنتما ...

فصفعه ماتيو صفعة جافة وصامتة ، من طرف اصابعه . فكفّ بوريس عن الضحك ونظر اليه وهو يرتجف ثم تجمع قليلاً والتزم الهدوء ، فاغر الفم ، بليد الهيئة . وكان الثلاثة صامتين ، وكان الموت بينهم ، مغفلاً مقدساً . ولم يكن ذلك حدثاً ، بل كان وسطاً ، مادة معجنة كان ماتيو يرى عبرها فنجان الشاي وطاولة المرمر ووجه ايفيش اللئيم . وسأل الخادم :

ــ وماذا يطلب السيد ؟

وكان قد اقترب وهو ينظر الى بوريس في سخرية . فقال ماتيو :

ــ اعطه كأس كونياك بسرعة (واضاف بلهجة طبيعية) ان السيد مستعجل .

وابتعد الخادم وما لبث ان عاد يحمل زجاجة وقدحاً : فأحس ماتيو انه رخوٌ ومفرغ ، وشعر آنذاك فقط بمتاعب الليل . وقال لبوريس:

ــ اشرب .

فشرب بوريس بوداعة . ووضع القدح وقال ، كأنما يحدث نفسه:

ــ ليس الامر طريفاً !

قالت ايفيش وهي تقترب منه : ــ يا عزيزي ، يا صغيري العزيز. وابتسمت له بحنان ، ثم امسكت بشعره وهزّت رأسه ، فتنفس بوريس في تأسٍ وقال :

ــ انت هنا .. ان يديك حارّتان .

قالت ايفيش : ــ والآن ، إحك لنا . هل انت واثق من انها

ماتت ؟

فقال بوريس في مشقة : ــ لقد تناولت المخدر هذه الليلة ، ولم تكن الامور حسنة بيننا .

فقالت ايفيش بحيوية : ــ فكان ان سممت نفسها .

قال بوريس : ــ لا ادري .

وكان ماتيو ينظر الى ايفيش في ذعر : كانت تلاطف يد اخيها في حنان ، ولكن شفتها العليا كانت تنكفىء بصورة غريبة فوق اسنانها الصغيرة . وعاد بوريس يتكلم بصوت اصم . ولم يكن يبدو انه يوجه اليها الحديث :

ــ لقد صعدنا الى غرفتها ، فتناولت المخدر . وكانت قد تناولته في المرة الاولى في مقصورتها ، حين تنازعنا .

قال ماتيو : ــ الواقع ان هذه لا بد ان تكون المرة الثانية . وأظن انها قد تناولته بينما كنت ترقص مع ايفيش .

قال بوريس في تعب : ــ حسناً . اذن ثلاث مرات . ولم يسبق لها ان تناولت هذا القدر من قبل. وقد نمنا من غير ان نتبادل الكلام . وكانت تقفز في السرير ، فلم اكن استطيع النوم . ثم هدأت فجأة ، فنمت .

وأفرغ كأسه واستطرد :

ــ واستيقظت هذا الصباح لأني كنت اختنق. وكانت ذراعها ممتدة فوقي ، فقلت لها : « انزعي ذراعك ، انك تخنقينني . » فلم تنزعها، فظننت انها تفعل ذلك رغبةً في المصالحة . فتناولت ذراعها ، فاذا هي باردة ، وقلت لها : « ما بالك ؟ » فلم تقل شيئاً . وعند ذاك دفعت ذراعها بكل قوتي ، فاوشكت ان تسقط على الارض . وخرجت من السرير فتناولت معصمها وضغطت عليها لأعيدها الى استقامتها . وكانت عيناها مفتوحتين . (واضاف في شيء من الغضب) لقد رأيت عينيها

ولا استطيع ان انساهما .

قالت ايفيش : — يا عزيزي الصغير .

وكان ماتيو يجهد ليشفق على بوريس ، ولكنه لا يوفق الى ذلك . كان بوريس يبرمه اكثر من ايفيش ؛ فكأنه كان عاتباً على لولا أن تموت .

واضاف بوريس بلهجة رتيبة :

— واخذت ثيابي فارتديتها ، ولم ارد ان يجدوني في غرفتها . ولم يروني اخرج . ولم يكن ثمة احد على الصندوق . واستقللت تاكسي وأتيت .

وسألته ايفيش في عذوبة : — هل انت مهموم ؟

وكانت قد انحنت عليه ، من غير تعاطف مبالغ فيه ، وكان يبدو وكأنها تسأله توضيحاً :

— انظر الي ، هل انت مهموم ؟

قال بوريس : — اني ... (ونظر اليها وقال فجأة) انني استفظع ذلك .

ومر الخادم فناداه : — اريد قدحاً آخر من الكونياك .

فسأله الخادم وهو يبتسم : — وهل هو مستعجل كالقدح الاول ؟

فقال ماتيو بجفاء : — هيا ، لبّ الطلب بسرعة .

وكان بوريس يثير اشمئزازه قليلاً ، فانه لم يكن قد بقي له شيء من جماله الجاف الصلب . وكان وجهه الجديد يشبه وجه ايفيش اكثر مما ينبغي . واخذ ماتيو يفكر في جسد لولا متمدداً على سرير في غرفة فندق ، وكان بعض رجال يلبسون القبعات يوشكون ان يدخلوا الغرفة وان ينظروا الى هذا الجسم الضخم في مزيج من الشهوة والهم المهني ، وسيردّون عليه الغطاء ويرفعون قميص النوم بحثاً عن الجروح ، وهم يفكرون بأن مهنة المفتش لا تخلو احياناً من مزايا . وارتعش وقال :

— أهي وحدها هناك ؟

قال بوريس باهتمام : — نعم ، واعتقد انهم سيجدونهـــا حوالي الظهر ، اذ ان الخادمة دائماً توقظها في مثل هذه الساعة .

قالت ايفيش : — اي بعد ساعتين .

وكانت قد استعادت هيئة الاخت الــكبيرة ، وكانت تلاطف شعر اخيها بشفقة وانتصار . وتركها بوريس تدلّله ، ثم صاح فجأة :

— يا إلهي !

فانتفضت ايفيش وسألته قلقة :

— ماذا فعلت ؟

قال بوريس : — رسائلي !

— ماذا ؟

— رسائلي . كنت غبياً فتركتها عندها .

ولم يكن ماتيو يفهم :

— رسائل كتبتها لها ؟

— نعم .

— واذن ؟

— سيأتي الطبيب ، وسيعرفون انها ماتت مسمومة بالمخدرات .

— وهل كنت تتكلم في رسائلك عن المخدرات ؟

فقال بوريس في كآبة : — نعم .

وكان لدى ماتيو شعور بان بوريس كان يمثّل ، فسأله :

— وهل تناولت مخـــدراً انت ؟ (وكان منزعجاً ان بوريس لم يصارحه بذلك من قبل)

— اني ... لقد حدث لي ذلك . مرة او مرتين ، بداعي الفضول، ثم اني اتحدث عن شخص يبيع المخدرات ، شخصٍ من « البول ـــ بلانش » كنت قد اشتريت منه كمية للولا . ولا اريد ان يتضرر بسببي .

قالت ايفيش : — انت مجنون يا بوريس ... كيف استطعت ان تكتب هذه الاشياء ؟

فرفع بوريس رأسه : — هل تريدين هذا المغطس ؟

قال ماتيو : — ولكن قد لا يجدونها ؟

— انها اول شيء يجدونه . فاذا فرضنا احسن الفروض ، فسوف أُستدعى كشاهد .

قالت ايفيش : — اوه ! كم سيغضب الوالد !

— قد يستدعيني الى لاون ويُلصقني في مصرف .

فقالت ايفيش بصوت حزين : — ستكون رفيقاً لي اذن .

ونظر ماتيو اليهما في اشفاق : « هما كذلك اذن! » وكانت ايفيش قد فقدت هيئتها المنتصرة : وكانا ، وهما قابعان احدهما ازاء الآخر ، ممتقعين واهنين ، يشبهان عجوزين . وساد صمت ، ثم لاحظ ماتيو ان بوريس كان ينظر اليه من طرف عينيه ، وكان حول فمه ظلٌ من الخبث ، خبثٌ فقير ضعيف ، وفكر ماتيو منزعجاً « ان هناك مؤامرة . »

وسأله : — تقول ان الخادمة تأتي ظهراً لإيقاظها ؟

— نعم ، انها تدق الباب حتى تفتح لها لولا .

— حسناً ، انها الساعة العاشرة والنصف ، وامامك الوقت لتعود الى هناك بهدوء وتلمّ رسائلك . خذ تاكسي ، بل بوسعك ان تستقل الاوتوبيس .

وأدار بوريس عينيه وقال :

— لا استطيع ان اعود الى هناك .

ففكر ماتيو : « ها نحن قد وصلنا الى المقصود . » وسأله :

— هل هذا مستحيل عليك حقاً ؟

— لا استطيع .

ورأى ماتيو ان ايفيش كانت تنظر اليه ، فسأله :
— اين هي رسائلك ؟
— في صندوق صغير اسود امام النافذة . وفوق الصندوق محفظـة ليس عليك الا ان تدفعها ، وسترى هناك ركاماً من الرسائل ، ورسائلي مربوطة بشريط اصفر .
وانتظر لحظة ثم اضاف بلهجة لامبالاة :
— وهناك ايضاً رزم مالية .
رزم مالية . وصفر ماتيو بهدوء ، وكان يفـكر : « ان الصبي ليس مجنوناً ، فقد فكر في كل شيء ، حتى في ان يدفع لي . »
— وهل الصندوق مقفل بالمفتاح ؟
— نعم ، والمفتاح في محفظة لولا ، والمحفظة على الطاولة . ستجد رزمة فيها مفتاح صغير مسطح . وهذا هو .
— وما رقم الغرفة ؟
— ٢١ ، الطابق الثالث ، الغرفة الثانية الى اليسار .
قال ماتيو : — طيب . انني ذاهب اليها .
ونهض ، وكانت ايفيش ما تزال تنظر اليه ، وكان يبدو الارتياح على بوريس . وقد رد شعره الى خلف في رشاقة ، وقال وهو يبتسم:
— اذا أُوقفت ، فليس لك ان تقول انك ذاهب الى « بوليفار » وهو زنجي مرقص « كامتشاتكا » ، وانا اعرفه . انه يسكن ايضاً في الطابق الثالث .
قال ماتيو : — انتظراني هنا .
وكان قد اتخذ بالرغم منه لهجة آمرة ، وأضاف بهدوء :
— سأعود بعد ساعة .
قال بوريس : — سننتظرك .
ثم اضاف بلهجة اعجاب وعرفان : — انك شخص من ذهب .

وخطا ماتيو بضع خطى في جادة مونبارناس ، مسروراً بأن يكون وحيداً . وخلفه ، كان بوريس وايفيش على أهبة ان يتهامسا ، وان يشكّلا من جديد عالمهما الثمين الذي لا يمكن تنشّقه . غير انه لم يكن يكترث لذلك . فقد كانت حوله شظايا هموم الامس : حبّه لإيفيش ، حبل مارسيل ، المال ، ووسط ذلك لطخةٌ عمياء : الموت . وارسل بضع مرات تنهّدة « أف » وهو يمر يديه على جبينه ويفرك خدّيه . وفكر : « مسكينة لولا ، كنت احبّها كثيراً . » ولكن لم يكن له هو ان يأسف عليها : لقد كان هذا الموت ملعوناً لأنه لم يتلقّ ايـة عقوبة ولم يكن له هو ان يعاقبه . لقد سقط ثقيلاً في نفس مستهامة وكان يُحدث فيها دوائر . وعلى هذه النفس الصغيرة وحدها كانت تقع تبعة التفكير بهذا الموت وافتدائه . ليت بوريس أحسّ بوميض من الحزن ... انه في الحقيقة لم يستشعر الاّ الفظاعة . وسوف يبقى موت لولا ابداً على هامش العالم . مُبعداً ابداً عن مكانه الطبيعي ، كأنه عتاب . « لقد ماتت كالكلب » وكانت هذه فكرةٌ لا تُطاق . وصاح ماتيو :

— تاكسي !

وحين استقر به المقام في السيارة ، احسّ انه اصبح اهدأ من ذي قبل . بل هو قد شعر باحساسٍ من الرفعة المطمئنة كما لو انه غفـر لنفسه فجأه ان لا يكون بعد في سنّ ايفيش ، او كما لو انّ الشباب فقد فجأة قيمته . وقال في اعتزاز مرّ : « انهما يتوقفان عليّ . » وكان افضل الاّ يقف التاكسي بالقرب من الفندق .

— الى ملتقى شارعيْ نافارين ومارتير .

وكان ماتيو ينظر الى صفّ البنايات الكبيرة الحزينـة في جادّة راسباي . وردّد : « انهما يتوقّفان عليّ . » وكان يُحس انه صلب بل وكثيف بعد الشيء . ثم اظلم زجاج النوافذ ودلفت السيـارة الى

مدخل شارع « باك » الضيّق . وفجأة ادرك ماتيو ان لولا قد ماتت ، وانه داخلٌ على غرفتها ليرى عينيها مفتوحتين على سعتهما وجسمها الابيض . وعزم قائلاً : « لن انظر اليها » كانت ميتة . كان وجدانها قد تلاشى ، لا حياتها . كل ما هنالك ان هذه الحياة الخالية قد توقفت بعد ان غادرها الوحش الطريّ الرقيق الذي سكنها طويلاً جداً ، وكانت ترفرف وهي ملأى بصرخات لا اصداء لها ، وبآمال غير مجدية ، وببروق مظلمة ، وبأشكال وروائح باطلة ، كانت ترفرف على هامش العالم ، بين هلالين ، نهائيةً لا تُنسى ، وليست دون المعدن قابليةً للهدم ، ولم يكن ثمة ما يمنع من ان تكون قد وجدت ، وانها قد بلغت درجة تغيّرها القصوى : ان مستقبلها قد تخثّر . وفكر ماتيو : « ان حياة انسان ما تُصنع بالمستقبل ، كما تُصنع الاجسام بالفراغ . » وخفض رأسه : وكان يفكر بحياته نفسها . كان المستقبل قد اخترقها حتى الصميم . وكان كل شيء فيه معلّقاً ، مؤجلاً . ان ابعد ايام طفولته ، اليوم الذي قال فيه : سأكون حراً ، واليوم الذي قال فيه : سأكون كبيراً ، كانت تبدو له حتى اليوم ، بمستقبلها الخاص ، كسماء شخصية صغيرة صريحة فوقها ، وهذا المستقبل انما كان هو : هو كما هو الآن ، متعباً آخذاً في النضج ، وكان لتلك الايام حقوق عليه ، عَبْر هذا الزمن الطويل المنصرم ، وكانت تتمسّك بمتطلباتها ،وكان يأخذه غالباً ندم ساحق ، لأن حاضره اللامبالي المشمئز من كل شيء ، انما كان المستقبل القديم لهذه الايام المنصرمة . لقد كان هو الذي انتظرته عشرين عاماً ، ومنه ، من هذا الانسان المتعب ، طلب طفلٌ قاسٍ ان يحقق له آماله ؛ وكان يتوقف عليه ان تظل هذه العهود الطفولية طفولية الى الأبد او ان تصبح الإرهاصات الاولى لقدر . ان ماضيه لم يكن يكفّ عن ان يتعرض لتعديلات الحاضر ، وكان كل يوم يزيد احلام العظمة هذه القديمة خيبة ، وكان لكل يوم

مستقبل جديد ؛ ومن إنتظار الى إنتظار ، ومن مستقبل الى مستقبل ، كانت حياة ماتيو تتسرب على مهل ... نحو ماذا ؟

نحو لا شيء . وفكر في لولا : لقد ماتت ولم تكن حياتها الا انتظاراً ، كحياة ماتيو . وقد وُجدت هناك بكل تأكيد ، في صيف قديم ما ، طفلةٌ صغيرة ذات خصلات حمراء ، اقسمت ان تكون مغنّية كبيرة ، وحوالى ١٩٢٣ ايضاً ، مغنية شابة نفد صبرها في انتظار ان تصبح نجمة مشهورة . وحبّها لبوريس ، هذا الحب العظيم الذي تكنّه عجوز ، والذي عانت منه كثيراً ، كان معلّقاً منذ اليوم الاول . لقد كان ، حتّى الامس ، ينتظر وهو غامض مترنّح وجهة مستقبله ، حتّى الامس كانت تفكر انها ستعيش ، وبأن بوريس سيحبّها يوماً ؛ ولم تكن اللحظات الاكثر امتلاء ، والاوفر ثقلاً ، ولم تكن ليالي الحب التي بدت لها اشدّ خلوداً — كل ذلك لم يكن الا انتظارات .

ولم يكن ثمة ما يُنتظر : كان الموت قد ارتدّ الى خلف ، نحو جميع هذه الانتظارات فأوقفها ، فاذا هي جامدة خرساء ، لا معقولة ، ولا هدف لها . لم يكن ثمة ما يُنتظر : ان احداً لن يعرف ابداً اذا كانت لولا ستنجح آخر الامر في حمل بوريس على حبّها ، ولم يكن للقضية معنى . لقد ماتت لولا ، فلم يبق ثمة اية حركة تُعمل ، ولا اية ملاطفة ، ولا ايّ ابتهال ؛ لم يبق ثمة الا انتظاراتُ انتظارات ، الا حياة منفشّة ذات الوان مختلطة ، حياة تسترخي على نفسها . وفكر ماتيو فجأة : « اذا متّ اليوم ، فلن يعرف احدٌ ابداً اذا كنت هالكاً او اذا كنت ما ازال احتفظ بفرصٍ لانقاذ نفسي . »

وتوقف التاكسي فهبط ماتيو وقال للسائق : « انتظرني » وعبر الرصيف مواربا ودفع باب الفندق ، ودلف الى ممرّ مظلم مفعم بالعطر . وفوق باب زجاجي ، الى اليسار ، كان ثمة مستطيل منقّش بالمينا : « الاتجاه » ، والقى ماتيو نظرة عبر الزجاج : كانت القاعة تبدو خالية ،

ولم يكن يسمع الا تكتكة ساعة كان زبائن الفندق من مغنيات وراقصين وزنوج جاز يعودون في ساعة متأخرة ، ويستيقظون في ساعة متأخرة : فكان كل شيء ما يزال ينام . وفكر ماتيو : « ينبغي الاّ اصعد بأسرع مما يجب » وكان يشعر بان قلبه يخفق ، وكانت ساقاه رخوتين . وتوقف عند مصطبة الطابق الثالث ونظر فيما حوله . كان المفتاح في الباب « واذا كان ثمة احد ؟ » وأرهف اذنه لحظة ثم طرق ، فلم يجب احد . وفي الطابق الرابع ، شدّ احدهم على مُفرغ الماء ، فسمع ماتيو هديراً متتابعاً اعقبته ضجّة صغيرة مائعة وصافرة . ودفع الباب ودخل .

كانت الغرفة مظلمة ، وكانت ما تزال تحتفظ برائحة النوم الدبقة . وحدّق ماتيو بنظره في الظلام ، وكان مشوقاً لان يقرأ الموت على ملامح لولا ، كما لو ان ذلك كان عاطفة انسانية . وكان السرير قائماً الى اليمين ، في داخل الغرفة . ورأى ماتيو لولا ، بيضاء كلها ، تنظر اليه ، فهمس : « لولا ؟ » فلم تجب لولا . وكان لها وجه معبّر تعبيراً مدهشاً ؛ ولكنه كان ممتنعاً على الفهم ، وكان نهداها عاريين ، وكانت احدى ذراعيها الجميلتين ممتدّة في تصلّب فوق السرير ، وكانت الاخرى غارقة تحت اللحاف . وردّد ماتيو وهو يقترب من السرير : « لولا ! » ولم يكن يستطيع ان ينزع بصره عن ذلك الصدر المعتزّ ، وكانت به رغبةٌ لأن يلمسه . وبقي لحظات عند حافة السرير متردداً قلقاً ، تنسمّم جسمه رغبةٌ حرّيفة ، ثم انفتل وتناول بسرعة محفظة لولا عن الطاولة . وكان المفتاح المسطح في المحفظة : فأخذه ماتيو واتجه الى النافذة . وكان نهارٌ رمادي يتسلّل عبر الأستار ، وكانت الغرفة ملأى بحضور جامد : وركع ماتيو امام الصندوق ؛ وكان الحضور الذي لا يُردّ هناك ، في ظهره ، كأنه نظرة . وادخل المفتاح في القفل ، ورفع الغطاء فأغرق كلتا يديه في الصندوق ، فاندعكت

اوراق تحت اصابعه . وكانت اوراقاً مالية . وكان ثمة عدد وافر منها، اوراق من ذوات الألف فرنك . وتحت ركام من الايصالات والحسابات ، كانت لولا قد اخفت رزمة من الرسائل معقودة بشريط اصفر . ورفع ماتيو الرزمة الى النور وتفحّص الخطّ وقال هامساً : « هذه هي » ثم وضعها في جيبه . ولكنه لم يكن يستطيع ان يذهب ، وظلّ على ركبتيه ، ونظره محدّد في الاوراق المالية . وبعد لحظة ، عبّث بعصبية في هذه الاوراق واختار بعضها من غير ان ينظر اليها . وفكر : « هذه اجرتي » . وكانت خلفه هذه المرأة الطويلة البيضاء ذات الوجه المندهش ، وكان يبدو على الذراعين ان بوسعهما ان تمتدا ابعد ، وعلى الاظافر الحمراء ان تخمش بعد . ونهض يمسح ركبتيه بظاهر يده اليمنى . وكانت يده اليسرى تقبض على رزمة من الاوراق المالية . وفكر : « لقد حُلتّ مشكلتنا » وكان يتأمل الاوراق في تبرّم « لقد حُلتّ مشكلتنا ... » وكان يرهف اذنه بالرغم منه ، وكان يصغي الى جسم لولا الصامت ، وكان يشعر انه مسمّر في مكانه، وتمتم في استسلام : « حسناً ! » وانفرجت اصابعه فسقطت الاوراق المالية مستديرةً في الصندوق . وعاد ماتيو يغلق الغطاء واقفل القفل ثم وضع المفتاح في جيبه وخرج من الغرفة في خطى ذئب .

وبهره النور ، وقال في ذعر « لم آخذ المال . » وظل جامداً ويده على حاجز السلّم ، وكان يفكر : « انني ضعيف ! » كان يفعل ما بوسعه ليرتجف غضباً ، ولكن المرء لا يستطيع ابداً ان يغضب حقاً على نفسه . وفكر فجأة في مارسيل ، وفي العجوز الكريهة ذات اليدين الخانقتين فأخذه خوف حقيقي : « لم يكن ثمة الا حركة تُعمل للحيلولة دون أن تتألم ، ولتجنيبها مشكلة قذرة لا بدّ ان تطبعها. ولم استطع : انني أدقّ مما ينبغي . هيا ايها الصبي الشاطر ! (وفكر وهو ينظر الى يده المعصوبة) ولكنني استطيع بعد هذا ان اطعن يدي

بالسكين لأتظاهر بأني المشؤوم الكبير امـام الاوانس : انني لن ابلغ أبداً ان آخذ نفسي بالجدّ . » سوف تقصد العجوز ، ليس ثمة مخرج آخر وسيكون عليها هي ان تبدو رابطة الجأش ، وان تصارع الضيق والفظاعة ، وفي هذه الاثناء ، سيمالك نفسه وهو يشرب اقداح الروم في حانة . وفكر مذعوراً : « كـلا ، لن تذهب . سوف اتزوجها ، ما دمت لا اصلح الا لهذا . » وفكر : « سأتزوجها . » وهو يضغط بشدة يده المجروحة على الحاجز . وخيل اليه انه كان يغرق. وتمتم : « كلا ! كلا ! » وهو يرتدّ برأسه الى خلف ، ثم تنفّس بقوة ، واستدار حول نفسه فعبر الممرّ وعاد الى الغرفة . واستند الى الباب كما فعل في المرة الاولى وحاول ان يعوّد عينيه على الظلام .

ولم يكن واثقاً حتى من انه يستطيع ان يسرق . وخطا بضع خطوات مترددة وتميّز اخيراً وجهَ لولا الرمادي وعينيها المفتوحتين اللتين كانتا تنظران اليه .

وسألت لولا : من هناك ؟

وكان صوتاً ضعيفاً ولكنه شرس . وارتعش ماتيو من الرأس حتى القدمين ، وفكر : « ذلك الأبله ! »

— انا ماتيو .

وساد صمت طويل ثم سألت لولا :

— كم هي الساعة ؟

— الحادية عشرة الا الربع .

قالت : — ان بي صداعاً .

ورفعت غطاءها حتى ذقنها وظلت جامدة ، وعيناهـا تحدقان في ماتيو . وكان لا يزال يبدو عليها انها ميتة . وسألته :

— اين بوريس ؟ وماذا تفعل هنا ؟

فقال ماتيو موضحاً بسرعة : — لقد كنتِ مريضة.

ـ وماذا حدث لي ؟

ـ كنت متصلّبة مفتوحة العينين . وكان بوريس يحدّثك فـلا تجيبين . وقد خاف .

ولم يكن يبدو على لولا انها تسمع . ثم ندّت عنها فجأة ضحكة كريهة سرعان ما خنقتها . وقالت في جهد :

ـ لقد حسب اني متّ ؟

فلم يجب ماتيو .

ـ اليس كذلك ؟ لقد حسب اني متّ ؟

فقال ماتيو متهرباً : ـ لقد خاف .

فنفخت لولا قائلة :ـ أوف .

وعاد الصمت من جديد . وكانت قد اغمضت عينيها ، وكان فكّاها يرتجفان . وكان يبدو انها تبذل جهداً عنيفاً لتستردّ حواسّها . وقالت وما تزال عيناها مغمضتين :

ـ ناولني محفظتي ، فهي على طاولة الليل .

فمدّ لها ماتيو المحفظة ، فأخرجت منها علبة بودرة ونظـرت الى مرآتها في نفور ، وقالت :

ـ صحيح اني ابدو بهيئة الميتة .

ووضعت المحفظة على السرير وهي ترسل تنهّدة إرهاق واضافت :

ـ والواقع اني لا اساوي خيراً من ذلك .

ـ هل تشكين شيئاً ؟

ـ اشكو . غير اني اعرف ما هو ، وسوف يزول في النهار .

ـ هل انت بحاجة لشيء ؟ اتريدني ان استقدم الطبيب ؟

ـ لا ، احتفظ بهدوئك . ان بوريس هو الذي ارسلك اذن ؟

ـ نعم . لقد كان يجن .

وسألت لولا وهي تستوي قليلاً : ـ هل هو تحت ؟

– لا .. كنت ... كنت في « الدوم » .. اعني .. انه جاء يبحث عني هناك ، فقفزت الى تاكسي ، وهأنذا .

وسقط رأس لولا من جديد على الوسادة .

– شكراً على كل حال .

واخذت تضحك . ضحكة لاهثة شاقّة .

– على العموم حصل الملاك الصغير على القسمات ، وقد افرنقع من غير ان يسأل عن الباقي . ثم انه اوفدك الى هنا لتتأكد من اني قد متّ حقاً .

قال ماتيو : – لولا !

فقالت لولا : – حسناً . لا حاجة الى الشعوذات !

وعادت تغمض عينيها فحسب ماتيو انها سيغمى عليها . ولكنها استطردت بجفاف بعد لحظة :

– اتريد ان تدعوه الى ان يطمئن . فأنا لست في خطر ، وانما هي توعكات تأخذني احياناً ... على كل حال سيعرف هو لماذا . انه القلب الذي يرتخي قليلاً . قل له ان يأتي الى هنا فوراً . انني انتظره . وسأبقى هنا حتى المساء .

فقال ماتيو : – حسناً . الست حقاً بحاجة الى ايّ شيء ؟

– كلا ، سأشفى حتى المساء ، وسأذهب لأغنّي هناك .

واضافت :

– انه لم ينتهِ معي بعد .

– اذن ، الى اللقاء .

وتوجّه الى الباب ولكن لولا نادته . وقالت بصوت مبتهل :

– هل تَعِدني بان تحمله على المجيء ؟ لقد ... لقد تخاصمنا قليلاً مساء امس ، فقل له اني لست عاتبةً عليه بعد ، وانه لن يكون ثمة اية قضية . ولكن ليأتِ ! ارجوك ، ليأتِ ! انني لا استطيع ان

احتمل فكرة ان يظنّني قد متّ » .
وكان ماتيو متأثراً وقال :
— حسناً ، سأرسله لك .
وخرج ؛ وكانت رزمة الرسائل التي كان قد وضعها في جيب سترته الداخلي تثقل على صدره . وفكر ماتيو : « كيف سيستقبل النبأ ! وينبغي ان يعيد له المفتاح ، وسوف يتدبر امره ليضعه من جديد في المحفظة . » وحاول ان يردد بجذل : « لقد كنت متبصراً اذا لم آخذ المال ! » ولكنه لم يكن جذلاً ، فسيّان ان يكون جبنه قد اعقب نتائج مرضية : المهم انه لم يستطع ان يأخذ المال . وفكر . « مهما يكن ، فاني مسرور انها لم تمت . »
وصاح السائق : — هيه ! من هنا ياسيدي !
فالتفت ماتيو شارداً :
— ماذا ؟ آه ، ها انت ؟ (وتذكر السائق) حسناً ! خُذني الى « الدوم » .
وجلس فأقلع التاكسي . . وكان يود ان يطرد فكرة هزيمته المُذلّة. فأخذ رزمة الرسائل وفك عقدتها وأخذ يقرأ . وكانت كلمات صغيرة جافّة كتبها بوريس من « لاون » في اثناء عطلة الفصح ؛ وكان الحديث يجري فيها احياناً عن الكوكايين ، ولكن بعبارات بلغ من تسترها ان ماتيو قال في نفسه مندهشاً : « لم اكن اعلم انه كان حذراً. » وكانت جميع الرسائل تبدأ بعبارة « حبيبتي لولا » ثم كانت مختصرات مقتضبة عن ايام بوريس . « انني اسبح . لقد تخاصمت مع ابي . تعرفت الى مصارع قديم سيعلمني المصارعة الحرة . دخّنت سيكارة « هنري كلاي » حتى آخرها من غير ان اسقط رمادها . » وكان بوريس ينهي رسائله كلها بهذه الكلمات : « احبك حباً قوياً وأقبلك— بوريس . » وتخيل ماتيو بغير مشقة الظروف التي كانت تقرأ فيها هذه

الرسائل ، وخيبتها المتوقعة دائماً ، والجديدة دائماً مع ذلك ، والجهد الذي كان عليها ان تبذله كل مرة لتقول في اندفاع : « انه في صميمه يحبني ، وكل ما هنالك انه لا يعرف ان يقول ذلك . » وفكر : « ومع ذلك فقد احتفظت بهذه الرسائل . » وعاد يعقد الرسائل ويضع الرزمة في جيبه : « ينبغي ان يتدبر بوريس الامر باعادتها الى الصندوق من غير ان تراه . » وحين توقف التاكسي ، كان يخيل لماتيو انه كان حليف لولا الطبيعي . ولكنه لم يكن يستطيع ان يفكر فيها الا على النحو الذي يفكر فيه بالماضي . وحين دلف الى « الدوم » كان لديه احساس بأنه قادم ليدافع عن ذكرى امرأة ميتة .

وكان يخيل للمرء ان بوريس لم يأت حركة واحدة منذ ذهاب ماتيو . كان جالساً في ركن ، مقوس الكتفين ، فاغر الفم ، مقروص المنخرين . وكانت ايفيش تهمس في اذنيه بحيوية ، ولكنها صمتت حين رأت ماتيو داخلاً . واقترب ماتيو ورمى رزمة الرسائل على الطاولة وقال :

– هذه هي .

فتناول بوريس الرسائل وأخفاها بسرعة في جيبه . وكان ماتيو ينظر اليه بلا ود وسأله بوريس :

– هل كان الامر اصعب مما ينبغي ؟

– لم يكن صعباً على الاطلاق ولكن اسمع : ان لولا لم تمت .

فرفع بوريس عينيه نحوه ، وكان يبدو عليه انه لم يفهم ، فردد ببلادة :

– لم تمت لولا .

وزاد استرخاؤه ، وكان يبدو مسحوقاً ، وفكر ماتيو : « عجباً ! لقد ابتدأ يألف فكرة موتها . »

وكانت ايفيش تنظر الى ماتيو بعينين ينبعث منهما الشرر ، وقالت :

– لقد قررت ذلك . مم كانت تشكو ؟

فأجاب ماتيو بتصلب : – مجرد اغماء .

وصمتوا . وكان بوريس وايفيش يأخذان وقتهما ليهضما النبأ . وفكر ماتيو : « انها مهزلة . » ورفع بوريس رأسه اخيراً وكانت له عينان زجاجيتان ، فسأله :

– وهي ... هي التي اعطتك الرسائل ؟

– كلا ، كانت ما تزال غائبة الحس حين اخذتها .

فشرب بوريس جرعة كونياك ثم وضع القدح على الطاولة ، وقال كأنما يحدث نفسه : /

– هكذا اذن !

– هي تقول ان هذا يحدث لها احياناً حين تتناول المخدر . وقالت لي انك لا بد تعرف ذلك .

فلم يجب بوريس وكان يبدو على ايفيش انها تمالكت وعيها فسألته في فضول :

– ماذا قالت ؟ لا بد انها اضطربت حين رأتك امام سريرها ؟

– لم تضطرب اكثر مما ينبغي . قلت ان بوريس خاف وانه قد أتى يطلب معونتي . وبالطبع ، قلت اني قد جئت لأرى ماذا هناك . (وقال لبوريس) سوف تذكر ذلك طويلا . حاول الا تتناقض في اقوالك . ثم انك ستتدبر الامر لإعادة الرسائل حيث كانت من غير ان تلاحظ هي ذلك .

وأمر بوريس يده على جبينه وقال :

– ان ذلك اقوى مني . فأنا أتمثلها ميتة .

ونفد صبر ماتيو :

– انها تريدك ان تذهب لرؤيتها في الحال .

فردد بوريس كأنما يعتذر :

ـ كنت ... كنت اظن أنها ماتت ؛
فقال ماتيو مغتاظاً :
ـ كلا ! انها لم تمت . خذ تاكسي واذهب للقائها .
فلم يتحرك بوريس ، فسأله ماتيو :
ـ أتسمع ؟ انها شقيّة كالصخور ، تلك المرأة الطيبة .
ومد يده ليمسك بذراع بوريس ، ولـكن بوريس تخلص بهزّة عنيفة ، وصاح بصوت شديد لفت اليه نظر امرأة كانت على السطيحة: « كلا ! » ثم اضاف بصوت منخفض في عناد رخوٍ لا يقهر: « لن اذهب » .
قال ماتيو مندهشاً :
ـ ولكن .. لقد انتهت مشاكل الامس : لقد وعدت الا تُثـار مرة اخرى .
قال بوريس وهو يهز كتفيه : ـ اوه ! مشاكل الامس ...
ـ واذن ، ماذا ؟
فنظر اليه بوريس نظرة استياء :
ـ انني اشمئز منها !
لأنك ظننت بأنها قد ماتت ؟ اسمع يا بوريس : تمالك نفسك . ان هذه حكاية تهريج . لقد اخطأت ، والآن ، انتهى الامر .
قالت ايفيش في حماسة :
ـ انني ارى ان بوريس على حق .
وأضافت بلهجة كانت تحمل قصداً لم يدركه ماتيو :
ـ انني ... لو كنت مكانه لفعلت مثله .
ـ ولكني أراك لا تفهمين ! انه سيجعلها تقتل نفسها حقاً !
فهزت ايفيش رأسها ، وكانت تبدو بوجهها الصغير الكئيب الخانق .
ورماها ماتيو بنظرة كره وفكر : « انها تجعله يركب رأسه » .

قالت ايفيش :

– اذا رجع اليها ، فانما يكون ذلك بدافـــع الشفقة . وانت لا تستطيع ان تطلب ذلك منه : فليس ثمة ما هو ادعى للاشمئزاز ، حتى بالنسبة اليها .

– ليحاول على الاقل ان يراها . وسوف يرى .

فبدت على وجه ايفيش ملامح نفاد الصبر وقالت :

– هناك اشياء لا تحس بها .

فظل ماتيو مشدوهاً ، وانتهز بوريس الفرصة وقال بصوت مصدوم :

– لا اريد ان اراها ثانية . لقد ماتت ، في نظري .

فصاح ماتيو : – ولكن هذا موقف سخيف !

فنظر اليه بوريس نظرة كئيبة :

– لم اكن اريد ان اقولها لك ، ولكن اذا رأيتها وجب عليّ ان المسها (واضاف بنفور) وهذا ... ما لا اطيقه .

وأحس ماتيو بعجزه . وكان ينظر في تعب الى هـــذين الوجهين المعاديين ، وقال :

– حسناً ! اذن انتظر قليلاً ... ربما تمّحي هذه الذكرى ... قل لي انك ستراها غداً او بعد غد .

فبدا الانفراج على بوريس وقال بلهجة مزيفة :

– هو كذلك . غداً .

وأوشك ماتيو ان يقول له : « على الاقل تلفن لها بأنك لا تستطيع ان تذهب اليها . » ولكنه امسك ، وفكر : « لن يفعل ذلك . سأتلفن انا نفسي . » ونهض وهو يقول لإيفيش :

– يجب ان اذهب لأرى دانيال . متى ستعلن النـــاتج ؟ الساعة الثانية ؟

– نعم .

– اتريدين ان اذهب لأراها ؟
– لا ، شكراً . سيذهب بوريس .
– ومتى أراك ؟
– لا ادري .
– ارسلي كلمة عاجلة على التو اذا نجحت .
– نعم .
وابتعد ماتيو وهو يقول :
– لا تنسي . الى اللقاء .
فأجابا معاً :
– الى اللقاء .

وهبط ماتيو الى الطابق الارضي من « الدوم » وفتح دليل التلفون. مسكينة لولا ! ان بوريس سيعود غداً بلا شك الى « سومطرا » . « ولكن هذا اليوم الذي ستقضيه في انتظاره ... انني لا اتمنى ان اكون مكانها ! »

وسأل عاملة التلفون السمينة :
– هل تريدين ان تعطيني « ترودين .. – ٣٥ » ؟
فأجابت : – الغرفتان محجوزتان . يجب ان تنتظر .

وانتظر ماتيو ، وكان يرى من بابين مفتوحين بلاط المغاسل الابيض . مساء امس ، امام « مغاسل » اخرى ... ذكرى غرام طريفة !

واحس بأنه يفيض حقداً على ايفيش . وقال في نفسه : « انهما يخافان الموت . انهما لا يكفيهما ان يكونا نضرين نظيفين ، فان نفسيهما كثيبتان ، لأنهما خائفان . خائفان من الموت ، من المرض ، من الشيخوخة . إنهما يتشبثان بشبابهما كما يتشبث محتضر بالحياة . كم مرة رأيت ايفيش تربت على وجهها امام مرآة : انها ترتجف منذ الآن خشية

التجاعيد . انهما ينفقان وقتهما في اجترار ثيابهما ، ولا يرسمان مشاريع الا لمدى قصير ، كما لو ان ليس امامهما الا خمسة اعوام او ستـــة . وبعد ذلك ... بعد ذلك ، تتحدث ايفيش عن عزمها على الانتحار ، ولكني مطمئن ، فهي لم تجرؤ ابداً : انما هما سيحركان رماداً . لقد تجعّد وجهي ، في آخر المطاف ، ولي جلد تمساح ، وخصلات تتعقد، ولكن لا تزال امامي انا سنوات اعيشها .. لقد بدأت اعتقد اننا نحن الذين كنا شباناً . كنا نريد ان نصبح رجالاً ، وكنـــا مضحكين ، ولكني أتساءل عما اذا كانت الوسيلة الوحيدة لانقاذ الشباب هي ان لا ينساه المرء . » ولكنه ظل على قلق ، وكان يحسهما فوق ، رأساً الى رأس ، متهامسين ضالعين ، وقد كانا مع ذلك ساحرين . وسأل :

– هل جاء دوري ؟

فأجابت المرأة السمينة باستياء :

– لحظة يا سيدي . عندي زبون قد طلب « امستردام » .

وانفتل ماتيو وخطا خطوات : « لم استطع ان آخذ المـــال ! » وكانت امرأة تهبط السلم ، منتعشة خفيفة ، من هاتيك اللواتي يقلن بوجوه فتيات صغيرات : « اريد ان ابول ! » ورأت ماتيو فترددت ثم استعادت مشيتها بخطى واسعة ، ينبعث منها العطر والجذل . ودخلت الى المغاسل . « لم استطع ان آخذ المال : ان حريتي اسطورة. اسطورة – كان برونيه على حق – وحياتي تنبني تحتها في دقة آلية . عدم ، الحلم الفخور الكئيب بألا اكون شيئاً ، بأن اكون دائماً شيئاً آخر غير ما انا . انما انا اتصنع الطفولة مع هذين الصغيرين منذ عام ، حتى لا اكون في سني الحقيقية . عبث : فانني رجل ، شخص كبير ، انه شخص كبير ، سيد ؛ ذلك الذي قبّل ايفيش الصغيرة في تاكسي . وانما انا اكتب في صحف يسارية حتى لا اكون في طبقتي . عبث : فانني بورجوازي ، لم استطع ان آخذ مال لولا ، لقد اخافتني مقدساتهم .

وحتى افلت من حياتي ، اهمس ذات اليمين وذات اليسار ، بعد استئذان مارسيل ، بأني ارفض في عناد ان اقصد المختارية ؛ عبث : فأنا متزوج ، واعيش حياة زواج . » وكان قد تناول الدليل ، وكان يقلب صفحاته في شرود وقرأ : « هوليبيك : مؤلف مسرحي ، الشمال ٧٧ — ٨٠ » وكان يحس بألم في معدته ، وقال : « هكذا . ان ارادتي بأن اكون ما انا ، هي الحرية الوحيدة الباقية لي . حريتي الوحيدة : ارادة الزواج بمارسيل . » وكان متعباً جداً بأن يحس نفسه متأرجحاً بين تيارات متضادة حتى انه استشعر من ذلك بعض العزاء . وضغط على قبضتيه ، ولفظ داخلياً برصانة شخص كبير ، بورجوازي ، سيد ، رب اسرة : « اريد ان اتزوج مارسيل . »

تفه ! كانت كلمات ، وكان اختياراً طفولياً عابثاً . وفكر : « هذا ايضاً ، هذا ايضاً كذب : لست بحاجة الى ارادة لكي اتزوجها ؛ فليس لي الا ان ادعني امضي . » واغلق الدليل ، وكان ينظر مرهقاً الى بقايا كرامته الانسانية . وفجأة خيل اليه انه كان يرى حريته . كانت خارج المتناول ، قاسية جامحة كالجمال : وكانت تأمره بصراحة ان يتخلى عن مارسيل ، . ولم تدم الا لحظة ، هذه الحرية التي لا تُشرح ، والتي كانت تأخذ مظاهر الجريمة ؛ لقد لمحها لمحاً : وكانت تخيفه ، ثم انها كانت بعيدة . وظل مستنداً الى ارادته الانسانية اكثر مما ينبغي ، الى هذه الكلمات الانسانية اكثر مما ينبغي : « سوف اتزوجها . »

قالت عاملة التلفون :

— هذا دورك يا سيدي خذ الغرفه الثانية .

قال ماتيو : — شكراً .

ودخل الغرفة .

— ارفع السماعة يا سيدي .

فرفع ماتيو السماعة بوداعة :

ــ آلو ؟ ترودين ٠٠ ــ ٣٥ ؟ انها مخابرة للسيدة مونتيرو . كلا، لا تزعجوها . وانما يصعد من يقول لها بعد حين ان المخابرة من السيد بوريس : انه لا يستطيع ان يأتي .

قال الصوت السيد موريس ؟

ــ كلا ، ليس موريس ، وانما بوريس . لا يستطيع ان يأتي . نعم . هكذا . شكراً . الى اللقاء يا سيدتي .

وخرج ، وفكر وهو يحك رأسه : « لا بد ان مارسيــل تروح الآن وتجيء حائرة ، وعليّ ان اتلفن لها ما دمت هنا . » ونظر الى عاملة التلفون نظرة مترددة فسألته :

ــ هل تريد رقماً آخر ؟

ــ نعم . اعطيني « سيغير ٢٥ ــ ٦٤ »

وكان رقم ساره . وقال :

ــ آلو ساره ، انا ماتيو .

فقال صوت ساره الخشن :

ــ آلو صباح الخير . ما الاخبار ؟ هل دبّرت الامر ؟

فقال ماتيو : ــ على الاطلاق . ان الناس لا يعطون المال الا بشق النفس . والحق اني اريد ان اسألك : الا تستطيعين ان تقصدي ذلك الرجل وترجيه ان يمهلني في الدفع حتى آخر الشهر ؟

ــ ولكنه يكون قد سافر ، في آخر الشهر .

ــ سأرسل له المال الى اميركا .

وكانت لحظة صمت قصيرة ، واضافت ساره في غير حماسة :

ــ استطيع ان احاول على اي حال ، ولكن ذلك لن يتم بسهولة . انه عجوز شحيح جداً ، ثم انه يجتاز الآن مرحلة حساسية صهيونية

شديدة ، فهو يكره كل ما ليس يهودياً منذ طردوه من فيينا .
ـ حاولي على اي حال ، اذا كان هذا لا يزعجك .
ـ هذا لا يزعجني على الاطلاق . سأقصده فوراً بعد الفطور .
قال ماتيو : ـ شكراً يا ساره . انت شخص من ذهب .

١٣

قال بوريس : ــ انه غير منصف على الاطلاق .

قالت ايفيش : ــ اجل ، اذا كان يتصوّر انه ادى خدمة للولا !

وضحكت ضحكة قصيرة جافة ، وصمت بوريس راضياً : لم يكن ثمة من يفهمه خيراً من ايفيش . ولفت رأسه الى سلّم المغاسل وفكر في قسوة : « الحق انه قد تجاوز حدوده . ان على المرء الا يحدّث انساناً على النحو الذي حدثني به . انا لست هورتيغير » وكان ينظر الى السلّم ، وكان يأمل ان يبسم لها ماتيو وهو صاعد . وظهر ماتيو مرة اخرى ، وخرج من غير ان يوجّه لها بسمة ، فشقّ ذلك على بوريس .

وقال : ــ انه يبدو فخوراً جداً .

ــ من ؟

ــ ماتيو . لقد خرج اللحظة .

فلم تجب ايفيش بشيء . وكان يبدو عليها مظهر الحياد ، وكانت تنظر الى يدها المعصوبة .

وقال بوريس : ــ انك عاتب عليّ . وهو يجد انني لست اخلاقياً.

قالت ايفيش : ــ نعم ، ولكن هذا سيزول عنه سريعاً . (وهزت كتفيها) انني لا احبه حين يكون اخلاقياً .

فقال بوريس : – اما انا ، فأحبـه . (واضاف بعد تفكير) ولكني اكثر اخلاقية منه .

قالت ايفيش : – بف ! (وتأرجحت قليلاً على المقعد الصغير ، وكانت تبدو ساذجة سمينة الخدّين ، وقالت بلهجة ماجنة) انني انا لا اكترث بالاخلاق . لا اكترث بها . »

واحسّ بوريس بأنه وحيد جـداً . وقد كان يودّ لو يقترب من ايفيش ، ولكن ماتيو كان لا يزال بينهما . وقال :

– انه غير منصف . فهو لم يدع لي الوقت لأشرح موقفي .

فقالت ايفيش بلهجة عادلة :

– هناك اشياء لا يمكن ان تُشرح له .

فلم يحتج بوريس . وكان ذلك بدافع العادة ، ولكنه كان يعتقـد بأن من الممكن شرح كل شيء لماتيو حين يكون هادىء المزاج : وكان يخيل اليه دائماً انهما لم يكونا يتحدثان عن الـ « ماتيو » نفسه : فان « ماتيو » ايفيش كان أتفه .

وضحكت ايفيش ضحكة خفيفة وقالت :

– كم انت عنيد ، ايها البغل الصغير !

فلم يجب بوريس ، وكان يمضغ ما كان لا بدّ ان يقوله لماتيو : بأنه لم يكن وحشاً صغيراً انانياً ، وانه اصيب بهزة عنيفة حين اعتقد بان لولا قد ماتت . بل هو قد استشعر ذات لحظة بأنه سيتألم وان ذلك قد ادهشه . كان يجد الألم لااخلاقياً ، ثم انه لم يكن يطيق حقاً ان يتحمله . واذ ذاك بذل جهداً لنفسه ، بدافع الاخلاق . فسُدَّ شيء ما ، وحدث انقطـاع ، وكان لا بدّ من الانتظار لعودة الامر الى نصابه .

ضحكت ايفيش ضحكة صغيرة جرحت بوريس . فأضاف بدافع من عدالة :

– لا بدّ انها في هذه اللحظة تتألم .
– هذا صحيح .
قال : – انا لا اريد ان تتألم .
فقالت ايفيش بصوت مغنٍّ : – ليس عليك اذن الا ان تذهب فتراها .
ففهم انها كانت تنصب له شركاً واجاب بحيوية :
– لن اذهب . انها اولاً ... انني ما زلت أراها ميتة . ثم اني لا اريد ان يتصور ماتيو انه يستطيع ان يعتبرني جاهلاً بليداً .
انها لن تستسلم ، بصدد هذا ، فانـــه لم يكن هورتيغير . وقالت ايفيش في عذوبة :
– صحيح بعض الشيء انه يعتبرك جاهلاً بليداً .
وكان هذا لؤماً ، ادركه بوريس من غير غضب : كان قصد ايفيش وجيهاً . فقد كانت تريد ان يقطع علاقته باولا ، وكان هذا من اجل صالحه . وكان الجميع ينظرون الى صالح بوريس . ولكن هذا الصالح كان يتغيّر وفق الاشخاص . واجاب في هدوء :
– انني انظاهر بهذا امامه . وهذه هي خطتي معه .
ولكنه كان قد أُصيب في صميمه ، وكان غاضباً على ماتيو . وتململ قليلاً على المقعد فنظرت اليه ايفيش نظرة قلقة وقالت :
– انك تفكر اكثر مما ينبغي يا عزيزي . ليس عليك ان تتصور الا انها ماتت حقاً .
فقال بوريس : – سيكون هذا موافقاً لي ، ولكني لا استطيع .
فراق ذلك لإيفيش وقالت :
– غريب .. اما انا فأستطيع ، حين اكفّ عن رؤية الناس ، فانهم لا يوجدون بعد .
فتأمل بوريس اخته باعجاب وصمت : انه لم يكن يستشعر مثل هذه

القوة الروحية . وقال بعد لحظة :
– انني اتساءل عما اذا كان قد اخذ المال . سيزيد الطين بلة لو فعل !
– اي مال ؟
– مال لولا . كان بحاجة الى خمسة آلاف فرنك .
– عجباً !
وبدا على ايفيش الاستياء والدهشة . وتساءل بوريس عما اذا لم يكن من الافضل ان يمسك لسانه . صحيح ان العهد كان ان يتصارحا بكل شيء ، ولكن كان بالامكان ، بين الفينة والفينة ، ان يُجرى استثناء على القاعدة . وقال :
– يبدو انك ناقمة على ماتيو .
فزمّت ايفيش شفتيها وقالت :
– انه يثير اعصابي : كان هذا الصباح يعتبرني رجلاً .
قال بوريس : – نعم ...
وكان يتساءل عما كانت ايفيش تعني ، ولكنه لم يُظهر شيئاً من ذلك : كان عليهما ان يتفاهما بالكلام القليل ، والاّ بطل السحر .
وحلّ بينهما صمت ، ثم اضافت ايفيش فجأة :
– لنرحل . انني لا استطيع ان اطيق « الدوم » .
قال بوريس : – وانا كذلك .
ونهضا وخرجا . واخذت ايفيش ذراع بوريس . وكانت لدى بوريس رغبة خفيفة وعنيدة بان يقيء . وسألها :
– اتظنين انه سيظلّ غاضباً وقتاً طويلاً ؟
قالت ايفيش نافدة الصبر : – كلا ، كلا .
فقال بوريس في خبث :
– انه غاضب عليك ايضاً .

فأخذت ايفيش تضحك :
– هذا ممكن جداً ، ولكني سآسف لذلك فيما بعد . ان في رأسي هموماً اخرى .
قال بوريس باضطراب : – صحيح ، انك منزعجة .
– جداً .
– بسبب امتحانك ؟
فهزت ايفيش كتفيها ولم تجب . وسارا بضع خطوات صامتين . وكان يتساءل عما اذا كان ذلك حقاً بسبب امتحانها . وكان يتمنى لو كان ذلك كذلك : فان هذا اوفر اخلاقية .

ورفع عينيه ، فرأى ان جادة مونبارناس كانت عظيمة تحت هذا النور الرمادي . ان المرء ليحسب نفسه في تشرين الاول . وكان بوريس يحب كثيراً شهر تشرين الاول . وفكر : « في تشرين الماضي ، لم اكن اعرف لولا . » وفي اللحظة نفسها احسّ بأنه متحرّر : « انها حيّة » وللمرة الاولى ، منذ ترك جثتها في الغرفة المظلمة ، كان يحسّ بانها حيّة ، وكان ذلك بمثابة البعث . وفكر : « ليس من الممكن ان يظلّ ماتيو ناقماً عليّ مدة طويلة ما دامت لم تمت . » وحتى هـــذه الدقيقة ، كان يعلم انها كانت تتألم ، وانها كانت تنتظره في ضيق ، ولكن ذلك الالم وهذا الضيق كانا يبدوان له غير قابلين للمعالجـــة وثابتين كألم الذين ماتوا يائسين . ولكن كان هناك خطأ : كانت لولا على قيد الحياة ، وكانت ترتاح في سريرها مفتوحة العينين ، وكان يعمر صدرها غضبٌ صغير حيّ ، كذلك الذي كان يعمره حين كان يصل متأخراً الى الموعد المضروب . غضب لم يكن دون غضب الآخرين احتراماً او اكثر منه . ربما كان اقوى . ولم يكن له ازاءهـــا تلك الواجبات المخيفة التي يفرضها الاموات ، بل واجبات رصينة ، واجبات عائلية على العموم . وهكذا استطاع بوريس ان يبتعث وجه لولا من

غير اشمئزاز او استفظاع . ولم يكن وجه ميتة ، ذلك الذي استجاب للنداء ، وانما كان ذلك الوجه النضر الغاضب الـــذي أدارته نحوه ليلة الامس حين كانت تصرخ به : « لقد كذبت عليّ ، فانت لم تترَ بيكار ؟ » وفي الوقت نفسه ، استشعر حقداً صلباً ضد هذه الميتـــة المزيّفة التي خلقت كل هذه الكوارث . وقال :

ـــ لن اعود الى فندقي . فهي جديرة بان تقصده .

ـــ اذهب فنم لدى كلود .

ـــ نعم .

وخطرت لايفيش فكرة :

ـــ عليك ان تكتب لها . سيكون ذلك أنسب .

ـــ اكتب للولا ؟ اوه ! كلا .

ـــ بلى .

ـــ لن اعرف ماذا اقول لها .

ـــ سأكتب لك هذه الرسالة ، ايها الابله الصغير .

ـــ ولكن ماذا تقولين فيها ؟

فنظرت اليه ايفيش بدهشة :

ـــ الا تريد ان تقطع علاقتك بها ؟

ـــ لا ادري .

فبدا الانزعاج على ايفيش ، ولكنها لم تلحّ . وكانت لا تلحّ قط ، وكان هذا يناسبها . ولكن مهما كان الامر ، فان على بوريس ان يكون دقيقاً حذراً بين ماتيو وايفيش : اما الآن فان رغبته في فقد لولا لم تكن اشد منها في رؤيتها من جديد . وقال :

ـــ سنري . لن يجدي التفكير بذلك الآن .

وكان يُحسّ بالرضى في هذه الجادّة ، وكان للناس وجوه طيبة ، وكان يعرفهم كلهم تقريباً بالنظر ، ثم انه كان ثمة شعاع شمس مرح

يلامس زجاج « حانوت الليلك » وقالت ايفيش :

– انني جائعة . وسوف اتناول الفطور .

ودلفت الى مقهى « دبماريا » فانتظرها بوريس في الخارج. واحس انه ضعيف واهن العاطفة كأنه ناقه ، وكان يتساءل عما يمكنه ان يفكر به ليحصل على لذة صغيرة . ووقع اختياره فجأة على « القاموس التاريخي والاشتقاقي للغة العامية » فابتهج . كان القاموس الآن على طاولته الليلية، ولم يكن يُرى سواه . وفكر باغتباط : « انه قطعة اثاث . لقد كانت ضربة معلم . » ولما كانت السعادة لا تأتي وحدها ، فقد فكر ايضاً بالسكين ، فأخرجه من جيبه وفتحه :« انني محظوظ ! » كان قد اشتراه ليلة امس ، وقد اصبح لهذا السكين تاريخ ، فهو قد شقّ بشرة كائنين هما اعز الكائنات لديه. وفكر : « انه يقطع جيداً » .

ومرت امرأة فنظرت اليه في الحاح . وكانت مرتدية ثياباً غاية في الاناقة . والتفت ليراها من ظهرها . وكانت قد التفتت هي ايضاً ، فتبادلا نظرة ود .

وقالت ايفيش : – هأنذا .

وكانت تحمل تفاحتين كبيرتين من تفاح كندا . وفركت احداهما على مؤخرتها ، حتى اذا اصبحت ملتمعة جداً ، عضتها بينما مدت الأخرى لبوريس : فقال بوريس :

– لا ، شكراً . لست جائعاً . (واضاف) انك تثيرين نفوري .

– لماذا ؟

– انك تفركين تفاحتك على قفاك .

فقالت ايفيش : – ذلك لألمّعها .

قال بوريس : – انظري الى المرأة الذاهبة . لقد احسست نحوها بانجذاب .

وكانت ايفيش تأكل بطريقة ساذجة ، فقالت وفمها ممتلىء :

ـ وهذه ايضاً ؟

قال بوريس : ـ ليس من هذه الجهة ، وانما خافك .

فالتفتت ايفيش ورفعت حاجبيها وقالت ببساطة :

ـ انها جميلة .

ـ هل رأيت ثيابها ؟ ان حياتي لن تنقضي قبل ان تكون لي امرأة كهذه . امرأة من الوسط الراقي . ولا بد ان ذلك ممتع .

وكانت ايفيش ما تزال تنظر الى المرأة التي كانت تبتعد . وكان في كل يدٍ من يديها تفاحة ، وكان يبدو كأنها تبسطهما لها . وقال بوريس في كرم :

ـ وحين اتعب منها ، اعطيك اياها .

وعضت ايفيش تفاحتها مرة جديدة وقالت :

ـ هكذا اذن .

وتناولت ذراعه وجذبته فجأه . وكان على الجانب الأخر من جادة مونبارناس مخزن ياباني. فعبرا الرصيف ووقفا امام المعروضات . وقالت ايفيش .

ـ انظر الى الاقداح الصغيرة .

قال بوريس : ـ انه « للساكي »

ـ وما هذا !

ـ عصير الارز الياباني .

ـ سآتي لأشتري بعضها ، واجعلها فناجين شاي .

ـ انها اصغر مما ينبغي .

ـ سأملأها عدة مرات بالتالي .

ـ او انك تستطيعين ان تملئي ستةً دفعة واحدة .

فقالت ايفيش مفتونة .

ـ نعم . سيكون امامي ستة اقداح مترعة . فأشرب تارة من احدها،

وتارة من الآخر .

وتراجعت قليلاً وقالت بلهجة هوس ، وهي تكز بأسنانها :

— اوه ! اود لو اشتري الحانوت كله .

وكان بوريس ينتقد ذوق اخته في اختيار هذه التحف . ومع ذلك فقد اراد ان يدخل الحانوت ولكن ايفيش امسكته .

— ليس اليوم . تعال .

وعادا يصعدان شارع دانفير — روشرو ، وقالت ايفيش :

— لكي احصل على مثل هذه الاشياء الصغيرة — ما يملأ غرفة كاملة — ربما بعت نفسي لشيخ عجوز !

فقال بوريس بقسوة : — لن تستطيعي ذلك . فهذه مهنة ، وهي تحتاج الى تعلم .

وكانا يسيران ، وكانت هذه لحظة سعادة ؛ وكانت ايفيش قد نسيت ، بالتأكيد ، امتحانها، اذ كانت تبدو جذلة . في هذه اللحظات ، كان بوريس يحس بأنهما لا يشكّلان بعد الا شخصاً واحداً . وكان في السماء قطع كبيرة زرقاء وسحائب بيضاء تغلي : كانت اوراق الشجر مثقلة بالمطر ، وكان ذلك يبعث رائحة نار الحطب . كما في شارع قرية كبير . وقالت ايفيش وهي تشرع في التهام تفاحتها الثانية :

— احب هذا الطقس . صحيح ان هناك بعض الرطوبة ، ولكنه لا يدبق . ثم انه لا يؤذي العيون . انني احسني قادرة على السير عشرين كيلومتراً .

وتذكر بوريس في خفاء انه كان ثمة مقاه مجاورة . وحين تتحدث ايفيش عن قدرتها على السير عشرين كيلومتراً ، فما لا ريب فيه انها ستطلب الجلوس بعد ذلك تواً .

ونظرت الى اسد « بلفور » وقالت في نشوة :

— هذا الاسد يعجبني . انه ساحر .

قال بوريس : — يعني ...

وكان يحترم ذوق اخته حتى ولو لم يكن يقاسمها اياه . والحق ان ماتيو قد كفل ذلك ، فقد قال له يوماً : « ان لأختك ذوقاً رديئاً ، ولكنه افضل من اوثق ذوق : انه ذوق رديء عميق . » ولم يكن ثمة مجال للمناقشة في هذه الظروف . ولكن بوريس كان شخصياً ميّالاً الى الجمال الكلاسيكي . وسألها :

— هل نسيت جادّة « ارغو » ؟

— وايّها هي ؟

— هذه .

فقالت ايفيش : — أحبذ ذلك . فانها شديدة البريق .

ومشيا في صمت . ولاحظ بوريس ان اخته كانت تتجهم وتصبح عصبية ، وكانت تتقصّد ان تمشي وهي تلوي قدميها ، ففكر في ذعر متطامن : : « سيبدأ الاحتضار ! » وكانت ايفيش تدخل في الاحتضار كلما كانت تنتظر نتائج احد الامتحانات . ورفع عينيه ورأى اربعة عمال قادمين في اتجاههما وهم ينظرون اليهما ضاحكين . وكانت ايفيش خافضة الرأس فلم ترهم على ما يبدو . وحين وصل الشبان الاربعة اليهما ، افترقوا : فمر اثنان منهما الى يسار بوريس ، والآخران الى يسار ايفيش .

وقال احدهم مقترحاً : — هل نعمل « سندويش » ؟

فقال بوريس بلطف : — قبحك الله يا وجه الضراط !

وفي تلك اللحظة قفزت ايفيش في الهواء وارسلت صرخة ثاقبة سرعان ما خنقتها وهي تضع يدها امام فمها . وقالت وقد احمرّت خجلاً :

— اني اقف كفتاة مطبخ . لقد كان العمال الشبان بعيدين .

فسألها بوريس دهشاً : — ماذا هناك ؟

قالت ايفيش في اشمئزاز : — لقد لمسني . يا للقذر !
واضافت في قسوة : — لا بأس . كان ينبغي الاّ اصرخ .
فسألها بوريس مُهاناً : — أيّهم ؟
فأمسكته ايفيش :
— ارجوك ، احتفظ برباطتك . انهم اربعة . ثم انه يكفيني ما اصابني من هزؤ .
وقال بوريس موضحاً : — ليس ذلك لأنه لمسك . ولكني لا استطيع ان اتحمل ان يفعلوا لك ذلك حين اكون معك . حين تكونين مع ماتيو ، لا يمسك احد . فكيف تراني ابدو ؟
قالت ايفيش بحزن : — هكذا يا عزيزي الصغير . وانا كذلك لا احميك . اننا لا نوحي بالاحترام .
وكان هذا صحيحاً . وكان بوريس يعجب لذلك غالباً : حين كان ينظر الى نفسه في المرآة ، كان يجد ان هيئته مرعبة . وردد :
— نعم ، اننا لا نوحي بالاحترام .
وضمّ احدهما الآخر ، واحسّا بأنهما يتيمان .
وبعد لحظة سألته ايفيش : — ما هذا ؟
وكانت تشير الى جدار طويل اسود عبر خضرة شجر الكستناء .
فقال بوريس :
— انه « السانتيه » . سجن .
قالت ايفيش : — عظيم . انني لم أر في حياتي اكأب منه. هل يفر منه السجناء ؟
فقال بوريس : — هذا نادر . لقد قرأت ان سجيناً قفز مرة من فوق الجدار فتعلق في غصن ضخم لشجرة كستناء ثم هرب .
وفكرت ايفيش ثم اومأت بأصبعها الى شجرة كستناء وقالت :
— لعلها هذه . ما رأيك بأن نجلس على المقعد هناك ؟ انني متعبة .

فربما رأينا سجيناً آخر يقفز .

فقال بوريس على غير اقتناع :

– ربما . ولكنهم يفعلون ذلك ليلاً على ما اعتقد .

واجتازا الرصيف وراحا يجلسان . وكان المقعد مبتلاً ، وقالت ايفيش في رضى :

– انه رطب .

ولكنها ما لبثت ان بدأت تتململ وتشد على خصلاتها . وكان على بوريس ان يربّت على يدها حتى لا تنتزع شعرها . وقالت ايفيش :

– إلمس يدي . انها مثلجة .

وكان هذا صحيحاً . وكانت ايفيش قبيحة ، وكان يبدو انها تتألم ، وكان جسمها كله يهتز بالانتفاضات الصغيرة . ورآها بوريس حزينة جداً حتى انه حاول ان يفكر بلولا ، بدافع الود .

ورفعت ايفيش رأسها فجأة : وكانت تبدو عليها هيئة العزم المظلم . وسألته :

– هل معك زهرك ؟

– نعم .

وكان ماتيو قد اعطى ايفيش ورق لعب في محفظة جلدية صغيرة ، فأهدته ايفيش الى بوريس ، وكانا يلعبان به غالباً . وقالت :

– لنلعب .

فأخرج بوريس الزهر من المحفظة . واضافت ايفيش :

– « مانشان » و « جميلة » ابداً .

وابتعد احدهما عن الآخر . واقتعد بوريس الحجر ودحرج الزهر على المقعد . وكان قد سحب بوكر ملوك ، وقال :

– ضربة موفقة .

قالت ايفيش : – انني اكرهك .

وقطّبت حاجبيها وقبل ان تحرك الزهر نفخت على اصابعها وهي تدندن . وكان ذلك تضرعاً . وفكر بوريس : « ان الامر جد ، فهي تراهن على نجاحها في الامتحان » ورمت ايفيش الزهر فخسرت : اذ حصلت على ثلاث سيدات . ونظرت الى بوريس بعينين يتطاير منهما الشرر وقالت :

– الى الضربة الثانية .

وسحبت هذه المرة ثلاثة آسات وصرخت : « ضربة موفقة » . وقذف بوريس الزهر وكان على وشك ان يحصل على بوكر آس . ولكن قبل ان يبلغا غاية سباقهما ، مد يده بحجة انه يلم الورق ، ثم دفع ورقتين دفعة خفيّة بطرف سبابته واصبعه الوسطى ، فجاء ملكان مكان الآس والبوكر ، فاذا هو يعلن بلهجة غيظ :

– زوجان.

فقالت ايفيش منتصرة : – لقد جاءني انا « مانش » اخيراً .

وكان بوريس يتساءل عما اذا كانت قد رأته يغش . ولكن ذلك كان في نهاية المطاف بدون اهمية كبيرة : ان ايفيش لم تكن تهتم الا بالنتيجة . وقد ربحت بزوجين مقابل زوج ، من غير ان يتدخل . وقالت ببساطة :

– طيّب !

– هل تريدين ان تلعبي بعد ؟

فقالت : – لا ، هذا حسن . انت تعلم اني كنت العب لأعرف ان كنت سأنجح .

قال بوريس : – لم اكن اعرف ؛ حسناً : لقد نجحت .

فهزت ايفيش كتفيها وقالت :

– لا اؤمن بذلك .

وصمتا وظلا جالسين متقاربين ، خافضي الرأس . ولم يكن بوريس

ينظر الى ايفيش ولكنه كان يشعر بأنها ترتجف . وقالت ايفيش :

ــ ان الحر يضايقني ، اية فظاعة : ان يدي دبقتان ، وانا دبقة من فرط الضيق .

والواقع ان يدها اليمنى التي كانت منذ لحظة باردة جداً ، اصبحت ملتهبة . اما اليسرى فقد كانت تستريح جامدة معصوبة على ركبتيها . وقالت :

ــ ان هذا الضماد يثير اشمئزازي . انني أشبه احد مشوّهي الحرب، وانا شديدة الرغبة في انتزاعه .

فلم يجب بوريس . ودقّت ساعة في البعيد دقة . فانتفضت ايفيش وسألت بصوت شرود :

ــ انها الثانية عشرة والنصف ؟

فقال بوريس وهو يراجع ساعته :

ــ انها الواحدة والنصف .

وتبادلا النظر فقال بوريس :

ــ لقد آن الوقت لأن اذهب الى الجامعة .

فالتصقت به ايفيش وأحاطت كتفيه بذراعيها :

ــ لا تذهب يا عزيزي بوريس . اني لا اريد ان اعرف شيئاً .

ــ مأسافر الى لاون هذا المساء و ... لا اريد ان اعرف شيئاً .

فقال لها بوريس في لطف :

ــ انك تستسلمين . يجب ان تعلمي الحقيقة قبل ان تواجهي الاهل.

فتركت ايفيش ذراعيها تسترخيان وقالت :

ــ اذن اذهب . ولكن عُد بأسرع وقت ممكن . اني انتظرك هنا .

فقال بوريس مشدوهاً :

ــ هنا ؟ الا تفضلين ان نقطع الطريق معاً ؟ ستنتظرينني في مقهى من مقاهي الحي اللاتيني .

قالت ايفيش : — لا ، لا ، بل سأنتظرك هنا .

— كما تريدين . واذا هطل المطر ؟

— بوريس ، ارجوك ، لا تعذّبني . اسرع . سأبقى هنا ، حتى ولو هطل المطر ، حتى ولو زُلزلت الارض . انني لا استطيع ان انهض على ساقيّ ، وليست لدي القوة بعد لأرفع إصبعاً واحدة .

ونهض بوريس وراح يسير على عجل . وحين عبر الطريق التفت مرة اخرى . وكان يرى ايفيش من ظهرها : كانت مسترخية على مقعدها ، وقد غرق رأسها في كتفيها ، وكانت تشبه شحاذة مسنّة . وقال في نفسه : « لعلّها ستكون ناجحة ، بالرغم من كل شيء . » وخطا بضع خطوات ، وتمثّل فجأة وجه لولا . وجهها الحقيقي. وفكر : « انها شقية ! » واخذ قلبه يخفق خفقاً عنيفاً .

١٤

بعد لحظة . بعد لحظة يواصل بحثه الذي لا طائل تحته ؛ بعد لحظة ، تلاحقه عينا مارسيل الحاقدتان المتعبتان ، ووجه ايفيش الهارب ، وقناع لولا الجنائزي ، سيجد مرة اخرى مذاق حمّى في جوف فمه ، وسيأتي الضيق ليسحق معدته . بعد لحظة . واستغرق في أريكته واشعل غليونه ؛ وكان خالياً وهادئاً ، وكان مستسلماً لرطوبة الحانة المظلمة . وكان هناك ذلك البرميل المبرنق الذي كان بمثابة طاولة ، وصور اولئك الممثلات وقبعات البحارة تلك المعلّقة بالجدران ، وذلك الجهاز اللاسلكي الذي لا يرى والذي كان يوشوش كنافورة ماء ، واولئك السادة الضخام الاثرياء الجميلون الذين يدخنون السيجار في جوف القاعة وهم يشربون البورتو — الزبائن الآخرون ، رجال اعمال ، اذ كان الآخرون قد ذهبوا ليفطروا منذ وقت طويل ؛ وكانت الساعة في حوالى الواحدة والنصف ، ولكن كان من اليسير ان يتصور المرء انه كان الصباح وان النهار كان هناك ، هادئاً ، كبحر وديع ، وكان ماتيو يذوّب نفسه في هذا البحر الذي لا حماسة له ولا موج ، ولم يكن بعد الاّ نغمة لا تكاد تُسمع ، ضجةً من اصوات متميّزة ، نوراً ذا لون صديء وهدهدةً لجميع هذه الايدي الجميلة الجراحية التي كانت تتأرجح وهي تحمل السيجار ، كقوافل تحمل التوابل . وكان يعلم جيداً انهم

انما يعيرونه هذه القطعة الضئيلة من الحياة الفاغرة ، وان عليه ان يردّ بعد حين ، ولكنه كان يفيد منها بلا جشع : ان العالم ما يزال يحتفظ للاشخاص الهالكين بكثير من المباهج الصغيرة المتواضعة ، بل هو يحتفظ لهم بمعظم نعَمه العابرة ، شريطة ان يستمتعوا بها في تواضع . وكان دانيال جالساً الى يساره بأبهّة وصمت . وكان ماتيو يستطيع على هواه ان يتأمل وجهه الجميل ، وجه شيخ عربي ، وكانت تلك ايضاً بهجةً صغيرة للعيون .

ومدّ ماتيو ساقيه وابتسم لنفسه . وقال دانيال :

– انني اوصيك خيراً بخمر « كزيريس » الذي يشربونه .

– حسناً ، ولكنك ستقدم لي منه قدحاً : فأنا لا املك فلساً .

فقال دانيال : – اقدّمه لك . ولكن قل لي : اتريد ان اعيرك مئتي فرنك ؟ انني خجلٌ من أن أعرض عليك هذا المبلغ الضئيل ...

قال ماتيو : – لا ، لا حاجة الى ذلك .

وكان دانيال قد أدار نحوه عينيه الكبيرتين الملاطفتين . وألحّ :

– أرجوك . ان معي أربعمئة فرنك حتّى آخر الأسبوع : وسوف نتقاسمها .

وكان ينبغي ان يتجنّب قبولها ، فان ذلك لم يكن من قواعد اللعبة . فقال ماتيو :

– لا ، لا . اؤكد لك . انك لطيف جداً .

وكان دانيال يُثقل عليه نظرة مساعدة كثيفة :

– ألست حقاً محتاجاً الى شيء ؟

قال ماتيو : – بلى ، أنا محتـاج إلى خمسة آلاف فرنك ، ولكن ليس في هذه اللحظة . في هذه اللحظة أنا محتاج الى قدح كزيريس والى محادثتك .

فقال دانيال : – أتمنى ان تكون محادثتي في مستوى الكزيريس .

ولم يكن قد أشار أية إشارة الى رسالته المستعجلة ، ولا الى الاسباب التي حملته على استدعاء ماتيو . والحق أن ماتيو كان يحمد له ذلك : فلا بدّ ان هذا آت عما قريب . وقال :

— إسمع : لقد رأيت برونيه ، أمس .

فقال دانيال بتأدب : — صحيح ؟

— أعتقد جيداً ان الامر قد انتهى بيننا هذه المرة .

— هل تنازعتما ؟

— لم نتنازع فقط ، بل فعلنا ما هو اسوأ .

وكان دانيال قد اتخذ مظهر الاسف ، فلم يستطع ماتيو أن يمتنع عن الابتسام ، وسأله :

— أتراك لا تكترث ببرونيه ، أنت ؟

فقال دانيال : — انني لم أكن حميمي الصداقة معه ، كما هو شأنك. إنني أحترمه كثيراً ، ولكن لو كنت الحاكم لحشوته قشاً ووضعته في « متحف الانسان » فرع القرن العشرين .

قال ماتيو : — إنه لن يبدو فيه وجهاً رديئاً .

وكان دانيال يكذب : فقد سبق له أن أحب برونيـــه كثيراً . وتذوّق ماتيو الكزيريس .

وقال : — إنه لذيذ .

فقال دانيال : — نعم ، هذا أفضل ما عندهم . ولكن مؤونتهم تنفد ، ولا يستطيعون أن يجدّدوها بسبب حرب اسبانيا .

ووضع قدحه الفارغ وأخذ زيتونة من صحن وقال :

— أتعلم أني سأطلعك على سرّ ؟

وانتهى الامر : لقد تسلّلت تلك السعادة المتواضعـــة الخفيفة في الماضي . ونظر ماتيو إلى دانيال من زاوية عينه : كان دانيال يتخذ مظهر النبالة والغموض . وقال ماتيو :

— هيّا .

فقال دانيال بصوت متردّد : — إنني أتساءل عمّا سيخلّف ذلك في نفسك . إنني سآسف إذا كنت ستحقد عليّ .

فقال ماتيو باسماً : — ليس لك إلا أن تتكلّم فتعلم تأثير ذلك .

— حسناً ... إحزر مَنْ رأيت مساء أمس ؟

فردّد ماتيو خائباً : — من رأيت مساء أمس ؟ لست أدري، فربما رأيت جماعة كبيرة من الناس .

— مارسيل دوفيه .

— مارسيل ؟ عجباً .

ولم يندهش ماتيو كثيراً : صحيح أن دانيال ومارسيل لم يكونا قد اجتمعا كثيراً ، ولكن كان يبدو على مارسيل انها تكنّ الودّ لدانيال. وقال :

— إنك محظوظ . هي لا تخرج أبداً . أين التقيت بها ؟

فقال دانيال مبتسماً : — في بيتها . فأين تريد أن يكون ذلك ، ما دامت لا تخرج أبداً ؟

وأضاف وهو يخفض جفنيه بتواضع :

— اصارحك بأننا نتلاقى بين وقت وآخر .

وساد صمت ، وكان ماتيو ينظر الى جفون دانيال الطويلة السود التي كانت تخفق قليلاً . ودقّت ساعةٌ الثانية ، وكان صوتٌ زنجي يغنّي على مهل: « هناك سرير في كارولين » إننا نتلاقى بين وقت وآخر . وأدار ماتيو رأسه وثبّت نظره في الباقة الحمراء لقبعة بحّار . وردّد من غير ان يفهم :

— انكما تتلاقيان . ولكن ...

فقال دانيال في شيء من الانزعاج :

— في بيتها ، لقد قلت لك ذلك .

– في بيتها . أتعني انك تقصدها هناك ؟

فلم يجب دانيال . وسأله ماتيو :

– أية فكرة هذه ؟ وكيف حدث ذلك ؟

– الامر بكل بساطة اني كنت دائماً أكنّ وداً كبيراً لمارسيل دوفيه . وكنت شديد الإعجاب بشجاعتها وكرم نفسها .

وصمت لحظة ، فردّد ماتيو في اندهاش : « شجاعة مارسيل وكرم نفسها . » لم تكن هذه هي الصفات التي كان أكثر تقديراً لها لدى مارسيل . وتابع دانيال :

– كنت ذات يوم ضجراً ؛ فأخذتني الرغبة بأن أذهب فأدقّ بابها ، واستقبلتني بترحاب . هذا كل ما في الامر : ومنذ ذلك الحين استمررنا في اللقاء . وكانت غلطتنا الوحيدة أننا أخفينا عنك ذلك .

وغرق ماتيو في العطور الكثيفة ، وفي جوّ الغرفة الوردية : كان دانيال جالساً على الكرسي ذي الوسادة ، ينظر إلى مارسيل بعينيه الكبيرتين الوعليتين فتبتسم مارسيل بارتباك كما لو ان هناك من يريد تصويرها . وهزّ ماتيو رأسه : إن ذلك لم يكن معقولاً ، كان مستحيلاً وباعثاً على النفور ، لأن هذين الشخصين لم يكن يربطهما شيء مشترك ، فلا يعقل ان يتفاهما .

– كنت تقصدها ، وقد أخفت عني ذلك ؟

وأضاف بهدوء :

– هذا مزاح .

فرفع دانيال عينيه وتأمل ماتيو في غموض ، وقال بصوت عميق :

– ماتيو ، انت تعرف أني لم أسمح لنفسي قط بأيّ مزاح حول علاقاتك مع مارسيل ، فهي علاقات ثمينة جداً .

قال ماتيو : – انا لا أنكر ذلك . لا أنكر ذلك . ولكن هذا لا يمنع أن يكون الامر مزاحاً .

فترك دانيال ذراعيه تسقطان ، ثابط الهمّة ، وقال في أسى :

ـ حسناً . لنبق اذن عند هذه النقطة .

قال ماتيو : ـ لا ، لا . تابع . فانت طريف للغاية : كل ما هنالك اني لا اصدّق .

فقال دانيال في عتاب :

ـ ولكنك لا تيسّر لي المهمّة . انه يشقّ عليّ كثيراً ان اتهّم نفسي تجاهك . وهذا حسبي (وتنهد) وكنت اودّ لو تصدّق كلامي. ولكن ما دمت بحاجة الى ادلّة ...

وكان قد اخرج من جيبه محفظة محشوة بالاوراق المالية . ورأى ماتيو الاوراق وفكر : « الدنيء ! » ولكن بكسل ، وشكلياً . وقال دانيال :

ـ انظر .

ومدّ رسالة الى ماتيو ، فتناولها : كان خطّ مارسيل . وقرأ :

ـ « كنت على حقّ ، شأنك دائماً ، يا ملاكي . كان هو الزهر الذي ذكرت . ولكني لا افهم كلمة واحدة مما كتبت لي . موافقة ليوم السبت ، ما دمت مشغولاً غداً . ان امي تقول بانها ستوبخك بشدّة ، من اجل السكاكر . تعال بسرعة يا ملاكي ، سننتظر زيارتك بفارغ الصبر . مارسيل . »

ونظر ماتيو الى دانيال وقال :

ـ اذن ... هذا صحيح ؟

فأومأ دانيال برأسه : وكان متضبا مقطّباً كشاهد مبارزة . واعاد ماتيو قراءة الرسالة ، وكان تاريخها العشرين من نيسان . « لقد كتبتْ هذا . » وكان هذا الاسلوب المصطنع لا ينمّ عنها ، وفرك انفه في تململ ، ثم انفجر ضاحكاً :

ـ ملاك ، انها تدعوك ملاكاً ، وهذا ما لا يخطر على بالي .

اتصوره ملاكاً سقط من السماء ، شخصاً من فئة «لوسيفير» . ثم انك ترى العجوز : لقد اكتملت الصورة .

فبدا دانيال مضطرباً ، وقال بجفاف :

– اقتنعتَ اخيراً ... لقد كنت اخشى ان تغضب ...

فأدار ماتيو رأسه اليه ونظر اليه في تردّد ؛ وكان يرى جيداً ان دانيال كان يتوقع غضبه .

وقال : – هذا صحيح ، كان عليّ ان اغضب ، وهذا طبيعي . ولكن اسمع : ربما جاء ذلك فيما بعد . اما الآن فانا مذهول .

وافرغ قدحه ، وقد اخذته الدهشة – بدوره – لأنه لم يغضب .

– وهل تراها غالباً ؟

– بصورة غير منتظمة . مرتين تقريباً في الشهر .

– ولكن ما عساكما تجدان للكلام ؟

فانتفض دانيال والتمعت عيناه . وقال بصوت اعذب مما ينبغي :

– اتكون لديك موضوعات للتحدث تقترحها علينا ؟

فقال ماتيو بصوت مصالح :

– لا تغضب . ان هذا جديدٌ جداً ، غير متوقّـــع قط بالنسبة إليّ ... حتى انه يسلّيني تقريباً . ولكن ليست لي مقاصد سيئة . اذن، هذا صحيح ؟ انكما تحبّان ان تتحدثا فيما بينكما ؟ ولكن – لا تصرخ ، ارجوك ، فأنا اطلب الفهم ، باي شيء تتحدثان ؟

فقال دانيال في برودة :

– بكل شيء . ان مارسيل لا تنتظر مني بالطبع احاديث رفيعـــة جداً ، ولكن ذلك يُريحها .

– ان هذا لا يصدَّق ، فانتما مختلفان جداً .

ولم يكن ينجح في التخلص من تلك الصورة اللامعقولة : مارسيل في أبهّة ، وهو في محاسنه الخفية النبيلة ، ومظاهر «الكاغليسترو» لديه ،

وبسمته الافريقية الطويلة ، ومارسيل ، تجاهـه ، متصلّبة ، مرتبكة
امينة ... امينة ؟ متصلّبة ؟ انها ليست متصلبة الى هذا الحدّ : « تعال
ايها الملاك ، فنحن ننتظر زيارتك . » كانت مارسيل هي التي كتبت
ذلك ، وكانت هي التي تحاول ان تتعوّد على هذه اللطافات الكثيفة .
وللمرة الاولى احسّ ماتيو بان نوعاً من الغضب يلامسه ، وفكـر :
« لقد كذبت عليّ انها تكذب عليّ منذ ستة اشهر . » واستطرد :

— يدهشني كثيراً ان تكون مارسيل قد اخفت عني شيئاً .

فلم يجب دانيال . وسأله ماتيو :

— اتكون انت الذي طلبت اليها ان تصمت ؟

— نعم انا . لم اكن اريدك ان تقود علاقاتنا . امـا الآن ، فاني
اعرفها منذ وقت بعيد ، ولم يبق للقضية كبير اهمية .

وردّد ماتيو وقد هدأ قليلاً :

— أانت الذي طلبت اليها ذلك ؟

واضاف : — وهي لم تبد اية صعوبة ؟

— لقد ادهشها ذلك كثيراً .

— نعم ، ولكنها لم ترفض .

— كلا . لا بدّ انها لم تجد ذلك شديد الإجرام . لقد ضحكت كما
اذكر وقالت : « انها حالة ضميرية » وهي تعتقد اني احبّ ان احيط
نفسي بالاسرار (واضاف بسخرية محجبة استاء لهـا ماتيو كثيراً) في
البدء كانت تسميني « لوهنغران » . وبعد ذلك ، وقـع اختيارها كما
ترى على « ملاك » .

قال ماتيو : — نعم .

وكان يفكر : « انه يسخر منها » واستشعر الذلّ لمارسيل . وكان
غيلونه قد انطفأ فمدّ يده وتناول بآلية حبة زيتون . وكان الأمر خطيراً :
انه لم يكن يحسّ نفسه خامداً بما فيه الكفاية ، وانما كان يأخذه خبل

فكري ، كمن اكتشف انه انما كان مضلّلاً علي طول الخط .. ولكن لو كان الامر قد حدث في السابق ، لكان الشيء الحيّ الذي في داخله قد نزف . وقال في بساطة ، بصوت كئيب :

– كنا نتصارح بكل شيء ...

قال دانيال : – كنت تتصوّر ذلك . ايستطيع الانسان ان يقول كل شيء ؟

فرفع ماتيو كتفيه في غيظ ، ولكنه كان خصوصاً غاضباً على نفسه. وقال :

– وهذه الرسالة ! اننا ننتظر زيارتك ! يخيّل اليّ اني اكتشف « مارسيل » اخرى .

فبدا دانيال مذعوراً :

– « مارسيل » اخرى .. انك تذهب بعيداً ! اسمع .. انك ،مقابل عمل طفولي ، لن ...

– لقد كنت تأخذ عليّ الساعة ، انت نفسك ، انني لا آخذ الامور مأخذاً جدياً بما فيه الكفاية ...

فقال دانيال :

– ذلك انك تنتقل من النقيض الى النقيض (واضاف بلهجة تفهّم ودية) الامر هو انك تثق اكثر مما ينبغي باحكامك على الناس . ان هذه الحكاية الصغيرة تثبت ببساطة ان مارسيل اكثر تعقيداً مما كنت تظنّ .

قال ماتيو : – ربما . ولكن هناك شيئاً آخر .

لقد اخطأت مارسيل ، وكان يخشى ان يحقد عليها : كان لا ينبغي ان يفقد ثقته بها اليوم – اليوم إذ لعلّه سيكون مجبراً على ان يضحّي لها بحريته . كان بحاجة الى ان يحترمها ، والاّ كان ذلك اقسى من ان يُحتمل . وقال دانيال :

– والواقع اننا كنا دائمـــاً على نية ان نخبرك بذلك ، ولكن كان طريفاً جداً ان تقوم بالتآمر ، حتى اننا كنـــا نؤجل ذلك من يوم الى آخر .

حتى اننا ! كان يقول : اننا ؛ لقد كان بوسع امريء ان يقول « نحن » وهو يتحدث الى مارسيل عن ماتيو . ونظر ماتيو الى دانيال بلا صداقة : كانت تلك لحظة الحقد عليه . ولكن دانيال كان يدّعه بلا سلاح ، كما هو شأنه دائماً . وقال له ماتيو فجأة :

– دانيال ، لماذا فعلتْ ذلك ؟

فأجاب دانيـــال : – لقد اجبتك : لأني رجوتهـــا أن تفعل . ثم انه كان يسلّيها – ولا بدّ – ان يكون لها سرّ .

فهز ماتيو رأسه

– كلا . هناك شيء آخر . لقد كانت تعرف جيداً ما كانت تفعله. فلماذا فعلته ؟

قال دانيـــال : ولكن ... اتصوّر انه لا ينبغـــي ان يكون من المناسب دائمـــاً ان تعيش في دائرة اشعاعك . لقـــد بحثت لنفسها عن زاوية ظلّ .

– ها هي تجدني طاغياً كاسحاً ؟

– انها لم تقل لي ذلك بصراحة ، ولكن هذا ما حسبت اني افهمه . (واضاف مبتسماً) ماذا تريد ، انك قوة ! تأكّد انها معجبة بك ، انها معجبة بطريقتك في ان تعيش داخل بيت من الزجاج وان تصيح من على السطوح بما ألف الناس ان يحتفظوا به لأنفسهم : غير ان ذلك يستنفدها . انها لم تحدثك عن زياراتي ؛ لانها خشيت ان تفسر عواطفها نحوي ، وان تضغط عليهـــا لتعطي هذه العواطف اسماً ، وان تحلّلها لتحيلها قطعاً صغيرة . أتدري ؟ انهم بحاجة الى الظلام والغموض ... ان ذلك شيء متردّد وغير محدّد اطلاقاً ...

ــ هل صارحتك بذلك ؟

ــ نعم ، صارحتني . لقد قالت لي : ان ما يسلّيني معك هو انني لا اعرف قط اين انا ذاهبة . اما مع ماتيو ، فاني اعرف دائماً ذلك . مع ماتيو ، اعرف دائماً ذلك . وايفيش : « ان المرء لا يخشى معك ما ليس متوقعاً » . واحس ماتيو بشيء من الغثيان .

ــ لماذا تراها لم تحدثني قط ؟

ــ هي تزعم انك لا تسألها عن ذلك .

وكان هذا صحيحاً ، وخفض ماتيو رأسه : لقد كان كلما اراد ان يسبر عواطف مارسيل يأخذه كسلٌ لا يُقهر . وحين حسب مرة انه يلاحظ طيفاً في عينيها ، هزّ كتفيه : « لو كان ثمة شيء لقالته لي . انها تقول كل شيء . » وهذا ما كنت اسمّيه : ثقتي بها . لقد افسدت كل شيء .

وانتفض وقال فجأة :

ــ لماذا تخبرني بذلك اليوم ؟

ــ لا بدّ ان تُخبَر بذلك اليوم او غداً .

وكانت هذه اللهجة الفرارية مقصودة لإثارة الفضول : ولكن ماتيو لم ينخدع بها ، فأضاف يقول :

ــ لماذا اليوم ، ولماذا انت ؟ لقد كان اكثر طبيعية ... ان تحدثني هي بذلك اولاً .

فقال دانيال بارتباك مصطنع :

ــ يبدو اذن انني اخطأت ... ولكني حسبت ان هــذا كان في صالحكما انتما الاثنين .

حسناً . وتصلب ماتيو : « حذار من الضربة القاسية . ان هذه هي البداءة فقط . » واضاف دانيال :

ــ سأقول لك الحقيقة : ان مارسيل تجهل اني تحدثت اليك ، وحتى

الامس لم تكن تبدو عازمـــة على إطلاعك على الحقيقة في هذا الوقت المبكر . سأكون شاكراً لك اذا اخفيت عنها محادثتنا بعناية .

فضحك مانيو بالرغم منه :

– هكذا اذن ايها الشيطـــان ! انك تبذر الاسرار في كل مكان . بالامس فقط كنت تتآمر مع مارسيل عليّ ، واليوم تطلب مني ان اضلع معك ضدها . فأي نوع طريف من الخونة انت !

فابتسم دانيال وقال :

– ليس فيّ شيء من الشيطان . ان ما حملني على الكلام قلق حقيقي استولى عليّ مساء امس . فقد خيّـِل اليّ انه كان بينكما سوء تفاهم خطير . ومن الطبيعي ان تكون مارسيل من العزّة بحيث تمتنع عن ان تحدثك هي نفسها بذلك .

فضغط ماتيو قدحه بقوة في يده : لقد بدأ يفهم .

– الامر هو بصدد ... (وانهى دانيـــال العبارة بحشمة) بصدد حادثتك .

قال ماتيو : – آه ، هل قلت لها انك كنت عالماً بذلك ؟

– لا ، لا، لم أقل شيئاً . هي التي تحدثت اولاً .

– هكذا اذن !

« امس كانت تبدو على التلفون خائفة من ان احدثها بالموضوع . وفي المساء ، قالت له كل شيء مهزلة اخرى . » وأضاف : وبعد ذلك ؟

– بعد ذلك .. ان هناك شيئاً غير لائق .

فسأله ماتيو منقبض الحنجرة :

– ما الذي يتيح لك أن تقول ذلك ؟

– ليس هناك شيء واضح .. وانما هي الطريقة التي قدّمتْ لي بها الاشياء :

– ماذا هناك ؟ هل هي حاقدة عليّ لأني جعلتها تحمل ؟
– لا اظن . ليس هذا هو الامر . وانما هو بشأن مسلكك امس . لقد حدثتني عنه بحقد .
– ما الذي فعلته ؟
– لا استطيع ان اقول لك على الضبط . اسمع ، هذا ما قالته لي ضمن اشياء اخرى : « انه هو الذي يقرر دائماً ، فاذا لم أكن متفقة معه ، فمن المفهوم ان احتج . ولكن ذلك لصالحه هو لأن له رأيه الناجز ، وهو لا يترك لي الزمن ابداً لتكوين رأي » . انني لست متأكداً من العبارات .
فقال ماتيو مشدوهاً :
– ولكن لم يكن امامي قرارٌ اتخذه . لقد كنا دائماً على اتفاق حول ما ينبغي ان تفعله في مثل هذه الحالة .
– نعم ، ولكن هل حرصت على معرفة رأيها امس الاول ؟
قال ماتيو : – كلا . كنت متأكداً من انها كانت تفكر مثلي .
– نعم ، الواقع انك لم تسألها عن شيء . متى واجهتما للمرة الاخيرة ... هذه الامكانية ؟
– لا ادري ، منذ عامين او ثلاثة .
– عامان او ثلاثة ... او لا تظن انها يمكن ان تكون قد غيّرت رأيها في هذه الاثناء ؟
وفي جوف القاعة ، كان السادة قد نهضوا ، وكانوا يتبادلون التهاني وهم يضحكون ، واتاهم خادمٌ بقبعاتهم ، فخرجوا وهم يحيّون صاحب الحانة بحركة ودية ، واوقف الخادم الراديو . وعادت الحانة تسقط في صمت جاف ، وكان في الجوّ مذاق كارثة . وفكر ماتيو : « سينتهى الامر نهاية سيئة . » ولم يكن يعرف جيداً ما الذي سينتهي نهاية سيئة : هذا النهار العاصف ، ام قصة ذلك الإجهاض ، ام علاقاته

بمارسيل ؟ كلا ، كان شيئاً أشدّ غموضاً واعرض : حياته ، اوروبا هذا السلام التافه المشؤوم . وتمثّل شعر برونيه الاشقر : « ستقع الحرب في ايلول . » وفي هذه اللحظة ، كان من في الحانة الخالية المظلمة يكاد يصدق ذلك . لقد كان في حياته شيء ما قد فسد ، في هذا الصيف . وسأله :

– هل هي خائفة من العملية ؟

فقال دانيال بلهجة باردة : – لا ادري .

– هل ترغب في ان اتزوجها ؟

فأخذ دانيال يضحك :

– لست ادري . انك تسألني اكثر مما اطيق الجواب عليه . مهما يكن من امر ، فليست القضية من السهولة بهذا المكان . اتسمعني ؟ يجب ان تحدّثها هذا المساء . من غير ان تذكرني طبعاً : كما لو ان بعض الوساوس قد استولت عليك . وسوف يدهشني الاّ تقول لك كل شيء ، بالنسبة للوضع الذي رأيتها فيه امس : كان يبدو عليها انها شقية جداً .

– حسناً . سأحاول ان احملها على الكلام .

وساد صمت ، ثم اضاف دانيال بلهجة انزعاج :

– هكذا : لقد اخبرتك .

قال ماتيو : – نعم ، شكراً على كل حال .

– هل انت حاقد عليّ ؟

– على الاطلاق . ان هذا هو نوع الخدمة الذي يمكنك ان تؤديه ، ان يسقط على رأسك كالقرميدة .

فانفجر دانيال ضاحكاً : وكان يفغر فمه على سعته ، فترى اسنانه الباهرة وجوف حلقه .

ما كان لي ان افعل ذلك ، اليد موضوعة على السماعة ، كانت تفكر ، ما كان لي ان افعل ذلك ، لقد كنا نتصارح بكل شيء ، وفكر : كانت مارسيل تكاشفني بكل شيء ، آه ! وفكر ، انه يعرف ، الآن يعرف ، خبل مُرهَق في رأسها وهذا الصوت الصغير في رأسها ، كانت مارسيل تقول لي دائماً كل شيء ، ، والامر الآن في رأسها ، هذا غير محتمل ، افضّل مئة مرة ان يكرهني ، ولكنه كان هناك ، جالساً على مقعد المقهى ، متباعد الذراعين ، كما لو انه ترك شيئاً ما يسقط ، وعينه محدّدة في الارض كما لو ان شيئاً ما قد تحطّم عليها . لقد تم الامر ، وتمت المحادثة . لم أر ، ولم اسمع ، ولم أكن هناك ، ولم اعلم شيئاً ، وقد كانت هي ، وقد قبلت الكلمات وانا لا اعرف شيئاً ، وكان الصوت الرصين يرتفع كالدُخان نحو سقف المقهى، سوف يأتي الصوت من هناك ، الصوت الجميل الرصين الذي كان يُرعش دائماً صفيحة السماعة ، وسيخرج من هناك وسيقول انتهى الامر ، يا إلـهي يا إلـهي ؛ ما الذي سيقوله ؟ انني عار ، انني ممتلىء وهذا الصوت سيخرج مجلبباً من الصفيحة البيضاء ، ما كان ينبغي لنا ، ما كان ينبغي لنا ، لقد كانت موشكة على ان تغضب من دانيال ، اذا كان ممكناً ان تغضب منه ، لقد كان كريماً جداً وطيباً؛ وكان الوحيد الذي اهتم بي ، واخذ قضيتي بيده ، ذلك الملاك ،ومنح قضيتي صوته الرائع . امرأة ، امرأة ضعيفة ، ضعيفة يدافع عنها في عالم الرجال والاحياء صوت غامض حارّ ، وسيخرج الصوت من هناك وسيقول : كانت مارسيل تقول لي كل شيء ، مسكين ماتيو ، يا ملاكي الحبيب ! وفكرت : الملاك تبلّلت عيناه ، دمعٌ عذب، دمع غزارة وخصوبة ، ومع امرأة حقيقية بعد ثمانية ايام محرقة ، ومع امرأة عذبة مُدافع عنها . لقد اخذني بين ذراعيه فلاطفني ودافع عني ، ماء العينين الراقص والملاطفة الملتوية على الخدين ، وارتجافة

الشفتين ، طوال ثمانية ايام نظرت في البعيد الى نقطة ثابتة ، وعيناها جافتان خاليتان : انهم سيقتلونه لي ، وطوال ثمانية ايام كانت مارسيل الدقيقة ، مارسيل القاسية ، مارسيل العاقلة ، مارسيل الرجل ، انه يقول بأني رجل ، وهذا هو الماء ، المرأة الضعيفة ، المطر في العينين ، فلماذا اقاوم ، غداً سأكون قاسية وعاقلة ، مرة ، مرة واحدة ، الدموع ، الندم ، الاشفاق المعذب على النفس ، والذل الاعذب ايضاً ، هاتان اليدان المخمليتان على خاصرتي ، على فخذي ، كانت راغبة بأخذ ماتيو بين ذراعيها وطلب الصفح منه ، الصفح وهي راكعة : ماتيو المسكين ، يا عزيزي الكبير . مرة ، مرة واحدة ، ما اجمل ان يُدافع عنها ، وان يُصفح عنها . وارهقتها فكرة مفاجئة . وكان خلّ يسيل في عروقها ، هذا المساء ، حين يدخل الى بيتي ، وحين احيط عنقه بذراعي ، وحين اقبّله ، سيعرف كل شيء ، وعليّ انا ان اتظاهر بأني لا اعرف انه يعرف . آه ! اننا نكذب عليه ، هكذا فكرت في يأس ، ولا نزال نكذب عليه ، اننا نقول له كل شيء ، ولكن صراحتنا مسمومة . انه يعرف ، وسيدخل هذا المساء ، وسأرى عينيه الطيبتين ، وسأفكر ، انه يعرف ، وكيف تراني استطيع ان اتحمل ذلك ، يا عزيزي ، يا عزيزي الكبير ، للمرة الاولى في حياتي سببّت لك حزناً ، آه ! سأقبل كل شيء ، سأذهب الى العجوز ، سأقتل الطفل ، انني خجلة ، سأفعل ما يشاء ، كل ما يشاء .

ورن جرس التلفون تحت اصابعها ، فشنّجت يدها على السمّاعة ، وقالت :

ــ آلو ! آلو ! انت دانيال ؟

قال الصوت الجميل الهادىء : ــ نعم ، من يكلّمني ؟

ــ انا مارسيل .

ــ صباح الخير يا عزيزتي مارسيل .

قالت مارسيل : — صباح الخير . (وكان قلبها يخفق بشدة)
— هل نمت نوماً هنيئاً ! (وكان الصوت الرصين يصدي في جوفها ، وكان هذا لذيذاً وغير محتمل) لقد تركتك في ساعة متأخرة جداً مساء امس ، ولا بد ان توبخني السيدة دوفيه على ذلك ؛ ولكن آمل الا تكون قد عرفت شيئاً .
فقالت مارسيل لاهثة :
— كلا ، لم تعرف شيئاً . كانت غاطسة في نومها حين خرجت...
وألحّ الصوت العذب يقول : — وانت ، هل نمت نوماً هانئاً ؟
— انا ؟ لا بأس ... انني ثائرة الاعصاب قليلاً كما تعلم .
فأخذ دانيال يضحك ، وكانت ضحكة مترفة جميلة ، هادئة وقوية .
وانفرجت مارسيل قليلاً . وقال :
— ينبغي الا تثور اعصابك . لقد سارت الأمور جيداً .
— سارت ... صحيح ؟
— صحيح . بل احسن مما كنت آمل. الحق اننا يا عزيزتي مارسيل لم نعرف قدر ماتيو تماماً .
واحس مارسيل ان ندماً مرّاً يعضها ، فقالت :
— اليس كذلك ؟ اننا لم نعرف قدره .
قال دانيال : — لقد اوقفني منذ الكلمات الاولى . وقال لي انه ادرك جيداً ان شيئاً ما غير طبيعي ، وان هذا قد آلمه طوال نهار امس.
فسألت مارسيل بصوت مختنق :
— هل قلت ... هل قلت له اننا كنا نتقابل ؟
فقال دانيال في دهشة : — طبعاً ! ألم نتفق على ذلك ؟
— بلى ... بلى ... بلى ... وكيف تلقّى هذا النبأ ؟
فبدا على دانيال التردد وقال :
— بصورة جيدة . جيدة جداً بالنتيجة . لم يرد اولاً ان يصدق...

– لا بد انه قال لك : كانت مارسيل تخبرني كل شيء .
– قال ذلك في الواقع (وبدا انه مسرور) قاله حرفياً .
قالت مارسيل : – إسمع يا دانيال : انني نادمة !
وسمعت من جديد الضحكة العميقة الجذلة :
– هذا هو وضعه ايضاً . لقد ذهب ممتلئاً بالندم . آه ! فاذا كنّا معاً في هذا الوضع ، فاني اود لو اختبىء في مكان ما من غرفتك حين يأتي للقائك : فسيكون ذلك شيئاً لذيذاً !
وضحك من جديد ، ففكرت مارسيل في عرفان متواضع : « انه يسخر مني . » ولكن الصوت كان قد اصبح رصيناً ، وكانت السمّاعة تهتز كالأرغن :
– لا ، الحقيقة يا مارسيل ان كل شيء يسير على ما يرام ، وانا مسرور من اجلك كما تعلمين . انه لم يتركني اتكلم ، واوقفني منذ الكلمات الاولى ، وقال لي : « يا لمارسيل المسكينة ، انني مجرم كبير ، وانا احتقر نفسي ، ولكني سأصلح خطئي ، اتظن اني استطيع بعد ان اصلحه ؟ » وكانت عيناه متوردتين . فما اشد ما يحبك !
وكانت مارسيل تقول :
– اوه يا دانيال ! اوه يا دانيال !
وساد صمت ، ثم اضاف دانيال :
– لقد قال لي انه يريد ان يحدثك هذ المساء بكل صراحة : « سنفقأ الدمل . » فكل شيء هو الآن بين يديك يا مارسيل . سيفعل كل ما تشائين ؟
– اوه يا دانيال ! اوه يا دانيال ! (ثم تمالكت نفسها قليلاً واضافت) لقد كنت طيباً جداً و ... اود ان اراك في اقرب فرصة ممكنة ، فعندي اشياء كثيرة اقولها لك ، ولا استطيع ان اكلمك من غير ان اري وجهك . هل تستطيع غداً ؟

فبدا لها الصوت اكثر جفافاً كأنما قد فقد اوتاره التوافقية :

ـ آه ! غداً ، لا ! انـــني طبعاً متشوق لرؤيتك ... اسمعي يا مارسيل ، سأخابرك .

قالت مارسيل : ــ حسناً ، خابرني بسرعة . آه يا دانيـــال ، يا عزيزي دانيال ...

قال دانيال : ــ الى اللقاء يا مارسيل . كوني بارعة هذا المساء .

وصاحت : ــ دانيال ...

ولكنه كان قد اغلق التلفون . ووضعت مارسيل السماعة وأمرّت منديلها على عينيها الرطبتين : « الملاك ! لقد افلت بسرعة ، خشية ان اشكره . » واقتربت من النافذة ونظرت الى المارة : نساء وسوقة وبضعة عمال ، فوجدت ان هيئة السعادة كانت بادية عليهم . وكانت امرأة شابة تعدو وسط الشارع ، وكانت تحمل ابنها بين ذراعيهـــا ؛ وتحدثه وهي تعدو لاهثة وتضحك في وجهه . وتابعتها مارسيل بعينيها ثم اقتربت من المرآة فنظرت فيها الى نفسها باندهاش . وكان على خشبة المغسلة ثلاث وردات حمر في قدح للاسنان . وتناولت مارسيل احداها في تردد وأدارتها بخجل بين اصابعها ، ثم اغمضت عينيهـــا وغرزت الوردة في شعرها الاسود . « وردة في شعري ... » وفتحت اجفانها ، ونظرت الى نفسها في المرآة ، وربتت على شعرها ثم ابتسمت لنفسها في تأثـر .

١٥

قال الرجل القصير :

ــ تفضل وانتظر هنا يا سيدي .

وجلس ماتيو على مقعد صغير ، وكانت غرفة انتظـار صغيرة تنبعث منها رائحة الملفوف ؛ والى اليسار كان باب زجاجي يلمع لمعاناً ضعيفاً . ودُقّ الجرس فذهب الرجل القصير ليفتح . ودخلت امرأة شابة وهي تلبس ثياباً ذات احتشام بائس .

ــ تفضلي واجلسي يا سيدتي .

ورافقها وهو يمسها مساً خفيفاً حتى المقعد الصغير ، فجلست وهي تطوي ساقيها تحتها . وقالت المرأة الشابة :

ــ لقد سبق لي ان جئت ؛ والقضية هي قضية قرض .

ــ نعم ، يا سيدتي ، بكل تأكيد .

وكان الرجل القصير يحدثها في وجهها :

ــ هل انت موظفة ؟

ــ انا لا ، وانما زوجي .

وأخذت تفتش في محفظتها ؛ ولم تكن قبيحة ، ولكن كانت لهـا هيئة قاسية مذعورة ؛ وكان الرجل القصير ينظر اليها في نهم. وأخرجت من محفظتها ورقتين او ثلاثاً مطوية بعناية ، فأخذها واقترب من الباب

الزجاجي ليتبيّن ما فيها بوضوح وتفحصها طويـلاً . وقال وهو يردّها لها :

ـ حسناً ، حسناً جداً . ولدان ؟ انك تبدين صبيّة بعد ... اننا ننتظر الاولاد بفارغ الصبر ، اليس كذلك ؟ ولكن حين يصلون ، تختلُ ميزانية البيت . هل انتم منزعجون قايلاً في هذه الفترة ؟

فاحمر وجه المرأة الشابة وفرك الرجل القصير يديه ، وقال في طيبة:

ـ حسناً ، سنتدبر كل شيء . فانما نحن هنا من اجل ذلك .

ونظر اليها نظرة تفكر باسمة ثم ابتعد . والقت المرأة الشابة نظرة عداء لماتيو واخذت تداعب قفل محفظتها . واحس ماتيو بالانزعاج : لقد دخل عند الفقراء الحقيقيين ، وهو سيأخـذ مالهم ، مالاً رمادياً كالحاً يبعث رائحة الملفوف . وخفض رأسه ونظر الى الارض الخشبية بين قدميه ، فاذا هو يتذكر الاوراق المالية الحريرية المعطرة في صندوق لولا ؛ ان ذلك ليس هو هذا المال نفسه .

وفتح الباب الزجاجي وبدا رجل طويل ذو شاربين ابيضين . وكان له شعر فضي مسرّح بعناية الى خلف وتبعه ماتيو في المكتب . ودلّه السيد بلطف على مقعد من الجلد المهترىء فجلس كلاهما . واسند السيد مرفقيه على الطاولة وضم يديه الجميلتين البيضاوين . وكان يضع ربطة عنق خضراء غامقة تُفرحها جوهرة . وسأله بلهجة ابوية :

ـ هل تريد ان تستفيد من خدماتنا ؟

ـ نعم .

ونظر الى ماتيو ؛ وكانت عيناه الزرقاوان الفاتحان تجحظان قليلاً .

ـ السيد ...؟

ـ دولارو .

ـ انك لا تجهل ان ُنظم شركتنا انمـا تقدم خدماتـها للموظفين وحدهم ؟

كان الصوت جميلاً وابيض ، سميناً بعض الشيء ، كاليدين .
فقال ماتيو :
– انني موظف . استاذ .
قال السيد مهتماً : – آه ، آه ! اننا سعداء بصورة خاصة بأن نساعد الجامعيين . هل انت استاذ في ليسيه ؟
– نعم ، في ليسيه بوفون .
فقال السيد في انبساط :
ممتاز . والآن سننجز الشكليات الصغيرة المعتادة ... اود اولاً ان اسألك ان كنت تحمل تذكرة هوية ، او اي ورقة مماثلة ، جواز سفر ، دفتراً عسكرياً ، بطاقة انتخابية ...
فمد له ماتيو اوراقه ، فتناولها السيد وتأملها لحظة في شرود وقال :
– حسناً ، حسناً جداً . وما هي قيمة المبلغ الذي تريده ؟
فقال ماتيو : – اريد ستة آلاف فرنك .
وفكر لحظة ثم اضاف :
– بل لنقل سبعة آلاف .
وكان قد سُرّ بالمفاجأة ، وفكر : « لم اكن اظن ان الامر سيجري بهذه السرعة . »
– هل تعرف شروطنا ؟ اننا نقرض لمدة ستة اشهر من غير تجديد ممكن . اننا مضطرون لأن نطلب عشرين بالمئة فائدة ، لأن عندنا نفقات باهظة ولأننا نتعرض لمجازفات كبيرة .
فقال ماتيو بسرعة : – حسناً ، حسناً !
فأخرج السيد ورقتين مطبوعتين من درجه :
– هل لك ان تتفضل فتملأ هذه الشكليات ؟ وتوقع في اسفل الصفحتين ؟
وكان ذلك طلباً للإقراض على نسختين ، وكان عليه ان يذكر

الاسم والسن والحالة المدنية والعنوان . واخـذ ماتيو يكتب . وقـال السيد وهو يجيل نظره في الورقتين :

— ممتـاز . مولود في باريس .. عام ١٩٠٥ ... من اب وام فرنسيين .. حسناً ، هذا كل ما يجب الآن . وحـين نسلمك السبعة الآلاف فرنك ، سنطلب منك ان توقع على ورقة ذات طابع اعترافاً بالدين . والطابع على نفقتك .

— حين التسليم ؟ الا يمكن ان تعطوني اياها على الفور ؟

فبدا السيد مندهشاً جداً :

— على الفور ؟ ولكننا بحاجة يا سيدي العزيز الى خمسة عشر يوماً على الاقل لنجمع معلوماتنا .

— اية معلومات ؟ لقد رأيت اوراقي ...

فتأمل الرجل ماتيو بلطف مرح وقال :

— آه ! ان الجامعيين متشابهون جميعاً ! كلهم مثاليون . لاحـظ يا سيدي ، انني في هذه الحالة الخاصة لا اضع كلامك موضع الشك. ولكن بصورة عامة ، ما الذي يثبت ان الاوراق التي تقدم لنا ليست مزيفة ؟ (وضحك ضحكة صغيرة حزينة) : ان من يتصرف بالمال يتعلم الحذر . ان هذا شعور قبيح ، انا اوافقك على ذلك ، ولـكن لا يحق لنا ان نكون واثقين . (وانهى كلامه بقوله) هـوذا اذن : يجب ان نقوم بتحقيقنا الصغير ، وسوف نتوجه مباشرة الى وزارتك . لا تخش شيئاً ، بكل السرّية المرغوب فيها . ولكنك تعرف مـا هي الشكليات الادارية : فأنا اشك كثيراً في ان تستطيع انتظار مساعدتنا بطريقة معقولة قبل الخامس من تموز .

فقال ماتيو وهو منقبض الحنجرة :

— هذا يستحيل علي . (وأضاف) : انني بحاجة الى المال هذا المساء او صباح الغد على الابعد ، فانا بحاجة عاجلة له . ألا تستطيع

ان ... بفائدة اكبر ؟

فبدت الدهشة والاستغراب على الرجل ، ورفع يديـــه الجميلتين في الهواء :

– ولكننا لسنا مرابين يا سيدي العزيز ! لقد تلقت شركتنا تشجيع وزارة الأشغال العامة . انها اذا صحّ لنا القول منظمة رسمية . اننا نتقاضى فوائد عادية وُضعت بالنظر لنفقاتنا ولمجازفاتنا ، ولا نستطيع ان نستجيب لمثل هذه المساومات .

وأضاف في قسوة :

– اذا كنت مستعجلاً ، فقد كان عليك ان تأتي قبل الآن . ألم تقرأ ارشاداتنا ؟

قال ماتيو وهو ينهض :

– كلا . لقد فاجأني الوقت .

فقال الرجل ببرودة :

– انني اذن آسف ... هل يجب تمزيق الاوراق التي ملأتها ؟

وفكر ماتيو في ساره : « لا بدّ انها ستقنعه بتأجيـــل القبض » وقـــال :

– لا تمزّقها . سأتدّبر امري حتّى ذلك الحين .

فقال الرجل بلهجة ودّية :

– نعم ، ستجد بلا شك صديقاً يقرضك لمدة خمسة عشر يوماً ما انت بحاجة اليه . (وقال وهو يوميء باصبعه الى الورقة) هذا إذن هو عنوانك : ١٢ شارع هويغنز ؟

– نعم .

– حسناً ، في الايام الاولى من تموز سنرسل لك دعوة صغيرة .

ونهض فرافقه ماتيو حتى الباب . وقال ماتيو :

– الى اللقاء يا سيدي . شكراً .

فقال الرجل وهو ينحني :
– انني سعيد بان اؤدي لك خدمة . فالى اللقاء .
وعبر ماتيو غرفة الانتظار بخطى كبيرة . وكانت المرأة الشابة ما تزال هناك ، وكانت تعض قفازها بهيئة شاردة . وقال الرجل من خلف ماتيو :
– هل لك ان تدخلي يا سيدتي ؟
وفي الخارج ، كانت انوار نباتية ترتغش في الهواء الرمادي . ولكن ماتيو كان يشعر الآن بأنه كان طوال الوقت مسجوناً داخل جدران . وفكر : « هزيمة اخرى » ولم يكن لديه أملٌ بعد الا بساره .
وكان قد بلغ جادة سيباستوبول ، فدخل مقهى وطلب قسيمة من المحاسبة :
– التلفون ، في الداخل الى اليمين .
وفيما هو يركّب الرقم تمتم : « المهم ان تكون قد نجحت . اوه ! المهم ان تكون قد نجحت »
وكان ذلك نوعاً من الصلاة المبتهلة . وقال :
– آلو ، آلو ساره ؟
فقال صوت : – آلو ، نعم . انا ويمولر .
قال ماتيو : – انا ماتيو دولارو . هل استطيع ان اتكلم مع ساره ؟
– لقد خرجت .
– آه ! هذا مزعج ... الا تدرى متى ستعود ؟
– لا ، لا اعرف . هل لديك شيء تريد ان تبلغها إياه ؟
– لا ، قل لها فقط انني اتصلت بها .
واعاد السماعة وخرج . إن حياته لم تكن بعد متوقفة عليه بل كانت بين يدي ساره ؛ ولم يكن باقياً له الا ان ينتظر . واشار الى

اوتوبيس وصعد بجاس بالقرب من امرأة عجوز كانت تسعل في منديلها. وفكر : « إن اليهود يتفاهمون فيما بينهم » سيقبل معها ، سيقبل بلا شك .

– دانفير – روشيرو ؟

فقال قاطع التذاكر : – ثلاث قسائم .

وأخذ ماتيو القسائم الثلاث وراح ينظر من النافذة ؛ وكان يفكر بمارسيل في حقد حزين . وكان الزجاج يرتجف ، وكانت العجوز تسعل ، وكانت الازهار ترقص على قبعتها القشّية السوداء . القبعة ، الازهار ، العجوز ، ماتيو ، كل شيء كان محمولاً بالآلة الضخمة ؛ لم تكن العجوز ترفع أنفها عن منديلها ، ومع ذلك فقد كانت تسعل عند ملتقى شارع « الاورس » وجادة سيباستوبول ، وكانت تسعل في شارع ريومور ، وكانت تسعل في شارع مونتورغوي ، وكانت تسعل على جسر « البونيف » فوق ماء رمادي هادىء . « واذا لم يقبل اليهودي ؟ » . ولكن هذه الفكرة لم تكن تنجح في اخراجه من خدره ، إنه لم يكن بعد الا كيساً من الفحم فوق اكياس أخرى ، في قلب شاحنة . « فليكن . سينتهي الأمر ، وسأقول لها هـذا المساء اني أتزوجها . » وكان الاوتوبيس الضخم والطفولي يحمله ، ويميل بـه ذات اليمين وذات اليسار ، ويهزه ، ويصدمه ، وكانت الأحداث تصدمه بمسند المقعد ، بالزجاج ، وكانت سرعة حياته تهدهده ، وكان يفكر : « إن حياتي ليست بعدُ لي ، انها ليست بعد الا قَدَراً » ، وكان ينظر فيرى بنايات شارع « سان بير » السوداء تنبثق ، وكان ينظر الى حياته التي كانت تتوالى . اتزوجها ، لا اتزوجها : « ان هذا لا يعنيني بعد . القضية هي وجه الفلس او قفاه . »

وتوقّف الاوتوبيس توقفاً عنيفاً مفاجئاً ، فانتصب ماتيو ونظر الى ظهر السائق في قلق : لقد اتت حريته كلها ترتدّ عليه . وفكر :

« لا ، ليست القضية هي وجه الفاس او قفاه . فمها حدث ، فانما ينبغي ان يحدث بارادتي . » حتى ولو ترك نفسه موزّعاً يائساً ، ولو ترك نفسه ككيس من الفحم ، فانما يكون قد اختار ضياعه : لقد كان حراً ، حراً في كل شيء ، حراً في ان يكون أبله او يكـــون آلة ، حرّاً ليقبل ، حراً ليرفض ، حراً ليتعلل او يتردّد : كان بوسعه ان يفعل ما يريد : ان يتزوج او يترك ، ان يجرجر طوال سنوات هذه الكرة المعلّقة بقدمه ، فليس لأحد الحق في ان ينصحه ، ولن يكون له « خير » او « شر » الاّ ان يكون قد اخترعهـــما . كانت الاشياء حوله قد اصطفّت في دائرة ، وكانت تنتظر من غير ان تعمل إشارة ، ومن غير ان تأتي اية ايماءة . كان وحيداً ، وسط صمت شيطاني ، حراً ووحيداً ، من غير عون ولا عذر ، محكومـــاً عليه ان يقرّر من غير مساعدة ممكنة ، محكوماً عليه الى الابد ان يكون حراً .

وصاح قاطع التذاكر : – دانفير – روشيرو .

ونهض ماتيو وترجّل ، ودلف الى شارع « فروادفو » وكان متعباً ثائر الأعصاب ، وكان لايني يرى صندوقاً مفتوحاً وسط غرفة مظلمة ، وفي جوف الصندوق اوراق معطرة ناعمة ، وكان ذلك يشبه ندماً ، وفكّر : « آه ! كان عليّ ان آخذها . »

قالت البوّابة :

– رسالة مستعجلة لك . لقد وصلت اللحظة .

وتناول ماتيو الرسالة فمزّق الظرف ، وللحال انهارت الجدران التي كانت تحاصره ، وخيّل اليه ان عالمه يتغير . كانت هناك ثلاث كلمات ، وسط الصفحة ، مكتوبة بخط كبير هابط :

« سقطت . فاقدة الشعور . ايفيش »

وسألت البوّابة : – إنه ليس خبراً سيئاً ، على الاقل ؟

ـ كلا .
ـ آه ! حسناً . لأنك كنت مشدوهاً ؟
سقطت . فاقدة الشعور . ايفيش
ـ انه تلميذ قديم من تلامذتي قد سقط في الامتحان .
ـ آه ! انهم يشدّدون في الامتحانات ، على ما قيل لي .
ـ يتشدّدون كثيراً .
قالت البوّابة : ـ تأمّل ! جميع هؤلاء الشبان الذين ينجحون . وبعد ذلك ، ها هم اولاء يحملون الألقاب . فماذا تريد ان يفعلوا بهم ؟
ـ هذا ما اتساءل عنه .
وقرأ للمرة الرابعة رسالة ايفيش ، وكان مصفوعاً بفخامه كلماتها المقلقة . سقطت ، فاقدة الشعور ... وفكر : « انها الآن ترتكب حماقة ما . وهذا واضح كالنهار . انها ترتكب حماقة ما . »
ـ كم هي الساعة ؟
ـ السادسة .
الساعة السادسة . لقد تلقّت النتيجة في الساعة الثانية . وها هي اربع ساعات تمضي وهي مقذوفة في شوارع باريس . ووضع الرسالة في جيبه ، وقال للبوابة :
ـ مدام غارنيه : أعيريني خمسين فرنكاً .
فقالت البوابة مندهشة :
ـ ولكني لا اعرف ان كنت أملكها .
وفتشت في درج طاولة عملها :
ـ خذ ، ليس معي الا مئة فرنك ، وستعيدها اليّ هذا المساء .
قال ماتيو : ـ حسناً . شكراً .
وخرج ، وكان يفكر : « اين عساها تكون ؟ » وكان رأسه

فارغاً ، وكانت يداه ترتجفان . وكانت سيارة تاكسي بطيئة مارّة في شارع فروادفو ، فأوقفها ماتيو :

– بيت الطالبات . ١٧٣ شارع سان جاك . بسرعة .

قال السائق : – حسناً .

« اين عساها تكون ؟ في احسن الحالات تكون قد ذهبت إلى لاون ، وفي اسوأها ... وانا متأخر اربع ساعات » وكان منحنياً الى أمام ، وكان يضغط بشدة قدمه اليمنى عـلى السجادة مستعجلا السيارة .

وتوقف التاكسي ، فترجل ماتيو وقرع جرس البيت :

– هل الآنسة ايفيش سرغين موجودة ؟

فنظرت اليه السيدة في تحدٍ وقالت :

– اني ذاهبة لأرى .

وما لبثت ان عادت :

– إن الآنسة سرغين لم تعد منذ هذا الصباح . فهل هناك ما تودّ إبلاغها إياه ؟

– لا .

وعاد ماتيو فاستقل السيارة :

– اوتيل بولونيا ، شارع سوميرار .

وبعد لحظة ، طرق على الزجاج وقال :

– هنا ، هنا ، الفندق هو الى اليسار .

وقفز الى الأرض ودفع الباب الزجاجي :

– هل السيد سرغين موجود ؟

وكان الخادم السمين الأحسب واقفاً عند الصندوق ، فعرف ماتيو وابتسم له :

– إنه لم يعد هذه الليلة .

– وأخته ... فتاة شقراء هل مرّت هنا اليوم ؟

فقال الخادم : – اوه ، انني اعرف الآنسة ايفيش جيداً . لا . انها لم تأت ، وليس هناك الا السيدة مونتيرو التي تلفنت مرتين تسأل عن السيد بوريس وتطلب ان يذهب توا لرؤيتها فور عودته ؛ فاذا رأيته أبلغه ذلك .

قال ماتيو : – حسناً .

وخرج . أين عساها تكون ؟ في السينما ؟ إن هذا غير محتمل قط. تجرجر اقدامها في الشوارع ؟ إنها على كل حال لم تترك باريس بعد ، وإلاّ لمرّت ببيت الطالبات لتأخذ محافظها . وسحب ماتيو الرسالة من جيبه وتفحص الظرف : لقد أرسل من مكتب بريد شارع كوجاس ، ولكن ذلك لم يكن يثبت شيئاً . وسأله السائق :

– اين نذهب ؟

فنظر اليه ماتيو نظرة مترددة وأشرقت في ذهنه فكرة : « لكي تكتب هذا لا بدّ انها قد ثملت . » وقال :

– إسمع : عليك ان تجتاز على مهل جادة سان ميشال مرة اخرى ابتداءً من المحطة . انني أبحث عن إنسان ، ويجب ان أُلمّ بجميع المقاهي .

ولم تكن ايفيش في بياريتز ، ولا في « لامبورس » ولا في «داركور» ولا في « البيار » ولا في « باليه دو كافيه » . وفي مقهى كابولاد ، لمح ماتيو طالباً صينياً كان يعرفها . وتقدّم . وكان الصبي يشرب البورتو وهو معتلٍ كرسيّ المشرب . وقال ماتيو وهو يرفع اليه رأسه:

– اطلب المعذرة . اظنّ انك تعرف الآنسة سرغين ، فهل رأيتها اليوم ؟

فقال الصيني وكان يتكلم بمشقة :

– كلا . حصلت لها مصيبة .

فصاح ماتيو : — ماذا ، حصلت لها مصيبة ؟

قال الصيني : — كلا ، وانما أسأل إن كانت قد حصلت لها مصيبة .

فقال ماتيو وهو يوليه ظهره :

— لا ادري .

ولم يكن يفكّر بعد حتى بأنه يحمي ايفيش من نفسها ؛ لم تكن لديه الا حاجة مؤلمة عنيفة لرؤيتها . وفكر في غضب . «واذا حاولت ان تقتل نفسها ؟ إنها سخيفة الى هذا الحد .» وبعد كل شيء ، ربما كانت بكل بساطة في مونبارناس . وقال :

— الى مفرق « فافين » .

وصعد ثانية الى السيارة . وكانت يداه ترتجفان : فوضعهما في جيبه؛ واستدارت السيارة حول نبع مديسيس فلمح ماتيو ريناتا صديقة ايفيش الايطالية . وكانت خارجة من اللكسمبورغ والمحفظة في يدها ، فصاح ماتيو بالسائق :

— قف ، قف .

وقفز من التاكسي وعدا اليها :

— هل رأيتِ ايفيش ؟

فأخذت ريناتا مظهراً رصيناً وقالت :

— مساء الخير يا سيدي .

قال ماتيو : — مساء الخير ، هل رأيت ايفيش ؟

— ايفيش ، نعم ، رأيتها .

— متى ؟

— منذ ساعة تقريباً .

— اين ؟

— في حديقة اللكمسبورغ (واضافت ريناتا بانزعاج قليل) كانت

مع شخص غريب . هل عرفت ان المسكينة سقطت ؟
– نعم . اين ذهبت ؟
كانا يريدان الذهاب الى مرقص « لاتارنتول » على ما أعتقد .
– واين هو ؟
– شارع « مسيولوبرنس » انه كما سترى بائع اسطوانات ، والمرقص تحت الارض .
– شكراً .
وخطا ماتيو بضع خطوات ثم عاد يقول :
– اعذريني ، نسيت ايضاً ان اقول لك الى اللقاء ؟
قالت ريناتا : – الى اللقاء يا سيدي .
وعاد ماتيو الى سائقه :
– شارع « مسيولوبرنس » على بعد خطوتين . سِرْ على مهل ، وسأوقفك .
« المهم ان تكون ما زالت هناك ! انني سأجوب جميع مراقص الحي اللاتيني . » .
– قف . هنا . ستنتظرني لحظة .
ودخل ماتيو الى حانوت بائع اسطوانات وسأل .
– مرقص « لاتارنتول ؟ »
– في الطابق الارضي . إهبط الدرج .
وهبط ماتيو درجاً ، واستنشق رائحة رطبة عفنة ، ثم دفع مصراع باب من الجلد ، وتلقى ضربةً في معدته : كانت ايفيش هناك . وكانت ترقص . واستند الى حاجز الباب وفكر : « انها هنا . »
وكان كهفاً خالياً مضاداً للعفونة ، وبلا ظلّ . وكان ضوء مصفّى يهبط من السقف ذي الورق المزيّت . ورأى ماتيو زهاء خمس عشرة طاولة ضائعة وسط هذا البحر الضوئي الميت . وكانت قد

ألصقت على الجدران البنيّة قطع ملونة من الورق المقوّى كانت تمثّل نباتات غريبة ، ولكنها كانت قد تقوّست والتوت بتأثير الرطوبة ، وكان الصبّار قد انتفخ تجعُدات . وكان ثمة حاكٍ غير مرئي يذيع رقصة باسادوبل ، وكانت هذه الموسيقى المعلّبة تزيد القاعة عرياً .

كانت ايفيش قد أراحت رأسها على كتف مراقصها ، وكانت تلتصق به بشدّة . وكان يجيد الرقص . وقد عرفه ماتيو : كان ذلك الشاب الطويل الأسمر الذي كان يصطحب ايفيش مساء امس في جادة سان ميشال . وكان يشمّ شعر ايفيش بين وقت وآخر ويقبّله . فكانت اذ ذاك تقذف رأسها الى خلف وتضحك ، وهي ممتقعة ، مغمضة العينين ، فيما كان يهمس في اذنها ؛ وكانا وحدهما وسط الحلبة . وفي جوف القاعة ، كان اربعة شبان وفتاة طلت وجهها بالمساحيق يصفقون بأيديهم ويصرخون « اوليه » واقتاد الشاب الطويل الأسمر ايفيش الى طاولته وهو يمسكها من قامتها ، فتجمّع الطلاّب حولها واحتفلوا بمقدمها؛ وكانوا على مظهر طبيعي ومتصنّع في الوقت نفسه ، وكانوا يحيطونها بحركات دائرة ولطيفة اما المرأة المزينة فكانت قائمة على حذر . كانت واقفة ، ثقيلة ومرتخية ، ونظرها محدّد . وأشعلت سيجارة وقالت بتفكّر :

ــ اوليه .

وانهارت ايفيش على كرسي بين المرأة الشابة وبين قصير أشقر ذي لحية قصيرة . وكانت تضحك بجنون . وقالت وهي تلوّح بيدها امام وجهها :

ــ كلا ، كلا ! لا حاجة الى دليل ، لا حاجة الى دليل !

ونهض ذو اللحية على عجل ليتنازل عن مقعده للراقص الأسمر . وفكر ماتيو : « تمت اللوحة ، لقد اعترفوا له بحقه في الجلوس الى جانبها . » وكان يبدو على الأسمر الجميل انه يجد الأمر طبيعياً جداً ؛

والواقع انه الوحيد الذي كان يبدو راضياً مرتاحاً .

واومأت ايفيش باصبعها الى ذي اللحية ، وقالت ضاحكة ؟

– لقد فرّ لأني وعدتُه بأن اقبّله .

فقال ذو اللحية بكل رصانة :

– اسمحي لي ، انك لم تَعِديني بذلك ، بل هددتني به .

قالت ايفيش : – حسناً ! لن اقبّلك ، بل سأقبّل « ايرما » .

فقالت المرأة الشابة وقد ثارت دهشتها وغرورها :

– تريدين ان تقبليني يا صغيرتي ايفيش !

– نعم ، تعالي .

وجذبتها من ذراعها في تسلط . فابتعد الآخرون وقد أخذهم العجب ، وقال احدهم : « ما هذا يا ايفيش ! » بصوت لايخلو من تأنيب لطيف . وكان الجميل الأسمر ينظر اليها ببرودة وهو يبتسم بسمة خفيفة ؛ كان يراقبها . واستشعر ماتيو الذل ؛ ان ايفيش لم تكن ، بالنسبة لهذا الشاب الأنيق ، الا فريسة ؛ لقد كان يعرّيها بنظرة شهوانية عارفة ، وقد كانت عارية امامها ، وكان يحزر نهديه وفخذيها ورائحة لحمها ... وانتفض ماتيو فجأة ، وتقدّم من ايفيش ، مرتخي الساقين : لقد لاحظ انه كان يشتهيها للمرة الاولى بخجل ، عبر شهوة شخص آخر .

وكانت ايفيش قد قامت بألف حركة متصنّعة قبل ان تقبّل جارتها. واخيراً ، تناولت رأسها بين يديها ، وقبّلتها في شفتيها ثم دفعتها عنها بعنف وهي تقول في تأنيب :

– ان رائحتك هي رائحة الكاد الهندي .

وانزرع ماتيو بالقرب من طاولتهم وقال :

– ايفيش !

فنظرت اليه فاغرة الفم ، وتساءل عما اذا كانت قد عرفته . ورفعت

على مهل يدها اليسري وأرته اياها وقالت :
ـ هذا انت ؟ عجباً ، انظر !
كانت قد نزعت ضمادها ، فرأى ماتيو قشرة محمرّة دبقة مع صخور صغيرة من القيح الاصفر .
وقالت ايفيش خائبة :
ـ لقد احتفظتَ بضمادك . صحيح ، انت متبصّر .
قالت المرأة بلهجة اعتذار :
ـ لقد نزعته بالرغم منا . انها شيطان صغير .
ونهضت ايفيش فجأة ونظرت الى ماتيو نظرة مبهمة :
ـ خذني من هنا . انني أُذلّ نفسي .
فتبادل الشبان النظرات ، وقال ذو اللحية لماتيو :
ـ اننا لم نجعلها تشرب . بل نحن حاولنا منعها من ذلك .
فقالت ايفيش باشمئزاز :
ـ هذا صحيح . انهم لؤماء .
قال الراقص الجميل :
ـ الا انا يا ايفيش ، الا انا .
وكان ينظر اليها نظرة مشاركة : فالتفتت اليه ايفيش وقالت :
ـ الا هذا الذي هو انسان قذر !
قال ماتيو على مهل :
ـ تعالي .
واخذها من كتفيها وساقها ؛ وكان يسمع خلفه ضجة واجمة .
وفي وسط الدرج ، تثاقلت ايفيش ، فابتهل قائلاً : « ايفيش ! »
فنفضت خصلاتها مقهقهة وقالت :
ـ اريد ان اجلس .
ـ ارجوكِ .

فعادت ايفيش الى الضحك ثم رفعت تنورتها الى ما فوق ركبتها وقالت :

– اريد ان اجلس هنا .

فتناولها ماتيو من قامتها وحملها . وحين بلغا الشارع تركها : ولم تتخبط ، وطرفت بعينيها ونظرت فيما حوله نظرة ضجرة . وقال ماتيو مقترحاً :

– هل تريدين ان تعودي الى بيت الطالبات ؟

فقالت ايفيش في صيحة : – كلا .

– اتريدين ان آخذك الى بوريس ؟

– انه ليس في البيت .

– واين هو ؟

– الشيطان يدري .

– اين تريدين ان تذهبي ؟

– ما يدريني انا ؟ عليك انت ان تجد ، فأنت الذي اخذتني .

وفكر ماتيو لحظة وقال :

– حسناً .

وامسكها حتى التاكسي وقال :

– ٢٢ ، شارع هويغنز .

وقال : – انني آخذك الى بيتي . تستطيعين ان تتمددي على ديواني وسأعدّ لك الشاي .

فلم تعترض ايفيش . وصعدت الى السيارة على مشقة وارتمت فوق الوسائد .

– هل تشكين شيئاً ؟

وكانت مزرقّة ، وقالت :

– انني مريضة .

قال ماتيو : — سأقول له ان يقف امام صيدلية .

فقالت بعنف : — كلا .

قال ماتيو : — اذن تمدّدي واغمضي عينيك . سنصل عما قليل .

فأنّت ايفيش قليلاً . وفجأة اخضر لونها واطلت من الباب . وكان ماتيو يرى ظهرها الهزيل يهزّه التقيّؤ . ومدّ يده فأمسك بـلا ضجة قفل الباب : كان يخشى ان ينفتح . وبعد لحظة ، انقطع السعال ، فارتمى ماتيو بحيوية الى خلف ، واخذ غليونه وحشاه وهو مستغرق . وتركت ايفيش نفسها ترتمي على الوسائد ، واعاد ماتيو غليونه الى جيبه . وقال لها :

— لقد وصلنا .

واستقامت ايفيش بمشقة وقالت :

— انني خجلة .

وترجل ماتيو قبلها ومدّ لها ذراعيه ليعينها ، ولكنها دفعته وقفزت بحيويـة الى الرصيف . واسرع يدفـع للسائق والتفت اليها ، فاذا هي تنظر اليه نظره محايدة ؛ وكانت رائحة قيء يسير تنبعث من فمها النقيّ . واستنشق ماتيو هذه الرائحة بهوس :

— هل تحسنت حالتك ؟

فقالت ايفيش بلهجة قاتمة :

— لست بعد ثملة ، ولكن رأسي يخفق .

ودلّها ماتيو برفق على السلّم . وقالت له بلهجة عدائية :

— عند كل درجة ، ضربة في رأسي .

وتوقفت لحظه عند السطح الثاني لتستردّ انفاسها .

— انني الآن اتذكر كل شيء .

— ايفيش !

— كل شيء . لقد تدحرجت مع اولئك الاشخاص القذرين وجعلت

نفسي عرضة للانظار ... ثم انني ... سقطت في الشهادة .

قال ماتيو : — تعالي . لم يبق الا طابق واحد .

وصعدا في صمت . وقالت ايفيش فجأة :

— كيف عثرت عليّ ؟

فانحنى ماتيو ليدخل المفتاح في القفل ، وقال :

— كنت ابحث عنك ، ثم التقيت ريناتا .

ودمدمت ايفيش خلف ظهره :

— كنت ارجو طوال الوقت ان تأتي .

قال ماتيو وهو يمّحي امامها : « ادخلي » فلامسته وهي تلمّ به ، واستولت عليه الرغبة في ان يأخذها بين ذراعيه . وخطت ايفيش بضع خطى مترددة ودخلت الغرفة . ونظرت فيما حولها نظرة مقطّبة :

— هذا هو بيتك !

قال ماتيو : — نعم .

وكانت هذه هي المرة الاولى التي يستقبلها فيها عنده . ونظر الى المقاعد الجلدية الخضراء والى طاولة عمله ؛ ورآها بعيني ايفيش فداخله منها الخجل وقال :

— هو ذا الديوان . تمدّدي عليه .

فارتمت ايفيش على الديوان دون ان تنبس بحرف .

— هل تريدين شاياً ؟

قالت ايفيش : — اني اشعر بالبرد .

وراح ماتيو يأتيها بغطاء الرجلين ويمدّه على ساقيها . واغمضت ايفيش عينيها ووضعت رأسها على وسادة . وكانت تتألم ، وكان على جبينها ثلاثة تجعدات عمودية ، عند منبت الانف .

— هل تريدين شاياً ؟

فلم تجب . واخذ ماتيو المغلاة الكهربائية وراح يملأها من حنفيـــة

المطبخ . ووجد في قفص الطعام نصف ليمونة قديمة قد تزججت بقشرتها الجافة ، ولكن ربما كان من الممكن استقطار دمعة او دمعتين منها اذا عُصرت جيداً . ووضعها على صحن مع فنجانين وعاد الى الغرفة يقول :

— وضعت الماء للغلي .

فلم تجب ايفيش : كانت نائمة . وسحب ماتيو كرسياً بازاء الديوان وجلس بلا ضجة . وكانت تجعّدات ايفيش الثلاثة قد اختفت ، وكان جبينها نقياً املس ؛ كانت تبتسم وعيناها مغمضتان . وفكر : « ما انضر شبابها ! » لقد وضع امله كلّه في طفلة . وما كان اشدّ ضعفها وخفتّها وهي على هذا الديوان : لم تكن تستطيع ان تساعد احداً ، بل كان ينبغي ، بالعكس ، ان تُساعَد لكي تحيا . ولم يكن ماتيو يستطيع ان يساعدها . ستذهب ايفيش الى « لاون » وستتوحش هناك شتاءً او شتاءين ، ثم يأتي شخص — شخص شاب — فيأخذها . « وانا سأتزوج مارسيل . » ونهض ماتيو وذهب يرى على مهل ان كان الماء يغلي ، ثم عاد يجلس بالقرب من ايفيش ، ونظر بحنان الى هذا الجسم الصغير الضعيف الملطّخ الذي يظلّ شريفاً الى هذا الحدّ في النوم ، وفكر بأنه كان يحب ايفيش فدهش لذلك : ان الحب شيء لا يُحسّ به ، وهو لم يكن انفعالاً خاصاً ، ولا لوناً خاصاً من عواطفه ، وانما هو اشبه بأن يكون لعنةً ثابتة في الأفق ، نذيراً بمصيبة . واخذ الماء يغنّي في المغلاة ، وفتحت ايفيش عينيها ، فقال ماتيو :

— انني اعدّ لك شاياً . هل تريدين ؟

قالت ايفيش بلهجة ضيق : — شاي ؟ ولكنك لا تحسن اعداد الشاي .

واعادت كفّها خصلاتها على وجنتيها ونهضت وهي تفرك عينيها ، وقالت :

– اعطني علبة الشاي ، سأعدّه لك على الطريقة الروسية . ولكننا بحاجة الى مغلاة روسية .

فقال ماتيو وهو يمدّ لها علبة الشاي :

– ليس عندي الا مغلاة عادية .

– اوه ! ثم هذا شاي سيلاني . فليكن !

ووقف إمام المغلاة :

– وابريق الشاي ؟

قال ماتيو : « صحيح » وانطلق يأتي بأبريق الشاي من المطبخ ،

– شكراً .

وكانت هيئتها ما تزال قائمة ، ولكنها متنعشة . وصبت الماء في ابريق الشاي وعادت الى الجلوس بعد لحظات وهي تقول :

– ينبغي ان نتركه لينقع .

وساد صمت ، ثم استطردت :

– انني لا احب بيتك .

قال ماتيو : – كنت اعتقد ذلك جيداً . واذا تحسنت حالتك قليلاً ، كان بوسعنا ان نخرج .

فقالت ايفيش : – واين نذهب ؟ كلا . انني مسرورة بأن أكون هنا . لقد كانت جميع تلك المقاهي تدور حولي ؛ ان الناس كانوا كوابيس .. صحيح ان البيت هنا قبيح ، ولكنه هادىء . الا تستطيع ان تسدل الستائر ؟ سنضيء بعد ذلك هذا المصباح الصغير .

فنهض ماتيو ، وذهب يغلق المصاريع ويحلّ الاربطة ، فالتقت الستائر الثقيلة ، واضاء مصباح مكتبه . وقالت ايفيش مفتونة :

– هذا هو الليل .

– واستندت الى وسائد الديوان :

– ما انعم هذا ! لكأن النهار قد انتهى . اودّ ان يكون الظلام

سائدا حين اخرج من هنا .

قال ماتيو : — إبقي هنا ما شئت . فلن يأتي احد ، واذا جاء احد تركناه يدقّ من غير ان نفتح . انني حرٌ تماماً .

ولم يكن هذا صحيحاً : كانت مارسيل تنتظره عند الساعة الحادية عشرة . وفكر في ضغينة : سوف تنتظر . وسألها :

— متى تذهبين ؟

— غداً . هناك قطار عند الظهر .

وظلّ ماتيو لحظة دون ان يتكلم . ثم قال وهو يراقب صوته :

— سأصحبك الى المحطة .

قالت ايفيش : — كلا . انني اكره هذا ، فذلك يقتضي وداعات مائعة تتمطط كالكاوتشوك . ثم اني سأكون ميتة من التعب .

قال ماتيو : — كما تشائين . هل ابرقتِ لاهلك ؟

— كلا . كان بوريس يريد ان يفعل ذلك ، ولكني منعته .

— اذن ، ينبغي ان تبلغيهم ذلك بنفسك ؟

فخفضت ايفيش رأسها وقالت :

— نعم .

وساد صمت وكان ماتيو ينظر الى رأس ايفيش المنحني وكتفيها الهزيلتين : وكان يخيل اليه انها كانت تتركه رويداً رويداً . وسألها :

— هذه اذن آخر امسية لنا في هذا العام :

فقالت في ضحكة ساخرة : — ها ! في هذا العام !...

قال ماتيو : — ايفيش ... لا ينبغي لك ... سأذهب اولاً لرؤيتك في « لاون » .

— لا اريد . ان كل ما يتعلّق بلاون ملطّخ .

— اذن ستعودين .

— كلا .

ـ هناك دورة في تشرين الثاني ، ولا يستطيع اهلك ...
ـ انت لا تعرفهم .
ـ صحيح . ولكن ليس من الممكن ان يفسدوا حياتك كلها عقاباً لك على انك سقطت في الامتحان .

قالت ايفيش : ـ انهم لن يفكروا في معاقبتي . ولكن سيكون الأمر اسوأ من ذلك ؛ سوف يهملونني ، وسأخرج من افكارهم بكل بساطة . (واستخف بها الغضب فأضافت) وهذا ما استحقه فعلاً ! انني لست جديرة بتعلم اية مهنة ، وانا افضل ان ابقى في لاون طوال حياتي على ان اعيد من جديد هذه الشهادة ...

فقال ماتيو قلقاً : ـ لا تقولي هذا يا ايفيش . لا تستسلمي منذ الآن . انك تكرهين لاون .

فقالت وهي منقبضة الاسنان :
ـ اوه ! نعم ، انني اكرهها بفظاعة .

ونهض ماتيو ليأتي بابريق الشاي والفناجين . وفجأة صعد الدم الى وجهه ، فالتفت اليها وتمتم من غير ان ينظر اليها :
ـ اسمعي يا ايفيش : ستذهبين غداً ، ولكني اعدك بأنك ستعودين في نهاية تشرين الاول . وسوف اتدبر الامر حتى ذلك الحين .

فسألته ايفيش في دهشة متعبة :
ـ ستتدبّر الامر ؟ ولكن ليس هناك مجال لتدبر الامر : قلت لك اني غير جديرة بتعلم مهنة .

وجرؤ ماتيو على رفع نظره اليها ، ولكنه لم يستشعر الاطمئنان ؛ فأنّى له ان يجد الكلمات التي لا تنغّصها ؟
ـ ليس هذا ما كنت أعنيه ... فلو .. لو انك اردت ان تسمحي لي بأن اساعدك ...

وكان يبدو على ايفيش انها لم تفهم بعد ، فأضاف ماتيو :

ـ سيكون معي بعض المال .
فأخذت ايفيش غصّة وقالت :
ـ آه ! أهذا ما تعنيه ؟
ثم اضافت بجفاء :
ـ ان هذا مستحيل .
قال ماتيو في حرارة : ـ على الاطلاق ، ان هذا ليس مستحيلاً على الاطلاق . اسمعي : في اثناء العطلة ، سأقتصد بعض المال ، ان اوديت وجاك يدعوانني كل عام لقضـاء شهر آب في مقصورتهما في « جوان ليبان » ، ولم ألبّ دعوتهما حتى الآن ، ولكن لا بد من ان ألبيها ذات يوم . وسأذهب هذا العـام ، فأصيب بعض التسلية وأوفر بعض المال ... (وأضاف بحيوية) لا ترفضي قبل ان تعرفي : سيكون هذا قرضاً .
وتوقف . وكانت ايفيش قد تراخت ، وكانت تنظر اليه من تحت نظرة سيئة :
ـ ولكن لا تنظري الي هكذا يا ايفيش !
فقالت ايفيش بصوت مقطب :
ـ آه ، لا ادري كيف انظر اليك، ولكني اعرف ان بي صداعاً.
وأسبلت عينيها واضافت :
ـ عليّ ان اعود الى البيت لأنام :
ـ ارجوك يا ايفيش : اصغي الي . سوف اجد المـال وستعيشين في باريس ، ولا تقولي لا ، ابتهل اليك ، لا تقولي لا من غير ان تفكري . ان هذا لا يمكن ان يزعجك : ستردين لي المال حـين تكسبين حياتك بالعمل .
فهزت ايفيش كتفيها ، واضاف ماتيو بحماسة :
ـ او ان بوريس هو الذي يردّ المال .

فلم تجب ايفيش ، وكانت قد دفنت رأسها في شعرها ، وكان ماتيو ما يزال مزروعاً امامها ، منزعجاً وشقياً .

— ايفيش .

وظلت معتصمة بصمتها . وكانت بـــه رغبة بان يأخذها من ذقنها ويرفع لها رأسها قسراً .

— ايفيش ! آن لك ان تجيبي عليّ . لماذا لا تجيبين ؟

وظلت ايفيش صامتة . وأخذ ماتيو يذرع الغرفه جيئــة وذهاباً . وكان يفكر : « سوف تقبل . لن اتركها قبل ان تقبل . سوف .. سوف اعطي دروساً خصوصية ، او سأصحّح المسودات .»

وقال : — ستقولين لي يا ايفيش لماذا لا تقبلين ؟

وكان ممكناً التغلب على ايفيش بالارهاق : ينبغي ارهاقها بالأسئلة التي تتغيّر لهجتها بين فترة واخرى . وعاد يقول :

— لماذا لا تقبلين ؟ قولي لماذا لا تقبلين ؟

وتمتمت ايفيش اخيراً ، من غير ان ترفع رأسها :

— لا اريد ان اقبل مالك .

— لماذا ؟ انك تقبلين مال اهلك .

— ليس الامران سواء .

— صحيح : ليس الامران سواء . لقد قلت مئة مرة إنك كنت تحتقرينه .

— ليس عندي مبرر لقبول مالك .

— وربما كان عندك مبرر لقبول مالهم ؟

قالت ايفيش :

— لا اريد ان يكون الناس كرماء معي. اما اذا كان ذلك من ابي، فلست محتاجة معه الى العرفان .

فصاح ماتيو :

– ما هذه الكبرياء يا ايفيش ؟ انه لا يحق لك ان تفسدي حياتك من اجل قضية كرامة . فكري في الحياة التي ستعيشينها هناك . ستندمين يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، لكونك قد رفضت .

فتحللت ايفيش وقالت :

– دعني ، دعني !

وأضافت بصوت منخفض خشن :

– اوه ! اي عذاب الا ان يكون المرء غنياً . ان هذا يضعه في مواقف كريهة .

قال ماتيو على مهل :

– ولكني لا افهمك . لقد قلت لي في الشهر الماضي ان المال كان شيئاً محتقراً ، ولا ينبغي ان نوليه اي اهتمام . كنت تقولين : لا يهمني من اين يأتي ، المهم ان املكه .

فرفعت ايفيش كتفيها ، ولم يعد ماتيو يرى منها الا اعلى رأسها وطرفاً من رقبتها بين خصلاتها وباقة قميصها . وكانت الرقبة اشد سمرة من بشرة الوجه .

– ألم تقولي لى ذلك ؟

– لا اريد ان تعطيني مالاً .

ففقد ماتيو صبره ، وقال في ضحكة متقطعة :

– آه ! ذلك اذاً لأني رجل !

فسألته ايفيش : – ماذا تقول ؟

وكانت تنظر اليه في حقد بارد :

– ان هذا صفيق . وانا لم افكر في ذلك قط ، واني اسخر منه، ولم اكن اتصور ...

– واذن ؟ فكري : للمرة الاولى في حياتك ستكونين حرة تماماً ؛ ستعيشين حيث تريدين ، وستفعلين كل ما يروق لك . لقد

سبق ان قلت لي انك تودين ان تُعدّي شهادة ليسانس في الفلسفة . تستطيعين ان تجربي ، وسنساعدك انا وبوريس .

وسألته ايفيش : ـ لماذا تريد ان تعمل خيراً ؟ انني لم اعمل معك شيئاً من ذلك قط .. بل لقد كنتُ معك غير محتملة ، وهأنت الآن مشفقٌ عليّ .

ـ انني لست مشفقاً عليك .

ـ اذن لماذا تعرض عليّ مالاً ؟

فتردد ماتيو ، ثم قال وهو يصرف عنها بصره :

ـ لا استطيع ان احتمل التفكير بألا اراك بعد .

وساد صمت ، ثم سألته ايفيش بلهجة غير واثقة :

ـ تريد ... تعني انك .. انما تفعل ذلك بدافع الانانية ؟

فقال ماتيو بجفاف : ـ بدافع انانية محضة . كل ما في الامر أني راغب في رؤيتك .

وجرؤ على ان يلتفت اليها . وكانت تنظر اليه مقطبة الحاجب ، فاغرة الفم . ثم بدا عليها فجأة انهـــا تنفرج . وقالت في غير اكتراث :

ـ اذن ربما . ان هذا يعنيك ، في هذه الحالة . وسنرى . وانت على حق ، في آخر المطاف : ان يأتي المال من هنا او من هنـــاك .

وتنفس ماتيو وفكر : « حسناً ! » ولكنه لم يكن قط مطمئناً : لقد كانت ايفيش بهيئتها الشرسة . وسألها ليزيدها إلزاماً :

ـ وكيف تراك ستحملين اهلك على ابتلاع هذا ؟

فقالت ايفيش بغموض :

ـ سأقول اي شيء . فاما ان يصدقوني او لا يصدقوني . وما أهمية ذلك ما داموا لا يدفعون بعد ؟

وخفضت رأسها في هيئة قاتمة وقالت :

ـ لا بد من العودة الى هناك :
فجهد ماتيو بأن يستر غيظه :
ـ ولكن ما دمت ستعودين ؟
قالت : ـ ان هذا غير واقعي .. اقول لا ، واقول نعم ، ولكني لا انجح في ان اصدق ذلك . إنه بعيد . في حين اني سأكون في لاون مساء الغد .
ولمست حنجرتها وقالت :
ـ انني احسها هنا . ثم انه يجب علي ان أهيىء حقائبي ، وهذا ما يستغرق ساعات الليل بطولها .
ونهضت : ـ لا بد ان الشاي قد جهز . تعال لنشرب .
وصبت الشاي في الفناجين ، وكان اسود كالقهوة . وقال ماتيو :
ـ سأكتب لك .
قالت : ـ وانا ايضاً ، ولكن لن يكون لدي ما اقوله لك .
ـ ستصفين لي بيتكم ، وغرفتك : اني اود ان اتخيلك وانت هناك .
قالت : ـ اوه ، كلا . لا احب ان اتحدث في هذا كله . انه يكفيني ان اعيشه .
وفكر ماتيو في الرسائل القصيرة الجافة التي كان بوريس يبعثها الى لولا . ولكن ذلك لم يدم اكثر من لحظة : كان ينظر الى يدي ايفيش ، والى اظافرها الحمر المدببة ، والى معصميها الهزيلين وفكر : « سأراها مرة اخرى . » وقالت ايفيش وهي تضع فنجانها :
ـ اي شاي غريب !
وانتفض ماتيو اذ سمع جرس الباب يرن . ولم يقل شيئاً : كان يأمل ان تكون ايفيش قد سمعت . وسألت :
ـ عجباً ! ألم يرن الجرس ؟

فوضع ماتيو اصبعاً على شفتيه وهمس :
ــ لقد اتفقنا على ألا نفتح الباب .
فقالت ايفيش بصوت واضح :
ــ بلى ، بلى ربما كان ذلك هاماً . اذهب سريعاً فافتح الباب .
وتوجه ماتيو الى الباب . وكان يفكر : « انهـــا تكره ان تكون ضالعة معي . » وفتح الباب فيما كانت ساره تهم بدقه ثانية . وقالت ساره لاهثة :
ــ مرحباً ! انك تجعلني اركض كما ترى . لقد اخبرني الوزير الصغير انك تلفنت ، فأتيت . ولم اهتم بان اضع قبعتي .
ونظر اليها ماتيو في ذعر : كانت مصبوبة في ثوبها البشع الاخضر، وهي تضحك عن اسنانٍ نخرة وشعرها مشعّث وهيئتها هيئةُ طيبةٍ مفتعلة. كانت تفرز الكارثة . وقالت بحيوية :
ــ مرحباً ! ترين اني ... مع ...
فدفعته ساره في ود ومدت رأسهـــا من فوق كتفه وسألت في فضول شره :
ــ مَنْ عندك ؟ آه ! انها ايفيش سرغين . كيف حالكِ ؟
ونهضت ايفيش وقامت بحركة احترام . وكانت الخيبة بادية عليها . وكذلك كان شأن ساره . وكانت ايفيش هي الشخص الوحيد الذي لم تكن ساره تحتمله . وقالت ساره :
ــ كم انت هزيلة ! انا متأكدة من انك لا تأكلين بما فيه الكفاية. وانت في ذلك غير عاقلة .
ووقف ماتيو في وجه ساره وهو ينظر اليها بإحداد : وأخذت ساره تضحك وقالت بجذل :
ــ ها هو ماتيو يوسّع لي عينيـــه . انه لا يريد ان احدثك عن صحتك .

والتفتت الى ماتيو وقالت :

– لقد عدت في ساعة متاخرة من الليل . ولم اجد « والدمان » : كان لم يمض على وجوده في باريس عشرون يوماً ، حتى غرق في ركام من الاعمال المشبوهة . وكانت الساعة قد بلغت السادسة حين عثرت عليه .

قال ماتيو : – انك لطيفة يا سارة ، فشكراً .

ثم اضاف باندفاع : – سنتحدث عن هذا فيما بعد . تعالي خذي فنجان شاي .

قالت : – لا ، لا ! بل لن اجلس ، فعليّ ان اتجه الى المكتبة الاسبانية ، فهم يريدون ان يروني بصورة عاجلة . هناك صديق لغوميز وصل الى باريس .

فسألها ماتيو ليكسب الوقت : – ومن هو ؟

– لا اعرف بعد . قالوا لي : صديق لغوميز ، قادم من مدريد .

ونظرت الى ماتيو في حنان ، وكانت عيناها تبدوان شاردتين من فرط الطيبة .

– ان عندي نبأ سيئاً لك يا عزيزي ماتيو : انه يرفض .

– هِمْ !

غير انه تأتّى له ان يقول :

– تودين من غير شك ان تكلميني على حدة ؟

وقطّب حاجبيه عدة مرات ، ولكن ساره لم تكن تنظر اليه . وقالت في أسى :

– لا يحتاج الامر الى ذلك . فليس عندي ما اقوله لك تقريباً .

ثم اضافت بصوت مثقل بالسر :

– لقد ألححت ما وسعني ذلك . ولكن عبثاً . يجب على الشخص المعني ان يكون عنده صباح الغد ، ومعه المال .

قال ماتيو بحيوية : — حسناً ! لا تتكلم بعدُ بهذا :
وضغط على الكلمات الأخيرة ، ولكن ساره كانت حريصة على ان تبرّر نفسها فقالت :
— لقد بذلت جهدي ، وابتهلت اليه ، لو تعلم . فقال لي ، « هل هي يهودية ؟ » فقلت كلا . وعند ذلك قال : « انني لا أقرض احداً . اذا شاءت ان اخلّصها فلتدفع . والاّ ، فان العيادات غير مفقودة في باريس . »
وسمع ماتيو الديوان يفرقع خلفه . واستطردت ساره :
— لقد قال : « انني لا أقرضهم ابداً . لقد عذّبونا هناك اكثر مما ينبغي . » وهذا صحيح كما تعلم ، وانا اكاد افهم موقفه . لقد حدثني عن يهود فيينا ، وعن معسكرات الاعتقال . ولم اكن اريد ان اصدقه ... ولكن صوته اختنق : « لقد عذبوهم عذاباً شديداً . »
وصمتت ، وحلّ صمت ثقيل . ثم اضافت وهي تنفض رأسها :
— وإذن ، ما الذي ستفعله ؟
— لا ادري .
— ألا تفكر في ...
فقال ماتيو بحزن : — بلى ، اتصوّر ان الأمر سينتهي الى هذا .
قالت ساره في انفعال : — يا عزيزي ماتيو !
ونظر اليها في قسوة ، فصمتت منزعجة . ورأى شيئاً ما يشرق في عينيها يشبه أشعة وجدانية ، ثم قالت بعد لحظة :
— حسناً . انني اذن أفرنقع . اتصل بي صباح الغد ، فانا اريد ان اعرف .
قال ماتيو : — حسناً . الى اللقاء يا ساره .
وصاحت ساره وهي ازاء الباب : — الى اللقاء يا صغيرتي ايفيش .
قالت ايفيش : — مع السلامة يا سيدتي .

وحين ذهبت ساره ، استعاد ماتيو مشيته عبر الغرفة . وكان يشعر بالبرد . وقال ضاحكاً :

ــ ان هذه المرأة الطيبة زوبعة . انها تدخل كالعاصفة فتلقي كل شيء ارضاً ثم تمضي كالريح .

فلم تقل ايفيش شيئاً . وكان ماتيو يعلم انها لن تجيب . واقبل يجلس بالقرب منها وقال من غير ان ينظر اليها :

ــ ايفيش : سوف اتزوج مارسيل .

وساد صمت آخر . وكان ماتيو ينظر الى الستائر الثقيلة الخضراء التي كانت تتدلى على النافذة . وكان متعباً . واوضح لايفيش ، وهو خافض الرأس .

ــ لقد اخبرتني امس الاول انها حامل .

وعانت الكلمات مشقةً حتى تخرج : انه لم يكن يجرؤ على الالتفات الى ايفيش ، ولكنه كان يعلم أنها كانت تنظر اليه . وقالت بصوت مثلوج :

ــ انني اتساءل لماذا تقول لي ذلك . فهذه شؤونك .

فهزّ ماتيو كتفيه وقال :

ــ كنت تعلمين جيداً انها كانت ...

قالت ايفيش في ترفّع : ــ خليلتك ؟ اقول لك انني لا اهتم كثيراً بهذه الامور .

وترددت لحظة ثم قالت بلهجة شاردة :

ــ انني لا افهم لماذا يبدو عليك الارهاق . اذا تزوجتها ، فهذا يعني انك راغب في ذلك . والاّ فان الوسائل ، على ما قيل لي ، غير مفقودة ...

قال ماتيو : ــ ليس معي مال . لقد بحثت في كل مكان ...

ــ ومن اجل هذا ، كلّفت بوريس بان يقترض خمسة آلاف فرنك

من لولا ؟

ـ آه ! تعلمين ! انني لم ... واخيراً نعم ، نعم، من اجل هذا ، اذا شئت .

قالت ايفيش بصوت ابيض :

ـ ان هذا شيء قذر .

ـ نعم .

وقالت ايفيش : ـ والواقع ان ذلك لا يعنيني . لا بدّ انك تعرف ما عليك ان تفعله .

وأنهت شرب فنجانها وسألته :

ـ كم الساعة ؟

ـ التاسعة الا ربعاً .

ـ هل هبط الليل ؟

فتوجه ماتيو الى النافذة ورفع الستائر، فتسلّل نهارٌ قذر عبر الشقوق.

ـ لم يهبط بعد تماماً .

قالت ايفيش وهي تنهض : ـ اوه ! لا بأس ! انني مع ذلك ذاهبة . (واضافت بلهجة انين) ان عليّ ان اعدّ جميع تلك الحقائب.

قال ماتيو : ـ اذن مع السلامة .

ولم تكن له رغبةٌ في امساكها .

ـ الى اللقاء .

ـ هل اراك مرة اخرى في تشرين الاول ؟

لقد ندّت هذه الكلمات عنه بالرغم منه . فانتفضت ايفيش انتفاضة عنيفة وقالت والشرر يتطاير من عينيها :

ـ في تشرين الاول ؟ في تشرين الاول ! آه ، كلا !

واخذت تضحك وقالت :

ـ اعذرني . ان هيئتك غريبة لو تعلم . انني لم افكر قط بان اقبل

مالك : انك لن تملك منه اكثر مما يحتاجه تأثيث بيتك الزوجي .
قال ماتيو وهو يأخذ بذراعها : — ايفيش !
فأطلقت ايفيش صرخة وتخلصت منه فجأة وقالت :
— دعني . لا تلمسني .
فترك ماتيو ذراعه تسقط . وكان يحسُّ غضباً يائساً يتملّكه . وتابعت ايفيش لاهثة :
— لقد شككت في ذلك . صباح امس .. حين جرؤت على لمسي ... قلت لنفسي : ان هذه تصرفات رجل متزوج .
قال ماتيو بخشونة :
— كفى ، لا حاجة الى الالحاح . لقد فهمت .
وكانت هناك ، مُعسكرةً امامه ، محمرّة من الغضب ، وعلى شفتيها بسمة غطرسة : وخاف من نفسه . فارتمى خارجاً وهو يُدافعها ، وصفق باب الدخول خلفه .

١٦

« لا تعرف ان تحبّ ، لا تعرف
وعبثاً أمدُّ ذراعيّ . »

كان مقهى «ايترو موسكيتير» يلتمع بكل انواره في المساء الحائر. وكان جمعٌ عاطلٌ قد تحلّق قرب الرصيف : عما قليل سينبسط فوق باريس دانتيل الليل المضيء ، من مقهى الى مقهى ، ومن واجهة الى واجهة ؛ كان الناس ينتظرون الليل وهم يستمعون الى الموسيقى ، وكان مظهر السعادة بادياً عليهم ، وكانوا يتدافعون في ارتعاش امام هـذا الاحمرار الليلي الصغير الاول . واستدار ماتيو حول هذا الجمع الغنائي : ان عذوبة المساء لم تكن له .

« لا تعرف ان تحبّ ، لا تعرف
ابداً ، ابداً لن تعرف . »

شارع طويل مستقيم . وخلفه ، في غرفة خضراء ، كان وجدان صغير حاقد يدفعه بكل قواه . وامامه ، في غرفـة وردية ، كانت تنتظره امرأة لا تتحرك ، وهي تبتسم املاً . سوف يدخل بعد ساعة بخطى ذئبية في الغرفة الوردية ، سيدع نفسه ليبتلعه هذا الامل العذب، هذا العرفان ، هذا الحب ، طوال الحياة ، طوال الحيـاة . ان اناساً

يلقون بأنفسهم في الماء لأقلّ من هذا .

– ايها الحمار !

وارتمى ماتيو الى امام ليتجنّب السيارة ؛ فاصطدم بالرصيف ووجد نفسه على الارض : كان قد سقط على يديه ، واطلق تجديفة . ونهض ، وكانت راحتاه تؤلمانه ، وتأمل يديه الموحلتين في خطورة : كانت اليد اليمنى سوداء ، مع بعض الجروح ، وكانت اليسرى توجعه ، وكان الرجل يلطّخ ضماده . وتمتم بجدّ : « لم يكن ينقص الا هذا ، لم يكن ينقص الا هذا . » وسحب منديله وبلّله ريقاً وفرك راحتيه في شيء من الحنان ؛ وكانت به رغبة للبكاء . وظلّ معلّقاً لحظة ، وكان ينظر الى نفسه في دهشة . ثم انفجر ضاحكاً . كان يضحك من نفسه ، ومن مارسيل ، ومن ايفيش ، ومن ارتباكه المضحك ؛ ومن حياته ، ومن عواطفه المثيرة للشفقة . وكان يتذكّر آماله القديمة فيضحك منها لأنها افضت الى ما هو عليه ، الى هذا الانسان المليء بالرصانة والذي كان يبكي لأنه سقط على الارض ؛ كان ينظر الى نفسه بلا خجل ، في تسلية باردة وضارية ، وكان يفكر : « من يقول اني كنت آخذ نفسي أخذاً جادّاً ! » وتدفقت الضحكة بعد بضعة ارتجافات : لم يكن ثمة من يضحك بعد .

فراغ . استعاد الجسم سيره وهو يجرجر قدميه ، ثقيلاً حارّاً تنتابه الرعشات وحروق الغضب في الحنجرة . وفي المعدة . ولكن لم يكن ثمة بعد من يسكنه . وقد أُفرغت الشوارع كأنما سالت في ثقوب البواليع . ولقد غاب منها شيء كان ما يزال يملأها منذ لحظات . وبقيت الاشياء هناك لم تُمسّ . ولكنّ حُزمتها قد حُلّت ، فتدلّت من السماء كأنها تحجّرات هائلة ، وصعدت من الارض كأنها « منهيرات » مُحالة : لقد تلاشت جميع اغراءاتها الصغيرة المألوفة ، وجميع اغنياتها الرقيقة في الرياح ، فهي صامتة خرساء . لقد كان ثمة في الماضي مستقبل انسان

كان يرتمي عليها فتعكسه في نُثارٍ من الإغراءات المختلفة . لقد مات المستقبل .

واستدار الجسم الى اليمين ، وغرق في غُبـار مُشعّ راقص في اعماق شقّ متدرّن ، بين قطع من الثلج مخطّطة بالأشعّـة . وكانت كتلٌ داكنة تجرّ نفسها وهي تصرّ . وعلى مستوى ارتفـاع العينين كانت ازهار زغباء تتأرجح . وبين هذه الازهار ، وفي جوف هذا الشقّ ، كانت تنسلّ شفافيةٌ تراقب نفسها في هوس مثلوج . « سأذهب لآخذها » وتشكّل العالم من جديد ، صاخباً منهمكاً ، مـع سيارات واناس وواجهات ؛ ووجد ماتيو نفسه في وسط شارع « ديبار » . ولكن لم يكن بعدُ هو العالم نفسه ، ولا ماتيو نفسه تماماً . ففي نهاية العالم ، وراء البنايات والشوارع ، كان ثمة باب مغلق . وبحث في محفظته وسحب منها مفتاحاً . كان هناك ذلك الباب المغلق ، وكان هنا هذا المفتاح الصغير المسطّح : كانت هذه هي اشياء العالم الوحيدة ؛ ولم يكن بينها الا ركام من العقبات والمسافات . « بعد ساعـة . امامي وقت كافٍ لأذهب اليها سيراً على الاقدام . » ساعة : الوقت الكافي تماماً للذهاب الى ذلك الباب ولفتحه ؛ وفيما وراء هذه الساعة لم يكن ثمة شيء . وكان ماتيو يسير بخطى متساوية ، وهو في سلام مع نفسه ، وكان يُحسّ نفسه خبيثاً وهادئاً . « واذا كانت لولا مـا تزال في سريرها ؟ » واعاد المفتاح الى جيبه وفكر : « مهما يكن ، فسوف آخذ المال . »

كان المصباح يضيء إضاءة سيئة . وبالقرب من النافـذة ، بين صورتي مارلين دياتريش وروبرت تايلور ، كان ثمة رزنامة تحمل مرآة صغيرة منقّطة بالصدأ . واقترب منها دانيال وهو ينحني قليلاً وعاد يربط عقدة عنقه ؛ وكان مستعجلاً ليرتدي ثيابه كلها : وفي المـرآة

خلفه ، رأى وجه رالف الهزيل القاسي يكاد يمحوه الظل ووسخ المرآة الابيض ، واخذت يداه ترتجفان : كانت به رغبة لأن يضغط هـذا العنق الهزيل الذي كانت جوزته بارزة وان يفجّره بين أصابعه . وكان رالف مديراً رأسه نحو المرآة ، ولم يكن يدري ان دانيال كان يراه فوجّه اليه نظرة غريبة ؛ وفكر دانيال وهو يرتعش رعشة كانت في حقيقة امرها رعشة لذة : « ان وجهه يشبه وجه القاتل ، وهو مهان ، وانه ليكرهني . » وأبطأ في ربط عقدته . وكان رالف ما يزال ينظر اليه ، وكان دانيال يستمتع بهذا الحقد الذي كان يجمعها . حقدٌ مختمر يبدو ان عمره عشرون عاماً ، حقد يمتلكها ، وكان يطهره . « ذات يوم سيأتي شخص مثله فيقتلني من الخلف . » سوف يكبر الوجه الفتيّ في المرآة ، ثم ينتهي الامر ، وسيكون الموت الشائن الذي يناسبه . واستدار على عقبيه ، فخفض رالف عينيه بسرعة . وكانت الغرفة أتوناً .

ـ أليس لديك منشفة ؟

وكانت يدا دانيال مبلّلتين .

ـ انظر في دلو الماء .

وكان في دلو الماء منشفة قذرة . فمسح دانيال يديه بعناية :

ـ لم يعرف الماء ، دلو الماء هذا . ويبدو انكما ، انتما الاثنين ، لا تغتسلان كثيراً .

فقال رالف بلهجة منقبضة : ـ اننا نغتسل بماء الحنفية الموجودة في الممر .

وساد صمت ثم قال موضحاً :

ـ وذلك انسب .

وكان يلبس حذاءه وهو جالس على طرف السرير، وجسمه منحنٍ ، وركبته اليمنى مرتفعة . وكان دانيال يتأمل هذا الظهر الهزيل ، وهاتين

الذراعين الفتيتين ذواتي العضلات اللتين كانتا تخرجان من قميص ذي كمين قصيرين : وفكر في غير ما تغرّض : ان فيهما الجمالاً . ولكنه كان يشمئز من هذا الجمال . بعد لحظة سيكون في الخارج ، وسيكون هذا كله من الماضي . ولكنه كان يعلم مـا كان ينتظره في الخارج . وحين حمل معطفه تردد : كان كتفاه وصدره غارقة بالعرق ، وكان يفكر في خوف بأن ثقل المعطف سيلصق قميصه الكتاني بلحمه الرطب. وقال لرالف :

— ان الجو عندك حار حرارة فظيعة .

— اننا تحت السقف .

— كم الساعة ؟

— التاسعة . لقد دقت هذه اللحظة .

لا تزال ثمة عشر ساعات للقتل قبل ان يطلع النهار . انه لن ينام. حين كان ينام هنا ، كان الامر دائماً اعظم مشقة . ورفـع رالف رأسه :

— كنت اود ان اسألك يا لاليك ... أأنت الذي نصحت لبوبي ان يعود الى العمل لدى الصيدلي ؟

— نصحت ؟ كلا . وانما قلت له انه كان ابله اذ تركه .

— آه ! حسناً . ان الامرين يختلفان . لقد جاءني هذا الصباح يقول لي ذلك ، وانه سيقدم اعتذاره ، وانك انت الذي كنت تريده ، ولم يكن يبدو عليه انه صريح .

قال دانيال : — لا اريد شيئاً على الاطلاق ، وانا لم اقل لـه خصوصاً ان يقدم اعتذاراته .

وابتسم كلاهما في احتقار . وأراد دانيال ان يضع معطفه ولكنه لم يجد الشجاعة لذلك وقال رالف وهو ينحني :

— لقد قلت له : افعل ما بدا لك . فليس هذا يعنيني . فما دام

السيد لاليك هو الذي ينصحك ... ولكني ارى الآن ...

وقام بحركة غاضبة ليربط سير حذائه الايسر ، وقال :

– لن اقول له شيئاً . انه هكذا . ويجب ان يكذب . ولكن هناك واحداً اقسم لك اني سأقبض عليه عند المنعطف :

– الصيدلي ؟

– نعم . لا اقصد الصيدلي العجوز ، بل الشاب .

– الصيدلي المتمرّن ؟

– نعم . ذلك المحون . كم قد روى عني وعن بوبي ... وليس لبوبـي ما يفخر به لأنه التحق بتلك الصيدلية. ولكن لا تخف ، سأذهب يوماً وانتظر هذا المتمرن عند الباب .

وابتسم بخبث ، وكان يلتذّ في غضبه :

– سأقصده ويداي في جيبي ، وعليّ ذلك المظهر الذي تعرفه . كيف الحال ؟ قل لي : ما الذي حكيته عني ؟ ماذا ؟ ماذا حكيت عني ؟ وستراه يقول : « لم اقل شيئاً ، لم اقل شيئاً . » آه ! لم تقل شيئاً ؟ خذ اذن : ضربة في المعدة يسقط بعدها ارضاً ، فأقفز فوقه وأدق عنقه في الرصيف .

وكان دانيال ينظر اليه في غيظ سافر ، وكان يفكر : « كلهم متشابهون » . كلهم . ما عدا بوبـي الذي كان متخنثاً . كانوا يتحدثون دائماً ، فيما بعد ، عن عزمهم على دق عنق احد الناس . وكان رالف يزداد حماساً ، وعيناه ملتمعتان ، واذناه مورّدتان ؛ كان بحاجة الى ان يأتي حركات حيّةً ومفاجئة . ولم يستطع دانيال ان يقاوم رغبته في إذلاله اكثر من ذلك .

– ولكن الا تظن انه هو الذي سيهزمك ؟

– هو ؟ (كان رالف يقهقه قهقهة كريهة) بوسعه ان يأتي ، وليس لك الا ان تسأل خادم « الاورينتال » فذلك واحدٌ قد جرّب

وفهم . شاب في الثلاثين ذو ذراعين هكذا . وكان يقول انه يريد ان يُخرجني .

فابتسم دانيال بوقاحة وقال :

– وبالطبع التهمته بلقمة واحدة .

فقال رالف مجروحاً : – اوه ! ليس لك الا ان تسأل . كان هناك عشرة تقريباً يتفرجون علينا . قلت له : – «أتأتي الى الخارج؟» اسمع ، كان هناك بوبي وشخص طويل آخر رأيتك معه . وخرج صاحبنا وهو يقول : « أتريد ان تعلّم رب اسرة كيف يعيش ! » وماذا فعلت له ؟ بدأت بلكمة على عينه ، ثم لكمة بمرفقي على انفه ، هكذا في صفحة وجهه . وكان قد نهض مقلّداً حركات القتال . واستدار حول نفسه ، مُظهراً فخذيه الصغيرتين القاسيتين المصبوبتين في بنطلونه الازرق .

وأحس دانيال بأن الغضب ينال منه كل منال ، وقد ود لو يضربه. وتابع رالف :

– كان يبول دماً . ثم هوب ! ضربة على الفخذين ، وسقط ارضاً ! ولم يكن يدري بعد اين اصبح ، رب الاسرة ذاك !

وصمت قائماً متعجرفاً ، منطوياً على مجده . وكان يشبه حشرة . وفكر : « سوف اقتله » ولم يكن يصدق هذه القصص كثيراً ، ولكن كان يشعر بالذل ان يكون رالف قد هزم رجلاً في الثلاثين . واخذ يضحك وقال بمشقة :

– انك تريد ان تتصنّع الشجاعة . ولا بد ان تقع اخيراً على رجل شجاع !

واخذ رالف يضحك هو ايضاً ، وتقاربا ، فقال :

– لا اريد ان اتصنّع الشجاعة ، ولكن ليس السمان هم الذين يخيفونني .

قال دانيال : — انك اذاً لا تخاف احداً ؟ أليس كذلك ؟ ألا تخاف أحداً ؟

وكان رالف محمراً من الخجل ، وقال :

— ليس اسمن الناس اقواهم !

فقال له دانيال وهو يدفعه :

— وأنت ؟ أرِنا ان كنت قوياً . أرنا ان كنت قوياً !

وظل رالف لحظة فاغر الفم ، ثم تطاير من عينيه الشرر ، وقال بصوت مصفّر :

— اما معك انت ، فأريد بكل تأكيد . على سبيل المزاح طبعاً . بلطافة . ولن تنتصر .

فقبض عليه دانيال من نطاقه :

— سوف اريك يا صغيري !

وكان رالف مرِناً وقاسياً ؛ وكانت عضلاته تنزلق تحت يدي دانيال . وقد تصارعا في صمت ثم اخذ دانيال ينفخ ، وكان يشعر بغموض انه شخص طويل ذو شاربين . ونجح رالف في رفعه ، ولكن دانيال دفع يديه الاثنتين في وجهه فتركه رالف . وما لبثا ان ألفيا نفسيهما وجهاً لوجه ، مبتسمين وحادقين . وقال رالف بصوت غريب :

— آه ! انك تريد ان تؤذي ؟ تريد ان تؤذي ؟

وارتمى فجأة على دانيال ، ورأسه الى امام . وتفادى دانيال ضربة رأسه وقبض عليه من رقبته . وكان مرهقاً لاهثاً ، بينما لم يكن يبدو على رالف انه متعب اطلاقاً . وتماسكا من جديد ، وبدأا يستديران على نفسيهما وسط الغرفة . وكان دانيال يشعر في جوف فمه بمذاق حامز محموم : « يجب ان ننتهي من ذلك ، والاّ انتصر عليّ . » ودفع رالف بكل قوة ، ولكن رالف صمد . واستولى غضب مجنون على

دانيال وفكر : « انني مضحك . » وانحنى فجأة . فأمسك رالف من جنبيه ورفعه ، ثم القاه على السرير ، وترك نفسه يسقط فوقه بمثل تلك الاندفاعية . وتخبط رالف وحاول ان يخمش ، ولكن دانيال قبض على معصميه والقاهما على الوسادة . وظلاّ على هذا الوضع لحظات ، وكان دانيال اشد تعباً من ان يستطيع النهوض ثانية . وكان رالف مسمّراً على السرير ، عاجزاً ، مسحوقاً تحت ثقل هذا الرجل ، رب الاسرة. وكان دانيال ينظر اليه في تلذّذ ؛ وكانت عينا رالف طافحتين بجنون حاقد ، وكان جميلاً .

وسأله دانال بصوت متقطع :

– من الذي انتصر ؟ من انتصر يا صاحبي الصغير ؟

فابتسم رالف على الفور وقال بصوت زائف :

– انك قوي يا سيد لاليك !

فتركه دانيال ونهض على قدميه . وكان قد فقد انفاسه واستشعر المذلّة . وكان قلبه يخفق حتى ليكاد ينفجر . وقال :

– لقد كنت من قبل قوياً . اما الآن فان انفاسي تخونني .

وكان رالف قد نهض ، وكان يسوي ياقة قميصه ولم يكن يلهث . وحاول ان يضحك ولكنه كان يتفادى نظر دانيال . وقال :

– ليس النَفَس شيئاً ذا بال ، ايها اللاعب البارع . فما عليك الا ان تتمرن .

قال دانيال :

– انك تحسن المصارعة ، ولكن هنالك فرق الوزن .

وقهقه كلاهما بانزعاج . وكان دانيال يرغب في ان يأخذ بخناق رالف وان يلكمه في وجهه بكل قواه . ولبس معطفه ، فالتصق قميصه المبلل عرقاً ببشرته . وقال :

– هيا . انني ذاهب . مساء الخير .

ـ مع السلامة ، يا سيد لأليك.

قال دانيال : ـ لقد خبأت لك شيئاً في الغرفة . ففتش عنه . جيداً تجده .

وانغلق الباب . وهبط دانيال السلم ، وساقاة مرتخيتان . وفكر : « عليّ قبل كل شيء ان اغتسل من الرأس حتى القدمين . » واذ كان يعبر عتبة الباب ، جاءته فكرة اوقفته حالاً : لقد حلق ذقنه في الصباح قبل ان يخرج، وكان قد ترك موسى الحلاقة على المدخنة، مفتوحاً .

حين فتح ماتيو الباب أثار جرساً خفيفاً وملبّداً . وفكر . « لم ألاحظ هذا الصباح ، فلا بد انهم وصلوا المجرى الكهربائي مساءً ، بعد الساعة التاسعة . » والقى نظرة مواربة ، عبر زجاج المكتب ثم رأى ظلاً : كان هناك بعضهم . ومشى بغير عجلة الى لوحة المفاتيح . الغرفة ٢١ . كان المفتاح معلقاً في مسمار . فتناوله ماتيو بسرعة ووضعه في جيبه ، ثم استدار وعاد الى السلم . وفُتح باب خلف ظهره ، ففكر : « سوف ينادونني » . ولم يكن خائفاً: فقد كان هذا متوقعاً. وقال صوت قاسٍ :

ـ هيه ! اين انت ذاهب !

فالتفت ماتيو . كانت امرأة طويلة هزيلة ذات نظارات . وكان يبدو عليها الاهتمام والقلق . فابتسم لها ماتيو . ورددت سؤالها :

ـ اين انت ذاهب ؟ الا تستطيع ان تسأل عند الصندوق ؟

بوليفار . كان اسم الزنجي بوليفار . فقال ماتيو بهدوء :

ـ انني ذاهب لأرى السيد بوليفار ، في الطابق الثالث .

فقالت المرأة مرتابة :

ـ حسناً . لأني رأيتك واقفاً امام اللوحة .

– كنت انظر اذا كان مفتاحه هنا ..
قال ماتيو : – كلا ، فهو موجود في غرفته .
واقتربت المرأة من اللوحة . حظ على اثنين . وقالت في عزاء خائب :
– نعم . انه موجود .
وأخذ ماتيو يرقى الدرج من غير ان يخيب . وتوقف لحظة عند سطيحة الطابق الثالث ، ثم ادخل المفتاح في قفل الغرفة ٢١ وفتح الباب .
وكانت الغرفة غارقة في الليل . ليل احمر كان يُشعر بالحمّى والعطر . واغلق الباب خلفه بالمفتاح وتقدم نحو السرير . وقد مدّ يديه اولاً الى امام ليحتمي من العقبات ، ولكنه تعوّد بسرعة . وكان السرير مدعوكاً ، وكان على الفراش وسادتان ما زالتا مجوفتين بوزن الرؤوس . وركع ماتيو امام الصندوق وفتحه ؛ وأخذته رغبة خفيفة بأن يقيء . وكانت الاوراق المالية التي تركها في الصباح قد سقطت فوق رزم الرسائل : فأخذ ماتيو منها خمس اوراق ؛ انه لم يكن يريد ان يسرق شيئاً لنفسه . « ماذا تراني سأفعل بالمفتاح ؟ » وتردد لحظة ثم عزم على ان يتركه في قفل الصندوق . وحين نهض لاحظ في جوف الغرفة ، الى اليمين ، باباً لم يكن قد رآه صباحاً . فذهب يفتحه : كان غرفة تواليت . وأشعل ماتيو عود ثقاب فرأى وجهه المذهّب بالأشعة ينبثق في مرآة . وظل ينظر الى نفسه حتى انطفأ العود، ثم تركه يسقط وعاد الى الغرفة . واصبح يميّز بوضوح الاثاث ، وثياب لولا ، ومنامتها ، وثوبها الليلي ، وتايورها ، كل ذلك مرتّب ومعلق على الكرسي والمشاجب : وضحك ضحكة شريرة وخرج .
وكان الممر خالياً ، ولكن كان يُسمع وقع خطى وضحكات ، وكان ثمة اشخاص يرقون الدرج . وهمّ بأن يعود الى الغرفة ؛ ولكن

لا ، فقد كان لديه سواء ان يقبض عليه ، وأدخل المفتاح في القفل وأغلق الباب وهو يدير المفتاح مرتين . وحين نهض رأى امرأة يتبعها جندي . وقالت المرأة :

– في الطابق الرابع .

وقال الجندي :

– ذلك مرتفع .

وتركهما ماتيو يمران ، ثم هبط . وكان يفكر في مرح بأنه مـا يزال عليه أن يقوم بأشق عمل : ان يُعيد المفتاح الى اللوحة .

وعند الطابق الاول توقف وانحنى على الدربزون . وكانت المرأة على عتبة الباب الخارجي ، وكانت توليه ظهرها وتنظر الى الشارع . وهبط ماتيو الدرجات الاخيرة بلا ضجة وعلّق المفتاح بالمسمار ، ثم صعـد الدرج مرة اخرى بخطى خفيفة حتى سطيحة الطابق الاول ، وانتظر لحظة ، ثم هبط السلم بصخب . والتفتت المرأة فحيّاها وقال :

– الى اللقاء يا سيدتي .

فدمدمت : – ... اللقاء .

وخرج ، واحسّ نظر المرأة يثقل على ظهره ، وكانت به رغبةٌ للضحك .

« مات الوحش . مات السمّ » . ومشى بخطوات واسعة وساقاه مرتخيتان . انه خائف ، وفمه جاف . والشوارع شديدة الزرقة ، والجو عذبٌ جداً . « الشعلة تلتهم الفتيل ، وبرميل البارود في نهايته.» وصعد الدرج اربع اربع . وكان شاقاً عليه ان يضع المفتاح في القفل . ان يده ترتجف وفرّت قطّتان بين ساقيه : انه الآن يخيفها .

« مات الوحش ...»

كان الموسى هناك ، على طاولة الليل ، مفتوحاً . واخذه من مقبضه

ونظر اليه . المقبض أسود ؛ والشفرة بيضاء . « الشعلة تلتهم الفتيل.. »
وأمرّ إصبعه على حدّ الشفرة ، فشعر في طرف إصبعه مذاق جرح
حامزاً ، فارتعش : إن على يدي ان تفعل كل شيء . إن الموسى
لا يساعد ، فهو ليس الا جموداً ، وهو يزن زنة حشرة في اليد.
وخطا بضع خطى في الغرفة ؛ وطلب معونة ، وكانت هذه إشارة :
كل شيء جامد وصامت . الطاولة جامدة . الكراسي جامدة ، سابحة
في نور جامد . وحده واقف ، وحده حيّ في النور الازرق . لن
يساعدني شيء ، لن يحدث شيء . القطط تخربش في المطبخ . وأسند يده
الى الطاولة ، فاستجابت لضغطه بضغط مشابه ، لا اكثر ولا أقل . إن
الأشياء عبيد . وديعة . منقادة . ستفعل يدي كل شيء . وتثاءب
ضيقاً وضجراً . إنه وحيد في الديكور . فلا شيء ، يدفعه للتقرير ،
ولا شيء يمنعه عنه : يجب ان يقرّر وحده . وليس عمله إلاّ غيبوبة.
تلك الزهرة الحمراء بين فخذيه ، ليست موجودة ، وتلك البركة
الحمراء على ارض الغرفة ، ليست موجودة . ونظر الى ارض الغرفة .
إن ارض الغرفة موحّد أملس : فليس ثمة مكان للطخة . « سأكون
راقداً على الارض ، جامداً ، مفتوح البنطلون قذرَه ، وسيكون
الموسى على الأرض ، أحمر ، مثلّماً ، جامداً . » إنه يسحر نفسه
على الموسى وعلى الارض ، لو كان بوسعه ان يتخيّلها بقوة كافية ،
تلك البركة الحمراء ، وهذا الحرق ، بحيث يتحققان من تلقاء
نفسها من غير ان يكون محتاجاً الى إتيان تلك الحركة . انني سوف
أتحمل الألم. إني اريدة ، وأدعوه . اما هذه الحركة ، هذه الحركة ...
ونظر الى الارض ، ثم الى الشفرة . عبثاً : الهواء عذب ، والغرفة
مظلمة بعذوبة ؛ والموسى يلتمع بعذوبة ويثقل بعذوبة في يده . حركة ،
لا بدّ من حركة ، والحاضر يسقط لدى اول نقطة دم . انها يدي ،
يدي التي يجب ان تعمل كل شيء .

وتوجّه الى النافذة ، ونظر الى السماء . وازاح الستائر . بيده اليسرى ، وأضاء الكهرباء . بيده اليسرى . ونقل الموسى الى يده اليسرى . وأخذ محفظة نقوده . فأخرج منها خمس اوراق من فئة الألف فرنك . وتناول مغلفاً من على مكتبه ، فوضع المال في المغلّف. وكتب على المغلّف : الى السيد دولاريو ، ١٢ شارع هويغنز . ووضع المغلّف في مكان بارز على الطاولة . ونهض ، ومشى ، وحمل الوحش الملصق ببطنه ؛ انه يمصّه ، وهو يحسّه . نعم . لقد أُخذ في الشَرَك . طوال الليل . واستعادت يده اليمنى الموسى . انه يخاف يده ؛ وهو يراقبها . إنها متصلّبة في طرف ذراعه . وقال : « هيّا ! » وَعَبَرَ به ارتعاش صغير ضاحك من الجنبين الى الرقبة . « هيا . لننته من ذلك ! » ليته يجد نفسه مقطوع العضو ، كما يجد المرء نفسه واقفاً في الصباح : إذ يدقّ المنبّه ، من غير ان يعلم كيف نهض . ولكن يجب اولاً ان يعمل هذه الحركة القذرة ، هذه الحركة المبولية ، ان يفكّ ازراره طويلاً ، وفي صبر . وصعد جمودُ الموسى الى يده ، والى ذراعه . جسم حيّ وحارّ ذو ذراعٍ حجرية . ذراعٍ صنميّة ضخمة ، جامدة ، مثلجة ، وفي طرفها موسى . وفكّ أصابعه ، فسقط الموسى على الطاولة .

الموسى هناك مفتوح : على الطاولة : لم يتغيّر شيء . ! انه يستطيع ان يمدّ يده ويأخذه . وسيطيع الموسى جامداً . ان الاوان لم يفت بعد ، ولن يفوت الوقت ، فان الليل بطوله لي . ومشى عبر الغرفة : انه غير حاقد على نفسه بعد ، انه لا يريد شيئاً بعد ، انه عائم . ان الوحش هنا ، بين فخذيه ، مستقيم قاسٍ ، قذارة ! ان كان ذلك ينفّرك اكثر مما ينبغي يا صغيري ، فان الموسى هنا ، على الطاولة . « مات الوحش ... » الموسى . ودار حول الطاولة ، من غير ان ينزع نظره عن الموسى . ألا يمنعني اذن شيء

من اخذه ؟ لا شيء . كل شيء جامدٌ هاديء . ومدّ يده ، ولمس الشفرة : ان يدي ستفعل كل شيء . وقفز الى خلف ففتح الباب وقفز الى السلّم . وهبطت احدى قططه السلّم امامه مذعورة .

وكان دانيال يعدو في الشارع : وفوق ، كان الباب ما يزال مفتوحاً على سعته ، والمصباح مضاءً ، والموسى على الطاولة ، وكانت القطط تائهة في السلّم المظلم . ولم يكن ثمة ما يمنعه من ان يعود أدراجه . لقد كانت الغرفة تنتظره باستسلام . ولم يكن ثمة ما هو مقرّر ، ولن يتقرّر شيء ما ابداً . كان ينبغي ان يركض ، ان يفرّ الى ابعد مكان ممكن ، ان يغرق في الضجيج ، في الانوار ، وسط الناس ، وان يعود فيصبح رجلاً بين البشر ، وان يلفت اليه نظر الآخرين : وعدا حتّى بلغ « روا اولاف » فدفع الباب . يكاد يفقد انفاسه . وقال وهو يلهث :

— اعطني كأس ويسكي .

وكان قلبه يخفق بشدة حتّى اطراف اصابعه ، وكان له في فمه مذاق حبر . وجلس في القاعة الداخلية . وقال له الخادم بلهجة احترام :

— يبدو عليك التعب .

وكان نروجياً طويلاً يتكلم الفرنسية بلا لكنة . وكان ينظر في ودّ الى دانيال ، فأحسّ دانيال انه اصبح زبوناً غنيّاً احمق بعض الشيء وهو يترك « بقشيشاً » سخياً . وابتسم واجاب موضحاً :

— ليس الامر على ما يرام . ان بي بعض الحمّى .

فهزّ الخادم رأسه ومضى . وسقط دانيال من جديد في وحدته . كانت غرفته تنتظره ، هناك فوق ، متهيّئة ، والباب كان مفتوحاً على سعته ، وكان الموسى يلتمع على الطاولة . « لن استطيع ابداً ان اعود الى بيتي . » وسوف يشرب ما وسعه ذلك . حتّى اذا دقت الساعة

الرابعة ، اقبل الخادم بحمله بمعونة صاحب الحانة الى سيارة تاكسي . كما يحدث كل مرة .

وعاد الخادم بكأس ممتلئة الى النصف وزجاجة « بيرييه » وقال :

– كما تحبّه تماماً .

– شكراً .

وكان دانيال وحيداً في هذه الحانة الهادئة . وكان النور الاشقر يُزبد حوله : وكان خشب الحواجز الاشقر يلتمع بعذوبة ، وكان مطلياً ببرنيق كثيف ؛ وحين كان المرء يمسّه ، كان يدبّق . وصبّ ماء البيرييه في كأسه ، فاحتدم الويسكي لحظة ، وصعدت الى السطح فقاقيع متحمّسة ، فتزاحمت كنساء ثرثارات ، ثم هدأ هذا الاضطراب الصغير كله . ونظر دانيال الى المائع الاصفر حيث كانت اثارة زبد عائمة : فكأنه بيرة طائشة . وعلى المشرب ، كان الخادم وصاحب الحانة يتحدثان النروجية ، وهما لا يظهران .

– كأس اخرى .

وكنس الكأس بضربة من يده وارسلها تتحطم على الارض . فصمت صاحب الحانة والخادم فجأة ، وانحنى دانيال فوق الطاولة : كان السائل يزحف متمهلاً على البلاط وهو يُرسل ذيولاً نحو رجلِ كرسيّ . وكان الخادم قد هُرع ، فقال دانيال وهو يبتسم :

– انني عادم الحذق ...

فسأله الخادم : – هل اعطيك سواه ؟

وكان قد انحنى ، فانتفخ جانباه ، ليمسح السائل ويلمّ شظايا الزجاج . قال دانيال فجأة :

– نعم ... كلا . (واضاف في لهجة مزاح) ان هذا انذار .. يجب الاّ اتناول الخمر هذا المساء . اعطني اذن نصف قدح بيرييه مع قطعة حامض .

فابتعد الخادم . واحسّ دانيال ببعض الهدوء . وكان حاضرٌ كثيف يتشكّل حوله من جديد . رائحة الزنجبيل ، الضوء الاشقر ، الحواجز الخشبية ...

– شكراً .

وكان الخادم قد فض الزجاجة وملأ القدح الى نصفه . وشرب دانيال ثم وضع الكأس . وفكر : « كنت اعرف ذلك ! كنت اعرف اني لن افعله ! » حين كان يمشي بخطى واسعة في الشوارع وحين كان يصعد السلم اربع اربع ، وكان يعلم انه يمضي حتّى النهاية . وكان يعرف ذلك حين اخذ الموسى في يده ، ولم ينخدع لحظة واحدة، فاي ممثل رديء هو ! وكل ما هناك انه نجح في آخر الامر بان يخيف نفسه ، وعند ذلك هرب . واخذ كأسه وضغطها في يده : كان يريد بكل قواه ان يشمئز من نفسه ، وهو لن يجد قط مناسبة رائعة كهذه . « قذر ! جبان وممثل : قذر ! » وحسب ذات لحظة انه سيبلغ ذلك، ولكن لا ، انما كانت تلك كلمات من الواجب ... آه ! اي انسان ، اي قاض ، كان يقبل ايّ قاض او اي حَكَم ، ولكن ليس هو نفسه ، ليس هذا الاحتقار القاسي لنفسه الذي لم يكن يملك قط قدراً كافياً من القوة ، هذا الاحتقار الضعيف المحتضر الذي كان يبدو كل لحظة على وشك ان يتلاشى والذي لم يكن يمرّ . ليت احداً يعرف ، ليت بوسعه ان يُحسّ الاحتقار الثقيل لإنسانٍ آخر يضغط عليه .. ولكنني لن استطيع ابداً ، انني افضّل لو أخصي نفسي . ونظر الى ساعته ، الحادية عشرة ، ما يزال هناك ثماني ساعات قبل الصباح . ان الوقت لم يكن ينقضي .

الحادية عشرة ! وانتفض فجأة : « ان ماتيو هو الآن عند مارسيل. انها تحدثه ، في هذه اللحظة بالذات تحدّثه وتضع ذراعيها حول عنقه، وتجد انه لا يكاشفها بالسرعة الكافية ... هذا ايضاً ، انما فعلته انا . »

واخذ يرتجف بكل اعضائه : سوف يستسلم ، سينتهي به الامر الى الاستسلام . لقد افسدت له حياته .

وترك كأسه ووقف ونظره محدّد ، انه لا يستطيع لا ان يحتقر نفسه ولا ان ينسى نفسه . انه يودّ لو يكون ميتاً وهو موجود ، انه يستمر بعناد في ان يوجد . يود لو يكون ميتاً ؛ يفكر في انه يودّ لو يكون ميتاً ، يفكر بانه يفكر في انه يود لو يكون ميتاً ... « ان هناك وسيلة . »

وكان قد تكلم بصوت مرتفع ، فهرع اليه الخادم :

– هل ناديتني ؟

قال دانيال بشرود : – نعم . هذا لك .

ورمى مئة فرنك على الطاولة . هنـــاك وسيلة . وسيلة لتسوية كل شيء ! ونهض واتجه بخطوة حيّة الى الباب . « وسيلة عظيمـــة » واخذته ضحكة صغيرة : كان يشعر دائماً بالجذل حين تتاح له الفرصة بان يمثّل على نفسه دوراً ممتعاً .

١٧

اغلق ماتيو الباب على مهل وهو يرفعه قليلاً على رزّاته ، حتى لا يُحدث صريراً ، ثم رفع قدمه على الدرجة الاولى من السلّم ، فانحنى وفكّ سير حذائه . وكان صدره يلامس ركبته . ونزع حذاءه فأخذه بيده اليسرى ، ثم نهض ووضع يده اليمنى على الحاجز ، وقد رفع نظره الى الغيمة الوردية المتقعة التي كانت تبدو معلقة في الظلمات . انه لم يكن يدين نفسه بعد . وصعد على مهل في الظلام وهو يتجنب ان يجعل الدرجات تصرّ .

وكان باب الغرفة مشقوقاً فدفعه . وكان الجو ثقيـــلاً . وكانت حرارة النهار كله قد حطّت في جوف هذه الحجرة ، كأنها ثمالة . وكانت امرأة جالسة على السرير تنظر اليه مبتسمة : انها مارسيل . وكانت قد ارتدت « روبديشمبر » ابيض جميلاً ذا حزام مذهّب ، وكانت قد تزّينت بعناية ، وكان منظرها مرحاً وذا أبهة . واغلق ماتيو الباب خلفه ، وظلّ جامداً ، مرتخي الذراعين ، وقد اخذته في حلقه عذوبة الوجود التي لا تُحتمل . كان هناك ، كان يتفتح هناك ، بالقرب من هذه المرأة المبتسمة مستغرقاً كله في هذه الرائحة ، رائحة المرض والحلويات والحب . وكانت مارسيل قد القت رأسها الى خلف ،وكانت تتأمله في خبث بين جفونها المسبلة . وبادلها بسمتها وراح يضع حذاءه

في الخزانة . وتنفس في ظهره صوت يفيض حناناً :
— حبيبي .
فالتفت فجأة واستند الى الخزانة ، وقال بصوت منخفض :
— مرحباً .
فرفعت مارسيل يدها حتى صدغها وحركت اصابعها :
— مرحباً ، مرحباً .
ونهضت ، واقبلت تحيط عنقه بذراعيها وتقبّله وهي تزلق لسانها في فمه . وكانت قد وضعت مسحوقاً ازرق على جفنيها ؛ وكان في شعرها زهرة . وقالت وهي تداعب رقبته :
— انك تشكو الحرّ .
وكانت تنظر اليه من تحت الى فوق ، ورأسها مقلوب بعض الشيء ، وهي ترشق طرف لسانها بين اسنانها ، في هيئة انتعاش وسعادة .وكانت جميلة . وفكر ماتيو وهو منقبض القلب ببشاعة ايفيش الهزيلة . وقال:
— انت اليوم جذلى . بالرغم من ان الامور لم تكن على ما يرام امس ، كما ظهر في التلفون .
— كلا . كنت بليدة . اما اليوم ، فالامور على ما يرام تماماً .
— هل قضيت ليلةً هانئة ؟
— نمت كاليربوع !
وقبّلته مرة اخرى ، فأحسّ على شفتيه مخمل ذلك الفم الغنيّ ثم ذلك العُري الأجرد ، الحارّ . الحاذق : لسانها . وتفلت منها على مهل . وكانت مارسيل عارية تحت « الروبديشمبر » فرأى نهديها الجميلين وشعر بمذاق سكّر في فمه وتناولت يده وجذبته نحو السرير :
— تعال اجلس بالقرب مني .
وجلس بالقرب منها ، وكانت ما تزال تحتفظ بيده بين يديها ، وكانت تشدّه في انتفاضات صغيرة مرتبكة ، وكان يخيل لماتيو ان

حرارة هذه الايدي كانت تصعد حتّى الإبط وقال :

– ما أشدّ الحرّ عندك .

فلم تجف ، وكانت تلتهمه بعينيها ، وشفتاها مفترّتان ، في هيئة متواضعة واثقة . وامرّ يده اليسرى متمهلاً بالقرب من معدته ثم ادخلها خفيةً في جيبه اليمنى ليأخذ تبغه . ففاجأت مارسيل هذه اليد وارسلت صيحة خفيفة :

– ولكن ما بال يدك ؟

– لقد جرحتها .

وتركت مارسيل يد ماتيو اليمني ثم خطفت يده الاخرى ، وقلبتها كقرص من المعجّنات ، وتأملت راحتها بعين ناقدة :

– ولكن ضمادك قذرٌ جداً ، وانك توشك ان تنتن الجرح ! ثم ان عليه وحلاً ، فما هذا ؟

– لقد وقعت على الارض :

فأطلقت ضحكة لطيفة دهشة :

لقد جرحت يدي ، لقد وقعت على الارض . ما هذه الغفلة ! وماذا اخترعت ؟ انتظر سأربط لك ضماداً آخر ، فانك لا تستطيع ان تبقى هكذا .

وفكّت يد ماتيو وهزّت رأسها :

– انه جُرح بشع ، فكيف حسبت حسابك ؟

– حدث هذا مساء امس في « سومطرا » .

– في « سومطرا » ؟

خدّان عريضان ممتقعان ، وشعر ذهبي ، وغداً ، غداً سأسرّح شعري هكذا من أجلك . واجاب :

– انه هوى من أهواء بوريس . كان قد اشترى سكيناً ، فتحدّاني ان ازرعه في يدي .

– وانت بالطبع عجّلت في تنفيذه . انك مجنون تماماً يا حبيبي المسكين . ان جميع هؤلاء الصبية سوف يستحمقونك ... انظر هذه اليد المسكينة المعطّلة !

وكانت يد ماتيو مرتاحة جامدة بين يديها الملتهبتين ؛ وكان الجرح يثير الاشمئزاز بقشرته الرطبة السوداء . ورفعت مارسيـل اليد الى وجهها ببطء ، ونظرت اليها باحداد ثم انحنت فجأة فألصقت شفتيها بالجرح في اندفاع ذليل . وتساءل : « ماذا دهاها ؟ » وجذبها اليه وقبّلها في اذنها . وسألته مارسيل :

– هل انت مرتاح معي ؟

– طبعاً .

– لا يبدو عليك ذلك .

فابتسم لها ماتيو من غير ان يجيب . ونهضت وراحت تأخذ حقيبتها من الخزانة . وكانت توليه ظهرها ، وقد تطاولت على رأس قدميها ورفعت ذراعيها لتبلغ الطبقة العليا ؛ وكان كشحاها قد تهدّلا على طول ذراعيها . وكان ماتيو ينظر الى هاتين الذراعين العاريتين اللتين داعبهما غالباً وكانت شهواته القديمة تطوف حول قلبه . وعادت اليه مارسيل بتثاقل نشيط :

– اعطني يدك .

وكانت قد صبّت مطهراً على سفنجة صغيرة ، فأخذت تغسل يده. واحسّ عند جانبه دفء هذا الجسد الذي كان قد ألفه .

– إلحس !

وكانت مارسيل تبسط له طرف نسيج مصمّغ ، فمدّ لسانه ولحس القشارة الوردية بوداعة . واطبقت مارسيل طرف النسيج على الجرح ، واخذت الضماد القديم فأمسكته لحظة بطرف اصابعها وهي تنظر اليـه باشمئزاز مرح .

– ماذا تراني سأفعل بهذا الشيء الفظيع ؟ حين تذهب ، سألقيه في القمامة .

ثم لفّت يده بشف في حركة خفيفة :

– هكذا اذن : لقد تحدّاك بوريس ؟ فأتلفت يدك ؟ اي طفل كبير انت ! هل تراه فعل مثلك ، هو ؟

قال ماتيو : – كلا.

فضحكت مارسيل : – لقد تغلب عليك اذن !

وكانت قد وضعت في فمها دبوساً انكليزياً ، وكانت تمزّق الشف بكلتا يديها . وقالت وهي تشدّ على الدبوس بشفتيها :

– هل كانت ايفيش موجودة ؟

– حين جرحتُ يدي ؟

– نعم .

– لا ، كانت ترقص مع لولا .

وشكّت مارسيل الدبوس في الضماد ، وكان قد بقي على عرقه النحاسيّ اثر من احمر الشفاه .

– هكذا اذن ! لقد تسلّيتم كثيراً !

– لا بأس .

– ان مقهى « سومطرا » جميل ! أتعرف ماذا اريد ؟ ان تأخذني اليه مرة .

فقال ماتيو منزعجاً : – ولكن ذلك سيتعبك .

– اوه ! مرة واحدة ... وستفعل ذلك في أبهّة ، فقد مضى وقت طويل لم اخرج به معك .

لم اخرج معك ! وكان ماتيو يردّد بغيظ هذه الكلمة الزوجية : ان مارسيل لم تكن محظوظة مع الكلمات . وقالت مارسيل :

– هل تريد ؟

فقال : — اسمعي ، مهما يكن من امر ، فان هذا لا يمكن ان يتمّ قبل الخريف : يجب عليك في هذه الاثناء ان ترتاحي تماماً : ثم بعد ذلك يغلق المقهى ابوابه في عطلته السنوية . ان لولا ستذهب في دورة الى افريقيا الشمالية .

— اذن سنذهب في الخريف . اتعدني بذلك ؟

— أعِدك .

وسعلت مارسيل في ارتباك ، ثم قالت :

— ارى جيداً انك غاضبٌ عليّ .

— انا ؟

— نعم ... لقد كنت مزعجةً امس الاول .

— ولكن لا ... لماذا ؟

— بلى . كنت ثائرة الاعصاب .

— كان من الممكن ان تكوني اقل ثورة اعصاب من ذلك . ولكن الغلطة غلطتي يا صغيرتي .

قالت : — ليس هناك ما تؤاخذ به نفسك ، ولم يكن هناك قط ما تؤاخذ به نفسك .

ولم يجرؤ على ان يلتفت نحوها ، فقد كان يتمثل تماماً هيئة وجهها ، ولم يكن يستطيع ان يتحمل هذه الثقة التي لا تفسّر ولا يستحقّها . وساد صمت طويل : وكانت تنتظر بكل تأكيد كلمة رقيقة ، كلمة صفح . ولم يستطع ماتيو ان يتماسك بعد ، فقال :

— انظري .

واخرج محفظته من جيبه وبسطها على ركبتيهـا ، فمدّت مارسيل عنقها واسندت ذقنها على كتف ماتيو .

— ماذا عليّ ان انظر ؟

— هذا .

وسحب الأوراق الماليـة من المحفظة وقال وهو يفرقعها بلهجـة انتصار :

ــ واحدة ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة .

وكانت الاوراق محتفظة بعدُ برائحة لولا . وانتظر ماتيو لحظـة والاوراق على ركبتيه ، واذ رأى مارسيل لا تنبس بحرف ، التفت اليها ، فاذا هي رافعة بصرها تنظر الى الاوراق وهي تطرف بعينيها . ولم يكن يبدو عليها انها تفهم . وقالت على مهل :

ــ خمسة آلاف فرنك .

وقام ماتيو بحركة متواضعة ليضع المال على طاولة الليل وقال :

ــ نعم ! خمسة آلاف فرنك . لقد عانيت حتّى وجدتها .

ولم تجب مارسيل . وكانت تعضّ شفتها السفلى وتنظر الى الاوراق نظرة غير مصدّقة . وكانت قد شاخت فجأة . ونظرت الى ماتيو بأسى ولكن بثقة ايضاً . وقالت :

ــ كنت اظن ...

فقاطعها ماتيو ، وقال بصراحة :

ــ سيكون بوسعك ان تقصدي اليهودي ، ويبدو انه عظيم . فقد مرّت تحت يديه مئات النساء في فيينا . وكلهن من الطبقة الثرية .

فانطفأت عينا مارسيل وقالت :

ــ حسناً ، فليكن ، فليكن .

وكانت قد اخذت دبوساً انكليزياً من حقيبتها ، وكانت تفتحـه وتغلقه بعصبية . واضاف ماتيو :

ــ اني اعطيك اياها . واظن ان ساره ستصحبك اليه فتدفعين له ، وهو يريد ان يأخذ المال مقدماً ، ذلك الخنزير .

وبعد لحظة صمت سألته مارسيل :

ــ اين وجدت هذا المال ؟

قال ماتيو : — احزري !
— دانيال ؟
فهز كتفيه : كانت تعلم جيداً ان دانيال لم يرد ان يقرضه شيئاً .
— جاك ؟
— كلا . لقد قلت لك امس ، بالتلفون .
قالت بجفاف : — انني عجزت . من ؟
فقال : — لم يعطني اياها احد .
فابتسمت مارسيل ابتسامة صفراء :
— لن تقول لي مثلاً انك قد سرقتها ؟
— بلى .
فرددت في ذعر :
— هل سرقتها ؟ ان هذا ليس صحيحاً ؟
— بلى ، سرقتها من لولا .
وساد صمت ، ومسح ماتيو عرق جبينه وقال :
— سأروي لك .
ورددت مارسيل في هدوء :
— لقد سرقتها .
وكان وجهها قد اصبح رمادياً ، وقالت من غير ان تنظر اليه :
— لا بدّ انك راغب في التخلص من الطفل .
— انني راغب خصوصاً في الا تقصدي تلك العجوز .
وكانت تفكر ، وكان فمها قد استعاد ثنيتــه القاسية الشرسة .
وسألها :
— هل توبخينني لأني سرقتها ؟
— لا يهمني ذلك .
— اذن ، ماذا هناك ؟

فقامت مارسيل بحركة مفاجئة سقطت معها حقيبة الادوية على الارض . فنظرا اليها معاً ، ودفعها ماتيو بقدمه ، وأدارت مارسيل نحوه رأسها ، وكانت الدهشة بادية عليها . وردد ماتيو :

— قولي لي ماذا هناك ؟

فضحكت ضحكة جافة .

— لماذا تضحكين ؟

فقالت : — انني اسخر من نفسي .

وكانت قد نزعت الزهرة التي كانت تحملها في شعرها وأخذت تقلبها بين اصابعها . وتمتمت :

— لقد كنت شديدة البلاهة .

وقست ملامح وجهها . وظلت فاغرة الفم كما لو انها كانت راغبة في الكلام ، ولكن الكلام لم يكن يأتي . كانت تبدو وكأنها خائفة مما ستقول . وتناول ماتيو يدها ولكنها تحللت منه ، وقالت وهي لا تنظر اليه :

— أعلم انك رأيت دانيال .

— هكذا ! كانت قد انقلبت الى خلف وشنّجت يديها على غطاء السرير ؛ وكانت تبدو مذعورة ومتحررة . وكان ماتيو يحس ايضاً انه متحرر : كانت جميع الاوراق على الطاولة ، وكان لا بد من المضي حتى النهاية . وكان امامها الليل كله من اجل هذا . وقال ماتيو :

— نعم لقد رأيته . كيف عرفت هذا ؟ انك انتِ التي ارسلته إذن ؟ لقد رتّبتما كل شيء ، معاً ، أليس كذلك ؟

قالت مارسيل : — لا تتكلم بهذا الصوت المرتفع . انك توشك ان توقظ امي . لم اكن انا الذي ارسلته ، ولكني كنت اعلم انه كان يريد ان يراك .

قال ماتيو بحزن : — ان هذا شيء قبيح .

فقالت مارسيل بمرارة : — اجل ، شيء قبيح .
وصمتا . كان دانيال موجوداً ، وكان قد قبع بينهما. وقال ماتيو :
— حسناً ، ينبغي ان نتصارح تماماً ، فلم يبق لنا شيء نعمله غير هذا .
قالت مارسيل : — ليس هناك ما نتصارح بشأنه . لقد رأيت دانيال . فقال لك ما كان يريد ان يقول ، وحين تركته ذهبت فسرقت خمسة آلاف فرنك من لولا .
— نعم ، وانت منذ اشهر تستقبلين دانيال خفية . ترين اذن ان هناك أشياء ينبغي تفسيرها (وسألها فجأة) اسمعي : ماذا حدث امس الاول ؟
— امس الاول ؟
— لا تتصنّعي عدم الفهم . لقد قال لي دانيال انك تأخذين عليّ موقف امس الاول .
قالت : — اوه ! دَعْك من هذا ولا تشغل به رأسك .
فقال ماتيو : — ارجوك يا مارسيل ، لا تنغلقي . اقسم لك ان نيّتي حسنة ، واني اعترف بجميع اخطائي . ولكن اخبريني ماذا حدث امس الاول . ان الامور ستسير خيراً مما هي اذا استطعنا ان نسترد بعض الثقة احدنا بالآخر .
وكانت تتردد وقد افرخ روعها قليلاً . وقال لها وهو يأخذ بيدها :
— ارجوك ...
— حسناً ... كان ذلك كالمرات السابقة : انك تهزأ بما قد يكون في رأسي من افكار .
— وماذا كان في رأسك ؟
— لماذا تريد ان تُنطقني به ؟ انك تعرفه جيداً .

قال ماتيو : — صحيح ، اعتقد اني اعرفه .
وفكر : « انتهى الامر ، سأتزوجها . » وكان هذا هو البديهة بعينها . « لا بد ان اكون قذراً جداً لأتخيل ان بوسعي ان اقطع وحدي بالأمر . » كانت موجودة هنا ، وكانت تتألم ، وكانت شقية وخبيثة ، ولم يكن عليه الا ان يفعل حركة واحدة حتى يرد لها هدوءها . وقال :
— تريدين ان نتزوج ، أليس كذلك ؟
فنزعت منه يدها ونهضت بوثبة واحدة . فنظر اليها مذعوراً : كانت قد اصبحت شاحبة ، وكانت شفتاها ترتجفان :
— انك ... ايكون دانيال هو الذي قال لك ذلك ؟
قال ماتيو مشدوهاً : — كلا ، ولكن هذا ما فهمته .
فقالت وهي تضحك : — هذا ما فهمته ! لقد قال دانيال اني كنت منزعجة ، ففهمت انت انني اطلب الزواج . هذا ما تظنه بي ، انت ماتيو ، بعد سبع سنوات .
وأخذت يداها ايضاً ترتجفان. واستولت على ماتيو الرغبة بأن يأخذها بين ذراعيه ، ولكنه لم يجرؤ ، وقال :
— انت على حق ، فانه لم يكن لي ان افكر هذا التفكير .
ولم يكن يبدو عليها انها تسمع . وألح قائلاً :
— إسمعي : لقد كانت لي اعذاري : لقد اخبرني دانيال بأنه كان يراك من غير ان تُعلميني ذلك .
وظلت على صمتها ، فقال على مهل :
— انما هو الطفل الذي تريدين ؟
قالت مارسيل : — ها ! ان هذا لا يعنيك . ان ما اريده لم يعد يعنيك .
فقال ماتيو : — ارجوك . ان الاوان لم يفت بعد ...

فهزت رأسها : – هذا غير صحيح . لقد فات الاوان .

– ولكن لماذا ، يا مارسيل ؟ لماذا لا تريدين ان تتحدثي معي بهدوء ؟ تكفينا ساعة ، فيُسوّى كل شيء ، ويتضح كل شيء ...

– لا اريد .

– ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

– لأنني لم اعد اقدرك بما فيه الكفاية . ثم لأنك لم تعد تحبني .

وكانت قد تكلمت بلهجة تأكيد ، ولكنها كانت مذعورة بما قالته ؛ ولم يكن في عينيها بعد الا استفهام قلق . واستطردت بحزن :

– لكي تفكر بي كما فكرت ، فلا بد انك قد كففت عن حبي ...

وكان هذ شبه سؤال . فلئن اخذها بين ذراعيه ، ولئن قال لها إنه كان يحبها لأنقذ بعدُ كل شيء . سوف يتزوجها ويرزقان الولد ، وسيعيشان جنباً الى جنب طوال الحياة . وكان قد نهض ؛ وكان يوشك ان يقول لها : « احبك » وترنّح قليلاً وقال بصوت واضح :

– هذا صحيح ... انني لم اعد احبك .

وكان قد نطق بالعبارة منذ وقت طويل ، منذ ان بدأ يستمع اليها ، في ذعر . وفكر : « انتهى الامر . انتهى كل شيء . » وكانت مارسيل قد ارتدت الى خلف وهي تطلق صيحة انتصار ، ولكنها سرعان ما وضعت يدها على فمها وأومأت له ان يصمت وتمتمت بلهجة قلقة :

– امي .

فأرهفا اذنيهما ؛ ولكنهما لم يسمعا الا صوت السيارات الجارية في البعيد . قال ماتيو :

– مارسيل . اني ما زلت متعلقاً بك بكل قواي .

فأطلقت مارسيل ضحكة متعجرفة :

– طبعاً ... انك متعلق فقط ! أهذا ما تود ان تقوله لي ؟

وأخذ يدها وقال لها :

– اسمعي ...

فحرّرت يدها في انتفاضة جافة وقالت :

– كفى ، كفى . لقد عرفت ما كنت اودّ ان اعرفه .

ورفعت بعض خصلات مبللة بالعرق كانت متدلية على جبينها ، وابتسمت فجاة ، كأنها تذكرت امراً وأضافت في اشراقة فرح حاقد :

– ولكن اخبرني ، انك لم تقل لي هذا امس ، على التلفون . لقد قلت لي بقوة : « احبك » ولم يكن احد يطلب منك ان تقول ذلك .

فلم يجب ماتيو . وقالت بلهجة ساحقة :

– لا بد انك تحتقرني ...

قال ماتيو : – انني لا احتقرك .. انما ...

قالت مارسيل : – اذهب عني .

فقال ماتيو : – انك مجنونة . لا اريد ان اذهب ، ويجب ان أشرح لك انني ...

فرددت بصوت اصمّ ، وهي مسبلة الجفنين :

– اذهب عني .

فصاح يائساً : – ولكني احتفظت لك بكل حناني ، وانا لا افكر في ان اهجرك . اريد ان ابقى بالقرب منك طوال حياتي ، وسأتزوجك و ...

قالت : – اذهب عني ، اذهب ، ولا اريد ان اراك بعد . اذهب والا فلست مسؤولة عما قد اصنع ، سوف آخذ في الصراخ ...

وراحت ترتجف بكل جسمها . واقترب ماتيو خطوة منها ، ولكنها دفعته بعنف :

— ان لم تذهب ناديت امي .

وفتح الخزانة فتناول حذاءه ، وكان يشعر انه مضحك وكريه وقالت من ورائه :

— إستعدْ مالك .

فالتفت ماتيو وقال : — كلا . ان هذا على حدة . ليس هذا سبباً لأن ...

فتناولت الاوراق المالية من على الطاولة وقذفتها في وجهه ، فتطايرت عبر الغرفة وسقطت على رجل السرير ، بالقرب من حقيبة الادوية . ولم يلمسّها ماتيو ؛ وكان ينظر الى مارسيل . وكانت قد أخذت تضحك ، في ارتعاش ، مغمضة العينين . وكانت تقول :

— ها ! ما اعجب هذا ! انا التي كنت اظن ...

واراد ان يقترب ولكنها فتحت عينيها وارتدت الى خلف وهي تومىء الى الباب . وفكر : « اذا بقيت صاحت » واستدار على عقبيه وخرج من الغرفة وحذاؤه في يده . وحين بلغ اسفل الدرج وضع حذاءه وتوقف لحظة ، ويده على مقبض الباب ، مرهفاً سمعه . وسمع فجأة ضحكة مارسيل ، ضحكة منخفضة كالحة كانت ترتفع صاهلة وتنخفض متقطعة . وصاح صوت :

— مارسيل ! ما بك ؟ مارسيل ؟

وكانت هي الام . وتوقفت الضحكة وسقط كل شيء في الصمت من جديد . وأصغى ماتيو لحظة اخرى ، حتى اذا لم يسمع بعد شيئاً، فتح الباب على مهل وخرج .

١٨

كان يفكر : « إنني دنيء » وكان هذا يدهشه كثيراً . ولم يكن فيه بعد الا التعب والخبل . وتوقف عند سطيحة الطابق الثاني ليلهث . وكانت ساقاه رخوتين ؛ لقد نام ست ساعات في ثلاثة ايام ، بل ربما اقل من ذلك : « انني ذاهب لأنام . » سوف يلقي ملابسه بلا نظام ، وسيترنّح حتى يبلغ سريره فيسقط عليه . ولكنه كان يعلم انه سيظل مستيقظاً طوال الليل ، وعيناه مفتوحتان على سعتهما في الظلام . وصعد : كان باب المنزل قد بقي مفتوحاً ؛ لا بد ان ايفيش قد هربت تائهة . وكان القنديل في المكتب ما يزال يشتعل .

ودخل فرأى ايفيش . كانت جالسة على الديوان ، متصلبة جامدة . وقالت :

— انني لم اذهب .

فقال ماتيو بجفاء : — ارى ذلك .

وظلا لحظة صامتين ؛ وكان ماتيو يسمع صوت لهاثه القوي المنتظم. وقالت ايفيش وهي تدير رأسها :

— لقد كنت لئيمة .

فلم يجب ماتيو . كان ينظر الى شعر ايفيش وكان يفكر : « أتراني فعلت هذا من اجلها ؟ » وكانت قد خفضت رأسها ،

فتأمل رقبتها السمراء العذبة في حنان بالغ : كان بوده ان يشعر انــه كان متعلقاً بها اكثر من اي شيء في العالم ، ليكون لعمله على الاقل هذا التبرير . ولــكنه لم يشعر بشيء ، الا بغضب لا موضوع له ، وقد كان العمل خلفه عارياً ، منزلقاً ، غير مفهوم : لقد سرق ، وترك مارسيل حاملاً ، من اجل لا شيء .

وجهدت ايفيش لتقول في تودد :

– كان يجب عليّ ان اتدخل لإعطاء رأيي ...

فهز ماتيو كتفيه وقال :

– لقد قطعت صلتي بمارسيل .

فرفعت ايفيش رأسها .

وقالت بصوت مبتذل :

– وهل تركتها .. بلا مال ؟

فابتسم ماتيو وفكر : « طبعاً ، لو فعلت ذلك ، لوجدت مأخذاً عليّ الآن . »

– كلا ، لقد تدبرت الامر .

– وهل وجدت مالاً ؟

– نعم .

– اين ؟

فلم يجب . ونظرت اليه في قلق :

– ولكنك لم ...

– بلى . لقد سرقته ، ان كان هذا ما تقصدينه . سرقته من لولا. لقد صعدت الى غرفتها حين كانت غائبة عنها .

وطرفت ايفيش بعينيها وأضاف ماتيو :

– سأعيده لها طبعاً . انه قرض قسري . هذا كل ما في الامر .

وكانت البلادة تبدو على ايفيش ، فرددت على مهل ، كما فعلت

مارسيل منذ حين :
— لقد سرقت لولا .
فانزعج ماتيو لمظهرها المندهش ، وقال في حيوية :
— نعم ، ان هذا ليس عملاً مجيداً لو تعلمين كان هناك سُلّم يُرقى ، وباب يفتح .
— ولماذا فعلت ذلك ؟
فضحك ماتيو ضحكة موجزة :
— ليتني أعرف !
فنهضت فجأة وقد أصبح وجهها قاسياً متوحشاً كما كان يبدو اذ تلتفت في الشارع لتتابع بنظرها امرأة جميلة او فتى ناضراً . ولكنها كانت تنظر هذه المرة الى ماتيو . وشعر ماتيو انه كان يحمرّ ، فقال في تردّد :
— لم اكن اريد ان أتخلى عنها . وانما كنت اريد فقط ان أعطيها المال حتى لا اكون مجبراً على الزواج بها .
قالت ايفيش : — نعم ، فهمت .
ولم يكن يبدو عليها قط انها فهمت ؛ كانت تنظر اليه . وألحّ وهو يلفت رأسه :
— ولكن ما وقع قبيح : انها هي التي طردتني . لقد تلقّت ذلك باستياء كبير ، ولا ادري ماذا كانت تنتظر .
ولم تجب ايفيش ، فصمت ماتيو على ضيق . وكان يفكر : « لا أريد ان تكافئني »
قالت ايفيش : — انك جميل .
وأحسّ ماتيو في إرهاق ان حبّه الحادّ يولد فيه من جديد . وكان يخيّل اليه انه كان يترك مارسيل للمرة الثانية . ولم يقل شيئاً ، وجلس بالقرب من ايفيش ، وتناول يدها . وقالت له :

– فظيع كم تبدو عليك الوحدة .

وكان خجلاً . وانتهى الى القول :

– انني اتساءل عما عساك تظنين يا ايفيش ؟ ان هـذا كله مثير للشفقة . لقد سرقت ، لو تعلمين ، بدافع الذعر ، وهأنذا الآن اشعر بالندم .

قالت ايفيش وهي تبتسم :

– ارى جيداً انك تشعر بالندم . واظن انني كنت اشعر بمثله لو كنت في مكانك : ان المرء لا يستطيع الا ان يشعر بذلك ، في اليوم الاول .

وكان ماتيو يشد بقوة على اليد الصغيرة الحرون ذات الأظافـر المقرنة . وقال :

– انك على خطأ ، فلست ...

قالت ايفيش : – اسكت .

وسحبت يدها بحركة مفاجئة ، وردت شعرهـا كله الى خلف ؛ كاشفة خديها وأذنيها . وكان يكفيها بضع حركات سريعة ، وحين خفضت يديها ، كان شعرها متماسكاً ، ووجهها عارياً . وقالت :

– هكذا .

وفكر ماتيو : « انها تريد ان تنزع مني حتى ندمي . » ومـد ذراعه ، فجذب اليه ايفيش ، واستسلمت ؛ وكان يسمع في داخله لحناً صغيراً جذلاً كان يحسب انه أضاع منه حتى ذكراه . واهتز رأس ايفيش قليلاً على كتفه ، وكانت تبتسم له ، مفترة الشفتين . وبادلها بسمتها ، ثم قبلها قبلة خفيفة ، ثم نظر اليهـا فتوقف اللحن الصغير فجأة ، وقال في نفسه : « ولكنها ليست الا طفلة » . وكان يحس انه وحيد وحدة مطلقة . وقال بعذوبة :

– ايفيش !

فنظرت اليه في دهشة .
– ايفيش ... لقد اخطأتُ .
وكانت قد قطبت حاجبيها ، وكانت انتفاضات صغيرة تهزّ رأسها
وترك ماتيو ذراعيه تسقطان ، وقال في تعب :
– انني لا اعرف ما الذي اريده منك .
فانتفضت ايفيش وتخلصت بسرعة . وكانت عيناها ترسلان الشرر
ولكنها سترتهما واتخذت هيئة حزينة عذبة . وبقيت يداهـــا وحدهما
غاضبتين : كانتا تتطايران حولها وتحطّان على رأسها وتشدّان شعرها .
وكان ماتيو يُحسّ بالجفاف في حلقه ، ولكنه كان ينظر الى هـــذا
الغضب بلا اكتراث . كان يفكر : « لقد أفسدتُ هذا ايضاً . »
وكان مسروراً تقريباً : لقد كان ذلك بمثابة تفكير . واستطرد يقول وهو
يبحث عن النظر الذي كان يصرّ على الافلات منه :
– يجب ألاّ ألمسك .
فقالت محمرّة من الغضب :
– اوه ، ليس لهذا اهمية .
ثم اضافت بلهجة مغنيّة :
– كان يبدو عليك انك فخور جداً لكونك اتخذت قراراً ، وقد
ظننت انك كنت قادماً لتبحث عن مكافأة .
وعاد يجلس بالقرب منها واخذ على مهل ذراعها ، ما فوق المرفق
قليلاً ، ولم تتخلص منه .
– ولكني احبك يا ايفيش .
فتصلبت ايفيش ، وقالت له :
– اودّ ان تظنّ ...
– ان اظنّ ماذا ؟
ولكنه كان يحزر ما تفكر به . وترك ذراعيها . وقالت ايفيش :

– انني ... انني لا اكنّ حبّاً لك .

فلم يجب ماتيو . وكان يفكر : « انها تأخذ بثأرها، هذا مألوف . » والواقع ان ذلك كان على الارجح صحيحاً : فلماذا تراها كانت تحبه ؟ انه لم يكن يتمنى شيئاً بعد ، الاّ ان يبقى فترة طويلة صامتاً بالقرب منها ، وان تذهب في آخر الامر من غير ان تتكلم . ومع ذلك فقد قال :

– هل تعودين العام القادم ؟

قالت : – سأعود .

وكانت تبتسم له بسمة تكاد تكون رقيقة ، وكانت لا بدّ تقدّر ان كرامته قد حُفظت . وكان هذا هو الوجه نفسه الذي أدارته نحوه مساء أمس ، فيما كانت سيدة المغاسل تضمد يدها . ونظر اليهـا في غير وثوق ، وكان يشعر ان رغبته تولد من جديد ، تلك الرغبة الحزينة المتطامنة التي لم تكن رغبةً في شيء . واخذ ذراعها ، واحسّ تحت اصابعه بتلك البشرة النضرة . وقال :

– انني ...

وصمت . كان ثمة من يدق الباب : دقة اولاً ، ثم دقتين ، ثم جرساً غير منقطع . وأحسّ ماتيو بأنه مثلج ، وفكر : « مارسيل ! » وكانت ايفيش قد امتقعت ، لقد جاءت الفكرة نفسها بكل تأكيد . وتبادلا النظر . وهمست :

– يجب ان تفتح .

قال ماتيو : – اعتقد ان نعم .

ولم يتحرك . وكان الدق على الباب قد اصبح عنيفاً . وقالت ايفيش وهي ترتجف :

– فظيع ان يفكر المرء ان وراء هذا الباب احداً .

قال ماتيو : – نعم .. هل تريدين .. هل تريدين ان تدلفي الى

المطبخ ؟ سوف اغلق بابه فلا يراك احد .

فنظرت اليه ايفيش نظرة تسلّط هادىء :

– كلا . سوف ابقى .

وذهب ماتيو ليفتح فرأى في الظلّ رأساً كبيراً منقبضاً يشبه القناع : كانت لولا . ودفعته لتدخل بسرعة وسألته :

– اين بوريس ؟ لقد سمعت صوته .

ولم يكن لماتيو الوقت حتى لإغلاق الباب فدخل الى المكتب على عقبيه . وكانت لولا قد تقدمت نحو ايفيش بلهجة تهديد :

– اخبريني اين بوريس !

فنظرت اليها ايفيش نظرة مذعورة . ومع ذلك فلم يكن يبدو على لولا انها تتجه اليها – او الى اي شخص آخر – بل لم يكن مؤكداً انها رأتها . ووقف ماتيو بينهما :

– انه ليس هنا .

فأدارت لولا نحوه وجهها المتحلّل . كانت قد بكت .

– لقد سمعت صوته .

قال ماتيو وهو يحاول ان يمسك نظرها :

– ان في المنزل ، الى جانب هذا المكتب ، مطبخاً وحماماً . فبوسعك ان تبحثي في كل مكان ان كان ذلك يروقك .

– اين هو اذن ؟

وكانت مرتدية ثوبها الحريري الاسود ومحتفظة بماكياجها المسرحي . كان يبدو على عينيها انهما متخثّرتان . وقال ماتيو :

– لقد ترك ايفيش حوالى الساعة الثالثة . ولا ندري ماذا فعل بعد ذلك .

واخذت لولا تضحك كامرأة عمياء . وكانت يداها تتشنجان على محفظة مخملية صغيرة سوداء كان يبدو انها تحتوي شيئاً واحداً ، قاسياً

وثقيلاً . ورأى ماتيو المحفظة فأخذه الخوف ، وكان لا بدّ من ان يصرف ايفيش على التو .

وقالت لولا : — حسناً ، اذا كنتما لا تعرفان ماذا صنع ، فبوسعي ان اخبركما . لقد صعد الى غرفتي حوالي السابعة اذ كنت قد خرجت، ففتح بابي ونزع قفل صندوق وسرق مني خمسة آلاف فرنك .

ولم يجرؤ ماتيو على ان ينظر الى ايفيش ، وقال لها على مهل ،وهو مطرق الى الارض :

— ايفيش ، من الخير ان تذهبي ؛ يجب ان اتحدث الى لولا . هل ... هل استطيع ان اراك مرة اخرى هذه الليلة ؟

وكانت ايفش ممتقعة فقالت :

— اوه ، كلا اريد ان اعود الى بيت الطالبات ، فان عليّ ان احزم حقائبي ، ثم انني اريد أن أنام . انني شديدة الرغبة في النوم .

وسألت لولا :

— هل هي مسافرة ؟

قال ماتيو : — نعم . صباح الغد .

— وهل يسافر بوريس ايضاً ؟

— كلا .

واخذ ماتيو يد ايفيش :

— إذهبي فنامي يا ايفيش . لقد قضيت يوماً شاقاً الا تزالين مصرّة على الاّ اصحبك الى المحطة ؟

— نعم . افضّل ان لا .

— اذن ، الى السنة القادمة .

وكان ينظر اليها ، وهو يرجو ان يجد في عينيها بريق حنان ، ولكنه لم يستطع ان يقرأ فيهما الا الذعر . وقالت :

— الى السنة القادمة .

وقال ماتيو بحزن : — سأكتب لك يا ايفيش .
— نعم . نعم .
وكانت تهمّ بالخروج ، فسدّت لولا عليها الطريق :
— عفواً ! الذي يثبت لي انها ليست ذاهبة لتلتقي ببوريس ؟
قال ماتيو : — وبعد ؟ أتصور انها حرة .
قالت لولا وهي تقبض بيدها اليسرى على معصم ايفيش :
— إبقي هنا .
فأطلقت ايفيش صرخة ألم وغضب وصاحت :
— دعيني ، لا تمسّيني ، لا اريد ان يمسّني احد .
ودفع ماتيو لولا بقوة فتراجعت بضع خطى وهي تزمجر . وكان ينظر الى محفظتها . وتمتمت ايفيش بين اسنانها :
— يا للمرأة القذرة !
وكانت تجسّ معصمها بابهمها وسبابتها . وقال ماتيو من غير ان ينزع نظره عن المحفظة :
— لولا ، دعيها تذهب . ان لدي اشياء كثيرة اقولها لك ، ولكن دعيها اولاً تذهب .
— وهل تقولين لي اين بوريس ؟
قال ماتيو : — لا ، ولكني سأشرح لك حكاية هذه السرقة .
قالت لولا : حسناً . اذهبي اذن . واذا رأيت بوريس قولي له اني قدمت شكوى .
قال ماتيو : — سوف تُسحب الشكوى .
وظل ينظر الى المحفظة ، واضاف :
— وداعاً يا ايفيش .
فلم تجب ايفيش ، وسمع ماتيو في عزاء وقع قدميها الخفيف . ولم يرها تذهب ولكن الصوت انطفأ : فأحس بانقباض في قلبه . وخطته

لولا الى امام وصاحت :
– قولي له إنه اخطأ العنوان . قولي له انه ما يزال أصغر من ان يتغلب عليّ .
والتفتت الى ماتيو : هذه النظرة المزعجة نفسها التي لم يكن يبدو عليها انها ترى . وسألته في قسوة :
– وإذن ، تفضل فاحكِ قصتك .
قال ماتيو : – اسمعي يا لولا .
ولكن لولا كانت قد عادت الى الضحك ، وقالت :
– انني لم اولد أمس . اوه ! كلا ! لقد قالوا لي كثيراً انني اكاد اكون بعمر أمه .
وتقدم ماتيو منها : – لولا !
– لقد قال لنفسه : « ان العجوز تخبئني في جلدهـــا ؛ وستكون سعيدة جداً بان تجمع ثروتها من جديد ، وسوف تشكرني على ذلك .» إنه لا يعرفني ! إنه لا يعرفني !
وامسكها ماتيو من ذراعيها وهزّها كأنها شجرة خوخ ، فيما كانت تصيح وهي تضحك :
– إنه لا يعرفني !
وقال بخشونة : – هل تراك ستصمتين ؟
فهدأتْ لولا ؛ وبدت وكأنها تراه للمرة الاولى :
– تفضل .
قال ماتيو : – أصحيح انك رفعت عليه شكوى ؟
– نعم . ما الذي تودّ ان تقوله لي ؟
قال – انا الذي سرقتك .
وكانت لولا تنظر اليه بلا اكتراث ، فكان عليه ان يردّد :
– انا الذي سرقت الخمسة الآف فرنك .
قالت – آه ! انت ؟

وهزت كتفيها .
— لقد رأته صاحبة الفندق .
— كيف تكون قد رأته ، مادمت اقول لك اني انا الذي سرقت .
قالت لولا منزعجة :
— لقد رأته . فقد صعد حوالي الساعة السابعة وهو يتخفّى ، وتركته يفعل لأني كنت قد امرتها بذلك . ولقد انتظرته طوال النهار، وكان قد انقضى على خروجي عشر دقائق . كان لا بدّ يترصدني عند زاوية الشارع ، فما ان رآني أذهب حتى صعد .
وكانت تتكلم بصوت قاتم سريع كان يبدو انه يعبرّ عن اعتقاد لا يتزعزع ، وفكر ماتيو بخيبة: « لكأنها بحاجة الى ان تؤمن بذلك.» وقال :
— اسمعي : في اية ساعة عدت الى الفندق ؟
— المرة الاولى ؟ الساعة الثانية .
— حسناً ! كانت الاوراق المالية آنذاك لا تزال في الصندوق .
— اقول لك ان بوريس قد صعد عند الساعة السابعة .
— من الممكن ان يكون قد صعد ، وربما كان آتياً لرؤيتك . ولكنك لم تنظري في الصندوق ؟
— بلى .
— هل نظرت فيه عند الساعة الثامنة ؟
— نعم .
قال ماتيو : — انك غير صادقة يا لولا . انا واثق من انك لم تنظري فيه . فعند الساعة الثامنة كان المفتاح معي ، وما كان بامكانك ان تفتحيه . ولئن اكتشفت السرقة عند الساعة الثامنة ، فكيف تريدين ان اصدّق انك انتظرت منتصف الليل حتى تقصدي منزلي ؟ عند الساعة الثامنة تزيّنت بهدوء ، وارتديت ثوبك الجميل الاسود وذهبت الى « سومطرا » . اليس هذا صحيحاً ؟
فنظرت اليه لولا نظرة مغلقة :

– لقد رأته صاحبة الفندق يصعد .

– نعم ، ولكنك انت لم تنظري في الصندق . وكان المال ما يزال فيه عند الساعة الثامنة . وقد صعدت عند الساعة العاشرة واخذته. وكان في المكتب عجوز رأتني ؛ وبوسعها ان تشهد . اما انت فقد اكتشفت السرقة عند منتصف الليل .

قالت لولا في تعب :

– نعم . عند منتصف الليل . ولكن الامر سواء . لقد اصبت بضيق في « سومطرا » فعدت الى الفندق . وتمدّدت ثم ادنيت الصندوق مني . كان هناك .. كان هناك رسائل كنت اودّ ان أعيد قراءتها .

وفكر ماتيو : « صحيح : الرسائل . لماذا تريد ان تخفي أمر سرقتها ؟ » وكان كلاهما صامتاً ؛ وبين الفينة والفينة ، كانت لولا تنوس من الوراء الا الامام ، كمن ينام واقفاً . وبدت أخيراً وكأنها تستيقظ :

– أنت ، انت الذي سرقتني ؟

– انا .

وضحكت مقتضبة ؟

– احتفظ بتدجيلاتك للقضاة اذا كان يروق لك ان تقضي ستة أشهر في السجن بدلاً منه .

– تماماً يا لولا : فما يُجديني أن أعرّض نفسي للسجن بدلاً من بوريس ؟

فلوت فمها :

– هل أدري ما الذي تفعله معه ؟

– إن هذا سخيف ! إسمعي : أقسم لك اني انا الذي سرقت : كان الصندوق امام النافذة ، تحت حقيبة . وقد أخذت المال وتركت

القفل في المفتاح .
وكانت شفتا لولا ترتجفان ، وكانت تدعك محفظتها في عصبية :
ــ أهذا كل ما تريد ان تقوله لي ؟ إذن دعني أذهب .
وارادت ان تمرّ ، فأوقفها ماتيو :
ــ لولا ، انك لا تريدين ان تدعي نفسك تقتنعين .
فدفعته لولا بضربة من كتفها .
ــ الا ترى إذن في أية حالة أنا ؟ من تظنني بحكاية صندوقك هذه ؟ (واضافت وهي تقلد صوت ماتيو) لقد كان الصندوق تحت حقيبة امام النافذة . لقد جاء بوريس الى هنا ، وانت تحسب اني لا اعرف ذلك ؟ لقد اتفقتما معاً على ما ينبغي ان يُقال للعجوز . (وقالت بصوت مريع) دعني إذن أذهب ، دعني أذهب !
واراد ماتيو ان يأخذها من كتفيها ، ولكن لولا ارتمت الى خلف وحاولت ان تفتح محفظتها ، فانتزعها منها ماتيو وألقى بها الى الديوان. وقالت لولا :
ــ يا لك من وحش
فقال ماتيو وهو يبتسم :
ــ أهو كبريتات ام مسدس ؟
فأخذت لولا ترتجف بكل اعضائها . وفكر ماتيو : « هكذا : انها نوبة الأعصاب » وكان يشعر بأنه يحلم حلماً مشؤوماً غريباً . ولكن كان ينبغي إقناعها . وكفّت لولا عن الارتجاف . كانت قد انزوت بالقرب من النافذة وهي ترقبه بعينين تلتمعان بحقد عاجز . وأدار ماتيو رأسه : إنه لم يكن يخاف حقدها ، ولكن كان على ذلك الوجه قحطٌ بائسٌ لا يُحتمل .
وقال بتمهل : ــ « لقد صعدت الى غرفتك هذا الصباح ، فأخذت المفتاح من حقيبتك . وحين استيقظت ، كنت على وشك ان

أفتح الصندوق . ولم يتح لي الوقت ان اعيد المفتاح الى مكانه ، وهذا ما جعلني افكر بالعودة الى غرفتك هذا الصباح .

قالت لولا : — عبث ما تقول . فقد رأيتك تدخل هذا الصباح . وحين حدّثتك لم تكن قد وصلت حتى الى سريري .

— كنت قد دخلت مرة اولى وعدت .

وقهقهت لولا فأضاف على مضض :

— بسبب الرسائل .

فلم يكن يبدو عليها انها تسمع : كان لا فائدة إطلاقاً من ان يحدثها عن الرسائل ، انها لم تكن تفكر الا بالمال ، وكانت بحاجة الى التفكير به لتُلهب غضبها ، وهو ملاذها الوحيد . وانتهت الى القول في ضحكة صغيرة جافة .

المصيبة انه طلب مني الخمسة آلاف فرنك مساء أمس ، أتفهم ؟ ومن أجل هذا بالذات تخاصمنا .

فأحسّ ماتيو بعجزه : كان الأمر بديهياً ، فان المذنب لا يمكن ان يكون الا بوريس . وقال في إرهاق : « كان عليّ ان افكر بهذا . » وقالت لولا في بسمة خبيثة :

— لا تجهد نفسك إذن . سوف أقبض عليه ، واذا نجحت في ان تضلّل القاضي ، فأحصل عليه بطريقة اخرى . هذا كل ما في الأمر .

ونظر ماتيو الى المحفظة على الديوان ونظرت اليها لولا كذلك . وقال :

— لقد طلبت منك المال لأجلي أنا .

— نعم . ومن أجلك ايضاً سرق كتاباً من احدى المكتبات بعد الظهر ؟ لقد افتخر بهذا بينما كان يرقص معي .

وتوقفت فجأة ثم أردفت بهدوء مهدّد :

– حسناً ! انت الذي سرقتني اذن ؟
– نعم .
– إذن ، أعِدْ لي المال
فظل ماتيو مشدوهاً . واضافت لولا بلهجة انتصار ساخرة :
– أعِدْه لي فوراً فأسحب شكواي .
فلم يجب ماتيو . وقالت لولا :
– كفى . لقد فهمت .
وأخذت محفظتها من جديد من غير ان يحاول منعها عن ذلك .
وقال في مشقة :
– لو كنت املكه في الحقيقة فماذا يثبت هذا ؟ ان بوسع بوريس ان يستودعني اياه ، في رأيك .
– انا لا اطلب منك هذا . اطلب منك ان تردّه لي .
– ليس المال معي بعد .
– ايّ خلط هذا ! لقد سرقتني عند الساعة العاشرة ، ولم يبق معك شيء عند منتصف الليل ؟ تهانيّ .
– لقد أعطيت المال :
– لمن ؟
– لن اقول لك ذلك .
وأضاف بحيوية :
– لم أعطه لبوريس .
فابتسمت من غير ان تجيب ، وتوجهت الى الباب فلم يوقفها .
وكان يفكر : : « ان دائرة الشرطة التي تتبع لها منطقتها تقع في شارع مارتير . وسوف أقصدها لأشرح القضية . » ولكنه حين رأى ظهر هذا الشبح الاسود الذي كان يسير في صلابة كارثة عمياء ، خاف وفكر في المحفظة ، وبذل جهداً أخيراً :

– استطيع في آخر المطاف ان اخبرك لمن اعطيت المال : اعطيته للآنسة دوفيه ، وهي صديقة لي .

وفتحت لولا الباب وخرجت . وسمعها تصرخ في الغرفة الخارجية فوثب قلبه . وبرزت لولا مرة اخرى ، وكانت تبدو عليها هيئة المجانين ، وقالت :

– هناك شخص .

وفكر ماتيو : « انه بوريس . »

وكان دانيال . ودخل في شموخ وانحنى امام لولا . وقال وهو يمد مغلفاً :

– هذه يا سيدتي هي الخمسة آلاف فرنك . تفضلي وتحقّقي من نها مالك .

وفكر ماتيو في وقت واحد « ان مارسيل هي التي ترُسله » و «لقد اصغى من وراء الباب » وكان دانيال يصغي من وراء الابواب ليتدبّر أمر دخوله . وسأله ماتيو :

– أتراها قد ....

فطمأنه دانيال بحركة وقال :

– كل شيء على ما يرام .

وكانت لولا تنظر الى المغلّف نظرة حذرة تشبه نظرة الفلاحين . وسألت :

– فيه خمسة آلاف فرنك ؟

– نعم .

– ما الذي يثبت لي انها اوراقي المالية ؟

فسألها دانيال : – ألم تسجّلي أرقامها ؟

– اتظن ذلك ؟

قال دانيال في لهجة عتاب :

– آه ، ينبغي يا سيدتي ان تسجلّي الأرقام دائماً .
وجاء ماتيو وحيٌ مفاجيء : لقد تذكّر رائحة عطر « قبرص » الكثيفة التي انبعثت من الصندوق فقال :
– شمّيها .
فترددت لولا لحظة ، ثم خطفت المغلّف ومزقتها وأدنت الاوراق المالية من أنفها . وخشي ماتيو ان ينفجر دانيال ضاحكاً ؛ ولكن دانيال كان رصيناً كأنه بابا ، كان ينظر الى لولا بعين متفهّمة ؛ وسألت :
– اذن ؟ لقد أجبرت بوريس على إعادتها ؟
قال دانيال : – لا اعرف احداً يُدعى بوريس . انها صديقة لماتيو اعطتني إياها لأردّها له . وقد اتيت ركضاً وسمعت نهاية حديثكما . واعتذر من ذلك يا سيدتي .
وظلت لولا جامدة : وذراعاها متدليتان على جنبيها ، تشد محفظتها بيدها اليسرى ، بينما كانت اليمنى متشنّجة على الاوراق المالية ؛ وكانت هيئتها قلقة مشدوهة . وسألت فجأة :
– ولكن لماذا فعلت ذلك انت ؟ ما هي خمسة آلاف فرنك ، بالنسبة اليك ؟
فابتسم ماتيو بلا مرح :
– يبدو انها شيء كثير .
ثم اضاف على مهل :
– يجب ان تفكري بسحب شكواك يا لولا . او اذا شئت قدّمي شكواك ضدّي أنا .
فأدارت لولا رأسها وقالت بسرعة :
– لم اقدّم شكوى بعد .
وظلت مزروعة وسط القاعة ، تائهة . وقالت :

— كانت هناك ايضاً رسائل .
— ليست هي معي بعد . لقد اخذتها هذا الصباح له . اذ كنّا نظنّك ميتة . وهذا ما اوحى لي بان اعود لآخذ المال .
فنظرت لولا الى ماتيو من غير حقد ، وبقدر كبير من الدهشة ونوعٍ من الاهتمام ، وقالت :
— لقد سرقت مني خمسة آلاف فرنك ! ان هذا ... هذا طريف!
ولكن سرعان ما انطفأت عيناها وقست ملامح وجهها ، وكان يبدو عليها انها تتألم . وقالت :
انني ذاهبة .
فتركاها تخرج في سكون . التفتت عند عتبة الباب :
— اذا لم يفعل شيئاً ، فلماذا لا يعود ؟
— لا ادري .
فندّت عن لولا شهقة قصيرة واعتمدت عارضة الباب . وخطا ماتيو خطوة نحوها ، ولكنها تمسكت :
— اتعتقد انه سيعود ؟
— أظنّ . انهما غير قادرين على ان يُسعدا الناس ، ولكنهما مع ذلك لا يستطيعان ان يتخلّيا عنهم ، فان ذلك أشقّ من ان يحملاه :
قالت لولا : — نعم . نعم . هيّا . وداعاً .
— وداعاً يا لولا . انك ... لا تحتاجين شيئاً ؟
— كلا .
وخرجت وسمعا الباب ينغلق . وسأل دانيال :
— من هي هذه السيدة العجوز ؟
— لولا ، صديقة بوريس سرغين . انها « مخلوعة » .
فقال دانيال : — يبدو عليها ذلك .
واحسّ ماتيو بانزعاج ان يبقى معه وحيداً ؛ فقد كان يخيّل اليه

انه قد وضع فجأة في حضور خطيئته . كانت هناك ، تجاهه ، حيّة ، كانت تعيش في اعماق عيني دانيال ، والله يعلم ايّ شكل اتخذته في هذا الوجدان المدلّل المزوّر . وكان يبدو على دانيال انه مستعد لاستغلال الموقف . فقد كان حفياً وقحاً سيء النفس كما كان يبدو في اردأ ايامه . وقسا ماتيو ورفع رأسه ، وكان دانيال بشعاً وقال دانيال في ابتسامة رديئة :

– انك تبدو كريماً .

فقال ماتيو : – كنت أهمّ بان اقول لك مثل ذلك . اننا نضران !

فهزّ دانيال كتفيه . وسأله ماتيو :

– هل انت قادم من لدن مارسيل ؟

– نعم .

وهي التي أعادت لك المال ؟

فقال دانيال متهرباً : – انها لم تكن بحاجة اليه .

– لم تكن بحاجة اليه ؟

– كلا .

– قل لي على الاقل ان كانت لديها الواسطة ...

قال دانيال : – ليست القضية هكذا بعد يا عزيزي . ان هذه قصة قديمة .

وكان قد رفع حاجبه الأيسر وهو يتأمل ماتيو في سخرية ، كما لو كان ذلك عبر نظارة خيالية . وفكر ماتيو : « اذا كان قصده ان يدهشني ، فهو يُحسِن صنعاً كذلك اذا منع يديه من الارتجاف . »

وقال دانيال بلا اكتراث :

– انني اتزوجها . وسنحتفظ بالولد .

واخذ ماتيو سيكارة فأشعلها . وكان مخّه يهتزّ كالجرس . وقال في هدوء :

– لقد كنت تحبّها إذن !

– ولِمَ لا ؟

وفكر ماتيو : « ان المقصودة هي مارسيل » مارسيل ! ولم يكن ينجح في ان يُقنع نفسه بذلك كل الاقناع . وقال :

– اسمع يا دانيال : انني لا اصدقك .

– انتظر قليلاً ، وسترى جيداً .

– كلا ، اقصد انك لن تجعلني اصدق انك تحبها ، وانا اتساءل عمّا وراء هذا كله .

وكان التعب يبدو على دانيال ، وكان قد جلس على حافة المكتب، واضعاً قدماً على الارض ، مؤرجحاً الاخرى غير في اكترث . وفكر ماتيو في غضب : « انه يتسلى »

وقال دانيال : – ستكون مندهشاً جداً اذا عرفت ماذا هناك .

وفكر ماتيو : « تفه ! لقد كانت خليلته ! » وقال في جفاء :

– اذا لم يكن عليك ان تقول لي ذلك ، فاسكت .

فنظر اليه دانيال لحظة كما لو كان يتسلى بأن يثير فضوله ، ثم نهض دفعة واحدة وأمرّ يده على جبينه وقال :

– ان الأمر يسوء .

وكان يتأمل ماتيو في اندهاش :

– لم أجيء لأحدثك في هذا . اسمع يا ماتيو ، انني ...

واغتصب ضحكة :

– ستعتبر نفسك رجلاً ذا أهمية إن قلت لك ذلك .

قال ماتيو : – حسناً . تكلم او لا تتكلم .

– إذن ، انني :

وتوقف ايضاً ، فأتمّ عنه ماتيو العبارة ، وقد نفد صبره :

– انك عشيق مارسيل ، هذا ما كنت تود ان تقوله .

فباعد ماتيو ما بين عينيه وارسل صفرةً خفيفة . واحسّ ماتيو ان وجهه يحمرّ . وقال دانيال بلهجة اعجاب :

ـ لقد وجدتّها ببراعة ! انك لا تطلب الا هذا ، اليس كذلك ؟ كلا يا عزيزي . إنك لا تملك حتّى هذا العذر .

فقال ماتيو ذليلاً : ـ وانت ايضاً ليس لك الا ان تتكلم .

قال دانيال : ـ انتظر . اليس لديك ما يُشرب ؟ ويسكي ؟

فقال ماتيو : ـ كلا . ولكن عندي « روم » ابيض .

(وأضاف) انها فكرة عظيمة : سوف نشرب قدحاً .

ومضى الى المطبخ ففتح الخزانة وفكر : « لقد كنت دنيئاً » وعاد بقدحين وزجاجة « روم » . فأخذ دانيال الزجاجة وملأ القدحين حتى أترعهما . وقال :

ـ انه من مصنع « الروم » المارتينيكي ؟

ـ نعم .

ـ الا تزال تقصده أحياناً ؟

قال ماتيو : ـ احياناً . نخبك !

فنظر اليه دانيال نظرة استقصاء ، كما لو ان ماتيو كان يخفي عنه شيئاً ما وقال وهو يرفع قدحه :

ـ نخب غرامياتي .

قال ماتيو مغتاظاً : ـ انك سكران .

فقال دانيال : ـ صحيح اني شربت قليلا . ولكن اطمئن . كنت صامتاً حين صعدت الى بيت مارسيل . وبعد ذلك ...

ـ وهل انت قادم من عندها ؟

ـ نعم . وقد توقفت قليلاً في « الفلاستاف »

ـ لا بدّ انك وجدتها ... فور ذهابي ؟

فقال دانيال مبتسماً : ـ كنت انتظر ان تخرج . وحين رأيتك

تنفتل في منعطف شارع صعدت .

فلم يتمالك ماتيو حركة انزعاج وقال :

– أكنت تترصدني ؟ اوه .. فليكن . وهكذا لم تبق مارسيل وحدها . حسناً ! ما الذي كنت تودّ ان تقوله لي ؟

قال دانيال في ودّ مفاجيء : – لا شيء على الاطلاق يا عزيزي. كنت اودّ ببساطة ان اعلن لك زواجي .

– أهذا كل شيء ؟

– هذا كل شيء ؛ نعم .. هذا كل شيء .

فقال ماتيو في برودة : – كما تشاء .

وصمتا لحظة ، ثم سأله ماتيو :

– كيف ... كيف حالها ؟

فسأله دانيال بسخرية : – اتريد ان اقول لك انها سعيدة وفرحة ؟ وفرّ عليّ تواضعي .

فقال ماتيو بجفاء : – ارجوك . صحيح . ليس لي اي حقّ في سؤالك .. ولكنك في الحقيقة قد جئت الى هنا ..

قال دانيال : – أجل ، كنت أظنّ أني سأجد مشقة اكبر لإقناعها : ولكنها ارتمت على اقتراحي كما يرتمي الفقر على العالم .

ورأى ماتيو مايشبه الحقد يلتمع في عينيه ، فسارع يقول لكي يعذر مارسيل :

– لقد كانت ضائعة ...

فهز دانيال كتفيه وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . ولم يكن ماتيو يجرؤ على النظر اليه : كان دانيال يتلذّذ بنفسه ، ويتكلم بعذوبة ، ولكنه كان يبدو وكأنه مأخوذ . وشبك ماتيو يديه وحدّد نظره في حذائه . وأضاف على مشقة ، كأنما يحدث نفسه :

– لقد كانت تريد الطفل إذن ؟ انني لم افهم هذا . ولو

قالته لي ...

وكان دانيال صامتاً ، فاستطرد ماتيو في جهد :

– كان الطفل . . سيولد . اني انا .. كنت اريد حذفه وأفرض انه من الأفضل ان يولد .

فلم يجب دانيال . وسأله ماتيو :

– انني لن أراه أبداً ، وبالطبع ؟

ولم يكن يبدو على عبارته انها استفهام . فأضاف من غير ان ينتظر الجواب

– واخيراً ، هذا هو الوضع . اعتقد انّ بوسعي ان اكون مسروراً. فانت تنقذها على نحو ما ... ولكني لا أفهم شيئاً في الأمر . لماذا فعلت ذلك ؟

فقال دانيال بجفاء : – طبعاً ليس ذلك بداعي محبة البشر ، ان كنت ترمي الى هذا . (واضاف) ان شرابك كريه .. ومع ذلك ، فأعطني قدحاً آخر .

فملأ ماتيو القدحين وشربا . وقال دانيال :

– وإذن ، ما الذي ستفعله الآن ؟

– لا شيء . لا شيء بعد .

– وتلك الصغيرة سرغين ؟

– كلا .

– بالرغم من انك تحرّرت الآن ؟

– الأمر لدي سواء !

– قال دانيال وهو ينهض :

– مساء الخير . لقد جئت اردّ لك المال واطمئنك قليلاً : انمارسيل لن تخشى شيئاً ، فهي تثق بي . لقد هزّتها هذه القصة كلها هزّاً عنيفاً ولكنها ليست شقية على كل حال .

فردّد ماتيو : — سوف تتزوجها ! (واضاف بصوت منخفض) انها تكرهني .
فقال دانيال بقسوة : — ضع نفسك موضعها !
— اعرف ذلك . لقد وضعت نفسي موضعها . هل حدثتك عني ؟
— قليلاً جداً .
قال ماتيو : — اتدري . ان لي رأياً في زواجكما .
— هل انت نادم ؟
— كلا . بل أجد ذلك مشؤوماً .
— شكراً .
— اوه ! بالنسبة لكل منكما . لا ادري لماذا !
— لا تقلق . سيسير كل شيء على ما يرام . فاذا رزقنا ذكراً أسميناه ماتيو .
فنهض ماتيو وهو يشدّ قبضته وقال :
— إخرس !
قال دانيال : — هيّا ، لا تغضب !
وردّد بلهجة شاردة : — لا تغضب ، لا تغضب .
ولم يعزم على الذهاب . فقال له ماتيو :
— بالاجمال ، لقد جئت ترى هيئتي بعد هذه القصة ؟
قال دانيال : — لا يخلو الأمر من هذا . بكل صراحة . لا يخلو الامر من هذا .. إنك تبدو دائماً ... شديد الصلابة : وكنت تضايقني بذلك .
قال ماتيو : حسناً ، وقد رأيتَ اني لست صلباً الى هذا الحد :
— نعم .
وخطا دانيال بضع خطوات الى الباب ، ثم عاد فجأة الى ماتيو : وكان قد فقد هيئته الساخرة ، ولكن ذلك لم يغيّر شيئاً من الوضع ،

وقال :

– انني يا ماتيو لوطيّ .

فقال ماتيو : – ماذا تقول ؟

وكان دانيال قد ارتدّ الى خلف وهو ينظر اليه بعينين مدهوشتين يتبعث منهما شرر الغضب .

– ان هذا يثير اشمئزازك ، اليس كذلك .

فردّد ماتيو بهدوء ؛ – انت اوطيّ ؟ كلا ، ان هذا لا يثير اشمئزازي ، ولماذا تراه يثير اشمئزازي ؟

قال دانيال : – ارجوك ، لا تظنّ انك مجبر على ان تظهر بمظهر المتحررين الواسعي التفكير ...

فلم يجب ماتيو . كان ينظر الى دانيال ويفكر : « انه لوطي » ولم يكن شديد الدهشة .

وتابع دانيال بصوت مصفرّ :

– اراك لا تقول شيئاً . انك على حق . ان ردّ فعلك مناسب تماماً ، وهو الذي يتميّز به كل رجل سليم ، ولكنك تحسن صنعاً كذلك بان تحتفظ به لنفسك .

وكان دانيال جامداً ، وذراعاه ملتصقتان بجسمه ، وكان يبدو عليه انه في ضيق . وتساءل ماتيو في قسوة : « ما الذي دهاه لكي يأتي فيعذب نفسه عندي ؟ » وكان يفكر بانه لا بد قد وجد شيئاً يقوله ، ولكنه كان غارقاً في لامبالاة عميقة شالّة . ثم ان ذلك كان يبدو له طبيعياً جداً وعادياً جداً : لقد كان دنيئاً ، وكان دانيال لوطياً ، وكان هذا في طبيعة الاشياء . وقال اخيراً :

– بوسعك ان تكون ما تريد . ان هذا لا يعنيني .

فقال دانيال وهو يبتسم في رفعة : – أتصور في الحقيقة ان هذا لا يعنيك . فحسبك ما تعانيه مع ضميرك بالذات .

– اذن لماذا تأتي فتروي لي هذا ؟

فقال دانيال وهو يتنحنح : – لقد اردت ان اعرف الاثر الذي يخلّفه ذلك على شخص مثلك ... ثم اني – الآن وهناك من يعرف – ربما توصلت الى تصديق ذلك ...

وكان اخضر اللون وهو يتكلم في صعوبة ، ولكنه كان مستمراً في الابتسام . ولم يستطع ماتيو ان يتحمل هذه البسمة فأدار رأسه . وقهقه دانيال .

– أيدهشك هذا ؟ ويزُعج افكارك عن اللوطيّين ؟

فرفع ماتيو رأسه بحيوية وقال :

– لا تتحذلق . انك متعب . ولست بحاجة لأن تتحذلق معي . ربما كنت تنفر من نفسك ، ولكن ليس اكثر مما انفر من نفسي ، فنحن متساويان . (وفكر قليلاً واضاف) والواقع انك من أجل هذا تروي لي حكاياتك . لا بد ان الاعتراف امام انسان ضعيف اقل مشقة ، والمرء مع ذلك يملك ميزة الاعتراف .

فقال دانيال بصوت مبتذل لم يكن ماتيو يعهده فيه :

– انك خبيث صغير .

وصمتا . وكان دانيال ينظر امامه باستقامة وفي نظر محدّد ، على طريقة العجز . واخترق ماتيو ندمٌ حادّ :

– اذا كان الامر كذلك ، فلماذا تتزوج مارسيل ؟

– ليس لهذا اية علاقة .

قال ماتيو : – اني ... اني لا استطيع ان أدعك تتزوجها .

فانتصب دانيال وانطبعت على وجهه ، وجه الغريق ، لطخات حمراء داكنة ، وسأل في عبوس :

– صحيح ، ألا تستطيع ؟ وكيف تفعل لتمنعني من ذلك ؟

فنهض ماتيو من غير ان يجيب . وكان التلفون على مكتبه ، فتناول

الساعة وركّب رقم مارسيل . فنظر اليه دانيال في سخرية . وساد صمت طويل . وقال صوت مارسيل :

ــ آلو ؟

فانتفض ماتيو وقال :

ــ الو ، انا ماتيو .. اسمعي .. لقد كنت ، لقد كنا أبلهين منذ ساعة . اودّ ... الو ! مارسيل ؟ هل تسمعيني ؟ (وقال غاضباً) مارسيل ؟ آلو !

ولم تكن تجيب ، ففقد صوابه وصاح في الجهاز :

ــ مارسيل ، اريد ان اتزوجك !

وبعد صمت قصير ، حدثت خربشة في آخر الخطّ ، ثم أُغلق التلفون . واحتفظ ماتيو لحظة بالساعة في يده ، ثم وضعها بهدوء على الطاولة . وكان دانيال ينظر اليه من غير ان يقول كلمة ، ولم يكن يبدو عليه مظهر المنتصر . وشرب ماتيو جرعة « روم » وعاد يجلس في الاريكة وقال :

ــ حسناً !

فابتسم دانيال ، وقال على سبيل التعزية :

ــ ليطمئن بالك : فان اللوطيين هم دائماً ازواج ممتازون ، وهذا معهود .

ــ دانيال ! ان كنت تتزوجها لتقوم ببادرة طيبة ، فانك ستفسد حياتها .

قال دانيال : ــ انت آخر من ينبغي ان يقول لي ذلك . ثم اني لا اتزوجها لأقوم ببادرة طيبة . ثم ان ما تريده قبل كل شيء انما هو الطفل .

ــ وهل ... هل تعرف ؟

ــ كلا !

– لماذا تتزوجها ؟

– بدافع صداقتي لها .

ولم تكن اللهجة مقنعة . وصبّ أحدهما للآخر فشربا ، وقال ماتيو في عناد :

– انني لا اريد ان تكون شقية .

– أقسم لك انها لن تكون شقية .

– وهل تؤمن بأنك تحبّها ؟

– لا اعتقد . لقد عرضت عليّ ان أعيش بجانبها ؛ ولكن ذلك لا يناسبني . انني سأدعوها للإقامة معي . وقد تفاهمنا على ان نترك العاطفة تأتي رويداً رويداً .

واضاف في سخرية شاقة :

– انني مصمّم على ان اقوم بواجباتي كزوج حتّى النهاية .

– ولكن هل ...

واحمرّ وجه ماتيو بعنف :

– هل تحب النساء ايضاً ؟

فنخر دانيال نخرة غريبة وقال :

– ليس كثيراً .

– فهمت .

وخفض ماتيو رأسه وامتلأت عيناه بدموع الخجل ، وقال :

– انني ازداد نفوراً من نفسي منذ عرفت انك ستتزوجها .

وشرب دانيال وقال بلهجة شاردة محايدة :

– نعم ، اعتقد انك تحسّ بأنك قذر بما فيه الكفاية .

فلم يجب ماتيو . وكان ينظر الى الارض بين قدميه : « انه لوطي ، وسوف تتزوجه . » وفتح يديه وصفق عقبه بالارض : كان يُحس انه مُطارَد . وثقل الصمت عليه فجأة فقال لنفسه : « ان دانيال ينظر

اليّ ، وسارع يرفع رأسه . وكان دانيال ينظر اليه حقاً ، وبهيئة حقد انقبض لها قلب ماتيو ، فسأله :

– لماذا تنظر إليّ هكذا ؟

قال دانيال : – انت تعلم ! هناك من يعلم !

– انك لن تحتقر ان تطلق النار عليّ ؟

فلم يجب دانيال . واحترق ماتيو فجأة بفكرة لا تُحتمل فقال :

– دانيال : انك تتزوّجها لتعذّب نفسك .

فقال دانيال بصوت ابيض :

– وبعدُ ؟ ان هذا لا يعني احداً سواي .

فوضع ماتيو رأسه بين يديه وقال : « يا إلهي ! »

واضاف دانيال بحيوية : – ان هذا لا اهمية له على الاطلاق بالنسبة اليها . لا اهمية له .

– هل تكرهها ؟

– كلا .

وفكر ماتيو في حزن : « كلا . انما يكرهني انا » .

واستعاد دانيال بسمته وسأله :

هل نُفرغ الزجاجة ؟

فقال ماتيو : – لنفرغها .

وشربا ، ولاحظ ماتيو انه راغب في التدخين ، فتناول سيجارة من جيبه واشعلها . وقال :

– لا يعنيني ما تكونه . حتى وبعد ان اخبرتني ذلك . ومع هذا، يبقى شيء اريد ان اسألك عنه : لماذا تشعر بالخجل ؟

فضحك دانيال ضحكة جافة :

– كنت انتظرك هنا يا عزيزي . اني خجل من كوني لوطياً لأني لوطي . انا اعرف ما سوف تقوله لي : « لو كنت مكانك ، لما

استسلمت لهذا ، بل طالبت بمكاني تحت الشمس ، ان هـذا ذوق كالاذواق الاخرى الـخ ، الخ ... » ولكن ذلك لا يؤثـر عليّ . انا اعرف انك ستقول لي هذا كله ، وذلك لأنك لست لوطياً . ان جميع اللوطيين يشعرون بالخجل ، وهذا في طبعهم .

فسأله ماتيو في حياء : — ولكن أليس الافضل ان يقبل المرء نفسه؟ فبدا على دانيال الانزعاج وأجاب في قسوة :

— ستحدثني عن ذلك مرة اخرى ، يوم تقبـل ان تكون دنيئاً . كلا . ان اللوطيين الذين يتباهون او يتظاهرون او حتى يقبلون بكـل بساطة ... انهم اموات . لقد قتلوا انفسهم لفرط ما شعروا بالخجل . وانا لا اريد هذا الموت .

ولكن كان يبدو وكأنه قد انفرج ، وكان ينظر الى ماتيو بلا حقد وأضاف في عذوبة :

— لقد قبلت نفسي اكثر مما ينبغي . انني اعرف نفسي في الزوايا .

ولم يكن ثمة ما يقال . واشعل ماتيو سيجارة اخرى . ثم انه كان باقياً بعض « الروم » في قعر قدحـه فشربه . وكان دانيـال يثير اشمئزازه . وفكر : « بعد عامين ، بعد اربعة ... أتراني سأصبح هكذا ؟ » وأخذته الرغبة فجأة بأن يحدّث مارسيل في هـذا : فانما كان يستطيع ان يحدّثها وحدها عن حياته ، عن مخاوفه ، عن آماله . ولكنه تذكّر انه لن يراها بعد ابداً ، فتحوّلت رغبته المعلّقة التي لم يكن لها من اسم الى ضرب من الضيق . كان وحيداً .

وكان يبدو على دانيال انه يفكر : كان نظره ثابتاً وكانت شفتاه بـين الفينة والفينة تفترّان . واطلق تنهّدة صغيرة ، وبدأ شيء مـا يتطامن في وجهه . وأمرّ يده على جبينه : كان يبدو عليه الدهشة . وقال في صوت منخفض :

— ومع ذلك ، لقد فاجأت نفسي اليوم .

وابتسم بسمة غريبــة ، تكاد تكون طفولية ، بسمة بدت في غير محلها على وجهه الزيتوني حيث كانت لحيته التي لم تحلق جيداً تخلف لطخات زرقاء . وفكر مانيو : « صحيح ، لقد مضى الى النهاية ، هذه المرة . » وأتته فجأة فكرة انقبض لها قلبه : « انــه حر » واختلط النفور الذي كان دانيال يوحيه له ، اختلط بالحسد وقــال :

— لا بد انك في حالة نفسية غريبة .

قال دانيال : — نعم ، في حالة غريبة .

وكان ما يزال يبتسم باخلاص . وقال :

— اعطني سيجارة .

فسأله ماتيو : — انك تدخن ، الآن ؟

— واحدة . هذا المساء .

وقال ماتيو فجأة :

— اود لو اكون في وضعك .

فردد دانيال في غير اندهاش كثير : — في وضعي ؟

— نعم .

فرفع دانيال كتفيه وقال :

— انك في هذه القصة رابح في جميع الميادين .

فضحك ماتيو ضحكة جافة . واوضح دانيال :

— انت حر .

قال ماتيو وهو يهز رأسه :

— كلا ، ليس المرء حراً لمجرد ان يترك امرأة .

فنظر دانيال الى ما ماتيو في فضول :

— ومع ذلك فقد كان يبدو عليك هذا الصباح انك مؤمن بهذا .

— لا ادري . لم يكن ذلك واضحاً . ليس ثمة ما هو واضح . الحقيقة اني تركت مارسيل من اجل لا شيء .

وكان يحـدد نظره في ستائر النافذة التي كانت تحركها ريح ليلية خفيفة . وكان متعباً . واضاف :

— من اجل لا شيء . في هذه الحكاية كلها لم اكن الا رقصـاً ونفياً : صحيح ان مارسيل ليست بعد في حياتي ، ولكن هناك كل البـاقي .

— ماذا ؟

فأشار ماتيو الى مكتبه بحركة عريضة غامضة :

— كل هذا ، كل الباقي .

وكان مسحوراً بدانيال . كان يفكر : « أهذه هي الحرية ؟ لقد عمل ، وهو الآن لا يستطيع ان يتراجع الى خلف : ولا بد ان يبدو له غريباً ان يحس خلفه عملا مجهولا لم يعد يفهمه تقريبـاً وسيقلب حياته . اما انا ، فان كل ما افعله ، افعله من اجل لا شيء ، فكأن الناس يسرقون لي نتائج اعمالي ؛ وكل شيء يحدث كما لو اني كنت أستطيع دائماً ان استعيد ضرباتي . انني لا ادري ما بوسعي ان ابذل لكي اقوم بعمل لا يمكن اصلاحه » :

وقال بصوت مرتفع :

— مساء أمس الاول ، رأيت شخصاً كان يريد ان ينضوي في حركة الميلشيا الاسبانية .

— وبعد ذلك ؟

— ولكن اخذه الخوف : فهو الآن هنالك .

— ولماذا تقول لي ذلك ؟

— لا ادري . هكذا .

— وهل رغبت يوماً في الذهاب الى اسبانيا ؟

— نعم . ولكنها لم تكن رغبة ملحة بما فيه الكفاية .

وصمتا . وبعد برهة ، رمى دانيال سيجارته وقال :

– اودّ لو اكون أسنّ مما انا بستة أشهر .

قال ماتيو : – اما انا فلا . فبعد ستة اشهر سأكون مشابهاً لما انا الآن.

قال دانيال : – وسيكون قد زال ندمك .

ونهض :

– اني ادعوك الى قدح في مقهى كلاريس .

قال ماتيو : – كلا ، فليست بي رغبة لأن أثمل هذا المساء . فأنا لا ادري ما الذي قد افعله اذا ثملت .

قال دانيال : – لن تفعل شيئاً هاماً . الا تأتي معي اذن ؟

– كلا . وانت ، الا تريد ان تبقى لحظة اخرى ؟

قال دانيال : – يجب ان أشرب . وداعاً .

– مع السلامة .. هل .. هل اراك قريباً ؟

فبدا دانيال مرتبكاً :

– اعتقد ان ذلك سيكون صعباً . لقد قالت لي مارسيل انها لا تريد ان تغيّر شيئاً في حياتي ، ولكني أظنّ انه سيشقّ عليها ان اراك ثانية .

فقال ماتيو بجفاف : – آه ؟ حسناً . في هذه الحالة ادعو لك بالحظ الطيب .

فابتسم دانيال من غير ان يجيب ، واضاف ماتيو فجأة :

– انك حاقدٌ عليّ .

فاقترب منه دانيال وأمرّ يده على كتفه بحركة صغيرة مرتبكة حييّة:

– كلا . ليس في هذه اللحظة .

– اما غداً ...

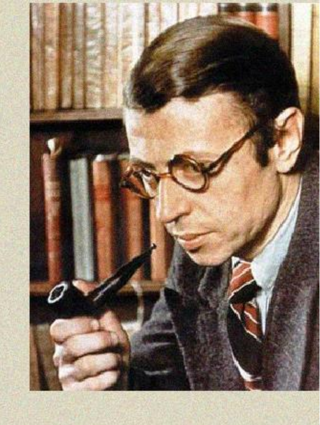
فحنى دانيال رأسه من غير ان يجيب وقال ماتيو :

– مع السلامة :

وخرج دانيال ، فاقترب ماتيو من النافذة ورفع الستائر . وكان ليلاً رائقاً ، رائقاً وأزرق ؛ وكانت الريح قد كنست الغيوم ، وكانت النجوم تُرى فوق السطوح . وارتفق الشرفة وتثاءب طويلاً . وفي الشارع ، تحته ، كان رجلٌ يسير بخطوة هادئة ؛ وتوقف عند زاوية شارع هويغنز وشارع فراودفو ، فرفع رأسه ونظر الى السماء . وكان هو دانيال . وكان نغمٌ موسيقي يأتي دفعات من جادة «مين» ، وتسرّب الى السماء ضوء منارة ابيض ، فتوقف فوق مدخنة ثم تدحرج خلف السطوح . وكانت سماء حفلة قروية ، متقطّعة بالشرائط ،تذكّر بالعُطَل وبحفلات الرقص الحقلية . ورأى ماتيو دانيال يختفي ، وفكر : « انني ابقى وحيداً . » وحيد ، ولكن ليس اكثر حرية من السابق . وكان قد قال لنفسه عشية الامس : « ليت ان مارسيل غير موجودة » ولكن هذه كانت اكذوبة . « لم يعترض احد طريق حريتي ، وانما حياتي هي التي شربتها . » وعاد يغلق النافذة ويدخل الى الغرفة . وكانت رائحة ايفيش ما تزال تخفق فيها . وتنشّق الرائحة واستعاد هذا اليوم الصاخب . وفكر : « ضجة كثيرة من اجل لا شيء .» من اجل لا شيء : لقد أُعطي هذه الحياة من اجل لا شيء ، ولم يكن شيئاً ، ومع ذلك فهو لن يتغيّر أبداً : لقد كان مصنوعاً . ونزع نعليه وظلّ جامداً ، وهو جالس على ذراع الاريكة ، ونعلٌ في يده ؛ وكان ما يزال في جوف حلقه حرارة « الروم » المسكّرة . وتثاءب : لقد انهى يومه ، وقد انتهى من شبابه . وكان ثمة اخلاقياتٌ معاناةً تعرض عليه خدماتها عرضاً خفياً : كان ثمة الابيقورية المتبصّرة ، والرحمة الباسمة ، والاستسلام ؛ وروح الرصانة ، والعزيمة الزينونية ،

وكل ما كان يتيح للمرء ان يتذوّق تذوّق العارف ، دقيقة فدقيقة ، حياةً خائبة . ونزع سترته ، واخذ يحلّ عقدة عنقه . وكان يردّد وهو يتثاءب : « هذا صحيح ، هذا صحيح بالرغم من كل شيء : انني في سنّ الرشد . »

انتهى الجزء الاول : سن الرشد
ويليه الجزء الثاني : وقف التنفيذ



كان ثمة شيء في نفسها بلا ريب : فإنه لم يسبق لحركاتها أن كانت على مثل هذه الفجاءة ، ولا لصوتها أن كان خشناً ، رجولياً ، كما هو الآن . كانت جالسة على السرير اسوأ مما لو كانت عارية ، بلا دفاع ، كأنها إناء ضخم من الفخار المنقوش ، في جوف الغرفة الوردية ؛ وكان يشق على المرء أن يسمعها تتكلم بصوتها الرجولي ،

بينما تنبعث منها رائحة قوية غامضة ، وأخذها ماتيو من كتفيها وجذبها اليه : إنك آسفة على ذلك الزمن ؟ فقالت مارسيل بجفاف : ذلك الزمن ، كلا : بل أنا أسفة على الحياة التي كان يمكن أن أحياها .